أثر الحضارة السلجوقية فى دول شرق العالم الإسلامى على الحضارتين الأيوبية و المملوكية بمصر

الجزء الأول
« الحضارة »



أ. د. منى محمد بدر محمد بهجت

الأستاذ المساعد بكلية الآثار
جامعة القاهرة - فرع الفيوم

الناشر

مكتبة زهراء الشرق
١١٦ شارع محمد فريد - القاهرة
ت: ٣٩٢٩١٩٢



أثر الحضارة السلجوقية فى دول شرق العالم الإسلامى على الحضارتين الأيوبية والمملوكية بمصر

الجزء الأول

« الحضارة »

أ. د. منى محمد بدر محمد بهجت

الاستاذ المساعد بكلية الآثار

جامعة القاهرة ـ فرع الفيوم

الناشر

مكتبة زهراء الشرق

١١٦ ش محمد فريد ـ القاهرة

تليفون : ٣٩٢٩١٩٢

اسم الكتاب	أثر الحضارة السلجوقية فى دول شرق العالم الإسلامى على الحضارتين الأيوبية والمملوكية بمصر الجزء الأول « الحضارة » الكتاب ثلاثة أجزاء
اسم المؤلف	الأستاذة الدكتورة / منى محمد بدر محمد بهجت
رقم الطبعة	الأولى
رقم الإيداع	٢٣٨٢
الترقيم الدولى	I. S. B. N 977 - 314 - 161 - 6
سنة النشر	٢٠٠٢
الناشر	مكتبة زهراء الشرق
عنوان الناشر	١١٦ ش محمد فريد ـ القاهرة
بلد الناشر	القاهرة ـ جمهورية مصر العربية
التليفون	٣٩٢٩١٩٢ ـ ٠١٢/٣١٧٧٥١٠
فاكس	٣٩٣٣٩٠٩ ـ ٣٩٢٩١٩٢

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ قَالُوا سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾

- سورة البقرة : ٣٢ -



« إهـــداء »

« إلى روحى أبى وأمى طيب الله ثراهما ..

واسكنهما فسيح جناته »

« واليك يا مصر الحبيبة اهدى أول أثر علمى يدل علىّ

كما دلتنى على امجادك آثار أجدادى »

منى بدر



الفهرس (الجزء الأول)

١ـ الحضارة

مقدمة

لقد كانت مصر دوما ومنذ العصر القديم بوتقة انصهرت فيها حضارات عدة وتأثرت بتيارات فنية وحضارية وافدة ، ولكنها بفضل ذلك ، بل وبالرغم منه ظلت هى مصر الدولة والشعب صاحبة الخصائص المميزة لطابعه القومى . ورغم أن حضارة مصر قد تعرضت منذ العصر القديم لفترات من القوة والضعف ، إلا أنها ، لم تتعرض للأنحلال ثم الاندثار قط ، بل ظلت لها قواها التى تقاوم عوامل الانحلال .

غير أن الاستبصار بخصائص الطابع القومى المصرى ، يستلزم من الباحثين التعمق فى العوامل التى أثرت فيه ، وعلى الأخص الوافدة منهاوالتى تركت بصماتهافيه ، دون أن تفقده هويته ، لأن هذه التأثيرات التى حملها التراث المصرى عبر العصور مازالت عاملة فيه حاضرة فى عصرنا الحديث ، فلا مناص ، إذا أريد فهم حاضر هذا الطابع القومى ، ومن ثم التأثير فيه لتجنب سلبياته ، من دراسة تلك التأثيرات الوافدة التى تركت بصماتها فيه ، وهى دراسة هامة تعمق الفهم لهذا الطابع القومى ، وتوسع من قدرة الجيل الحاضر من المصريين فى السيطرة على مصائرهم بل وتنبئهم بغدهم المقبل.

ويعتبر الجانب الآثارى من الحضارة المصرية ، جانبا هاما من مكونات الطابع القومى المصرى ، ولذلك فدراسة التأثيرات التى تركت بصماتها على الحضارة والفن فى مصر فى عصر من العصور مساهمة هامة فى المشروع البحثى الكبير ، الذى يتغيًا اكتشاف النفس وفهم خصائص الطابع القومى المصرى .

لذا فقد اخترت أضخم وأهم هذه التأثيرات وهى التأثيرات السلجوقية ، خصوصا بعدأن تبيّن أن دراسة جامعة تضم بين ثناياها مثل هذا التأثيرمتتبعة أياه منذ بذوره الأولى ثم خلال العصر الأيوبى والمملوكى تعتبر دراسة غير مسبوقة .

وإذا بحثنا فى تأثير حضارة شعب على حضارة شعب آخر ، فهل يعنى ذلك أننا نقتصر على التأثير دون التأثر ، أم أن مصطلح التأثير يجمع الجانبين معا . أن المعنى اللغوى لكلمة تأثير هو أى فعل ينتقل من المؤثر إلى المتأثر . وهذا هو بعينه المعنى الاصطلاحى الشارطى الذى نعتمده فى هذا البحث فنحن نبحث تأثير الحضارة السلجوقية على الحضارة والفن فى العصرين الأيوبى والمملوكى ، وبحث التأثير ـ على هذا النحو ـ يثير مشكلة دقيقة ربما تضرب بجذورها فى فلسفة التاريخ نفسه .

فقد يقول رأى هناك ما يسمى بالحضارة الغالبة ، والحضارة المغلوبة ، بحيث أن وسائل انتقال الحضارة أن توافرت أثرت الحضارة الغالبة على الحضارة المغلوبة تأثيرا واضحا ظاهرا لا ريب فيه ، وبرزت للعيان تمثلات التأثير فى جوانبها المختلفة ، أما أن تساوت الحضارتان فى القوة ، فإن تأثير الحضارة محل الدراسة يكون محددا على الحضارة الأخرى التى تماثلها فى القوة ، أما إذا كانت الحضارة المطلوب معرفة تأثيرها ضعيفة أمام الحضارة التى يراد بحث تأثرها ، فإن تأثير الأولى يكاد يكون منعدما ، وهكذا يمكن استعارة خاصية الأوانى المستطرقة عند دراسة التأثير والتأثر بين حضارتين اتصلتا بوسائل الاتصال المختلفة ، إذ أنه كما أن الأناء الأكثر امتلاء يفرغ ما به من زيادة فى الأناء الأقل امتلاءا ، فكذلك الحضارة الغالبة هى التى تؤثر فى الحضارة المغلوبة .

وقد يذهب رأى آخر ، إلى أن الحضارة حتى لو كانت مغلوبة أو ضعيفة فإنها تعدم جوانب متمايزة تتأثر بها الحضارة الغالبة ، ولنا فى تأثر الدول الأكثر تقدما فى الحضارة والتى استعمرت غيرها من الدول مثالا ، إذ تأثرت بعض جوانب الحياة فى الدول الغالبة بعادات وتقاليد وحرف ، بل وبعض عمائر الدول المغلوبة ، وكل ذلك بطبيعة الحال بشرط أن تكون الحضارة المغلوبة ما زالت مرتكزة على شعب مستبصر بهويته قادر على الدفاع عنها وإلا فهو الإنحلال إن لم نقل الإندثار .

على أن هذه الدراسة وإن اتسعت لبحث التأثيرات السلجوقية فى الحضارة والفن فى مصر فى العصرين الأيوبى والمملوكى إلا إنها ، بالضرورة لا تتعرض بالتفصيل لجميع جوانب الحضارة والفن فى العصر السلجوقى ، ولجميع جوانب الحضارة والفن فى مصر الأيوبية والمملوكية ، بل إنها تقتصر فقط ـ وفقا لما يشيرعنوانها ـ على الجوانب التى وضح فيها أن للسلاجقة تأثير فى الحضارة والفن فى مصر فى العصرين المشار إليهما ، أما الجوانب الأخرى من حضارة أو العمارة أو الفنون ، فلم نتعرض لها متى كانت التأثيرات الحاصلة منها طفيفة أو معدومة .

وأيا ما كان الأمر فإن الدراسة الحالية سوف تقتصر ـ اللهم إلا فى بعض جوانب الفصل الأول ـ على دراسة التأثير السلجوقى فى حضارة وفن عصرى الأيوبيين والمماليك البحرية ، دون التعرض لتأثر السلاجقة بجوانب الحضارة المصرية الذى قد

يكون بحثا نتعرض له فى المستقبل إن اتسعت بنا فسحة الأمل والأجل ، ولما كان هذا الموضوع من الموضوعات الضخمة والهامة التى تستدعى دراستها دراسة متكاملة لبيان الإطار الحضارى العام فى المؤثر والمتأثر به ، لذا رأينا إتماماً للفائدة كتابة الموضوع من خلال ثلاث أجزاء ـ وخاصة أن مادة « حضارة وعمارة وفنون دول شرق العالم الإسلامى أصبحت من المواد الهامة المقرر دراستها فى كليات وأقسام التاريخ والآثار بالجامعات المصرية والعربية . بحيث خصصنا الجزء الأول من هذا الكتاب لدراسة التأثيرات السلجوقية فى دول شرق العالم الإسلامى على الحضارة فى عصرى الأيوبيين والمماليك بمصر .

أما الجزء الثانى من هذا الكتاب فقد خصصناه لدراسة التأثيرات السلجوقية فى دول شرق العالم الإسلامى على العمارة فى عصرى الإيوبيين والمماليك بمصر .

أما الجزء الثالث فهو مخصص لدراسة التأثيرات السلجوقية فى دول شرق العالم الإسلامى على الفنون فى عصرى الإيوبيين والمماليك بمصر .

الفصل الأول

تعريف بالسلاجقة وأثر علاقاتهم بالفاطميين على الحضارة بمصر

أ ـ تعريف بالسلاجقة

ب ـ طرق الاتصال الحضارى بين السلاجقة فى الشرق والفاطميين بمصر .

جـ بعض مظاهر تأثيرات الحضارة السلجوقية فى الحضارة الفاطمية بمصر .



أ ـ تعريف بالسلاجقة :

ينحدر السلاجقة من قبيلة قنيق (Qiniq) من الترك الأوغر وهى فرع من الشعوب التركية ـ وتعتبر قبيلة قنيق هى العمود الفقرى لقبائل الكوكتورك الذين اطلقوا على أنفسهم اسم التركمان بعد دخولهم الإسلام (١).

أما اسم « السلاجقة » فقد اطلق عليهم نسبة إلى اسم « سلجوق بن تقاق أو دقاق أو دقماق » الذى أدخلهم لأول مرة فى الإسلام على أساس المذهب السنى ، مذهب الخلافة العباسية حوالى سنة ٣٨٢هـ/٩٩٢م (٣).

---

(١) راجع : ابن خلدون : « عبد الرحمن بن محمد بن محمد بن جابر المقرى » (ت٨٠٨هـ/١٤٠٥ ـ ١٤٠٦م) .

ـ كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر .

عن طبعة بولاق ١٢٨٤هـ ، دار الكتاب اللبنانى ١٩٨٣م ، م٥ ، ص ٣ ، ٤ . بدر الدين العينى : « محمود بن أحمد بن موسى » (ت٨٥٥هـ/١٤٥١م) .

ـ السيف المهند فى سيرة الملك المؤيد « شيخ المحمودى » . تحقيق : فهيم محمد شلتوت . دار الكاتب العربى للطباعة والنشر ١٩٦٧م ، ص٢٠ .

أوقطاى اصلانا با : فنون الترك وعمائرهم ، ترجمة : أحمد محمد عيسى . استانبول ١٩٨٧ ، ص٢ ، ٣ .

كارل بروكلمان : تاريخ الشعوب الإسلامية ، ترجمة نبيه أمين فارس ، منير البعلبكى ، دار العلم الحديث بيروت ١٩٨٤ ، (جزءان) جـ١ ص٢٧٢ . حسين مؤنس (د.) : المساجد . (عالم المعرفة)

ـ الكويت ، الطبعة الأولى سنة ١٩٨١م ، ص٢٧٦ .

ـ أطلس تاريخ العالم . الزهراء للإعلام العربى ١٩٨٧م (خريطة ١١٣) ص٢٣٦ ـ ٢٣٧ .

Catelli (M. A.) : Seljuk Art, (Encyclopedia of World Art, Vol XII, Printed in Italy, 1946-9, pp. 880 .

(٢) يذكر ابن تغرى بردى : أن والد سلجوق اسمه « دقماق » لأنه لم يسمع باسم قبل ذلك يقال له « دقاق »

ابن تغرى بردى : « جمال الدين يوسف أبو المحاسن الاتابكى » (ت٨٧٤هـ/ ١٤٦٩م) .

ـ النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة .

(طبعة دار الكتب المصرية ـ الطبعة الأولى ٢٩ ـ ١٩٣٣م (١٢ جزء) ، جـ٥ ص١٨٩ .

(٣) راجع : ابن خرذابة : « ابو القاسم عبد الله بن عبد الله (ت٣١٠هـ/٩١٢م) . المسالك والممالك (طبعة ليدن ـ ١٣٠٩هـ) ، ص٣١

صدر الدين على بن ناصر الحسينى : (ت فى القرن السابع الهجرى . (١٣م) . =

والموطن الأصلى للسلاجقة هو بادية القرغيز فيما وراء النهر [١] - فى موضع بينه وبين بخارى مسافة عشرين فرسخا »[٢] . وهى منطقة يخترقها نهران كبيران هما سيحون وجيحون ، أى أنهم سكنوا مساحة تمتد من حدود الصين حتى شواطئ بحر قزوين[٣] (انظر خريطة رقم ١) .

وتمتاز منطقة ما وراء النهر جغرافيا بوعورة تضاريسها وجوها القاسى ، الحار الخانق صيفا ، وشديد البرودة شتاء حيث تتساقط الثلوج ، الأمر الذى دفع الترك فى هذه المنطقة أن يجتمعوا صيفا داخل سمرقند ، ثم يرحلون شتاء إلى نوربجارى فى التركستان وكانوا يحيون حياة قبلية ويعملون برعى الأغنام . وهذا بدوره تطلب منهم الترحال من منطقة إلى أخرى طلبا للرزق [٤] . وكانوا يعيشون فى الخيام ، ويتميزون

= - زبدة التواريخ ، أخبار الأمراء والملوك السلجوقية . تحقيق : محمد نور الدين ، دار اقرأ ببيروت ١٩٨٥م ، الطبعة الأولى ، هامش ١ ص ٢٣ ، هامش ٤ ص ٢٥ . بدر الدين العينى : المصدر السابق ، هامش ١ ص ١٨٩ .

(١) راجع : العينى : المصدر السابق ، ص ١٧١ .
ابن النظام الحسينى : « محمد بن محمد بن عبد الله . ت٧٤٣هـ/١٣٤٢م) - العراضة فى الحكاية السلجوقية - ترجمة وتحقيق : أ. د. عبد المنعم حسنين ، أ. د. حسين أمين - بغداد ١٩٧٩م ، ص٢١ .

(٢) الفرسخ : معرب فرسنك ، وهى لفظة يونانية الأصل منسوبة إلى فارس .
السيدادى شير : معجم الألفاظ الفارسية المعربة ، مكتبة لبنان - بيروت ١٩٨٠ - ص١١٨ والفرسخ هو مقياس قديم يقدر بثلاثة أميال هاشمية ، وهو مسافة ستة كيلومترات .
راجع : مجمع اللغة العربية : المعجم الوسيط ، (جزءان) دار المعارف ١٩٨٠ ، ح٢ ص٦٨١ .
بينما يرى : طوبيا العنيسى : تفسير الألفاظ الدخيلة فى اللغة العربية ، القاهرة ١٩٦٥ ، ص٥٠ ، أنه نحو ٨ كيلو مترات .

(٣) عن منطقة ما وراء النهر : راجع :
كى لسترنج : بلدان الخلافة الشرقية ، ترجمة : بشير فرنسيس وكوركيس عواد . بيروت ١٩٨٥ ، ص ٤٧٦ .
أبى الفدا : « عماد الدين إسماعيل بن محمد بن عمر - (ت٧٢٢هـ/١٣٣١م) .
- تقويم البلدان ، طبع باريس ١٨٤٠م ، ص٤٨٣ .
ابن تغرى بردى : النجوم ، جـ٥ ص ٧٦ هامش ٤ .

(٤) المقريزى : « تقى الدين أحمد بن على » (ت : ٨٤٥هـ/١٤٤٢م) :
كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك .
جـ١ : ٢ (٦ أقسام) تحقيق : د. محمد مصطفى زيادة ، القاهرة ، ٣٤ - ١٩٥٨م . =

بكثرة خيولهم . واتصفوا نتيجة قسوة الحياة الطبيعية بالشجاعة والجرأة والفروسية ، «فلا يذعرهم ذاعر ولا يردعهم داعر »[1].

ووصفهم الجغرافيون[2] : « بأنهم ضخام الأجسام ، مفتولى العضلات ، طول القامة أمر شائع بينهم .

فى حين وصفهم بن خلدون : « بأن الترك أعظم أمم العالم[3]، ووصفه آخرون[4] : بالغدر والطغيان والجور » .

بدأوا على مسرح الأحداث التاريخية ـ للعصور الوسطى ـ بعد أن دخلوا سلسلة من المعارك مع السامانيين والغزنويين[5]، تمكن السلطان طغرلبك (بن ارسلان بن

= جـ ٣ : ٤ (٦ أقسام) تحقيق : د. سعيد عبد الفتاح عاشور ، القاهرة ، ٧٠ ـ ١٩٧٢م ، ح ١٥ ، ص ٣٠ : ٣١ .

ابن خلدون : المصدر السابق ، م٥ ، ص٥ .

تامارا تالبوت رايس : السلاجقة تاريخهم وحضارتهم ، ترجمة لطفى الخورى ، وإبراهيم الداقوقى مطبعة الإرشاد ببغداد ، ١٩٦٨ ، ص١٩ .

أبو سعيد عبد الحى بن الضحاك : (ت٤٤٢هـ/١٠٥٠) : زين الأخبار ترجمة عن الفارسية (عفاف السيد زيدان ، دار الطباعة المحمدية ، الطبعة الأولى ١٩٨٢م ، ج٢ ص٢٥ .

(١) العماد الاصفهانى : « عماد الدين محمد بن محمد بن حامد الكاتب » . تاريخ دول آل سلجوق اختصار الفتح بن على بن محمد البندارى الاصفهانى . دار الآفاق الجديدة . بيروت . الطبعة الثالثة ، ١٩٨٠م ، ص٧ .

(٢) د. محمد السيد غلاب : تطور الجنس البشرى ، مكتبة الأنجلو المصرية ، الطبعة الخامسة ، ١٩٧٤ ص٢٥٠ ـ ٢٥١ . د. يسرى الجوهرى : الإنسان وسلالاته ، منشأة المعارف بالاسكندرية ، الطبعة السادسة ، ١٩٧٧م ، ص٣٣٤ .

(٣) ابن خلدون : المصدر السابق ، م٦ ، ص٩٣٥ .

(٤) الاصفهانى : المصدر السابق ، ص ٧ ، العينى : المصدر السابق ص١٧١ .

العماد الحنبلى : « ابن الفلاح عبد الحى ابن العماد » (ت١٠٨٩هـ/١٦٧٩م) .

شذرات الذهب فى أخبار من ذهب . تحقيق : لجنة أحياء التراث العربى فى دار الآفاق الجديد . لبنان ١٩٨٥ ، جـ٣ ، ص٢٩٤ .

(٥) راجع عن التاريخ السياسى للسلاجقة : الحسينى : المصدر السابق ، هامش ١٨٩ .

الصدفى : « رزق الله منقريوس » : تاريخ دول الإسلام ، مطبعة الهلال بالفجالة ، ١٩٠٧م (جزءان) جـ٢ ، ص٩٤ ـ ٩٥ . =

بيغو بن سلجوق) ، من خلالها أن ينتصر على الغزنويين ، ويجلس على عرش السلطان محمود الغزنوى فى خراسان ، ويأمر بالخطبة له على المنابر فى رمضان سنة ٤٢٩هـ / ١٠٣٧م ، وبأن تضرب النقود باسمه . وتمكن من الحصول على موافقة الخليفة العباسى الذى خاطبه بملك المشرق والمغرب فى رمضان ٤٤٧هـ/١٠٥٥م[1] ، فهو أول من مهد للسلجوقية الدولة (انظر جدول ١) . وزاد نفوذه عند الخلفاء العباسيين عندما تمكن من القضاء على حركة الشيعة من البويهيين [2] ، بقيادة البساسيرى [3] ،

= الراوندى : « محمد بن على بن سليمان » (ت٥٩٩هـ/١٠١٩م) : راحة الصدور وآية السرور فى تاريخ الدولة السلجوقية . ترجمة : إبراهيم الشواربى وعبد النعيم حسنين ، فؤاد عبد المعطى . دار القلم القاهرة ١٩٦٠م ، ص١٥٤ .

د. عبد النعيم محمد حسنين : سلاجقة إيران والعراق ، الطبعة الثانية ، القاهرة ، ١٩٧٠م ، ص٢٤.

د. عصام الدين عبد الرءوف : الدول الإسلامية المستقلة فى الشرق ، دار الفكر العربى (بدون تاريخ) ص١٠٤ .

د. محمد محمود إدريس : تاريخ العراق والمشرق خلال العصر السلجوقى ، مكتبة النهضة بالقاهرة ١٩٨٩ ، ص٦٣ : ٨١ .

(١) راجع : الاصفهانى : المصدر السابق ، ص ١٧ .
ابن خلكان : « أبى العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبى بكر » (ت٦٨١هـ/١٢٨٢م) .
(وفيات الأعيان وأنباء ابناء أهل الزمان . تحقيق : إحسان عباس ، بيروت ٦٨ ـ ١٩٧٢م (٦مجلدات) م٥ ص٦٦ .
ابن النظام الحسينى : المصدر السابق ، ص ٣٨ ، ٣٩ .
ابن تغرى بردى : المصدر السابق ، جـ٥ ص٢٩ ، ص٧٣ .
ذكر الحسينى « أن الخليفة العباسى لقب طغرلبك بملك المشرق والمغرب سنة ٤٤٨هـ » . أخبار الأمراء والملوك ، ص٥٨ .

(٢) البويهيين : إشارت أغلب الآراء أنهم من العناصر الفارسية من الديلم ونظرا لاعتناقهم المذهب الشيعى منذ القرن ٣هـ/٩م فلم يكن لهم ولاء للخلافة العباسية ، بل اجهضوا حركة تطور الحضارة الإسلامية .
راجع : العينى : السيف المهند ، ص ١٦٥ : ١٧٠ .
عبد المنعم ماجد : الناصر صلاح الدين يوسف الايوبى ، مكتبة الجامعة بيروت ـ طبعة ثانية ١٩٦٧م. ص٨ ، ٩ .
عصام الدين عبد الرءوف : المرجع السابق ، ص ٣١ ـ ٣٢ .

(٣) البساسيرى : هو ارسلان بن عبد الله أبو الحارث البساسيرى كان من المماليك الأتراك عند عضد الدولة البويهى ، ومسقط رأسه « بسا » ولذا لقب بالبساسيرى ، وكان على اتصال بالخليفة المستنصر =

الذى قتله طغرلبك فى بغداد سنة ٤٥١هـ/١٠٥٩م[١].

ومنذ ذلك التاريخ نجح السلاجقة فى أن يبسطوا سيطرتهم على دول كثيرة وكونوا امبراطورية كبيرة انقسمت إلى عدة أقسام إدارية هى :

السلاجقة العظام الذين حكموا بلاد فارس[٢]، سلاجقة كرمان[٣]، وسلاجقة

= بالله الفاطمى فى مصر ـ راجع :
ابن ميسر : « محمد بن على بن يوسف » (ت٦٧٧هـ/١٢٧٨م) .
ـ أخبار مصر ، نشره المستشرق ماسيه فى القاهرة ١٩١٩ ، وحقق الجزء الثانى منه : د. أيمن فؤاد سيد . المعهد العلمى الفرنسى للآثار الشرقية ـ القاهرة ١٩٨١ ، ص٢١ .
ابن القلانس : « أبو يعلى حمزة بن أسد على بن القلانسى » (ت٥٥٥هـ/ ١١٧٣م) .
مقدمة فإنوغنى عنAMEDROZ مطبعة الآباء اليسوعيين ، بيروت ١٩٠٨ ، ص ٨٧ ، ٨٨ ، وطبعة أخرى تحقيق : سهيل ذكار ، دار حسان للطباعة بدمشق ، الطبعة الأولى ١٩٨٣ ، ص١٤٣ هامش ١ ، ٢ ، ٣ .
ابن خلكان : المصدرالسابق ، م١ ص١٩٢ (ترجمة رقم ١٨١) .
ابن الأثير : « أبى الحسن على بن أبى الكرم » (ت٦٣٠هـ/١٢٣٣م) .
ـ الكامل فى التاريخ (١٣ جزء) ـ دار الصبا (بيروت ٧٩ ـ ١٩٨٢م . جـ٩ ص٢٧١ ـ ٢٧٢ .
محمد جمال الدين سرور : النفوذ الفاطمى فى بلاد الشام والعراق فى القرنين الرابع والخامس بعد الهجرة ـ دار الفكر العربى ، القاهرة ١٩٥٧م ، ص١٠٣ .

(١) راجع : الحسينى : المصدر السابق ، ص٦١ .
ابن القلانسى : المصدر السابق ، ص٨٩ (طبعة ١٩٠٨) ، ص١٤٩ ، (طبعة ١٩٨٣) .
ابن النظام الحسينى : المصدر السابق ، ص ٣٨ : ٤٢ .
السيوطى : « الإمام جلال الدين عبد الرحمن بن أبى بكر . » (ت٩١١هـ / ١٥٠٥م) .
ـ تاريخ الخلفاء . تحقيق : محمد محيى الدين عبد الحميد . القاهرة ، ١٩٨٧ ، ص٤١٨ .
نافع توفيق العبود : جهود الخلافة للتحرير من النفوذ السلجوقى خلال القرن السادس الهجرى (مجلة المورد ـ المجلد ١٩ لسنة ١٩٩٠ ، العراق ص٤٩ .
قاسم عبده قاسم (د.) ماهية الحروب الصليبية ، سلسلة عالم المعرفة (١٤٩) ـ الكويت ١٩٩٠ ، ص٩٥ ـ ١٨٥ .

(٢) بدأ السلاجقة العظام حكمهم بالسلطان طغرلبك بن سلجوق فى شوال ٤٢٩هـ / ١٠٣٧م وكانت عاصمتهم بلاد فارس ، وانتهى حكمهم بالسلطان سنجر المتوفى سنة ٥١١هـ / ١١١٧م . راجع :
زامباور : معجم الأنساب والأسرات الحاكمة . أخرجه : زكى حسن ، حسن أحمد محمود ، جمعة فؤاد الأول ـ القاهرة (جزءان) ١٩٥٢ ، جـ٢ ص٣٣٣ .

(٣) سلاجقة كرمان : بدأت بحكم عماد الدين قرا ارسلان قاورد بن داود ، سنة ٤٣٣هـ / ١٠٤١م ، وانتهت بحكم محمد الثانى بهرامشاه الذى حكم سنة ٥٧٩هـ/١١٨٢م .
زامباور : المرجع نفسه ، جـ٢ ص٣٣٥ .

الشام[1] ، وسلاجقة العراق[2] . وسلاجقة الاناضول[3] ، (راجع شجرة النسب جدول١) . ويعتبر سلاجقة الأناضول أكثر فروع البيت السلجوقى عمرا فى التاريخ السياسى ، لذا عاصر حكمهم للأناضول قيام وسقوط دولة الأيوبيين ، وقيام دولة المماليك البحرية فى مصر ، وقد ارتبطوا مع مصر بعلاقات مباشرة ومتعددة سوف نفصلها فى حينها ، محاولين اقتفاء قوة تأثير سلاجقة الأناضول (الروم) فى الحضارة والفن فى العصرين الأيوبى والمملوكى وبيان الميدان الذى ترجم فيه هذا التأثير فى أوضح صورة .

على أن السلاجقة بصفة عامة ـ بالرغم من الأقسام الإدارية السابقة ـ استطاعوا تكوين امبراطورية مترامية الأطراف امتدت إلى بلاد ما وراء النهر وكاشغر (وهى أقصى مدينة للترك) ، وبلاد الخزر حتى بحر الهند ، وإلى بلاد الروم والشام وبيت المقدس (راجع خريطة رقم ١ ، ٢) وضرب السلاجقة المثل الأعلى فى حبهم الذود عن الأراضى الإسلامية ، وخاصة فى حروبهم ضد الصليبيين ، وانتصارهم عليهم فى

(١) سلاجقة الشام : بدأت بحكم أبو سعد تتش بن الب ارسلان ٤٧١هـ/١٠٧٨م وانتهت بحكم سلطان شاه بن رضوان تحت وصاية بدر الدين لؤلؤ سنة ٥٠٨هـ/١١١٤م .
زامباور المرجع نفسه ، جـ٢ ص٣٣٤ .

(٢) سلاجقة العراق : بدأت بسلطنة مغيث الدين أبو القاسم محمود بن محمد بن ملكشاه سنة ٥١١هـ/١١١٧م، توفى ٥٢٥هـ/١١٣٠م ، وانتهت بحكم السلطان ركن الدين طغرل الثانى بن ارسلان شاه الذى حكم ٥٧٣هـ/١١٧٩م .
راجع :
زامباور : المرجع نفسه ، جـ٢ ص٣٣٤ .

(٣) سلاجقة الاناضول (الروم) : بدأ السلاجقة العظام غزو بلاد الأناضول على يد السلطان طغرلبك سنة ٤٣٢هـ/١٠٤٠م ، وبعد عدة غزوات تمكن السلطان ألب أرسلان من هزيمة البيزنطيين فى معركة مانزكرت ٤٦٣هـ/١٠٧١م ، حيث وقع الأمبراطور الرومانى أسيرا ، وبهذا النصر العظيم تمكن السلاجقة من نشر الدين الإسلامى فى هذه المنطقة والقضاء على التحالف البيزنطى الفاطمى، واضطر الفاطميون إلى مهادنة السلاجقة ، وبذلك انتشر العنصر التركى فى هذه المناطق . وقد أسعد هذا الفتح الخليفة العباسى فأعطى السلاجقة كل ما يفتحونه من بلاد خارج حدود دولته . وتولى سلطنة الروم سنة ٤٧٠هـ/١٠٧٧م سليمان بن قتلمش واختار نيقيه عاصمة له ، واستمرت هذه السلطنة حتى القرن السابع الهجرى / الثالث عشرالميلادى . راجع :
الحسينى : المصدر السابق ، ص٤٦ : ٤٨ ابن تغرى بردى : المصدر السابق ج٥ ص١١٥ ، ص١٩٠ (أحداث ٤٧٥هـ) .
زبيدة عطا (د.) : بلال الترك فى العصور الوسطى ، دار الفكر ١٩٨٦م ، ص٤٣ : ٥٨ .

الرها[1] (انظر خريطة رقم ٢) .

وأهم ما يلاحظ على امبراطورية السلاجقة المترامية الأطراف ، أن الحضارة الإسلامية التى ازدهرت بها ازدهار عظيما تميزت « بالصبغة التركية » . أو بمعنى آخر فإن قوتهم الحضارية تمثلت فى حركة « تتريك الشرق » منذ ظهورهم حتى نهاية الدولة العثمانية .

« وانطوت روح الحضارة السلجوقية على ظاهرة عامة هى : « حب تخليد الذكرى » ، ومع ذلك فإن الدراسة المتعمقة للحضار السلجوقية أسفرت عن أنها نتاج لثلاثة عناصر بشرية تضافرت لتنتج معا حضارة متميزة ، وهذه العناصر هى :

أولا : العنصر التركى :

وهو العنصر الذى تكونت منه السلطة الحاكمة بما يتبعها من المناصب الرئيسية فى الحياة المدنية وفى الجيش ، لذلك كان من الطبيعى أن تنتشر بعض المصطلحات ذات المصدر التركى وأن تنشأ وظائف وتتكون عادات وتقاليد تستقى مصدرها من العنصر التركى . وعلى الرغم من أن العنصر التركى لم يكن أكبر العناصر البشرية عددا فى الحضارة السلجوقية إلا أن أهمية السلاجقة الأتراك ترجع إلى أنهم كانوا أول هجرة حقيقية إلى الشرق الإسلامى ، وكانوا العنصر الذى تقلد أعلى المناصب بعد الخليفة العباسى ، وهم الذين فتحوا الباب على مصراعيه لسيادة عنصرهم على الشرق.

ثانيا : العنصر العربى :

وهو العنصر الذى حمل الحضارة الإسلامية ، وكان يشمل عددا كبيرا من

---

(١) ففى سنة ٤٩٤هـ/١١٠٠م جمع الاميرسكمان بن ارتق خلقا كثيرا من التركمان وقابل بهم الأفرنج فى الرها وسروج واشرف المسلمون على النصر فى الرها لولا هروب بعض التركمان فانهزموا ، وأخذها الأفرنج .
وفى سنة ٥١٦هـ/١١٢٢م استطاع الأمير نور الدولة بن أرتق أن يهزم الأفرنج فى الرها ويأسر مقدمهم جوسلين وابن خالته كليان وجماعة من مقدميهم فى سروج .
وعاد الأفرنج لاحتلال الرها ، ولكن تمكن اتابك نور الدين زنكى من أخذها منهم بالقوة سنة ٥٣٩هـ/١١٤٤م راجع :
ابن القلانسى : المصدر السابق ص ٣٣٠/٢٢٤ ، ٤٣٦ (طبعة دمشق ١٩٨٣م) قاسم عبده قاسم : المرجع السابق ، ص ١٨٧ ، ١٨٨ هامش ٨٣ ص١٧٢

المسلمين من ذوى الأصل العربى ، فضلا عن القبائل العربية ذاتها ، وعلى رأس هؤلاء جميعا الخلفاء العباسيون . وقد كان السلاجقة يخافون من العنصر العربى لاعتقادهم بأنهم أصحاب الحق فى الحكم ، لذلك اقصوهم عن المناصب الهامة وعن الجيش وفى نفس الوقت سعوا إلى مصاهرة الخلفاء العباسيين ، على اعتبار أن المصاهرة تمكنهم من أخذ الخلافة فى أولادهم الذين يتصلون بالقرابة إلى الخلفاء مما يكسب الشرعية لحكمهم . ولذلك تسموا بأسماء عربية إلى جانب أسمائهم التركية[1] والفارسية ، وجاءت معظم الكتابات التأسيسية على عمائرهم ونقودهم وأغلب مصنوعاتهم مدونة باللغة العربية ، وعملوا على حماية الخلافة العباسية رغم ضعفها وقدرتهم على اسقاطها .

ثالثا : العنصر الفارسى :

ويتكون هذا العنصر من المسلمين الذين ينحدرون من أصل إيرانى (فارسى) ، والذين ظلوا رغم استعرابهم يتقنون اللسان الفارسى . ولقد اعتمد الأتراك على عدد كبير من أفراد هذا العنصر سواء من الناحيتين الإدارية والصناعية ، أو فى الناحيتين العلمية والدينية . وانتهز ذوو الأصل الفارسى هذه الفرصة السانحة ، فأحيوا كثيرا من تراثهم فى ثوب جديد لا يتعارض مع موجبات الحضارة الإسلامية ، وتركوا بصمات قوية على الأتراك السلاجقة ، حتى أن عددا كبيرا من سلاطين السلاجقة ـ خاصة سلاطين الأناضول ـ تسموا بأسماء فارسية مثل كيقباد كيخسرو[2]، لأن الأسماء

---

(١) مثل السلطان طغرلبك كان اسمه : « أبى طالب طغرل محمد بن ميكائيل ، (ت٤٥٥هـ/ ١٠٥٣م) .

وكان اسم السلطان ألب ارسلان : « عضد الدين أبو شجاع ألب أرسلان محمد بن جعفر بك (ت٤٦٥هـ / ١٠٧٢م) .

راجع :

ابن النظام الحسينى : المصدر السابق ص ٣٢ : ٤٤ .

ابن تغرى بردى : النجوم جـ٥ ، ص٩٢ .

(٢) راجع : حسين مجيب المصرى (د.) : « أثر الفرس فى حضارة الإسلام » ، من أبحاث مجلد « دراسات فى الحضارة الإسلامية » . المجلد الأول . الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٥م ، م١ ، ص٢٠٣ ، ٢٠٧ .

طه ندا (د.) : فصول من تاريخ الحضارة الإسلامية ، دار الجامعات المصرية بالاسكندرية (بدون تاريخ)، ص١٣ ، ١٤ .

التى تبدأ « بكى » هى عند الفرس لقب بمعنى « ملك »[1].

وبالرغم من الأثر الكبير للعناصر البشرية السالفة بما يمثله كل عنصر من حضارة خاصة ، إلا أن روافد أخرى ، وأن كانت فرعية ، قد أعملت بدورها أثرها فى الحضارة السلجوقية . فقد أثرت الحضارة البيزنطية فى الحضارة السلجوقية ، وبوجه خاص بعد فتح السلاجقة لآسيا الصغرى وخضوعها لحكمهم ، وعلى أثر حروبهم مع الصليبيين فى بلاد الشام . كما أثرت الحضارتان الهندية والصينية تأثيرات لا تعدم شواهد عليها ، وذلك من خلال الاتصال الجغرافى ، والعلاقات السياسية والتجارية .

ولعل التحليل التمهيدى السالف يعيننا ـ فى موضوع البحث ـ على استنباط مواعين علمية نبحث فيها عن كيفية تأثير الحضارة السلجوقية على الحضارتين الأيوبية والمملوكية فى مصر ، غير أن هذا التحليل لا يجب أن يصرفنا البتة عن الحقيقة العلمية المنهجية الثابتة : إننا نحلل الظواهر لنمكن العقل من فهمها ، ولكن التحليل لا يكافئ الواقع من حيث أن الظاهرة فى تنوعها وغناها كل متميز ، وهى على أية حال ليست مجموعا حسابيا للعناصر التى وصل إليها التحليل ، بل شيئا يزيد عليه ويتجاوزه ، وهذا القول ينطبق تمام الانطباق على دراسة الحضارة السلجوقية .

فهذه الحضارة لها سمة تميزها عن غيرها من الحضارات ، إذ خصائص الطابع القومى السلجوقى تقوم أساسا على ما يمكن تسميته « بالفضيلة الحربية » التى تستند أساسا على أنهم نتاج لبيئة طبيعية قاسية كما أسلفنا ، فلم يكن غريبا أن يتميز السلاجقة بالقوة البدنية ، وبالشجاعة والفروسية ، ولما دخل السلاجقة الإسلام ، انعكس الشعور القوى بالذات عندهم فى حبهم « تخليد ذكرهم » وهذا الحب عندهم هو فى الحقيقة حنين إلى الأبدية يفوق بكثير نفس الشعور الموجود بالطبيعة عند غيرهم من البشر ، وقد تمثل ذلك فى عمائرهم ، وفى حبهم للدين وعلمائه وزهاده . وهكذا يمكن القول بأن مفتاح شخصيتهم هو الفضيلة الحربية التى تتضافر مع الولع بتخليد ذكر أشخاصهم ؛ الذى انعكس فى أمور الدنيا بحبهم لضخامة العمارة ، وللزخارف ذات التأثير اللونى البراق الذى يلفت النظر ، وفى فنونهم الصغرى التى لم تعدم استخدام معدنى الذهب والفضة فيما لا يتعارض فى رأيهم مع تعاليم الدين الإسلامى

---

(١) كى : بالفارسية هى الملك العظيم .

عبد النعيم محمد حسنين (د) قاموس الفارسية ـ الناشر دار الكتاب المصرى بالقاهرة ، دار الكتاب اللبنانى بيروت . الطبعة الأولى ١٩٨٢م / ١٤٠٢هـ ، ص٥٥٦ .

أما بالنسبة لأمور الآخرة فقد رأوا تخليد ذكرهم من خلال بناء الأضرحة ذات القباب الضخمة أو المخروطية كالأبراج العالية للفت الأنظار ، مع الحاق عدد كبير منها بأغراض وظيفية أخرى كالمدرسة ليضمنوا تخليد أسمائهم ومداومة الترحم عليهم ، الأمر الذى سوف نعود إلى توضيحه عند دراسة التأثيرات السلجوقية على العمارة الأيوبية والمملوكية بمصر .

أما من الناحية الاقتصادية ، فيمكن اعتبار نظام الاقطاع من أهم عناصر الحضارة السلجوقية الذى ميزهم من باقى حلقات سلسلة الحضارة الإسلامية .

وإذا كنا قد ألقينا الضوء على الخطوط العامة لخصائص الحضارة السلجوقية فى هذه المقدمة فإننا سوف نتبع ذلك بدراسة تفصيلية عن التأثيرات المختلفة على الفن والحضارة فى مصر الأيوبية والمملوكية .

وغنى عن البيان أن انتقال الحضارة السلجوقية إلى مصر فى العصر الأيوبى ثم المملوكى لم يأت بغتة ، بل سبقته إرهاصات عدة مهدت له ، وذلك ابتداءا من العصر الفاطمى . ولذلك تعتبر دراسة العلاقات بين السلاجقة والفاطميين وأثرها على حضارة وفنون مصر فى العصر الفاطمى مدخلا لازما لدراسة التأثيرات السلجوقية فى مصر الأيوبية والمملوكية ، وسوف نتعرض فيما يلى على نحو موجز للعلاقات بين الطرفين والتى تركت بصماتها التأثيرية على حضارة وفنون مصر الفاطمية .

(ب) طرق الاتصال الحضارى بين السلاجقة فى الشرق، والفاطميين فى مصر :

ـ سياسيا :

فقد تميزت العلاقات السياسية بين السلاجقة والفاطميين فى أغلب الأحيان بطابع عدائى ، وأن كان مستترا تحت اسم الخلاف المذهبى[1] بينهما ومع ذلك لم

(١) عند دراستنا لحضارة مصر منذ أقدم العصور ، يجب أن نضع نصب أعيننا دراسة الناحية المذهبية لأن مصر بوجه خاص تعتبر من أوائل البلاد ، التى كان ينزع أهلها منذ القدم إلى حب الدين والأديان سواء فى عصر قدماء المصريين ، أو من خلال الحكم البيزنطى لمصر ، فقد اشتهر اقباط مصر بالرهبنة المسيحية ، وانتشارها فى ربوع القطر المصرى ، وحتى عند الفتح الإسلامى لمصر ، وجد الإسلام هوى شديدا فى قلوب كثير من المصريين بل أن التيار الصوفى وجد ارضا خصبة فى مصر فانتشر الزهد بين المصريين انتشارا كبيرا . لذلك يمكننا القول بأن حب التدين من خصائص الطابع القومى المصرى ولقد استغل كثير من الحكام هذا الميل ليتمكنوا بواسطته من أحكام سيطرتهم على البلاد . فدراسة التضافر القائم بين الناحيتين المذهبية الدينية والسياسية منهج لازم ، عندما يتعلق الأمر بدراسة حضارة موضوعها مصر .

يكن هذا الخلاف السياسى المذهبى عائقا يحول دون تبادل التأثير والتأثر فيما بينهما ، بل على العكس ، كان بالإضافة إلى عوامل أخرى مباشرة أو غير مباشرة ، من المجالات التى احدثت احتكاكا حضاريا[1] بين السلاجقة والخلفاء الفاطميين ، ترك مظاهر حضارية تدل عليه ، خصوصا إذا وضعنا فى اعتبارنا أن السلاجقة والفاطميين فى النهاية يدينون بديانة واحدة ، هى الديانة الإسلامية وهى العامل المشترك الأساسى الذى نجده ماثلا كالمنارة المرشدة خلال حلقات السلسلة التى تعبر عن تطور الحضارة والفن الإسلامى ، وما الحضارة السلجوقية وكذلك الحضارة الفاطمية ، إلا حلقتين من تلك السلسلة .

فبالنسبة للأوضاع السياسية فى مصر ومنطقة الشرق الإسلامى ، وبخاصة خلال القرن الخامس الهجرى (الحادى عشر الميلادى) نجح الفاطميون خلال النصف الأول من حكمهم لمصر فى جعل المذهب الشيعى المذهب الرئيسى للدولة : « بحيث صار الإسلام السنى غريبا »[2]. وانقضى النصف الثانى من حكمهم السياسى أو يكاد ينقضى فى الفتوح والفتن ، بحيث لم يخفق علمهم على الشام كله مدة طويلة ، حتى قيل أنه : « إذا خضع الساحل ، خصم الداخل ، وإذا أطاع الجنوب نشر الشمال»[3]. ففى نفس الفترة الزمنية كان المعسكر السنى فى الشرق وعلى رأسه الخليفة العباسى ، قد وصل هو الآخر إلى مرحلة من الضعف السياسى بحيث خضع العباسيون لسيطرة البويهيين الشيعة ، وهؤلاء وصلوا إلى قمة سطوتهم على العباسيين من خلال الحركة التى قادها البساسيرى ، وسانده فيها الفاطميون[4] والتى يمكن

---

(١) تعتبر الحوادث السياسية والمذهبية من العوامل التى خدمت التطور الثقافى بين الشعوب ، فإذا نطاحن شعبان غريبان ، وتلك طبيعة الأشياء تبادل المنتصرون والمنهزمون الأفكار الجديدة ، والعادات والأخلاق واللغات والآداب ونتج عن ذلك بالضرورة حياة داخلية نشيطة .

فازيليف : العرب والروم ، ترجمة : محمد عبد الهادى شعيرة ، دار الفكر العربى ١٩٣٤ ، ص١٨ .

(٢) ابن تغرى بردى : النجوم ، جـ٥ ص٣ .

(٣) محمد كرد على : خطط الشام . (٦ أجزاء) ، دمشق ١٩٢٥ : م١ ص٢٦١ .

(٤) فقد حاول البساسيرى أيقاع الشقاق سنة ٤٥٠هـ/١٠٥٨م بين ينال وبين أخيه الأكبر طغرلبك ، محاولا بذلك اضعاف قوة طغرلبك العسكرية ،وهى محاولة أخرى فى نفس الوقت لنشر المذهب الشيعى بين الترك عن طريق ينال لأنه كان على اتصال بداعى الدعاة المؤيد فى الدين هبة الله الشيرازى الذى أرسله الخليفة المستنصر إلى بغداد لإثارة حماس جند البساسيرى فى وجه العباسيين .

راجع : =

اعتبارها من الحوادث السياسية الهامة التى ولدت الاحتكاك الحضارى بين السلاجقة والفاطميين .

وأن كان طغرلبك قد نجح ـ كما سبقت الإشارة ـ فى القضاء على هذه الحركة[1] وانقذ الخلافة العباسية من السقوط ، الأمر الذى أسفر عن نجاح قوة السلاجقة وأضعاف أكثر لقوة الفاطميين ونفوذهم فى الشرق ، بل وخضوع كثير من ولاتهم فى الشام لحكم السلاجقة .

ومن النتائج الهامة لانتصار هذه القوة السلجوقية الجديدة ، ظهور رغبة القائمين على الحكم فى الدولة الفاطمية فى التبعية للحكم السلجوقى مثل الوزير الفاطمى أبى الحسن اليازورى ـ وزير الخليفة المستنصر بالله الفاطمى ـ الذى كاتب طغرلبك السلجوقى وأعلن له : أنه فى طاعته ، وأن البلاد بحكمه ، وأنه لا يتكلف فى قتال»[2]. كما ساهم بطريق غير مباشر فى أحباط حركة البساسيرى عندما رفض

= ابن الجوزى : « أبو الفرج عبد الرحمن بن على بن محمد بن على » (ت٥٩٧هـ/١٢٠٠م) .
ـ المنتظم فى تاريخ الأمم (٢٠ جزء) طبعة حيدر أباد الدكن ، ١٣٥٨ـ١٣٥٩هـ جـ٨ ص١٦٣ ـ ١٦٤ ، ١٦٥ ، ١٩٠ : ١٩٧ ، ٢١٠ : ٢١١ .
ابن القلانسى : المصدر السابق ، ص ٨٧ (طبعة ١٩٠٨) ، ص ١٤٥ (طبعة ٨٣م) .
ابن ميسر : المصدر السابق ، ص ١٨ .
ابن تغرى بردى : المصدر السابق ، جـ٥ ص٨ .
عبد المنعم ماجد (د.) : ظهور خلافة الفاطميين وسقوطهم فى مصر ، مكتبة الحرية بالقاهرة ، الطبعة الثالثة ، ١٩٨٥ ، ص١٩٠ ـ ١٩١ عبد الرحمن الرافعى ، سعيد عاشور (د.) : مصر فى العصور الوسطى دار النهضة ، ١٩٦٨ ، ص٢٢٦ .

(١) يهمنا من حركة البساسيرى من الناحية الحضارية ، الأموال التى أرسلها المستنصر من مصر للبساسيرى فى بغداد وهى « من المال خمسمائة ألف دينار ، ومن الثياب المصرية ما قيمته مثل ذلك، وخمسمائة فارس ، وعشرة آلاف قوس ، ومن السيوف الوف ومن الرماح والنشاب شىء كثير » . كما أرسل البسياسيرى غنائم إلى صاحب مصر من أهمها الشباك العباسى الذى ظل فى مصر حتى حكم المماليك، حيث وضعه السلطان الظاهر بيبرس الجاشنكير فى قبة خانقاة شيدها فى الجمالية » .
راجع : ابن ميسر : المصدر السابق ص٢١ .
المقريزى : تقى الدين أحمد بن على (ت٨٤٥هـ/١٤٤٢م) .
المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار . بولاق ١٢٧٠هـ/١٨٥٤م .
(جزءان) جـ٢ ص٤١٦ .

(٢) ماجد : ظهور خلافة الفاطميين ، ص١٩٠ .

طلب حضوره إلى مصر للاتفاق على الثورة ، ولما استشعر المستنصر خطره أمر بقتله»[1] . وكان الوزير المغربى أبو الفرج محمد - فى أواخر سنة ٤٥٠هـ/١٠٥٨م - مؤيدا للعباسيين فى السر ، لذلك لم يرسل الأموال والخلع إلى البساسيرى بعد قيام حركته فى العراق ، وقد كان ذلك سببا فى عزل الفاطميين هذا الوزير سنة ٤٥٢هـ/١٠٦٠م[2] .

وهنا يعلق ابن ميسر على حركة البساسيرى : بأنها كانت آخر سعادة الدولة المصرية فإن الشام خرج من أيديهم بعدها بقليل ، ولم يبق لهم سوى ملك مصر»[3] .

وأهمية حركة البساسيرى وانتصار طغرلبك عليه ، فى دراسة موضوع البحث ، أنها تعتبر فى حقيقة الأمر أول انتصار وظهور للحضارة السلجوقية والمذهب السنى ، على الحضارة الفاطمية والمذهب الشيعى فى مصر ، وفى أن الحضارة السلجوقية بدأ نجمها فى الصعود حتى على حضارة الخلافة العباسية نفسها والتى لم تتمكن من حماية نفسها وسقطت أمام الغزو الشيعى ، ولعلها كانت بادرة سيئة للخلافة العباسية . فمنذ هذا النصر للسلاجقة والعنصر التركى ، فإن الخلافة العباسية ظلت - تقريبا - فى تدهور ولم يبق لها سوى السلطة الروحية والأسمية ، وكان فألا حسنا للعنصر التركى الذى ظل نجمه فى صعود وفى حكم معظم بلاد الشرق الإسلامى ، ومصر حتى منتصف القرن العشرين .

ولا يفوتنا أن نذكر أنه فى النصف الثانى من القرن الخامس الهجرى (الحادى عشر الميلادى) ساهم القائد السنى الفاطمى « ناصر الدولة بن حمدان »[4] فى

---

(١) لما شعر اليازورى بخطر مقتله هرب إلى بيت المقدس بنسائه وأولاده ، وحاشيته سنة ٤٤٥هـ .
ابن ميسر ، المصدر السابق ، ص ١٦ ، ١٩ .

(٢) داود سليمان العزاوى : فى تاريخ العلاقات العراقية المصرية من فجر التاريخ وحتى الحرب العالمية الأولى (٣٠٠٠ق.م - ١٩١٤م) ، مطبعة الجامعة ببغداد - الطبعة الأولى ١٩٨٤ ، ص١١٢ - ١١٥) .

(٣) ابن ميسر : المصدر السابق ، ص ٢١ .

(٤) ناصر الدولة بن حمدان : ينسب إلى قبيلة تغلب وموطنها ديار بكر فى الجزيرة ، وكان ولاؤهم فى أكثر الأحيان للخلافة العباسية . وظهر نفوذهم فى حلب والموصل . ولكن تمكن الفاطميون من القضاء على دولتهم فى حلب ، كما قضى البويهيون عليهم فى الموصل ، فانتقل بقايا الحمدانيين إلى القاهرة كاللاجئين . بحيث أن الفاطميين كانوا يحذرون منه لكن الخليفة المستنصر قربهم =

أحداث معابر حضارية للسلاجقة فى مصر وخاصة بعد أن برز دور العنصر التركى عسكريا ، فقد اعتمد عليهم اعتمادا كبيرا فى إدارة شئون البلاد ، واستطاع أن ينتصر بمعاونتهم (٤٥٩ ـ ٤٦٠هـ / ١٠٦٦ ـ ١٠٦٧م) فى الفتنة التى حدثت بين الغلمان العبيد والأتراك . وبهذا النصر قويت شوكة الأتراك ، وتمكن ناصر الدولة من الاستبداد بأمور المستنصر ، ومن طلب الأموال للأتراك . بل فكر فى خلع المستنصر وقطع بالفعل الخطبة له من الاسكندرية وجميع الوجه البحرى حيث خطب فيها للقائم العباسى (٤٦٤هـ/١٠٧١م)[١] . ووصل الأمر إلى أنه كاتب السلطان السلجوقى ألب أرسلان ، وأرسل له الفقيه أبا جعفر محمد بن أحمد بن النجار رسولا عنه ، يسأله أن يسيِّر إليه عسكراً من قبله ليقيم الدعوة العباسية « بديار مصر وتكون مصر له » ، وخرج بالفعل السلطان ألب أرسلان السلجوقى سيرا إلى مصر ووصل حلب ، ولم يثنه عن ذلك ـ كما يذكر بن ميسر[٢] ـ الاخروج متملك الروم يريد خراسان فأهمل أمر مصر .

ولولا مقتل ناصر الدولة ابن حمدان غيلة فى منازل العز (٤٦٥هـ/١٠٧٢م)[٣] ، فقد كان من المحتمل أن تتطور الأمور فى مصر على نحو آخر . ومع ذلك فقد خدمت

= وجعل ابن حمدان من كبار قواده . وعند تولى اليازورى الوزارة جعل ناصر الدولة حاكما على الريف ، فظهر استبداده وتزعمه للترك واضماره الحقد للفاطميين . راجع : ابن القلانس : المصدر السابق ، ص ١٣٥ ، ١٣٦ (طبعة ٨٣م) . ابن تغرى بردى : النجوم ، جـ٣ ص١٧٥ .

ابن خلكان : المصدر السابق جـ٢ ص ١١٤ ـ ١١٧ (ترجمة رقم ١٧٥)

ماجد : ظهور خلافة الفاطميين ، ص ٣٨٧ ، ٣٨٨ .

جمال الدين سرور : النفوذ الفاطمى ، هامش ٣ ص ١٢ ، ١٣ .

(١) ابن القلانسى : المصدر السابق ص ٩٥ (طبعة ١٩٠٨) .

ابن الأثير : الكامل ، جـ١٠ ص٨١ ، ٨٦ .

ابن ميسر : المصدر السابق ، ص ٣٦ .

المقريزى : « تقى الدين أحمد بن على » (ت٨٤٥هـ/١٤٤٢م) .

ـ اتعاظ الحنفاء بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء . تحقيق : محمد حلمى محمد أحمد . المجلس الأعلى للشئون الإسلامية . القاهرة ١٩٧٣ ، (٣أجزاء) ، جـ٢ ص٣٠٢ ـ ٣٠٦ .

(٢) أخبار مصر ، ص ٣٥ ، ٣٦ ، ٣٩ .

(٣) ابن الأثير : المصدر السابق ، جـ١٩ ص٨٧ .

ابن تغرى بردى : النجوم ، جـ٥ ص٩١ .

حركة ناصر الدولة توسع السلاجقة سياسيا على حساب الفاطميين . فقد اقتدى به أمير المدينة المنورة وخطب لبنى العباس وأرسل يخبر السلطان ألب أرسلان أنه خطب للعباسيين[١] . كما قطعت دعوة المستنصر من مكة واقيمت للعباسيين وللسلطان ألب أرسلان .

ونجح القائد السلجوقي أتسز[٢] فى أخذ دمشق وخطب فيها للعباسيين سنة ٦٧ ـ ٤٦٨٤هـ / ١٠٧٥ ـ ١٠٧٦م . كما نجح السلاجقة فى السيطرة على القبائل العربية فى بلاد الجزيرة ، وهى التى كانت تساند الفاطميين . بل وصل الأمر أن قرر السلطان ملكشاه مع أخيه تتش بن ألب أرسلان ـ الذى ولاه الشام ـ فتح مصر عن طريق القائد السلجوقى أتسز ، وبمساعدة القائد الفاطمى الدكز ، الذى قدم له ٦٠ (ستين) حبة لؤلؤ مدحرج من خزائن المستنصر[٣] ، ونجح القائد السلجوقى فى الوصول إلى أبواب القاهرة سنة ٤٦٩هـ/ ١٠٧٦م ، بيد أن بدر الجمالى تمكن من طرده[٤] .

ومما مهد الطريق للتأثير السلجوقى فى مصر ، اعتناق عدة وزراء ـ فى النصف

---

(١) ابن تغرى بردى : النجوم ، جـ٥ ص ٢٠ .

(٢) اتسز : أو أطسز بن ارتق ـ أو الاقسس .

المقريزى : اتعاظ الحنفا ، جـ٢ ص٣١٥ .

كان من قواد الفاطميين الأتراك ، ثم انقلب عليهم وانضم إلى السلاجقة وهو أول من ملك دمشق من الأتراك التركمان .

ابن ميسر : المصدر السابق ص ٤٤ .

عبد المنعم ماجد : ظهور خلافة الفاطميين ، ص ٤٠٠ .

(٣) الاصفهانى : المصدر السابق ، ص ٧١ .

الحسينى : المصدر السابق ، هامش ١ ص١٤٩ .

(٤) عبد العزيز عبد الدايم (د.) : بيت المقدس فى العصر الأيوبى . دار الثقافة العربية ، القاهرة ، ١٩٨٩ ، ص٥٩ .

راجع عن حركة اتسز فتح مصر :

ابن خلدون : المصدر السابق ، م ٥ ص ٩ .

محمد كرد على : المرجع السابق ، جـ١ ص ٢٦٥ .

سرهنك ، إسماعيل ، حقائق الأخبار عن دول البحار ، (جزءان) ، الطبعة الأولى ، ١٣٤١هـ/١٩٢٣م ، جـ٢ ص١٤٣ .

على بيومى (د.) : قيام الدولة الايوبية فى مصر ، القاهرة ١٩٥٢ ، ص ٢٠ .

الثانى من العصر الفاطمى ـ للمذهب السنى[1]، بحيث أن مذهبهم هذا أورثهم التطلع إلى القوة الجديدة التى تناصر أهل السنة من الخلفاء العباسيين . وهذا بدوره كان ارهاصا لعمق التأثير السلجوقى فيما تلى ذلك من عصور .

وعلى الرغم من أن هذه الفترة المنوه عنها من الحكم الفاطمى بدأت بوزارة بدر الجمالى الشيعى ٤٦٦هـ/١٠٧٣م[2]، ولكن وزر من بعده عدد من الوزراء من معتنقى المذهب السنى ومن متعصبيه . بل لقد أشارت بعض المصادر[3] إلى وجود وزراء من بيت بدر الجمالى كانوا من معتنقى المذهب السنى مثل الوزير أبى على أحمد بن الأفضل (ت٥٢٥هـ/١١٣٠م) ، « فقد أهمل خلفاء بنى عبيد والدعاء لهم فإنه كان سنيا كأبيه وغير قواعد الرفض »[4].

وقد اشتهر عن الوزير رضوان بن ولخشى ، وزير الخليفة الحافظ الفاطمى سنة ٥٣١هـ/١١٣٧م ، الجهر بالمذهب السنى ، وقام بأول عمل من نوعه وهو تعيين أربعة قضاة اثنين منهم للمذهب السنى[5]. وأتى بكثير من الأمور[6] التى تعضد

---

(١) كثرة الوزراء السنى المذهب فى النصف الثانى من العصر الفاطمى ، ربما تكون بسبب رغبة الخلفاء الفاطميين أنفسهم فى ارضاء مشاعر أهل السنة ، أو أن هؤلاء الوزراء اظهروا مهارتهم الإدارية والسياسية ، ونجحوا فى الوصول إلى كرسى الوزارة كمحاولة منهم لإعادة مصر رسميا مرة أخرى للمذهب السنى .

(٢) بدر الجمالى : ارمنى الجنسية ، كان مملوك الأمير جمال الدين بن عمار ، وترقى حتى تولى إمارة دمشق فى عهد المستنصر ٤٥٦هـ/١٠٦٣م ، وذاع عنه محاربته للأتراك فى هذه البلاد ، وتولى نيابة عكا سنة ٤٦٠هـ/١٠٦٧م ، ثم استدعاه المستنصر ليتولى الوزارة فى مصر .
ابن ميسر : المصدر السابق ، ص ٥٣ / ابن خلكان : المصدر السابق جـ٢ ص٤٤٨ (ترجمة رقم ٢٨٦) .
العماد الحنبلى : المصدر السابق ، جـ٣ ص٣٨٣ .

(٣) ابن تغرى بردى : النجوم ، جـ٥ ص٢٣٩ (أحداث سنة ٥٢٥هـ) .

(٤) المصدر نفسه ،جـ٥ ص ٢٣٩ .

(٥) القضاة الأربعة : كان منهم اثنان لمذهب أهل السنة هما المذهبان المالكى والشافعى ، واثنان للمذهب الشيعى أحدهما للإسماعيلية والآخر للإمامية
ابن ميسر : المصدر نفسه ص١٤ .

(٦) من أمثلة هذه الأمور أنه كان يهين حواشى الخليفة ويقدح فى مذهبه وحاول خلعه
المقريزى : اتعاظ الحنفا ، جـ٣ ص١٦٦

مذهبه ، مما أثار الشيعة عليه فأحس بغدرهم وهرب إلى الشام . وكان هناك غيره من الوزراء الفاطميين من معتنقى المذهب السنى(١).

أيضًا تولى الوزارة ، الوزير السنى الشافعى المذهب العادل « على ابن إسحق بن السلار »(٢). للخليفة الظافر (٥٤٣ ـ ٥٤٤هـ / ١١٤٩م) . ولم يكن هذا الوزير على اتصال بالسلاجقة وأتابكاتهم فحسب(٣)، بل كانت إدارته تتسم بمحاولة التشبه بالإدارة السلجوقية ، وخاصة فى اعتماده الكبير على العنصر التركى فى الجيش . واقتدى بالسلاجقة فى تعضيد المذهب السنى بإنشاء المدارس . فعمر مدرسة للشافعية بالاسكندرية (٤). وهى المدرسة السلفية (وتعرف أيضًا بالمدرسة العادلية نسبة لمؤسسها العادل بنى السلار) . وأسند القضاة لواحد من الفقهاء الشافعية وهو « أبو المعالى » نجا الارسوقى »(٥)، ولذلك كان يخشى الخليفة والشيعة ،بحيث وصل خوفه إلى الحد

---

(١) مثل الوزير خطير الملك محمد بن اليازورى (وكان لقبه مثل لقب أحد وزراء السلاطين السلاجقة وهو الوزير خطير الملك أبو منصور الذى تولى وزارة السلطان السلجوقى بركياروق (تولى ٤٨٧هـ/١٠٩٤م) ، ومثل الوزير الفاطمى السنى عباس بن يحيى بن باديسى .
راجع : زامباور : المرجع السابق ، جـ٢ ص ٣٣٨ .
محمد حمدى المناوى : الوزارة والوزراء فى العصر الفاطمى ، دار المعارف بمصر ١٩٧٠م ، ص٣٠٣، ٣١١ .

(٢) العادل بن السلار : كان أبوه كرديا يعمل فى عساكر سقمان ابن ارتق والاراتقة من البيوت الحاكمة المتفرعة عن السلاجقة فى بلاد الشام فلم أخذ الأفضل من عساكر سقمان كان فيهم والد العادل بن السلار الذى خدم للفاطميين فى مصر .
راجع : ابن خلكان : المصدر السابق ، م ٣ ص ٤١٦ ـ ٤١٨ .
المقريزى : اتعاظ الحنفا ، جـ٣ هامش ١ ص١٦٩ .
ابن تغرى بردى : النجوم جـ٥ ص٢١٥ .

(٣) فقد أرسل العادل بن السلار ، أسامة بن منقذ إلى اتابك نور الدين زنكى بالشام ومعه الأموال كى يتمكن نور الدين من منازلة الفرنجة فى طبرية وينازلهم بن السلار فى غزة .
المقريزى : اتعاظ الحنفاء ، جـ٢ ص٢٠٥ .

(٤) ابن خلكان : المصدر السابق ، م٣ ص ٤١٧ ، راجع :
السيد عبد العزيز سالم (د.) : تاريخ الاسكندرية وحضارتها فى العصر الإسلامى ، الاسكندرية ١٩٨٢، ص٢١٩ .

(٥) راجع : ابن خلكان : المصدر نفسه ، م٤ ص١٥٤ ، ابن ميسر : المصدر السابق ، ص ١٤٥ .

ـ كما يذكر المقريزى ـ[1] أنه كان يدخل على الخليفة « وفى ركابه من انتدبهم لحراسته » ، ومع ذلك قتل سنة ٥٤٨هـ / ١١٥٣م[2].

وقد كان استمرار الحضارة السلجوقية فى ازدهار ، بينما نجم الحضارة الفاطمية فى الأفول ، سببا فى أن ولى آخر الخلفاء الفاطميين العاضد لدين الله وجهه شطر اتابكة السلاجقة مستغيثا بهم ضد الفرنجة ، بل وأرسل لنور الدين « شعور نسائه ليعرفه مدى استغاثتهم به »[3]، ويبذل له مقابل ذلك اقطاعا بمصر[4]. ثم كان هروب شاور إلى الشام والتجاؤه إلى سلاجقة الشام سببا فى ربط تاريخ الفاطميين ، إلى وقت سقوط دولتهم بعجلة السلاجقة[5].

ـ ارتحال التجار :

تأتى التجارة فى المكانة الأولى من حيث هى عامل فى التطور الثقافى للشعوب[6]. وقد قامت التجارة فى العصور الوسطى على مدن ازدهرت حضاريا ، وكانت تقع على طريق التجارة ابتداءا من الصين والهند حتى سواحل الشام على البحر الأبيض المتوسط ، بالإضافة إلى مصر التى امتازت بموقعها الجغرافى على طريق التجارة بين الشرق والغرب ، وبمرور طريقين للتجارة عبرها[7]. ومن المدن التى كان

---

(١) اتعاظ الحنفا ، جـ٣ ص١٩٨ .

(٢) ابن القلانسى : المصدر السابق ، ص ٢٢٠ ، (طبعة بيروت ١٩٠٨) ، (طبعة دمشق ١٩٨٣) ، ص٥٠٧ .

(٣) ابن الأثير : « ابن الحسن على بن أبى الكرم » (ت٦٣٠هـ/١٢٣٣م) .
ـ التاريخ الباهر فى الدولة الاتابكية بالموصل . تحقيق : عبد القادر أحمد طليمات ، دار الكتب الحديثة بالقاهرة ، ومكتبة المتنبى ببغداد ، ١٩٦٣ ، ص١٣٨ .
الكامل ، جـ١١ ، ص ٣٣٦ ـ ٣٣٧ .
العينى : السيف المهند ، ص ١٩٢ ، ١٩٣ .

(٤) ابن الأثير : الدولة الأتابكة ، ص ١٣٩ .

(٥) عبد المنعم ماجد : ظهور خلافة الفاطميين ، ص٤٤٢ ، ٤٤٤ .

(٦) فازيليف : المرجع السابق ، ص١٨ .

(٧) الطريقان : هما طريق بحرى يبدأ من غرب أوربا من بروفانس بفرنسا ، ثم يتجه إلى الفرما بمصر حيث ترسو السفن ، ويحملون التجارة منها على الدواب إلى القلزم ، ومنها تنقل عبر البحر الأحمر ، إلى السند والهند والصين ، ويعود التجار محملين ببضائع الشرق من نفس الطريق . =

لها ازدهارها التجارى فى ذلك العصر ، بغداد مقر الخلافة العباسية والسيطرة السلجوقية والفسطاط[1] والاسكندرية تحت حكم الفواطم . إذ كانت هذه المدن ذات قوة تجارية مرموقة ، ومن ثم اسهمت بقسط وافر فى تبادل المؤثرات الحضارية ، وجاء اسهامها عبر التجار وبضائعهم ؛ فالتجار بفضل ما توفر لهم من حرية الحركة والتنقل بين البلاد للتجارة ، وبمقدرتهم على التعامل مع جميع طبقات المجتمع ، ساهموا فى نقل المؤثرات الحضارية ، خصوصا وأن التجار المترددين بين البلاد ، لم يكونوا ممن يمتهنون التجارة بصفة أساسية ، بل كان منهم الفقيه والمحدث والمقرئ والمفسر ، كما لم يكن هناك ما يمنع أن يكون التاجر الذى يمتهن التجارة بصفة أساسية فقيها أو محدثا أو مقرئا أو مفسرا . وكانت الكتب والمعارف تنتقل بصحبة التجار فى قوافلهم أو فى سفنهم [2] . ومن أمثال هؤلاء التاجر البغدادى أبو منصور الشيحى عبد المحسن بن على (ت٤٨٩هـ/١٠٩٥م)[3] كما دخلها أيضًا الفقيه أبو المعالى عبد السلام بن

= أما الطريق الثانى : فهو الطريق البرى ، الذى يمتد من أوربا إلى الشرق ، ويبدأ من بلاد الأندلس إلى طنجة عبر مضيق جبل طارق حتى يجتاز المغرب الأقصى والأوسط والأدنى حتى يصل إلى مصر ، ومنها يتجه إلى بلاد الشام ، ويمر بعدها إلى الرملة ودمشق والعراق والكوفة وبغداد والبصرة ، ثم إلى فارس مارا بالأهواز ، ثم إلى كرمان والهند والصين .

هايد (ف.) تاريخ التجارة فى الشرق الأدنى فى العصور الوسطى . ترجمة : أحمد محمد رضا ، ومراجعة : د عز الدين فوده . الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٥ ، ص٥٢ ، ص ٥٢ ، ٥٨ .

إبراهيم حسن سعيد (د.) : البحرية فى عصر سلاطين المماليك ، دار المعارف بمصر ١٩٨٣ ، ص٥٨ ، ١٣٨ ، ١٣٩ .

عصام الدين عبد الرءوف : المرجع السابق ، ص ١٧٦ ، ١٧٧ .

محمد إدريس : تاريخ العراق والمشرق ، ص ٢٠٢ ، ٢٠٣ .

(١) بلغ من أهمية وكثرة التجار المترددين على مصر من المشارقة ، أن من أقدم الوكالات التجارية التى عرفت فى مصر فى القرن الخامس الهجرى ، (١١م) الوكالة التى شيدت للتجار الوافدين من العراق والشام ، وهى الوكالة التى أنشأها فى الفسطاط المأمون البطائحى وزير الخليفة الآمر الفاطمى .

ابن ميسر : المصدر السابق ص٩٢ .

آمال العمرى (د.) المنشآت التجارية فى العصر المملوكى (مخطوط رسالة دكتوراه بكلية الآثار ـ جامعة القاهرة ١٩٧٤) ، ص١٦٨ .

(٢) سعيد عاشور (د.) : مصر معبرا للثقافة فى حوض البحر المتوسط (من ابحاث كتاب : مصر وعالم البحر المتوسط ، دار الفكر بالقاهرة ١٩٨٦) ، ص٢٣٠ .

(٣) العماد الحنبلى : المصدر السابق ،جـ٣ ص٣٩٢ .

أحمد الحكيم الفارسى الذى تولى مهمة التدريس فى مدارس الموصل ، وكان تاجرا ذا ثروة ظاهرة [١]. ومنهم التاجر ياقوت الرومى المحدث بالقاهرة (توفى بدمشق ٥٤٣هـ/ ١١٤٨م)[٢]. والتاجر الاسكندرانى الشاعر أبو الربيع سليمان بن فياض ، وهو فى العلوم فضفاض ، تاجر فى العراق وجاب الآفاق وصحب البحارة ودخل الهند وبلادها[٣]. والتاجر والمؤرخ الحافظ الحنبلى (ت٥٩٨هـ/١٢٠١م) دخل مصر والاسكندرية وسمع الحافظ السفلى[٤]. والتاجر الاسكندرانى «ابن غلاس» (ت٥٩٩هـ/١٢٠٢م) سمع أحمد الرازى وله منه أجازة[٥]. وغيرهم من الكثيرين الذين كثر ارتحالهم إلى مصر أيام وزارة بدر الجمالى لكثرة عدله وكرمه ، بعد أن انتزحوا منها أيام الشدة[٦].

ـ ارتحال العلماء والصناع :

شاع عن علماء العصور الوسطى ولعهم بالارتحال من أجل طلب العلم[٧]، فلم

---

(١) ياقوت : «شهاب الدين أبو عبد الله» (ت٦٢٦هـ : ١٢٢٨).
معجم البلدان (٦ أجزاء) دار الصياد ـ بيروت ١٩٨٤ ، جـ٢ ، ص ٦٥ .

(٢) العماد الحنبلى : المصدر السابق جـ٢ ص٦٥ .

(٣) العماد الأصفهانى : «عماد الدين محمد بن محمد بن حامد ـ الكاتب» (من علماء القرن التاسع الهجرى (١٥م) .
ـ خريدة القصر وجريدة العصر . الجزء الخاص بشعراء مصر . تحقيق شوقى ضيف ، د. إحسان عباس (جزءان) ، القاهرة ٥١ ـ ١٩٥٢م ، جـ٢ ، ص٢٠٠ .

(٤) الحافظ الحنبلى : ولد بحران سنة ٥٢١هـ/١١٢٧م ، سمع فى بغداد أبى القاسم السمرقندى والزاغونى وجماعة من هراة وجمع تاريخا بحران وحدث بها ـ
العماد الحنبلى : المصدر السابق جـ٤ ص٣٣٥ .

(٥) ابن المستوفى : «شرف الدين أبو البركات الاربلى» (ت٦٣٧هـ/١٢٣٩م)
ـ تاريخ أربل ـ تحقيق : سامى بن السيد الصقار (قسمان) . العراق ١٩٨٠ ، جـ٢ ص ٢٧٧ .

(٦) المقريزى : الخطط جـ١ ص ٣٨٢ .

(٧) لم يكن ارتحال العلماء من أجل العلم فحسب ، فأحيانا بسبب الاضطهاد أو طلبا للعلا والرزق ، وكان منهم المحدث ، والراوى ، والشاعر ، والمؤرخ والفقيه والصوفى والنساخ والأطباء والوعاظ وغيرهم.

يكن نقل المعلومات فى تلك العصور بمثل التقدم الحالى من وسائل سمعية وبصرية وطباعة سريعة ، وسوف نكتفى بالإشارة إلى مشاهير العلماء الذين دخلوا مصر فى العصر الفاطمى . ومن أشهرهم الصوفى العظيم أبى حامد الغزالى « حجة الإسلام » (ت٥٠٥هـ/١١١١م) ، الذى دخل الاسكندرية وأقام بها مدة [١].

ومن شيوخ بغداد المرتحلين إلى مصر أبو زكريا التبريزى الخطيب الشيبانى ، صاحب المصنفات العديدة وقرأ عليه علماء مصر مثل ابن شداد النحوى[٢]. ومن علماء مصر الذين ارتحلوا من أجل طلب العلم فى نظاميات السلاجقة أبو بكر الطرطوشى[٣] (ت بالاسكندرية ٥٢٠هـ/١١٢٦م) وبعد أن تلقى علومه فى نظامية بغداد دخل الأسكندرية ٥١٦هـ/١١٢٢م ، فى وقت كان خاليا من العلماء » ... فوجد البلد عاطلا عن العلم ، فأقام بها وبثّ علمًا جمًا »[٤]. ومن مشاهير العلماء الذين دخلوا الاسكندرية سنة ٥١١هـ/١١٧م العالم شيخ الإسلام الحافظ أبو طاهر أحمد بن محمد سلفة الاصفهانى . الذى ارتحل إلى بلاد كثيرة من أجل طلب العلم وتلقينه ، كبغداد والكوفة والبصرة وهمدان . وبسبب وجوده فى مصر ارتحل إليه الكثير

---

(١) ولد أبو حامد الغزالى سنة ٤٥٠هـ/١٠٥٨م ، ذاع صيته فى بلاد الشام وتسند إليه نظام الملك التدريس فى نظامية بغداد ٤٨٤هـ/١٠٩١م .
ابن الوردى : المصدر السابق ، جـ٢ ص٢١ .
ابن خلكان : المصدر السابق جـ٤ ص ٢١٧ ، ٢١٨ .
العماد الحنبلى : المصدر السابق ، جـ٤ ص١٢ .

(٢) العماد الحنبلى : المصدر نفسه جـ٤ ص٥ .

(٣) أبو بكر الطرطوشى : عربى الأصل من قبيلة قريش ، ولد بطرطوشة بالأندلس . مالكى المذهب كان يلقب « بابن أبى زندقة » .
راجع :
ابن خلكان : المصدر السابق ، م٤ ص٢٦٢ : ٢٦٥ .
ابن تغرى بردى : النجوم ، جـ٥ ص ٢٣١ ، ٢٣٢ .
السيوطى : حسن المحاضرة (جزءان) ، مطبعة الوطن ١٢٩٩هـ/١٨٨١م ، جـ١ ص٤٥٢ .
جمال الدين الشيال (د.) : اعلام الاسكندرية فى العصر الإسلامى ، دار المعارف بمصر ، ١٩٦٥ ، ص ٦١

(٤) عن ابن فرحون : جمال الدين الشيال : المرجع نفسه ، ص ٧٠ .

لأخذ العلم[1] عنه مثل أبو عبد الله بن مسعود المسعود البنجديهى[2].

ولم يقتصر الأمر على قدوم العلماء من بلاد السلاجقة ، بل تعداه إلى ارتحال بعض المصريين لأخذ العلم فى نظاميات السلاجقة ، مثل الفقيه العلامة عبد العزيز أبو الحجاج (ت٥٢٣هـ/١١٢٨م) . تفقه فى العراق على يد الكيا الهراس ، وأحكم الأصول والفروع ، بحيث صار من علماء الاسكندرية [3].

ومن أشهر قضاة الشافعية الذين دخلوا مصر فى خلافة الحافظ القاضى الفاضل[4].

أما بالنسبة لارتحال الصناع والفنانين ، فللأسف لم تهتم المصادر التاريخية فى ذلك العصر بتدوين أسمائهم ، ولكن يفهم من المصادر أن هؤلاء الصناع كانت لهم حركة دائمة فى التنقل ، وخاصة أثناء الحروب والمجاعات والأوبئة مثل سنة ٤٩٣هـ/١٠٩٩م ، فقد ذكر ابن ميسر [5] : « أن خلقا كثيرا من البلاد الشامية قدموا

---

(١) راجع : ابن المستوفى : المصدر السابق جـ٢ ص ٢٠٣ .
ابن خلكان : المصدر السابق جـ٢ ص١٠٥ ـ ١٠٧ .
المقريزى : اتعاظ الحنفا ، جـ٣ هامش ص١٩٨ .
الشيال : المرجع السابق ص ١٣٤ ـ ١٣٥ .
عن العلماء الذين ارتحلوا للسلفى ، راجع :
السيوطى : حسن المحاضرة ، جـ٢ من ص ٣٧٦ : ٣٧٩ .

(٢) البنجديهى : لقب نسبه إلى مسقط رأسه ، وهى قرية بنج ة دية ومعناها بالفارسية الخمس قرى ، وهى من نواحى مرو وخراسان . (ت٥٨٤هـ) . له كتب كثيرة وقفها على الخانقاة السميساطية ، وشرح المقامات للحريرى .
ياقوت : المصدر السابق ، جـ١ ص٤٩٨ .

(٣) العماد الحنبلى : المصدر السابق ، جـ٤ ص٦٧ .

(٤) القاضى الفاضل : ولد فى بيسان من عسقلان سنة ٥٢٩هـ/١١٣٤م توفى فى ليلة الأربعاء سابع شهر ربيع الآخر سنة ست وتسعين وخمسمائة .
راجع : ابن خلكان : المصدر السابق جـ٣ ص١٥٨ (ترجمة رقم ٣٧٤) .
ابن كثير : « إسماعيل بن عمر القرشى الدمشقى » (ت : ٧٧٤هـ/١٣٧٣م) .
ـ البداية والنهاية ، (١٤جزء) مكتبة المعارف ببيروت (الطبعة الخامسة) جـ١٣ ، ص ٢٤ .
ابن تغرى بردى : النجوم ، جـ٦ ص ١٥٦ ـ ١٥٧ .
السيوطى : حسن المحاضرة ، جـ١ ص ٥٦٤ .

(٥) ابن ميسر : المصدر السابق ، ص ٦٨ .

إلى مصر فرارا من الفرغ والغلاء » ، ولا بد أن يكون منهم أرباب الحرف والصناعات . غير أن بعض المصادر اهتمت بالفنانين من كتاب الخط العربى فيذكر ياقوت [1] : أن الكاتب المشهر فخر الدين الجوينى [2] والذى كان من ندماء أتابك زنكى فى الشام ، والذى ذاع صيته فى كتابة الخط بحيث نسخ كتبا كثيرة وجدت مع الناس لجودة خطها بأوفر الأثمان ، هذا الكاتب المشهور دخل مصر وتوطن بها أيام صلاح الدين حتى توفى سنة ٥٨٦هـ/١١٩٠م .

ـ الهدايا :

تعتبر الهدايا من الوسائل الهامة فى نقل التأثيرات الحضارية والفنية منها بوجه خاص . إذ أن إطلاع أهل البلد الذى نقلت إليه تلك الهدايا ، على مظاهر فنية وطرق صناعية تميزت بها صناعة البلد التى وردت منها أمر يترك أثره فيمن تلقوا الهدايا ، بل قد تروقهم صناعتها ، فيأمرون صناعهم وفنييهم بمحاكاتها .

ومن أمثلة المناسبات التى أرسلت فيها الهدايا وبوجه خاص من السلاجقة إلى الفاطميين فى مصر ، الهدايا التى أرسلت من قبل الوزير السلجوقى نظام الملك [3] .

---

(١) معجم البلدان : جـ٢ ص ١٩٢ .

(٢) الجوينى : لقب نسبة إلى مسقط رأسه وهى مدينة « جوين » من نواحى نيسابور ، تقع على طريق القوافل ، وإليها ينسب خلق كثير من العلماء والأئمة .
ياقوت : المصدر نفسه ، جـ٢ ص١٩٢ .

(٣) نظام الملك : « قوام الدين الحسن بن على بن إسحق الطوسى » .
كان أبوه أحد عمال ديوان سلجوق ، واهتم بتعليم ابنه « نظام الملك » بحيث أصبح فى فترة قصيرة إماما لفضلاء عصره وابدى مهارة فائقة فى فقه الشافعى ، وعمل فترة فى خدمة ابن شاذان عميد بلخ ، ثم هرب منه وعمل فى مرو عند السلطان جفرى بيك السلجوقى فلقى منه قبولا فأرسله للعمل مع الب ارسلان السلجوقى ، وتمكن من الوصول إلى منصب الوزارة ، وبفضل وزارة نظام الملك للسلاطين السلاجقة ، استقامت أمور الدين والدولة كما يجب وعم عدله وانصافه الجميع . كما أسند إليه السلطان ألب أرسلان وظيفة المربى أو « الأتابك » ثم عمل للسلطان ملكشاه ، كما حظى باعجاب الخليفة العباسى ومنحه القبابا جليلة على خلعه مطرزة بالعبارة التالية : « باسم الوزير العادل الكامل نظام الملك رضى الخليفة » . وكان يتقن اللسانين العربى والفارسى . (ت٤٨٥هـ/١٠٩٧م) بالقرب من نهاوند ، راجع : ابن خلكان : وفيات الأعيان م٢ ص١٢٨ (ترجمة رقم١٧٩) .
راجع ، الحسينى : المصدر السابق، ص ١٣٩ : ١٤٦ / العماد الحنبلى : المصدر السابق ، جـ٣ ص٣٧٤ . العماد الأصفهانى : المصدر السابق ، ص ٥٨ ، ٥٩ ابن تغرى بردى : النجوم ، جـ٥ ث ١٣٦ ـ ١٣٧ .

إلى وزير الخليفة المستنصر بالله الفاطمى « بدر الجمالى » يسأله معها أن ينقل رفات الإمام الشافعى من مصر إلى العراق [(١)].

وهناك مناسبات أخرى عديدة تبادل الطرفان خلالها الهدايا [(٢)].

جـ ـ بعض مظاهر تأثيرات الحضارة السلجوقية فى الحضارة الفاطمية بمصر :

كان من شأن العلاقات السابق الإشارة إليها أن أحدثت احتكاكا حضاريا بين الحضارتين السلجوقية والفاطمية ، ترك بدوره أصداءً فى الحضارة والعمارة والفن المصرى فى العصر الفاطمى .

بالنسبة للنظم الحضارية الداخلية من الناحية الإدارية :

كان ظهور عصر الوزراء العظام فى الحضارة الفاطمية فى مصر فى توقيت مناسب بعد ظهوره فى عصر السلاجقة العظام ، والذى بدء بالوزير العظيم عميد الملك الكندرى سنة ٤٤٧هـ/ ١٠٥٥م[(٣)] ، ثم الوزير نظام الملك الطوسى وأولاده ، فى حين

---

(٢) أرسل أيضاً بدر الجمالى للوزير نظام الملك هدية عظيمة مع محضر يصف له فيه ما حدث .
المقريزى : الخطط جـ٢ ص ٤٦٢ .

(٣) فى سنة ٤٩٠هـ / ١٠٩٦م أرسل الوزير الأفضل الفاطمى من مصر إلى رضوان بن تتش يدعوه لطاعة المستعلى وهدية سنيه من مصر . كما أرسل الخليفة الفاطمى الآمر بالله سنة ٥١٧هـ/١١٢٢م لصاحبى حلب ودمشق بشأن الاستعداد لحرب الفرنجة على السواحل وهدايا جليلة . راجع :
ابن العديم : « كمال الدين أبى القاسم عمر بن أحمد بن هبة الله » (ت٦٦٠هـ/١٢٦١م) .
ـ زبدة الحلب فى تاريخ حلب .
نشرة : د. سامى الدهان (جزءان) ، المعهد العلمى الفرنسى للدراسات العربية ، دمشق ، ١٩٥١ ، جـ٢ ص١٢٧ .
ابن ميسر : المصدر السابق ص٩٤ ـ ٩٥ ، ١٠٥ .
وأرسل الصالح طلائع سنة ٥٥٣هـ/١١٥٨م إلى الملك نور الدين زنكى بالمال وأنواع الثياب المصرية والجياد العربية .
ابن القلانسى : المصدر السابق ص٣٥٣ / ابن ميسر : المصدر السابق ، ص١٥٧ وراجع المقريزى : اتعاظ الحنفا ، جـ٢ ص٣٠٣ .

(٣) لم يكن الوزير عميد الملك هو أول وزراء السلاجقة ، ولكنه أول الوزراء العظام .
راجع : زامباور : المرجع السابق ،جـ٢ ص٣٣٨ .

بدأ فى العصر الفاطمى بوزارة بدر الجمالى سنة ٤٤٦هـ/١٠٧٣م . كما ارتبط ظهور عصر الوزراء العظام فى مصر بتحول نظم الوزارة من وزارة تنفيذ فى العصر الفاطمى الأول إلى وزارة تفويض[١] فى العصر الفاطمى الثانى . وهى نفس الصلاحية التى كانت للوزراء السلاجقة منذ وزراة عميد الملك ونظام الملك[٢].

وتبعا لذلك أصبح هذا المنصب من المناصب الهامة والخطيرة والتى أصبحت محورا للصراع والفتن للفوز بها . وقد ظهر هذا الصراع على الوزارة فى صورة سافرة لأول مرة فى عصر السلاجقة ، عندما حرض الوزير نظام الملك على قتل الوزير عميد الملك الكندرى فتم له ما أراد ، وحل محله فى الوزارة سنة ٤٥٦هـ/١٠٦٣م . وقد أوصى عميد الملك الجلاد بعد أن يقتله أن يقول للوزير نظام الملك : « لقد ابتدعت بدعة سيئة ووضعت قاعدة خبيثة بقتل الوزراء . إنى لأرجو أن تتبع فيك وفى اعقابك هذه السنة التى اتبعتها معى »[٣].

---

(١) وزير التنفيذ لا يجوز له أن يتصرف إلا فى الحدود التى أمر بتنفيذها ، على عكس وزير التفويض الذى له أن يتصرف وفق مشيئته ورغبته ، فيباشر الحكم والنظر فى المظالم وينفرد بتسيير الجيوش والحروب والتصرف فى أموال بيت المال وكلها أمور لا يحق أن يباشرها وزير التنفيذ ، ويجوز لوزير التنفيذ أن يكون زميا ، لذا كان بعض وزراء العصر الفاطمى الأول زميين مثل يعقوب بن كلس .

راجع : الماوردى : « أبو الحسن على بن محمد بن حبيب البصرى » (ت٤٥٠هـ / ١٠٥٧م) .

ـ قوانين الوزارة . تحقيق ودراسة : فؤاد عبد المنعم ، محمد سليمان داود .

مؤسسة شباب الجامعة بالاسكندرية ، طبعة ثانية ١٩٧٨م ، ص ٢٨ ، ٢٩ .

(٢) محمد محمود إدريس (د.) : رسوم السلاجقة ونظمهم الاجتماعية .

دار الثقافة للطباعة والنشر بالقاهرة ١٩٨٣ ، الطبعة الأولى ، ص٨٣ لم تؤثر قوة وزراء السلاجقة فى جعل منصب الوزارة له الأهمية فى العصر الفاطمى بمصر فحسب ، بل أثرت أيضاً فى أنعاش وزارة الخلافة العباسية فى بغداد واستعادت كثيرا من هيبتها واحترامها بحيث أصبح الوزير العباسى فى وضع يسمح له بممارسة أعباء الوزارة على الرغم من الضغوط التى يتعرض لها احيانا من وزراء السلاجقة لاختلاف مصالحهما .

توفيق سلطان البوزبكى (د.) : مؤسسة الوزارة فى الدولة العباسية (١٣٢ ـ ٦٥٦هـ/ ٧٤٩ ـ ١٢٥٨م)، بغداد ١٩٨٩ ، ص٤٤ .

(٣) الحسينى : المصدر السابق ، ص٧٠ ، هامش ١ .

حربى أمين سليمان (د.) : المؤرخ الإيرانى الكبير غياث الدين خواندمير كما يبدو فى كتاب دستور الوزراء .

تقديم : الدكتور : فؤاد عبد المعطى الصياد .

الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٨٠ ، ص٤٩ ، ٥٠ .

وقـد انتـقل هذا النوع من الصـراع على الوزارة الذى يصل إلى حـد تدبيـر الاغتيالات إلى مصر الفاطمية [1] . وبحيث صارت الوزارة « لمن غلب ـ وقل أن وليها أحد بعد الأفضل إلا بحرب وقتل وما شاكل ذلك »[2]. مثل الصراع بين ابن مصال وابن السلار ، وبين شاور وضرغام بحيث وصل الصراع بينهما إلى حد اللجؤ إلى قوة من خارج مصر للاستعانة بها .

---

(1) كان منصب الوزارة فى النصف الأول من العصر الفاطمى أقل أهمية من منصب قاضى القضاة ، وبحيث لم يتخذ أول الخلفاء الفاطميين فى مصر وزيرا له .

آدم ميتز : الحضارة الإسلامية ، ترجمة : محمد عبد الهادى أبو ريدة القاهرة ، الطبعة الثالثة ١٩٥٧ (جزءان) ، جـ١ ص١٥١ .

ولذا قل أن ازداد نفوذ الوزراء الفاطميين فى العصر الأول بمصر ، وأن كان الوزير أبو محمد حسن على اليازورى ـ وزير الخليفة المستنصر بالله ـ جمع بين منصبى الوزارة وقاضى قضاة الشافعية . ونقش أسمه مع اسم الخليفة على الدنانير والدراهم حوالى سنة ٤٥٠هـ/ ١٠٥٨م ، وهى عملة كان مكتوبا عليها بيتين من الشعر نصهما :

ضربت فى دولة آل الهدى ∴ من آل طه وآل ياسين

مستنصر بالله جـل اسمـه ∴ وعبده الناصـر للدين (سنة كذا ...)

ابن ميسر : المصدر السابق ، ص١٧/ ابن الأثير : الكامل ، جـ٩ ص٤٣٧ .

السيوطى : حسن المحاضرة ، ج٢ ص٢٠٢ : المقريزى : اتعاظ الحنفا ج٣ ص٨٤ .

وقد أشار ابن إياس أن هذه الأشعار قد جاءت على لسان الدينار والدرهم .

ابن إياس : « أبو البركات محمد بن أحمد » (ت٩٣٠هـ/١٢٥٣م) .

ـ بدائع الزهور فى وقائع الدهور . تحقيق : محمد مصطفى ، الطبعة الثانية (مصورة عن طبعة بولاق ١٣١٢هـ) . الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٨٢، جـ١ ص٢١٥ .

ورأى ابن إياس صحيح فى أن الاشعار السابقة وردت على لسان الدينار والدرهم نقشا على العملة ، فقد بدأت الأشعار بكلمة « ضربت فى ... » وتنتهى بذكر سنة الضرب كما ذكر كل من (ابن ميسر ، ابن الأثير ، السيوطى ، المقريزى) . والراجح أنها كانت عملة تذكارية لأن المؤرخين السابقين ذكروا أنها ضربت دون الشهر كما أمر الخليفة المستنصر أن لا تسطر فى السير .

ويلاحظ أن ابن إياس قد أنفرد بذكر كلمة « عز » فى الأشعار السابقة ، فى حين أن باقى المصادر المشار إليها استعملت كلمة « جل » . وقد حاولت العثور على نماذج من هذه العملة فى المتاحف والمجموعات الأثرية ، ومن خلال المراجع ، كما سألت المختصين فى قسم العملة بمتحف الفن الإسلامى بالقاهرة ، فلم نجد نماذج لها . والراجح أن السبب وراء ذلك قصر الفترة الزمنية التى ضربت فيها هذه العملة ، وبسبب إعادة صهر وسبك هذه النقود عندما ينتهى حكم الوزير القائم ، أو بسبب الأزمات الاقتصادية .

(2) ابن الأثير : الكامل ، جـ١١ ، ص ١٨٥ .

بل لقد وصل نفوذ الوزراء الفاطميين إلى الحد أن بعض مؤرخي[1] العصور الوسطى ، اعتبروا الوزير الفاطمي ، يعادل امام الخليفة الفاطمي ، منصب السلطان كما فعل سلاطين السلاجقة أمام الخلفاء العباسيين في الشرق . ولذا لم يطلق لقب

---

(١) مثل المقريزى الذى استخدم لقب « السلطان » عند وصف أحداث بعض المجتمعات فى مصر سنة ٤٤٤هـ/١٠٥٢م . مما جعل محققا المخطوط التعليق بالنص التالى :
« أن الخليفة الفاطمى يظهر أنه كان ينعت بالسلطان ، وهذا جديد يوجب الالتفات إليه » راجع :
المقريزى : إغاثة الأمة بكشف الغمة ، تحقيق : جمال الدين الشيال ، محمد مصطفى . لجنة التأليف والترجمة والنشر . القاهرة ١٩٤٠م ، هامش ١ ، ص٢٠ .
أيضًا علق د. محمد حلمى على تكرار ذكر المقريزى للقب السلطان فى الحديث عن الوزراء الفاطميين ، « بأن المقريزى تأثر فى كتاباته بلقب السلطان السائد فى عصره ـ أى عصر كتابة المقريزى مصنفه ـ راجع : اتعاظ الحنفا ، جـ٢ هامش ٣ ص٣٢١ .
والرأى صحيح . غير أن كثيرا من مؤرخى العصور الوسطى كانوا يقصدون أن الوزير فى العصر الفاطمى الثانى ، صارت مكانته تعادل مكانة السلطان ، مثل سلاطين السلاجقة أمام الخلفاء العباسيين . ويؤيد هذه الحجة تعليق السيوطى على سجل الخليفة الفائز للوزير الملك الصالح طلائع بالنص التالى :
« كانت الوزارة قديما تعدل السلطنة الآن ـ يقصد سلطنة المماليك زمن كتابته مصنفه ـ فإن الوزير كان نائب الخليفة فى بلدة يفوض إليه جميع أمور المملكة ، وتولية من رآه من القضاة ، ونواب البلاد ، وتجهيز العساكر والجيوش وتفرقة الأرزاق إلى غير ذلك ، مما هو الآن وظيفة السلطان » .
السيوطى : حسن المحاضرة ، جـ٢ ص ٢١٥ .
كما أطلق المقريزى لقب السلطان على الوزراء الفاطميين عندما ذكر أن بدر الجمالى دخل مصر سنة ٤٦٦هـ/١٠٧٣م ، وقيامه بسلطنة مصر . أيضًا أطلق لقب « السلطان » على كل من الوزيرين المأمون البطائحى ، وعلى بن السلار فى الحديث عنهما .
راجع : المقريزى : الخطط جـ١ ص٤٤٢ / اتعاظ الحنفا ، جـ٣ ، ص ٣٠٤ / ابن ميسر : المصدر السابق ص١٤٣ .
وصف أيضاً : العماد الاصفهانى ، « الصالح طلائع بأنه سلطان مصر زمن الفائز وأول العاضد » كما أطلق لقب سلطان الجيوش على الوزيرين أسد الدين شركوه ، وصلاح الدين فى العصر الفاطمى .
راجع : أبو شامة : « كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين الصالحية والنورية » (جزءان) مطبعة وادى النيل بمصر ٨٧ ـ ١٢٨٨هـ ، جـ١ ، ص١٢٠ ، ١٣٠ .
وهناك طبعة ثانية تحقيق : د. محمد حلمى أحمد ، القاهرة طبع الجزء الأول سنة ١٩٥٦ ، جـ٢ ص ١٩٦٢م .
حسن الباشا : الألقاب الإسلامية ، دار النهضة ، القاهرة ، ١٩٥٧ ، ص ٣٢٦ .

السلطان[١] على بعض القواد والوزراء الفاطميين ، إلا بعد أن شاع إطلاقه على الحاكم الأعلى فى أسرة السلاجقة [٢] ، وكان طغرلبك السلجوقى هو أول من تلقب به سنة ٤٤٧هـ/١٠٥٥م[٣] . فى حين أن أقدم من تلقب به فى العصر الفاطمى كان القائد الأمير حسين بن حمدان عندما دخل مصر (الاسكندرية سنة٤٥٦هـ/١٠٦٣م) ،لقب نفسه « بسلطان الجيوش »[٤] .

أطلق أيضًا لقب « الملك » [٥]على الوزراء الفاطميين ، بعدما شاع استعماله للولاة الفرعيين والوزراء مثل الوزير عميد الملك ونظام الملك ، وعرف لقب الملك لأول مرة فى العصر الفاطمى بعد أن لقب به الوزير الأفضل شاهنشاه بن بدر الجمالى «فنعت بالملك الأفضل » ، وبحيث أصبح اللقب الأخير ـ الملك ـ من الألقاب العامة التى تطلق على الوزراء الفاطميين [٦] .

الوزارة وراثية :

لأول مرة نجد الوزارة فى العصر الفاطمى تصبح وراثية . وربما حدث ذلك اقتداءا بوزارة السلاجقة ، الذين حولوا الوزارة إلى منصب وراثى . فعندما تولى نظام الملك

---

(١) استخدم لقب السلطان لأول مرة فى عهد هارون الرشيد حين لقب به خالد بن برمك أو جعفر بن يحيى البرمكى ، ولكنه لم يقصد به فى هذه الحالة أن يكون سمة عامة على صاحب السلطة بل نعتا فخريا خاصا انقطع التلقيب به بعد ذلك حتى القرن الرابع الهجرى ، ولم يصبح لقبا عاما إلا بعد أن تلقب به الملوك بالشرق مثل بنى بويه واستأثروا بالسلطة دون الخلفاء وبذلك اتخذوا لقب السلطان سمة عامة لهم . كما تلقب به الغزنويون . واجع :
الباشا : الألقاب ، ص ٣٢٣ .
جلال الدين السيوطى : (ت٩١١هـ/١٥٠٥م) : الوسائل إلى معرفة الأوائل . تحقيق : د. إبرهيم العدوى ، د. على محمد عمر . مكتبة الخانجى ، القاهرة ١٩٨٠ ، ص ٨٥ .

(٢) راجع : ابن تغرى بردى : النجوم ، جـ٥ ، ص٩١ .
ابن القلانسى : المصدر السابق ص٤٤٢ (طبعة ١٩٨٣م) .

(٣) راجع : الحسينى : المصدر السابق ، ص ٥٨ / الباشا : الألقاب ، ص ٣٢٥ .

(٤) ابن تغرى بردى : النجوم ، جـ٥ ص٧٤ ، ص٩١ .

(٥) لقب الملك : يطلق على الرئيس الأعلى للسلطة الزمنية ، وهو من الألقاب المعروفة فى اللغات السامية.
الباشا : الألقاب ، ص ٤٩٦ .

(٦) الباشا : الألقاب ، ص٤٩٩ .

الوزارة سنة ٤٥٦هـ/١٠٦٣م ، ورثت من بعده فى أولاده ، فتولاها مؤيد الملك بعد وفاة نظام الملك سنة ٤٨٦هـ/ ١٠٩٣م ، ثم خلفه أخوه فخر الملك سنة ٤٨٨هـ/١٠٩٥م[1] . ثم حدث التوريث فى منصب الوزارة الفاطمية ، زمنيا بعد وزراء السلاجقة فبعد وفاة بدر الجمالى سنة ٤٨٧هـ/١٠٩٤م ، تولاها ابنه أبو القاسم شاهنشاه الأفضل ، فقد مهد له بدر الجمالى سنة ٤٧٧هـ/١٠٨٤م ، أن « يكون نائبا عنه ، وولى عهده فى السلطنة قبل وفاته بعام »[2] .

وبعد وفاة أبو القاسم ، تولى الوزارة ابنه أبو على أحمد بن الأفضل (٥٢٤ ـ ٥٢٥هـ/ ١١٣١م) ، وهو الأمر الذى لفت نظر مؤرخى العصور[3] الوسطى ، واعتبروها الحادثة الأولى من نوعها فى العصر الفاطمى ، وهى أن تصبح الوزارة وراثية يعهد بها الوزير القائم لابنه أن يتولاها بعد وفاته .

ومن الظواهر الحضارية المتأثرة بنظم الحضارة السلجوقية ، والتى كان لها انعكاسها على الناحية العسكرية الفاطمية ، هى « زيادة الاعتماد على العنصر التركى » فى الجيش[4] ، حتى أطلقت أسمائهم على بعض حارات القاهرة مثل حارتى الديلم

---

(١) زامباور : المرجع السابق ، جـ٢ ص٣٣٨ .

(٢) المقريزى : اتعاظ الحنفا ، جـ٢ / ص٣٢٣ .

جمال الدين الشيال (د.) : نظام الوزارة فى العصر الفاطمى ، دراسات فى التاريخ الإسلامى ، الأسكندرية لسنة ٦٤م ، ص٥٠ .

(٣) ابن خلكان : المصدر السابق ، جـ٢ ص٤٥٠ .

المقريزى : اتعاظ الحنفا ، جـ٢ ، هامش ٣ ص٣٢١ .

(٤) أرقى العبيد مكانة هم حملة السلاح ، وفى العصر العباسى الأول تولى عبدا تركيا أمارة مصر هو يحيى بن داود الخرسى (سنة١٦٢ : ١٦٤هـ/ ٧٧٨ : ١٧٨٠م) .

آدم متيز : المرجع السابق ، جـ١ ص٢٧٨ .

وقد نوع الفاطميون منذ دخولهم مصر ٣٥٨هـ/٩٦٩) من فرق الجيش ، فأول هذه الفرق المغاربة ثم الصقالبة ، والعبيد ، ثم الأتراك حيث استكثر منهم الخليفة العزيز بالله ٣٦٥ ـ ٣٨٦هـ ، ٩٧٥ ـ ٩٩٦م

ابن إياس : المصدر السابق ، جـ١ ص١٩٢ .

على إبراهيم حسن (د.) : تاريخ المماليك البحرية ، مكتبة النهضة المصرية . الطبعة الثالثة ٦٧م . ص٢٤ .

عبد العزيز عبد الدايم (د.) : الرق فى مصر فى العصور الوسطى . مكتبة نهضة الشرق ٨٣م . ص٢١ ، ٢٢

والأتراك [1] ، على خلاف الشائع حيث كانت تطلق أسماء القبائل على الحارات التى سكنوها .

وفيما يبدو أن ظهورهم كقوة عسكرية فى العصر الفاطمى كان مستوحى من ظهور قوة الأتراك السلاجقة في الشرق مما أعطى لهذا العنصر العسكرى الظهور عمليا على مسرح الأحداث التاريخية السياسية فى العصر الفاطمى فى مصر رغم أن مصر لم تكن حديثة عهد بالتعامل مع العنصر التركى[2] .

وقد ظهرت قوة الترك فى مساندة حركة القائد الفاطمى ناصر الدولة بن حمدان ، الذى اعتمد عليهم وأكثر منهم سنة ٤٦٥هـ/١٩٧٢م[3] . بل ويساعد العنصر التركى الوزير العادل بن سلار ، فى نجاحه على منافسة بن مصال حتى أن هذه الحادثة جعلت المقريزى[4] يضع لها العنوان التالى :

« ذكر ابتداء الفتنة التى آلت إلى خراب ديار مصر » ، وهو تعبير بليغ يشير إلى مدى قوة تأثير العنصر التركى على زوال حكم الدولة الفاطمية من مصر .

---

(١) المقريزى : الخطط ، جـ٢ ص٨ : ١٠ .

(٢) منذ أواخر العصر الأموى كان الأتراك يجلبون فى شكل جوارى وغلمان من بلاد ما وراء النهر ، وبدأ الخليفة المعتصم ٢١٨هـ/٨٣٣م ، الاستكثار منهم بعد أن ضعفت ثقته بالفرس . فاستعان بهم فى العاصمة وفى الولايات التابعة للخلافة ، حتى استطاع أحد الولاة الأتراك تكوين دويلة مستقلة فى مصر هى الدولة الطولونية ٢٥٤ ـ ٢٩٢هـ/ ٨٦٨ ـ ٩٠٥م .

المقريزى : الخطط جـ١ ص٩٤ .

السيوطى : الوسائل فى معرفة الأوائل ، ص١٠٥ .

محمد جمال الدين سرور (د.) : تاريخ الحضارة الإسلامية فى الشرق ، دار الفكر العربى ١٩٦٥م ، ص٢١ ، ٢٥ .

عبد العزيز عبد الدايم : الرق ، ص ١٨ ، ١٩ .

(٣) يقال أن الفضل فى اصطناع الغلمان الأتراك والأكثار منهم ومن أرزاقهم فى العصر الفاطمى ، إنما يرجع للوزير أبى نصر الفلاحى ، وزير أم المستنصر ، فلما زاد نفوذهم ، زادت أم المستنصر من العبيد السود سنة ٤٥٤هـ/١٠٦٢م . وأخذت تعينهم على محاربة الأتراك ، فزاد ظهور الأتراك بانتصارهم على هؤلاء العبيد .

راجع :

ابن الأثير : الكامل ، جـ١٠ ، ص ٨١ ، ٨٢ .

جمال الدين سرور : الدولة الفاطمية فى مصر ، دار الفكر العربى سنة ١٩٦٦ ، ص ٨٢ .

(٤) المقريزى : اتعاظ الحنفا ، جـ٢ ص٢٦٥ : ٢٦٧ .

بالنسبة للناحية الدينية :

فقد بدأ تيار التصوف السنى الإسلامى الذى انتشر فى الشرق السلجوقى بصورة لم يسبق لها مثيل يجتاح مصر ، وقد ساعد المناخ الاجتماعى[1] لمصر فى أواخر العصر الفاطمى على التفاعل والأخذ بهذه الظاهرة الدينية الصوفية . ولكن ليس معنى ذلك أن العصر الفاطمى لم يعرف التصوف[2] . فالمتصوف قد يكون سنيا أو شيعيا . ولكن تصوف الشيعة كان أقرب إلى الزهد منه إلى التصوف ، وكان عدد المتصوفة قليلا لا

---

(١) قد تميزت الناحية الاجتماعية فى أواخر العصر الفاطمى بالعديد من الظواهر السياسية والاقتصادية والدينية التى دفعت المصريين إلى الأخذ بنظام التصوف . فقد ضعفت الخلافة الفاطمية ، وانقسم المذهب الشيعى إلى الفرقتين النزارية والمستعلية . وتهاون الدعاة فى نشر تعاليم المذهب ، مع انحلال رجال القصر الفاطمى ـ فأصبحت مجالسهم عامرة باللهو والشراب والجوارى ـ وحدوث الفتن والمجاعات والأوبئة ، وخاصة منذ عصر الخليفة المستنصر بالله ، التى اهتم كثير من المؤرخين بوصفها، مثل المقريزى فى مخطوطته « أغاثة الأمة بكشف الغمة » ص٢٤ ، ٢٧ ، ٢٨ وفى مخطوطته : «الخطط » جـ١ ، ص ٣٥٧ ـ ٤٦٣ .

هذا بخلاف ضعف الخلافة الفاطمية سياسيا مثل انحسار نفوذهم عن بلاد الشام ، وظهور تهديدات الفرنجة على الساحل ، وتدخلهم فى الصراع الذى قام بين الوزيرين شاور وضرغام ، مما أدى إلى استعانة الخلافة الفاطمية مرة بالسلاجقة ضد الفرنجة ، ومرة بالفرنجة ضد السلاجقة وفى هذا أبلغ دليل على مدى ضعف الحكم الفاطمى .

راجع :

ابن القلانسى : المصدر السابق ، ص٢٤٢ ، ٢٧٦ (طبعة ١٩٠٨) .

أبو شامة : الروضتين ، جـ١ ص٨٣ .

المقريزى : اتعاظ الحنفا جـ٣ ص٢٧ ، ٤٩ ، ٢٢٩ ، ١١٧ ، ١٧٨ .

ابن تغرى بردى : المصدر السابق ، جـ٥ ص٧٤ ، ١٤٥ .

على صافى حسين (د.) : الأدب الصوفى فى مصر فى القرن السابع الهجرى ، دار المعارف بمصر ١٩٦٤م ، ص٢١ ، ٢٢ .

جمال الدين سرور : النفوذ الفاطمى ، ص٦٩ .

(٢) عرفت مصر منذ دخول الإسلام إليها ، بعض الزهاد والمتصوفة ، ولكنها حوادث فردية عبر القرون الخمسة الأولى من الهجرة مثل زهد السيدة نفيسة ، وذى النون المصرى والوسطى وابن الكيزانى الفاطمى .

راجع :

عبد اللطيف حمزة (د.) : الحركة الفكرية فى مصر فى العصرين الأيوبى والمملوكى ، الطبعة الثامنة، القاهرة ١٩٦٨ ، ص١٢٠ : ١٢٢ .

يشكل ظاهرة دينية ، بحيث تفرض على المعماريين ـ كما كان الحال فى الشرق ـ أن ينشئوا لهم عمائر مخصصة للصوفية ، اللهم إلا انتشار بعض الجواسق(1) والأربطة(2) فى القرافة للزهاد والمتعبدين ، ولم يكن لها صفة الرسمية من قبل الدولة . ويحتمل أن يكون من بين هؤلاء الزهاد عدد من المتصوفة ، لكن تصوفهم كان فلسفيا (3) . أما التصوف الذى امتد من صوفية الشرق السلجوقى ، فهو التصوف السنى الذى استقر

---

(1) الجوسق : كلمة فارسية معربها جوسة وهو القصر ، والقصر مأخوذ من الرومى .
السيد أدى شير : معجم الألفاظ الفارسية المعربة . مكتبة لبنان ـ بيروت ، ١٩٨٠ ، ص٤ والجوسق يعنى القصر الصغير والحصن : المعجم الوسيط ، جـ١ ص١٤٧ .
ومعماريا : الجوسق بناء أشبه بالكعبة ـ أى مكعب الشكل ـ يكون له حوش . وكان لأكابر الأمراء من المغافر ومن يجرى مجراهم جواسق يتنزهون فيها ويعبدون الله تعالى . وبعض هذه الجواسق كان تحتها حوض ماء لشرب الدواب ، وفسقية وبستان ، وبعضها له مناظر وبساتين . وكان أغلبها بدون بساتين أو بئر ، بل مناظر مرتفعة يقال لها قصور .
المقريزى : الخطط جـ٢ ص٤٥٢ ـ ٤٥٣ .
وكانت هذه الجواسق للتنزه وليتعبد فيها الرجال ، وكان على باب البعض منها مصطبة للصوفية مثل قصر القرافة الذى شيدته السيدة تغريد أم العزيز بالله ٣٦٣هـ/٩٧٣م ، وجدده الآمر بأحكام الله سنة ٥٢٠هـ/١١٢٦م حيث شيد المصطبة على الشرق من بابه ، فكان الخليفة يجلس فى المنظرة أعلى القصر ليشاهد الصوفية وهم يرقصون على المصطبة .
(2) انتشر بناء الأربطة فى القرافة (بصفة خاصة) للأرامل والعجائز العابدات ، مثل رباط بنت الخواص بالقرافة . المقريزى : الخطط جـ٢ ص٤٥٤ .
(3) تصوف أهل المذهب الشيعى تصوف فلسفى ، لأن الدعوة الفاطمية تميزت بتوسعها فى العلوم الفلسفية أو علم « الحقائق » ، والذى ظهر فى رسائل أخوان الصفا ، وهم من أوائل الشيعة الذين حاولوا التوفيق بين عقائد الاسماعيلية والفلسفة ، أى الفلسفة اليونانية . وقد ازدهر هذا النوع من التصوف على يد ابن سينا ، والذى قيل أنه هو نفسه كان من دعاة الاسماعيلية ، والدولة الفاطمية كانت من الاسماعيلية ويختلف صوفية الشيعة عن السنة فى عدد من القضايا الدينية . راجع :
الشهرستانى : « أبو الفتح محمد بن عبد الكريم » (ت٥٤٨هـ/ ١١٦٦م) .
الملل والنحل ، تحقيق / عبد العزيز محمد الوكيل (٣ أجزاء) مؤسسة الحلبى ، القاهرة ١٩٦٨ ، جـ١ ص١٩٢ ـ ١٩٣ .
ـ عبد الحليم محمود (د.) : أستاذ السائرين « أسد المحاسبى » ، القاهرة ، ١٩٧٣ ، ص١١٠ ، ١١٩ ، ١٢٨ ، ١٣٠ .
أبو الوفا التفتازانى (د) : علم الكلام وبعض مشكلاته ، دار الثقافة العربية بالقاهرة ١٩٨٧م ، ص٨٨ ـ ٩٣ .

على يد الأشعرى وتلامذته [1]، وكان الإمام القشيرى[2] من أكبر المدافعين عن التصوف السنى ضد عقائد المتكلمين [3] من الشيعة .

---

(١) الاشعرى : هو « أبو الحسن على بن إسماعيل بن أبى موسى ، واسمه عبد الله بن قيس الاشعرى البصرى » ، ولد سنة ٢٦٦هـ/٨٧٩م ، أو سنة ٢٧٠هـ/ ٨٨٣م ، وتوفى فى بغداد سنة ٣٢٤هـ/ ٩٣٥م . وكان من أئمة الاعتزال ، ثم رجع عنه وأسس مذهبا وسطا بين مذهب المعتزلة وهو النفى للصفات وبين مذهب الإثبات لها . ودعا إلى طاعة أوامر الدين والتزامها بالرجوع المطلق عن طريق القلب والتقديس العظيم للخالق . لأن صفات الله ازلية قائمة بذات الله ، فالله والصفات شىء واحد . والأشعرية أحد فرق الصفاتية .

ويعتبر الأشعرى مؤسس علم الكلام فى الإسلام ، وبلغت مصنفاته حوالى ٥٥ مصنفا ، وانتشر مذهبه فى العراق وفى أمصار كثيرة كالشام ومصر والمغرب . راجع :

الشهرستانى : المصدر السابق ، جـ١ ص٩٢ ، ٩٤ ، ٩٥ .

ابن خلكان : المصدر السابق جـ٣ ص٢٨٤ : ٢٨٦ .

المقريزى : الخطط جـ٢ ص٣٥٨ : ٣٦٠ .

ادم ميتز : المرجع السابق ، جـ١ ص٣٣٧ .

(٢) الإمام القشيرى : هو « أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك بن طلحة القشيرى النيسابورى الشافعى (٣٧٦ ـ ٤٦٥هـ / ٩٨٦ ـ ١٠٧٢م) » ، ينتمى إلى أصل عربى . من قبيلة « قشيرى بن كعب » نشأ فى نيسابور ، وكان من أكبر المدافعين لعقيدة أهل السنة على المذهب الأشعرى ، ضد عقائد المعتزلة والشيعة ، كان واعظا فى رباط شيخ الشيوخ . وكان مثقفا فى الأدب والعربية ، له مصنفات عديدة من أشهرها « الرسالة القشيرية » كتبها (٤٣٣هـ/١٠٤١م) وضح فيها مبادئ السلوك الصوفى ومناهجه ، وذكر كثيرا من أعلام التصوف كنماذج يسير المريد على هديهم . ويوجد من هذه الرسالة مخطوطتان أحداهما فى تونس والأخرى فى المغرب . وقد قام العالمان د. عبد الحليم محمود ، ود. محمود بن الشريف ، بنشرها وتحقيقها فى جزئين بالقاهرة ١٩٧٢م ، راجع منها جـ١ ، ص٢٠ : ٢١ . راجع أيضاً :

ابن خلكان : المصدر السابق م٣ ص٢٠٥ ، ٢٠٧ / ابن الوردى : المصدر السابق ، جـ١ ص٣٧٧ .

ابن كثير : المصدر السابق ، جـ١٢ ص١٠٧ .

العماد الحنبلى : المصدر السابق ، جـ٣ ص٣٢٠ ـ ٣٢٢ .

ابن تغرى بردى : النجوم ، جـ٥ ص٩١ .

أبو الوفا التفتازانى : المرجع السابق ، ص ١٧٤ .

(٣) علم الكلام : الأقوال التى تصاغ كتابة أو شفاهة على نمط منطقى تسمى عند العرب جملة «كلاما» وخاصة فى المسائل العقائدية . وهو علم التوحيد أو الصفات وسمى كذلك لأن أشهر موضوعاته التى قام حولها الخلاف هى « مسألة كلام الله » ، أو لأنه لقوة أدلته كأنه صار هو الكلام دون ما عداه . ويبحث هذا العلم أيضاً فى أحكام وعقائد الدين ، فهو علم أصول الدين . وأول =

وعندما انتقلت أصداء هذا التيار الصوفى من الشرق إلى مصر ، بدأت تنتشر حركة التصوف فى مصر وبخاصة فى النصف الثانى من العصر الفاطمى ،وفى الاسكندرية بصورة أوضح حيث ذاع صيت عدد من الصوفية مثل الصوفى أبو بكر الطرطوشى [1]. وقد ظهر تأثير هذا التيار على مؤلفاتهم . فقد صنف أبو بكر الطرطوشى سنة ٥١٦هـ/١١٢٢م مؤلفا بعنوان « سراج الملوك »[2]، على وزن مصنف الغزالى « نصيحة الملوك »[3] الذى صنفه (سنة ٥٠٣هـ/١١٠٩ ـ ١١٣م) .

ومثلما قدم الغزالى مصنفه للسلطان السلجوقى ملكشاه ، قدم الطرطوشى مصنفه للوزير المأموت البطائحى[4] وكلا المصنفين يدو حول « أدب الحكم فى الإسلام » وهو نوع من الكتابات الأدبية ، انتعش على يد الوزير نظام الملك السلجوقى ، وظهر فى كتابه « سياست نامة »[5]. كما كان للقاضى المخزومى الشافعى (ت٥٥٠هـ/

= من صنف فى الكلام كان أبو حذيفة واصل بن عطاء ، وكان أول المعتزلة . راجع :

السيوطى : الوسائل إلى معرفة الأوائل ، ص ١٣١ .

دى بور : تاريخ الفلسفة فى الإسلام ، ترجمة : أبو ريدة ، القاهرة ١٩٧٥م ، ص٩٥ ـ ٩٦ .

وقد تحرر علم الكلام فى القرن الرابع الهجرى من الفقه ، بعد أن كان حتى ذلك الحين خادما له .

وفى القرن الخامس الهجرى جاء الغزالى وجاهر بأنه علم دنيوى لا دينى .

راجع : آدم متيز : المرجع السابق ،جـ١ ص٣١٣ ـ ٣١٤ .

(١) أبو بكر الطرطوشى : من أهل طرطوشة بشرق الأندلس (ت٥٢٠هـ/١١٢٦م) وله عدة مؤلفات . راجع :

ابن خلكان : المصدر السابق ، جـ٤ ص٢٦٢ : ٢٦٥ .

شاخت وبوزورث : تراث الإسلام ، ترجمة : حسين مؤنس وآخرين ، (٣أجزاء) ، عالم المعرفة ، الكويت (الطبعة الأولى) ، جـ٣ ص٦٢ هامش ١ .

(٢) « سراج الملوك » راجع : حاجى خليفة : مصطفى بن عبد الله كاتب حلبى (ت١٠٦٧هـ/ ١٦٥٦م).

كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون (جزءان) (طبعةطهران ١٩٤٧م) جـ٢ ص٩٨٤ .

(٣) هو التبر المسبوك (فارسى) ترجمه إلى العربية صفى الدين أبو الحسن الاربيلى : راجع : حاجى خليفة: المصدر نفسه ، جـ٢ ص٩٥٨ .

(٤) أشاد الطرطوشى فى مصنفه بالعلماء فى عصر السلاجقة ، وخاصة الوزير نظام الملك . ويوجد كثير من أوجه التشابه بين كل من مصنف الغزالى والطرطوشى ، وهى مقارنة سبق وعقدها لنا د. جمال الدين الشيال فى مرجعه : إعلام الاسكندرية ، ص ٨٨ : ٩١ .

(٥) راجع :

نظام الملك : « الحسن بن إسحق بن العباس أبو على الطوسى » . (ت٤٨٥هـ/١٠٩٧م) . =

١١٥٥م) الذى ولاه ابن السلار قضاءمصر أثناء وزارته سنة ٥٤٧هـ/ ١١٥٢م ، عدة مصنفات يستمد فيها من كلام ابن حامد الغزالى . وذاع صيت الصوفى الحافظ السلفى من كثرة المترددين على مجلسه ، وكان يعتمد كثيرا على بداية الهداية لأبى حامد الغزالى ووضع معجما من ثلاثة أجزاء لشيوخ الإسلام[١].

ومن معالم ظهور التأثير السلجوقى فى مجال التصوف بالإضافة إلى ما ذكرناه ، أن العصر الفاطمى لم يعرف تقريبا الطرق الصوفية فيما عدا طريقة واحدة ، نعتبرها صدى للتأثير ، وليست ظاهرة حضارية منتشرة ، فقد ظهرت أول فرقة للتصوف وهى « الطائفة الكيزانية » ورائدها هو أبو عبد الله محمد بن إبراهيم بن ثابت الكيزانى توفى ما بين السنوات (٥٦٠ : ٥٦٣هـ/ ١١٦٤ ـ ١١٦٧م) [٢]. ولا شك أنه تأثر بعلماء السلاجقة الذين تلقى بعض علومه عنهم لأنه سمع عن أبى على الحسن على بن الجيلى وأبى الحسن على بن عمر الموصلى . ويذكر عنه العماد الاصفهانى [٣]: «أن له بمصر والشام فرقة تنتمى إليه فى المعتقد وأكثرهم بحوف مصر» . وقد ظهر فى فترة تكثيف الضغط من السلاجقة واتابكتهم على فتح مصر ، لأنه لقى صلاح الدين فى مصر ، كما يذكر العماد الاصفهانى [٤]. والكيزانى شافعى المذهب دفن عند قبر الإمام الشافعى [٥].

= ـ سياست نامة . ترجمة وتعليق : السيد محمد العزاوى . دار الرائد العربى ، القاهرة ١٩٧٦ ، توجد منه طبعة أخرى ترجمة : يوسف حسين بكار صادرة عن دار الثقافة بقطر ، الطبعة الثانية ١٩٨٧ .

(١) معجم الحافظ السلفى من ثلاثة أجزاء ، خصص الجزء الأول منه لشيوخ اصفهان . والجزء الثانى لشيوخ بغداد ، أما الجزء الثالث فخصصه لعلماء الاسكندرية ، والجزء الأخير كان موضوع رسالة دكتوراه فى كمبردج ١٩٧٢ ، حصل عليها د. حسن عبد الحميد صالح .

وقامت بهيجة الحسين بتحقيق الجزء الخاص بشيوخ بغداد فى مصنف بعنوان « معجم السفر » ونشر فى بغداد ١٩٧٧م .

(٢) لم تتفق المصادر على تحديد سنة تاريخ وفاته .

راجع :

ـ العماد الاصفهانى : خريدة القصر ، جـ٢ هامش ٢ ص١٨ .

ـ ابن تغرى بردى : النجوم جـ٥ ص٣٦٨ .

(٣) العماد الاصفهانى : المصدر السابق ، جـ٢ ص١٨ .

(٤) العماد الاصفهانى : المصدر نفسه جـ٢ ص١٩ ، ٢٠ .

(٥) ابن تغرى بردى : النجوم ،جـ٥ ص٣٦٨ .

على صافى حسين : المرجع السابق ، ص ٢٠٤ .

الفصل الثانى

طرق انتقال ومظاهر التأثيرات السلجوقية

فى الحضارة بمصر فى العصر الأيوبى

- طرق انتقال التأثيرات السلجوقية إلى مصر فى العصر الأيوبى :

(١ ـ العصر الفاطمى ٢ ـ صلاح الدين ٣ ـ ارتحال العلماء ورجال الدين وغيرهم ٤ ـ ارتحال التجار ٥ ـ الحروب ٦ ـ العلاقات المباشرة بين السلاجقة والأيوبيين) .

ب ـ مظاهر التأثيرات السلجوقية فى الحضارة الأيوبية بمصر :

١ ـ مظاهر التأثيرات السلجوقية فى نظم الحكم الايوبى : (السلطان ـ العلاقة بين السلاطين الايوبيين والخلفاء العباسيين ـ نائب السلطنة الأتابك) .

٣ ـ مظاهر التأثيرات السلجوقية فى العوايد السلطانية فى العصر الايوبى بمصر : (موكب تقلد السلطنة (حفلات التتويج) ، شعائر السلطنة (الغاشية ـ السنجق) .

٣ مظاهر التأثيرات السلجوقية فى الحضارة الايوبية عسكريا بمصر (العنصر التركى ـ عرض الجند والعناية بمظهرهم ـ الجاليش ـ نظام دفع رواتب الجند) .

٤ ـ مظاهر التأثيرات السلجوقية فى الحضارة الايوبية اقتصاديا بمصر : (الاقطاع ـ المصادرات المالية) .

٥ ـ مظاهر التأثيرات السلجوقية فى الحضارة الأيوبية دينيا بمصر (العقائد ـ المعتزلة ـ الأشعرية ـ التصوف ـ شيخ الشيوخ) .

٦ ـ مظاهر التأثيرات السلجوقية فى الحضارة الأيوبية علميا بمصر: (المدارس . أهمية دور رجال الدين والعلماء ـ المجادلات والمناظرات العلمية وتأثيراتها الحضارية ـ الفلسفة ـ ظاهرة حب التخليد الشخصى من خلال المؤلفات الأدبية) .

٧ ـ مظاهر التأثيرات السلجوقية فى الحضارة الأيوبية اجتماعيا بمصر ظهور دور المرأة سياسيا وإداريا .

طرق انتقال التأثيرات السلجوقية إلى مصر فى العصر الأيوبى :

١ ـ العصر الفاطمى :

فقد سبق ووضحنا فى الفصل الأول أنه فى النصف الثانى من العصر الفاطمى تشابكت العلاقات بين السلاجقة والفاطميين فى مصر ، ووضحنا بعض الدلائل المادية المؤيدة للرأى . ولذلك يعتبر النصف الثانى من العصر الفاطمى المدخل الذى مهد المعابر أمام السلطان صلاح الدين فى نقل الكثير من التأثيرات الحضارية السلجوقية إلى مصر ، الأمر الذى ظهر بوضوح فى مدينة الاسكندرية ـ بوجه خاص ـ لأنها ظلت تدين بالمذهب السنى ، بحيث وجدت التأثيرات السلجوقية فيها أرضا خصبة لنموها واحتضانها ونشرها ، الأمر الذى ظهر جليا عندما صدق أهل الاسكندرية القتال وبذل أهلها أموالهم فى سبيل نصرة صلاح الدين أثناء حصار الفرنجة سنة ٥٦٢هـ/١١٦٦م[١] وكان ابن اخت الفقيه ابن عوف [٢] يشارك فى إرسال الأسلحة إلى شيركوه ضد شاور [٣]. ولذلك تسلم شيركوه ومن ثم صلاح الدين ثغر الاسكندرية بدون قتال [٤].

وفى مصر ساعد كثير من علماء المذهب السنى صلاح الدين فى نجاح دولته مثل القاضى الفاضل ، رئيس ديوان الإنشاء للخلافة الفاطمية حتى ذكره صلاح الدين لاتباعه قائلاً :

« ما فتحت البلاد بالعساكر وإنما فتحتها بكلام الفاضل »[٥]، ووصل اعتماد

---

(١) أبو شامة : الروضتين ، جـ١ ص١٤٥ .
البندارى : « الفتح بن على بن محمد » القرن ٧هـ/١٣م) .
سنا البرق الشامى . اختصار البرق الشامى للعماد الاصفهانى . تحقيق : د. فتحية النبراوى . مكتبة الخانجى بمصر ، ١٩٧٩ ، ص٢٠ ، ٢١ .

(٢) الفقيه ابن عوف هو شيخ المدرسة العوفية بالاسكندرية .

(٣) أبو شامة : المصدر نفسه ، جـ١ ص١٦٨ .
فقد سبق أن راسل أهل الاسكندرية شيركوه ، ورفضوا تسليم الاسكندرية لشاور لأنه كان مع الصليبيين .

(٤) ابن الأثير : الدولة الاتابكة ، ص ١٣٣ .
على بيومى : المرجع السابق ، ص١١ .

(٥) العماد الحنبلى : المصدر السابق ، جـ٤ ص٣٢٧ .

صلاح الدين عليه أنه كان يسند إليه النيابة فى الحكم على مصر عندما ينصرف صلاح الدين لحرب الصليبيين فى عكا ، كما أشار ابن جبير : إلى فضل صلاح الدين فيما قرره من أبنية فى الاسكندرية للوافدين من الاقطار النائية [١].

٢ ـ صلاح الدين [٢]:

صلاح الدين نفسه كان من أهم الوسائل ، فى نقل المؤثرات الحضارية السلجوقية فى مصر . لأنه نشأ وخدم وتعلم وتربى فى حواضر السلاجقة ومع أتابكتهم ، فقد كان أبوه نجم الدين شادى وعمه شيركوه خدما بهروز شحنة العراق ـ (انظر جدول ٢) ـ من قبل السلطان محمود ابن ملكشاه السلجوقى . وولد صلاح الدين فى قلعة تكريت ، حيث كان يعمل والده دزادار « أى محافظا » على تلك القلعة ، وبذلك

---

(١) ابن جبير : « ابن الحسن محمد بن أحمد » (ت٦١٤هـ/١٢١٧م)
رحلة ابن جبير : بيروت لبنان ـ الطبعة الثانية ١٩٨٦ ، ص ١٥ .

(٢) يرجع نسب صلاح الدين إلى جده شادى من الأكراد الروادية من « دوين » من أعمال اذربيجان بالقرن من الكرخ .
راجع عن قبيلة « روادية » : على بيومى (د.) المرجع السابق ص٢٥ ـ ٢٦ .
وينتمى من جهة الأم إلى أصل عربى من بنى أمية .
راجع :
ابن شداد : « القاضى بهاء الدين يوسف بن رافع » (ت٦٣٢هـ/١٢٣٤م)
ـ النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية . طبعة الآداب والمؤيد بمصر سنة ١٣١٧هـ، ص٣٢.
وهناك طبعة أخرى حققها الدكتور : جمال الدين الشيال ـ القاهرة / ١٩٦٤م .
أبو شامة : الروضتين ، جـ١ ، ص ١٠٠ ، ١٢٩ .
ابن خلكان : المصدر السابق ، م١ ، ص ٢٥٧ : ٢٦٠ .
الحنبلى : « أحمد بن إبراهيم بن نصر الله » م٧ ص١٣٩ : ١٩ ترجمة رقم ٨٤٦ شفاء القلوب فى اخبار بنى أيوب ، مخطوط بالتصوير الشمسى محفوظة بمكتبة جامعة القاهرة (رقم ٢٤٠٣١) ، ص٣.
المقريزى : السلوك ، جـ١ ق١ ، ص٦٢ : ٦٤ (الطبعة الثانية) جمال الدين الشيال (د.) : تاريخ مصر الإسلامية ، الجزء الثانى : العصران الأيوبى والمملوكى ، دار المعارف بمصر ، ١٩٦٧ ، ص ١١، ١٢

ترى على مقربة من البلاط السلجوقى [1]. بل تلقى علومه عن علماء . نظاميات السلاجقة ، مثل قطب الدين النيسابورى ، وعبد الله بن برى النحوى وجماعته[2] ، كما عين نور الدين ، أيوب أبا صلاح الدين حاكما على دمشق بعد أن فتحها ، ثم جعل صلاح الدين شحنتها ؛ أى صاحب الشرطة فيها سنة ٥٥٥هـ/ ١١٦٠م[3]. أى أن صلاح الدين وأباه وعمه [4]، خدموا فى بيت نور الدين زمكى ، الذى ورث النظم والحضارة السلجوقية فتشبع بها صلاح الدين [5]. كما يلاحظ أن الأيوبيين الأكراد [6]، كانوا كالسلاجقة الأتراك لم يمسهم الرق (انظر جدول ٢) .

---

(١) راجع :

ابن الأثير : الدولة الاتابكة ، ص ١١٩ .

ابن واصل : « جمال الدين محمد بن سالم » (ت٦٩٧هـ/ ١٢٩٧م) مفرج الكروبفى أخبار بنى أيوب ، ٣ أجزاء من تحقيق د. جمال الدين الشيال . الاسكندرية سنة ٥٣ ، ٥٧ ، ٦٠م ، جـ١ ص٧ ـ (جـ٤ ، ٥ ، تحقيق د. حسين محمد ربيع ، القاهرة ٧٢ ـ ١٩٧٤م) .

العماد الحنبلى : المصدر السابق ، جـ٤ ، ص ٢٢٦ ، ٢٢٧ .

على بيومى : المرجع السابق ، ص٦٠ ، ٦٦ .

(٢) راجع :

السبكى : « ابن نصر عبد الوهاب بن تقى الدين » (ت٧٧١هـ/١٣٠٩م) :ـ طبقات الشافعية الكبرى : (٦ أجزاء) ، المطبعة الحسينية بمصر ، (ط١٣٢٤هـ/١٩٠٧م) ، جـ٤ ، ص ٣٢٦ .

سرهنك : المرجع السابق ، جـ٢ ص١٥١ .

(٣) راجع :

أبو شامة : الروضتين : جـ١ ، ص ١٠٠ ، ١٢٩ .

ابن تغرى بردى : النجوم ، جـ٦ ص ٥٧ .

على بيومى (د.) : المرجع السابق ، ص ٨٤ .

ماجد : الناصر صلاح الدين ص٦١ .

(٤) راجع : أحمد السعيد سليمان (د.) : تاريخ الدول الإسلامية ومعجم الأسر الحاكمة ، دار المعارف بمصر ، ١٩٧٢ ، ص ١٤٣ .

(٥) على بيومى : المرجع نفسه ، ص٦٤ : ٩١ .

(٦) الأكراد : سكن الأكراد منطقة شمال غرب إيران ، وشمال العراق وجنوب القوقاز وغرب آسيا الصغرى ، وهى منطقة جبلية تقع على حافة الأراضى القاحلة ، والأمطار القليلة أحيانا . واشتهرت المنطقة قديما بأنها ممر للطرق التجارية التى تربط آسيا الصغرى وآشور شمال بلاد الرافدين . وسكنت هذه المناطق قبائل كردية ترعى المعز والخيل والأبل ، وبعضهم مستقرون وهم الفلاحون ، ويقال أن بلاد الجبال الإيرانية التى تعرف بكردستان ، كانت تدخل فى ملك سلطان السلاجقة الذى تمكن =

٣ ـ ارتحال العلماء والصوفية وغيرهم :

كثرت حركة ارتحال العلماء من البلاد السلجوقية إلى مصر منذ أواخر العصر الفاطمى ، وازدادت اثناء تولى أسد الدين شيركوه لوزارة العاضد الفاطمى سنة ٥٦٣هـ/١١٦٧م بحيث وصفه أبو شامة [١] :

« أنه كان مقو مذهب السنة غارس فى البلاد أهل العلم والفقه والتصوف والدين والناس يهرعون إليه من كل صوب ويفدون إليه من كل جانب ، وهو لا يخيب قاصدا ولا يعدم وافدا » . وصار صلاح الدين على نفس أسلوب شيركوه فى كثرة استقدام المشارقة من العلماء والصوفية إلى مصر لكى يعانوه على تثبيت المذهب السنى وحكم الأيوبيين لمصر . ولذلك تعهد أن ينفق على سائر من يلجأ إلى المساجد والمشاهد بالقرافة والقاهرة من الغرباء والصلحاء والصوفية وجعل جامع أحمد بن طولون مأوى للغرباء من المغاربة ، وترك غرباء الشام يكسبون معاشهم بممارسة ما يلائمهم من الخدمة . وأنشأ خانقاة سعيد السعداء برسم الصوفية القادمين من خارج مصر ، ووقفها عليهم سنة ٥٦٩هـ/١٠٧٣م ، بحيث أن الصوفية أصبحوا وكأنهم ملوك بهذه البلاد[٢] . فقد كان العلماء الوافدون يرون أن واجبهم الدينى يحتم علهم إعادة الحماس الدينى للمذهب السنى والقضاء تماما على المذهب الشيعى ، وتعريف الناس بأصول دينهم ، وفى نفس الوقت كان هؤلاء الصوفية القادمون من الخارج يأنسون بما يلاقونه من حسن الجزاء والرعاية من السلاطين والأمراء [٣] . أما المدارس الكثيرة التى سارع الأيوبيين بانشائها فتعتبر وسيلة أخر من وسائل جذب خيرة العلماء من

---

(١) أبو شامة : الروضتين ، جـ١ ص١٦٠ .

(٢) راجع :

المقريزى : الخطط ، جـ٢ ، ص ٤١٥ .

السيد الباز العرينى (د.) : مصر فى عصر الأيوبيين ، القاهرة ١٩٦٠ ص٢١٦ ، ٢١٨ .

(٣) عبد الغنى محمود عبد العاطى . التعليم فى مصر زمن الأيوبيين والمماليك (رسالة ماجستير غير منشورة ، قدمت لكلية الآداب ، جامعة القاهرة ـ قسم التاريخ (١٩٧٥) ، ص٦٦

البلاد الإسلامية وبخاصة من الشرق ليتولوا التدريس فيها ويحققوا لها النجاح الذى سبق وحققوه من خلالها فى الشرق .

بل أن صلاح الدين اعتمدفى معظم إدارة شئون دولته على العلماء الوافدين من خارج مصر ، فالذى أفتى صلاح الدين بتوقيت زوال الخلافة الفاطمية ، كان الشيخ نجم الدين الخبوشانى[1] (ت٥٨٧هـ/١١٩١م) ، الفارسى الأصل ، الذى تتلمذ على أبى حامد الغزالى ، وجاء مصر سنة ٥٦٥هـ/١١٦٩م ، ليساهم فى محاربة المذهب الشيعى ، وخطب للعباسيين على منابر مصر سنة ٥٦٧هـ/١١٧١م ، واعتمد عليه صلاح الدين فى نشر العقيدة الأشعرية ، وكان يحدث فى جامع عمرو عن الإمام القشيرى من صوفية الشرق السلجوقى . وأنشأ له صلاح الدين المدرسة الشافعية «الصلاحية» ليدرس فيها سنة ٥٧٢هـ/١١٧٦م [2].

---

(١) الخبوشانى : لقب ينسب إلى مسقط رأسه فى خبوشان من نيسابور . راجع :
ابن خلكان : المصدر السابق ، م٤ ص٢٣٩ ـ ٢٤٠ .
ابن تغرى بردى : المصدر السابق ، م ص٣٤٣ ، م٦ ص١١٥ ـ ١١٦ .
ابن إياس : المصدر السابق ، جـ١ ، ص ٢٤٥ .
ابن كثير : المصدر السابق ، جـ١٢ ص٣٤٧ .
وظل متأثرا بتقاليد بلاده فى ارتداء الطرطور أثناء إقامته فى مصر .
أبى الفدا : « عماد الدين إسماعيل بن على الملك المؤيد » ، (ت٧٣٢هـ/١٣٣١م) .
ـ المختصر فى أخبار البشر (المعروف باسم تاريخ أبى الفدا) . نقله محمد أفندى التونسى بالقسطنطينية أواخر ١٢٨٦هـ (أربعة أجزاء) جـ٣ ، ص٥١ .
العماد الحنبلى ، المصدر السابق ، جـ٤ ص٢٨٨ .
السيوطى : حسن المحاضرة ، جـ١ ص٤٠٦ .
على مبارك باشا : الخطط التوفيقية (طبعة مصورة عن الطبعة الثانية بالقاهرة ١٩٦٩) الهيئة المصرية العامة للكتاب جـ٥ ص٧٠ .
(٢) البندارى والأصفهانى : المصدر السابق ، ص١٢٠ .
ابن خلدون : المصدر السابق ، م٧ ، ص١٧٢ .

وأول من خطب للعباسيين بعد سقوط الخلافة الفاطمية ، كان أحد العلماء العجم الوافدين ، وهو الشيخ شمس الدين أبي المضاء البعلبكي ـ رغم أنه كان علويا ـ في الجامع العتيق بمصر سنة ٥٦٧هـ/١١٧١م[١]. وحتى بعد أن صرف قضاة مصر من الشيعة ، ورغم وجود أغلبية في مصر من السنة ، فقد أسند القضاء إلى القاضي الشافعي عبد الملك بن درباس الهمداني سنة ٥٦٥هـ/١١٦٩ ، وهو من العلماء الوافدين من الشرق ، كردي الأصل ، من الموصل[٢]. ومن أشهر الرجال الذين اعتمد عليهم صلاح الدين كثيرا ، أبو سعيد بن عبد الله الأسدي ، الملقب بهاء الدين (قراقوش) (ت٥٩٧هـ/١٢٠٠م)[٣]، وهو رومي الأصل ، من خارج مصر ، كان ينوب عن صلاح الدين في الديار المصرية ، وشارك معه في الحرب عندما هاجم

---

(١) أبو شامة : الروضتين ، جـ١ ص١٩٣ .

ابن واصل : المصدر السابق ، جـ١ ، ص ٢٠٠ .

السيوطي : حسن المحاضرة ، جـ٢ ص٦ .

البنداري والأصفهاني : المصدر السابق ، ص١١٠ .

ابن تغري بردي ـ النجوم جـ٥ ص٣٤٣ .

(٢) ابن الأثير : الكامل ، جـ١٢ ص٤٢ .

ابن خلكان : المصدر السابق ، م٣ ، ص٢٤٢ ، ٢٤٣ .

المقريزي : اتعاظ الحنفا ، جـ٣ ، ص٣٢٠ .

الخطط ، جـ٢ ص٣٥٨

ابن تغري بردي : النجوم ، جـ٥ ، ص ٣٨٥ .

ابن إياس : المصدر السابق ، جـ١ ص٢٥٨ .

(٣) الاسدي : لقب أطلق على بهاء الدين نسبة إلى سيده أسد الدين شيركوه ، راجع عن سيرته الشخصية .

أبو شامة (شهاب الدين بن محمد بن إسماعيل المقدسي الدمشقي (ت٦٣٢هـ : ١٢٣٤) .

ـ تراجم رجال القرنين السادس والسابع (المعروف بالذيل على الروضتين) .

نشره وراجعه وطبعه : السيد عزت العطار ، دار الكتب المصرية ، القاهرة سنة ١٩٤٧ ، ص١٩ .

ابن خلكان : المصدر السابق ، م٤ ، ص٩١ ، ٩٢ .

عفاف سيد صبره (د.) : بهاء الدين قراقوش : الوزير المفترى عليه (مجلة الدارة) ، العدد الثاني ، سنة ٨٧م ، ص١٣٧ .

الصليبيون مصر سنة ٥٦٩هـ/١١٧١م وعندما حاربهم صلاح الدين في عكا . واعتمد عليه صلاح الدين كثيرا في تنفيذ جميع المشروعات الحربية التي قرر إقامتها في مصر مثل بناء ما تهدم من أسوار القاهرة ، وبناء قلعة الجبل والبئر الملحق بها والذي يعتبر من العجائب ، وبناء الخندق الفاصل بين القلعة وجبل المقطم ، وتحصينات دمياط وقلعة تنيس وقلعة سيناء وغيرها . كما كان سفيرا لصلاح الدين إلى بلاد اليمن في مهمة عسكرية ووصل اعتماده عليه أنه لم يكن يخرج عن رأيه . وبعد وفاة صلاح الدين استطاع بمعونة الأمراء مساعدة العزيز بن صلاح الدين على أن يستقل بسلطنة مصر وناب عنه سنة ٥٩٠هـ/١١٩٣م ، وكان شاد أموال ديوان الزكاة[١] .

ومن أكفأ رجال صلاح الدين أبو المحاسن يوسف بن رافع بن شداد وفد مع صلاح الدين ، موصلي الأصل ، ولد سنة ٥٣٩هـ/١١٤٤م ، وكان معيدا بنظاميه بغداد لمدة أربع سنين ، ثم استاذا بمدرسة الموصل الكبرى ، وصار قاضيا لعسكر صلاح الدين [٢] .

ومن أعيان أمراء صلاح الدين العالم الوافد من خارج مصر ، الفقيه ضياء الدين عيسى الهكاري (ت٥٨٧هـ/١١٩١م) ، تفقه في نظامية جزيرة ابن عمر (انظر الخريطة ١) ، وهي المدرسة التي أنشأها الوزير السلجوقي نظام الملك ، وكان الهكاري إماما لأسد الدين شيركوه ومن قدماء عساكره. وهو الذي ساهم مع قراقوش حتى تولى صلاح الدين الوزارة للخليفة العاضد، كما كان رفيقه في الحرب ضد الصليبيين[٣] .

---

(١) راجع : أبو شامة : الروضتين ، جـ١ ص٢٦٨ .
ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٩١هـ .
المقريزي : الخطط جـ٢ ص٢٠٣ .
السلوك جـ١ ق١ ص١٠٥ ، ١٦١ : ١٦٢ ، ١٦٨ .
عفاف السيد صبره : المرجع السابق ، ص ١٤٢ ، ١٦٩ .

(٢) حسين أمين (د.) : تبادل التأثيرات الحضارية بين مصر والعراق . مجلة كلية الآثار جامعة القاهرة ، العدد الذهبي جـ١ لسنة ٧٨ ، ص ١١٦ .

(٣) ابن الأثير : الكامل ، جـ١٢ ص٤٢ / عفاف صبره : المرجع السابق ، ص١٣٩ .

ومن علماء نظامية بغداد ، ثم قدم مصر ، وسكن القرافة وعمل بالتدريس [1] .

ومن الأمور الدالة على مدى تشجيع صلاح الدين على ارتحال العلماء من المشرق إلى مصر ، والاعتماد عليهم فى إدارة أمور البلاد، أن أخا القاضى كمال الدين الشهرزورى قاضى دمشق ، عندما هاجر إلى مصر أنعم عليه صلاح الدين بجزيرة الذهب ودار الذهب بمصر[2] ووفر حظه من الذهب ، وملكه دارا بالقاهرة نفيسة ورتب له الوظائف[3] .

وتعتبر وظيفة مشيخة الخانقاة من أجل الوظائف الجديدة فى الدولة الأيوبية ، فقد اسندت هذه الوظيفة أول ما أسندت إلى أحد العلماء المرتحلين إلى مصر فى الشرق ، بل ومن أسرة سبق أن خدمت السلاطين السلاجقة وأتابكتهم ، وهى أسرة حموية الجوينى بن على . وقد أسندت مشيخة خانقاة سعيد السعداء لأحد أفراد هذه الأسرة وهو الشيخ صدر الدين بن حموية الجوينى الفارسى الأصل (ت٦١٧هـ/١٢٢٠م)[4]

---

(١) حسين أمين : المرجع السابق ، ص ١١٤ .

(٢) دار الذهب : هى حاليا قد اندثرت . وكانت تقع خارج القاهرة فيما بين باب الخوخة وباب سعادة وبناها الأفضل أبو القاسم شاهنشاه .

راجع المقريزى : الخطط جـ٢ ص٦٣ ، ٦٤ .

(٣) أبو شامة : الروضتين جـ١ ص٢٦٢ .

(٤) صدر الدين بن حموية : ينسب إلى مسقط رأسه فى جوين من بلاد فارس ، وهى مدينة تقع على طريق القوافل من بسطام إلى نيسابور ، ويقال أنه من ولدرزم ابن يونان أحد قواد كسرى أنوشروان وكان حمويه جد محمد وأبى سعيد ، وهما من أمراء وقادة خراسان ، اللذين اتجها إلى الزهد ، وخدما فى عصر السلاجقة . راجع :

ابن الأثير : الكامل ، جـ١٢ ص١٨٤ .

أبى الفدا : المصدر السابق ، جـ٣ ص ١٣٣ .

المقريزى : السلوك ، جـ١ ق١ ص٢٦١ .

ابن تغرى بردى : « جمال الدين يوسف » (ت٨٧٤هـ/١٤٦٩م) .

المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافى ، تحقيق : د.محمدمحمد أمين ، (٤ أجزاء) الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٦م جـ١ ، ص١٥٥ : ص ١٥٧ ، (حاشية ٤) . راجع :

حامد زيان غانم (د.) : العلماء بين الحرب والسياسة (أسرة شيخ الشيوخ) القاهرة سنة ١٩٧٨م ، ص ٩ : ٢٠ .

ومن الجدير بالملاحظة كذلك أن مناصب التدريس فى المدارس التى شيدها صلاح الدين لنشر المذهب السنى أسندت كلها أو جلها إلى علماء وافدين من خارج مصر . ووظيفة التدريس كانت تعد من أهم الوظائف الرسمية التى صاحبت قيام الدولة الأيوبية ف مصر ، لما لها من دور هام فى تثبيت أركان الحكم الأيوبى والمذهب السنى بمصر .

وقد أسندت وظيفة تدريس « مدرسة منازل العز » للعالم شهاب الدين الطوسى (ت٥٩٦هـ/١١٩٩م) ، وقد وفد مصر سنة ٥٧٨هـ/١١٨٢م)[١] . قادما من طوس بخراسان ، وكان من علماء نظامية بغداد ، وأظهر مذهب الأشعرى بمصر لدرجة أن الحنابلة ثاروا عليه . وكان أول من تولى التدريس بالمدرسة الناصرية ، أحد علماء الشافعية القادمين من الشرق هو أبو العباس أحمد ابن المظفر المعروف بابن زين التجار[٢] (ت٥٩١هـ/١١٩٤م) . كما درس بها أبو الخير مظفر بن أبى الخير الملقب بالأمير (ت٦٢١هـ/١٢٢٤م بشيراز التى وفد منها) ، وتلقى علومه ببغداد ، وتولى الإعادة بالنظامية ، ثم درس بمصر حيث استفاد منه أهلها وأخذوا عنه [٣] . كما حدث بالمدرسة المجاورة لضريح الإمام الشافعى الشيخ محمد أبو عبد الله بن على التوقانى (ت٦٣٧هـ/١٢٣٩م) ، وهو من توقات بطوس ، وأخذ من علماء مدينة تبريز، ووصل إعجاب صلاح الدين بالشيخ بن حمويه أنه اسند إليه عدة وظائف

---

(١) أبو شامة : الذيل على الروضتين ص١٨ .
ابن كثير : المصدر السابق ، جـ١٣ ص٢٤ .
العماد الحنبلى : المصدر السابق ، جـ٤ ص٣٢٨ ،
عمر بن شاهنشاه : « محمد بن تقى الدين ـ الأيوبى صاحب حماه) ، (٦١٧هـ/١٢٢م) .
ـ مضمار الحقائق وسرالخلائق ـ تحقيق د. حسن حبشى ، عالم الكتب ـ القاهرة ١٩٦٨ ، ص١٢١ .

(٢) المقريزى : الخطط ، جـ٢ ص ٣٦٣ .

(٣) السيوطى : حسن المحاضرة ، جـ١ ص٤٠٧ .
حسين أمين : المرجع السابق ، ص١٤ .

أخرى، سوف نشير إليها فيما بعد . وظل هذا الشيخ وأولاده فى خدمة بنى أيوب فى مصر والشام . وتوارث هذه الأسرة الفارسية الأصل ، الخدمة لملوك بنى أيوب ، يذكرنا بأسرة نظام الملك وأولاده وتوارثهم الخدمة للسلاطين السلاجقة ، وهى أسرة فارسية الأصل أيضًا . وذاع صيت ابنه معين الدين بن صدر الدين بن حموية فى خدمة السلطان الكامل فى مصر ، فخرج معه لقتال الصليبيين سنة ٦٢٥هـ/١٢٢٧م . وكان رسوله إلى الخلفاء العباسيين ، وإلى بدر الدين لؤلؤ من اتابكة السلاجقة فى الموصل . وكان معين الدين يجمع بين العلم والأدب وفنون القتال والسياسة [(١)].

وفيما يبدو أن وظيفة مشيخة الخانقاه ـ سعيد السعداء ـ ظلت حكرا على أفراد سرة بن حموية الجوينى . وبحيث ظلت تسند هذه الوظيفة إلى العلماء والصوفية الوافدين من خارج مصر [(٢)]

وقد ساهم كثير من العلماء الوافدين من الشرق فى النهوض بالحضارة المصرية الإسلامية فى العصر الأيوبى مثل الشاعر علم الدين الشاتانى (ت٥٧٢هـ/١١٧٦م)[(٣)]. والأديب عثمان بن عيسى (ت٥٩٩هـ/١٢٠٢م) بمصر[(٤)]، وأبو عيسى محمد الترمذى ، من العلماء فى علم الحديث وهو من علماء العجم [(٥)]. ومنهم الرحالة الحافظ عبد الغنى بن جعفر المقدسى الذى ارتحل إلى اصفهان وبغداد ودخل مصر ، وكان له فيها حشود من الحنابلة حتى أنه كان لا يستطيع المشى عندما

---

(١) راجع : أبى الفدا : المصدر السابق ، جـ٣ ص١٣٣ .
المقريزى : السلوك جـ١ ق١ ، ص٢٥٨ : ٢٦١ .
ابن تغرى بردى : النجوم ، جـ٦ ص٥٩٥ .
حامد زيان : المرجع السابق ، ص ٢١ : ٤٧ .
(٢) راجع : السيوطى ، حسن المحاضرة جـ٢ ص٢٦٠ ـ ٢٦١ .
(٣) أبو شامة : الروضتين ، جـ١ ص ٢٧١ .
(٤) ياقوت : المصدر السابق ، جـ٢ ، ص ٤٨٤
(٥) ياقوت : المصدر نفسه ، جـ٢ ص٢٧

يخرج لصلاة الجمعة بالجامع ، من كثرة الخلق الذين اقبلوا عليه ليتبركوا به ، توفى بمصر سنة ٦٠٠هـ / ١٢٠٣م[١] . وهوصاحب «الكمال فى معرفة الرجال» فى علم الحديث[٢] . حتى والى مصر فى العصر الأيوبى كان من الوافدين المشارقة وهو الأمير عز الدين إبراهيم الجوينى من نيسابور (ت٦٠١هـ/١٢٠٤م)[٣] . علاوة على أن معظم المناصب الكبرى وخاصة فى الجيش المصرى أسندت إلى العناصر الغير مصرية [٤] .

ولم يقتصر الأمر على العلماء الوافدين فقط ، بل شارك أيضًا المصريون الذين ارتحلوا إلى الشرق السلجوقى فى نقل التأثيرات حيث تلقوا علومهم فى نظاميات السلاجقة ، ثم عادوا حاملين معهم كثيرا من المؤثرات الحضارية السلجوقية . مثل عبد السلام بن على بن منصور الدمياطى المعروف بابن الخراط (ت٦١٩هـ/١٢٢٢م) ، فقد تفقه فى نظامية بغداد على الربيع الواسطى مدرس النظامية ، ثم عاد إلى مصر وتولى قضاء مصر والوجه القبلى والتدريس [٥] .

وتفقه الفقيه المصرى أبو إسحاق إبراهيم بن منصور فى بغداد على أبى بكر محمد بن الحسين الأموى ، وعلى أبى الحسن محمد بن المبارك البغدادى ، حتى أطلق عليه لقب « البغدادى » ، وعاد إلى مصر وعمل بها حتى توفى سنة ٥٩٦هـ/١١٩٩م[٦] .

---

(١) ياقوت : المصدر السابق ، جـ٢ ص ١٦٠ .

(٢) ذكر هذا المصنف فى حاجى خليفة ، المصدر السابق ، (طبعة ١٢٧٤هـ) ، جـ٢ ص١٥٠٩ .

(٣) المقريزى : السلوك : جـ١ ق١ ص١٦٤ .
راجع المزيد عن علماء الشرق المرتحلين .
السيوطى : حسن المحاضرة ، جـ١ ص٥١٨ ، ٥١٩ .

(٤) نظير حسان سعداوى : جيش مصر إيام صلاح الدين ، الطبعة الثانية ١٩٥٩ ، مكتبة النهضة المصرية، الطبعة الثانية ص٣٠ ، ٣١ .

(٥) السيوطى : حسن المحاضرة ، جـ١ ص ٤١٠ ، جـ٢ ص ١٦٠ .
حسين أمين : المرجع السابق ، ص١١٦ .

(٦) العماد الحنبلى : المصدر السابق ، جـ٤ ص٣٢٣ .
حسين أمين : المرجع السابق ، ص ١١٥ .

٤ ـ ارتحال التجار :

ظلت الطرق التجارية المنوه عنها في الفصل الأول ، من أهم طرق الاتصال الحضاري في العصر الأيوبي ، فقد ذاع صيت مدينة دمشق في العصر الأيوبي ـ بوجه خاص ـ بفضل موقعها الجغرافي كنقطة تلاقي البضائع القادمة من مصر وبلاد العرب والمتجهة إلى الشمال ، فقد وردت إلى دمشق تجارة غرب آسيا بكميات هائلة ، يذهب جزء منها إلى مصر لأن العلاقات بين دمشق والقاهرة كانت نشيطة في العصر الأيوبي وبخاصة بعد أن اتحد البلدان تحت الحكم الأيوبي [١] ، وصارت نقطة التقاء هامة بين سلاجقة الروم والأيوبيين . وازدادت حركة ارتحال التجار منذ وزارة صلاح الدين للعاضد ، فقد تهيأ لاستقبال والده بمصر ، وحضر الأخير في ١٤ رجب سنة ٥٦٤هـ/ ١١٦٨م « ومعه كثير من التجار ممن له هوى في مصر ، وغرض في صلاح الدين »[٢] ونستنتج من ذلك أن ملوك وسلاطين بني أيوب شجعوا على ارتحال التجار إلى مصر ، بل أن منهم من صاحب التجار ، مثل الأمير شاهنشاه بن أخي صلاح الدين الذي صاحب التاجر الكندي « زين بن الحسن بن سعيد » البغدادي الذي كان يبتاع الخليع ويسافر إلى بلاد الروم ويعود إليها ، وسافر مع شاهنشاه إلى مصر .

ومن الوسائل التي استخدمها الايوبيين في مصر من أجل رواج حركة التجارة

= منذ تملك العراق ، ودانت أيضاً بلاد الأكراد في شهرزور للسلاجقة منذ حكم السلطان طغرلبك .

راجع :

ابن خلكان : المصدر السابق ، م١ ص٢٥٦ . المقريزي : السلوك ، جـ١ ق١ ص٣٢ ـ ٣٣ .

ماجد: المرجع السابق ، ص٥٢ .

أحمد صادق : (د.) : تاريخ مصر الاجتماعي والثقافي . دار ابن خلدون ، بيروت ، الطبعة الأولى سنة ٧٩م ، ص ٣٥٢ ونحن إذا قارنا طبيعة الموقع الجغرافي للمنطقة التي خرج منها الأيوبيون لوجدناها تشبه من حيث الأحوال الجغرافية المنطقة التي خرج منها السلاجقة . راجع الفصل الأول كما أن السلاجقة والأكراد الغواني مسقط رأسهم نظم الحياة القبلية التي تقوم أساسا على الانتماء إلى الاقليم الواحد أكثر من ارتباطهم بعلاقة القرابة أو النسب ، وهذه الرابطة بالأرض تشكل نظاما دفاعيا قويا ، وهي قبائل تضم الرحل وشبه الرحل والمقيمين .

(١) هايد : المرجع السابق ، ص ١٨٢

(٢) ابن خلكان : المصدر السابق ، م٢ ص٣٤٠ .

أبو شامة : الذيل على الروضتين ، ص ٩٥ .

وجذب التجار إلى مصر الاهتمام ببناء العمائر المخصصة للتجار [1]. مثل « خان السبيل» الذى شيده قراقوش خارج باب الفتوح من اخطاط الحسينية لابناء السبيل والمسافرين بغير أجرة[2]. كما وصفت المصادر قيسارية جهاركس بالقاهرة ، والتى شيدت من أجل التجار الوافدين من خارج مصر ، بأنهم لم يروا فى شيء من البلاد مثلها [3].

وقد ساهم التجار المرتحلون في تغذية تيار التأثيرات الحضارية الوافدة من الشرق السلجوقي سواء بما يحملونه من أخبار ومعلومات وتحف ومصنوعات ، أو عن طريق نفس التجار لأن الكثير منهم كانوا من العلماء ، وكان ارتحالهم من أجل التجارة والعلم معا مثل التاجر أبو الرضا بن أبى اليسر (٥٢٩ ـ ٥٩٢هـ/ ١٢٣٤ ـ ١١٩٥م) ، وكان أبوه قاضيا نزيل بغداد ، وهو نفسه كان من العلماء وسافر إلى مصر والشام للتجارة [4]. ومثل التاجر العلامة البغدادى أبو الفتوح على بن المبارك الجلالى الكمال (ت٦١٣هـ/١٢١٦م) الذى حضر الاسكندرية وسمع الحافظ أبا طاهر السلفى[5].

---

(١) واكب اهتمام الايوبيين بطرق التجارة والعمائر المخصصة للتجار ، اهتمام السلاجقة ـ بنفس المجال ـ فقد ذاع عنهم اهتمامهم بطرق التجارة فأنشأوا الخانات والمراحل على طول هذه الطرق ، والتى كانت فى أيام السلطان ملكشاه السلجوقى آمنه والقوافل تسير « من ما وراء النهر إلى أقصى الشام وليس معها خفير ، ويسافر الواحد والاثنين من غير خوف ولا رهبة » .
ابن خلكان : المصدر السابق ، م٥ ص٢٨٥ .
واسقط ملكشاه المكوس من سائر التجار فى الطريق وخراسان وأى بلد من البلاد الجارية فى مملكته فكثر له الدعاء .
ابن القلانسى : المصدر السابق ص ١٢٨/ ص١٩٤ (طبعة ١٩٨٣م) .

(٢) المقريزى : الخطط جـ٢ ص ٣٦ .

(٣) ابن خلكان : المصدر السابق م٢ ص٣٨١ .
المقريزى : الخطط جـ٢ ص٨٧ .

(٤) ابن تغرى بردى : المنهل ، جـ١ ص ٣٢٣ .

(٥) أبو شامة : الذيل على الروضتين ، ص٩٩ .

٥ ـ الحروب :

تعتبر الحروب من الوسائل الهامة فى نقل التأثيرات الحضارية بين الدول ، سواء من خلال أسرى حروب الطرفين ، إذ يسخر الأسرى لانجاز الأعمال التى يجيدونها أو لاتمام المنشآت المعمارية ، أو من خلال هروب الناس من البلد المندلع فيها الحرب إلى البلاد الآمنة للحصول على العمل والرزق المضمون ، أو من خلال القواد والجنود حيث يشاهدون من خلال الحرب معالم حضارة البلد التى احتكوا بها حربيا ، أو من خلال هجرة الأمراء هربا من سوء الأحوال السياسية ، وهؤلاء عادة ما كان يسند لهم بعض المناصب الهامة .

لذا فإن تعرض بلاد الشرق الأوسط للعديد من الحروب ـ خلال فترة حكم الايوبيين لمصر ـ وخاصة مع الصليبيين والتتار ، كانت من أهم دواعى الهجرة إلى مصر بوجه خاص حيث الأمان .

ومن أشهر العلماء الذين فروا إلى مصر ، من حرب التتار ، نجم الدين الرازى الشهير « بابن الداية » (٥٧٣ـ٦٥٤هـ/١٠٧٧ـ١٢٥٦م) فرحل من همدان إلى اردبيل إلى آسيا الصغرى ، ثم سافر إلى مصر [١] . وفى أثناء غزو التتار لحلب سنة ٦٥٨هـ/١٢٦٠م ، هرب الملك الناصر الأيوبى ، مع بعض أمرائه ووزيره ابن العديم إلى القاهرة ، وظل هذا الوزير بمصر حتى توفى بها سنة ١٢٦٢/٦٦٠م [٢] .

ويحتمل أن عددا كبيرا من الأتراك ، الذين اشتراهم الصالح نجم الدين أيوب ، كانوا من أتراك السلاجقة . لأن التتار عندما هاجموا الأتراك سنة ٦٢٦هـ/١٢٢٨م ، كسروهم وأسروهم ونهبوهم ، ثم باعوا أولادهم ونسائهم للتجار ، الذين جلبوهم مرة ثانية للبيع فى الأمصار المختلفة ، حيث اشترى منهم الصالح نجم الدين وبنى لهم القلعة [٣] فى الروضة .

كما أسر الملك الكامل صاحب مصر سنة ٦٣٣هـ/١٢٣٥م، عددا كبيرا من أمراء سلاجقة الروم فى الحرب التى دارت بينهم فى قلعة دنيسر وأرسلهم إلى مصر [٤] .

---

(١) شرح ابن الداية سياحته هذه فى مصنفه : « مرصاد العباد » ، راجع : إبراهيم الدسوقى شتا (د.) : دور المتصوفة الإيرانيين فى ميدان التصوف الإسلامى .
كتاب « جوانب من الصلات الثقافية بين مصر وإيران » ، القاهرة ، ١٩٧٥م ، ص ٢٨٩ .

(٢) المقريزى : السلوك ، جـ١ ق١ ص٢٧٢، ٤٣٣ ، ٤٧٦ .

(٣) ابن إياس : المصدر السابق ، جـ١ ص٢٨٩ .

(٤) المقريزى : السلوك ، جـ١ ق٢ ص٢٩١ : ٢٩٢ .

٦ ـ العلاقات المباشرة بين السلاجقة والأيوبيين :

قام بين السلاجقة والأيوبيين فى مصر علاقات مباشرة ومتنوعة يغلب على بعضها الطابع السياسى ، وقد وضحنا فى الفصل الأول كيف يكون للعلاقات السياسية تأثيراتها الحضارية المتبادلة ، وكانت هذه العلاقات تأخذ طابعاً وديا فى بعض الأحيان ، وطابعًا عدائيًا فى أحيان أخرى . فقد حرص سلاطين الأيوبيين فى معظم فترات تاريخهم على إيجاد علاقات ودية مع السلاجقة فى الأناضول حتى لا ينضموا إلى الزنكيين ضدهم ، هذا من جهة ، ومن جهة أخرى لأن بلادهم تعتبر من الطرق الهامة التى يمكن أن يمر منها الفرنجة إلى الشرق وسواحل بلاد الشام [١] ومصر ، ومع ذلك اضطر صلاح الدين فى أوائل سلطنته على مصر أن يصطدم بالسلاجقة حربيًا ، لأنهم انتهزوا النزاع الذى حدث بينه وبين نور الدين زنكى ، واستولوا على بعض الحصون التابعة للأيوبيين فى بلاد الشام وهى حصن رعبان[٢] ، فحاربهم بنفسه (٥٧٥ : ٥٧٦هـ/ ١١٧٩ ـ ١١٨٠م) لكى يسترد هذه الحصون[٣] .

وانهزم السلاجقة أمام عسكر صلاح الدين بقيادة ابن أخيه تقى الدين عمر بن شاهنشاه ، الذى أسر جماعة من الروم السلاجقة ، ولكن صلاح الدين ذهب بنفسه إلى السلطان قلج أرسلان حتى تصالح الطرفان (سنة ٥٧٦هـ/ ١١٨٠م)[٤] .

وفكر صلاح الدين فى أواخر أيامه أن يفتح بلاد سلاجقة الروم لأنها فى نظره طريق الفرنجة ، وأسرع البلاد مأخذاً لضعفها ، وأمام نظرة صلاح الدين العدوانية لسلاجقة الروم اضطر الفرنجة أن يحسنوا علاقتهم مع صلاح الدين[٥] . واستطاع

---

(١) عبد المنعم ماجد : الناصر صلاح الدين ، ص ١٢٢ .

(٢) حصن رعبان : هى قلعة تقع بين حلب وسميساط غربى الفرات .

عمر بن شاهنشاه : المصدر السابق ، هامش ٨ ص١٨ .

(٣) ابن الأثير : الكامل ، جـ١١ ص٤٥٨ ، الحنبلى : المصدر السابق ، ص ٢٥ .

(٤) راجع : أبو شامة : الروضتن ، جـ٢ ص٩ .

أبى الفدا : المصدر السابق ، جـ٣ ص ٦٥ ، ٦٦ .

عمر بن شاهنشاه : المصدر السابق ، ١٨ ، ١٩ .

المقريزى : السلوك ، جـ١ ق١ ص٩١ .

(٥) ماجد : الناصر صلاح الدين ، ص ١٢٣ .

صلاح الدين سنة ٥٨١هـ/ ١١٨٥م أن يستولى على كل بلاد الموصل من سلاجقة الروم ، ولم يرضخ لتوسلات السلطان قلج أرسلان بل أخذ موافقة الخليفة العباسى على ما فعله(١) .

وكان سلاجقة الروم يلجأون إلى الأيوبيين فى كثير من الأحيان لفض الخصومات بين بعضهم البعض أو بين جيرانهم أو أعدائهم ، فقد استغاثوا سنة ٥٧٦هـ/ ١٨٨٠م بالسلطان صلاح الدين ضد الأرمن الذين اعتدوا على بلادهم ، فتوجه صلاح الدين لنصرتهم وانتصر على الأرمن وأسر منهم حتى تم الصلح بين الأرمن وسلاجقة الروم سنة ٥٧٦هـ/ ١١٨٠م(٢) . كما استطاع صلاح الدين فى نفس العام أن يصلح بين نور محمد بن قرا أرسلان بن ارتق صاحب كيفا (حكم من ٥٦٢ : ٥٨١هـ/ ١١٦٧ ـ ١١٨٥م)(٣) بسبب خلافه مع السلطان السلجوقى عز الدين قلج أرسلان بن مسعود ، لأن الأول ـ وهو زوج ابنه الثانى ـ تزوج مغنية على زوجته ، فتمكن السلطان صلاح الدبن من إتمام الصلح بينهما ، وكثرت الهدايا والدعوات والأفراح والهبات(٤) .

وفى سنة ٥٨٥هـ/ ١١٨٩م لجأ معز الدين قيصر شاه إلى السلطان صلاح الدين كى ينصره على عمه قزل أرسلان ، لأن والده قسم مملكته على أولاده ، وأعطى قيصر شاه « ملطية لكن أخوته تغلبوا على أبيهم وألزموه أن يأخذ ملطية منه فأقام قيصر شاه بالخدمة السلطانية ـ أى فى ضيافة السلطان صلاح الدين ـ الذى أكرمه وزوجه من ابنة أخيه الملك العادل ، وأرسل معه قاضى العسكر « شمس الدين محمد بن محمد المعروف بابن الفراش »(٦) لكى يصلح بين أولاد قلج أرسلان السلجوقى ويحكم

---

(١) راجع ، المقريزى : السلوك جـ١ ق١ ص٨٩ ، ٩٠ ، (ص١١٤ ـ ١١٥ ، الطبعة الثانية) .
(٢) أبو شامة : الروضتين ، جـ٢ ، ص ١٦ ـ ١٧ .
(٣) زامباور : المرجع السابق ، جـ٢ ، ص٣٣٧ .
(٤) الحنبلى : المصدر السابق ، ص ٢٥ .
(٥) ابن الأثير : الكامل ، جـ١١ ، ص ٤٦٤ ـ ٤٦٦ .
البندارى والاصفهانى : المصدر السابق ، ص ١٧٥ ـ ١٧٦ .
(٦) ابن الفراش : من علماء الدين من أهل دمشق ، وكان نائبا عن السلطان الأيوبى بولاية شهرزورية ومتوليا فى الحكم على المقطعين توفى وهو عائد من مهمته فى بلاد الروم فى ملطية سنة ٥٨٨هـ/١١٩٢م .
راجع : أبو شامة : المصدر السابق ، جـ٢ ص٢٠٩ .

بينهم[1] .

وفى سنة ٦٠٩هـ/ ١٢١٢م استنجد السلطان عز الدين كيكاوس الأول (٦٠٧ ـ ٦١٦هـ/ ١٢١٠ ـ ١٢١٩م) بالملك الأشرف بن العادل الأيوبى لأن عمه طغريل شاه بن قلج أرسلان صاحب أرزن الروم حاصره فى سيواس ، فخاف طغريل من استنجاد كيكاوس بالأشرف ورحل عنه[2] .

كما كان يحدث أيضاً أن يستنجد الأيوبيون بالسلاجقة ضد أعدائهم ، أو ضد جيرانهم كالخوارزميين ، ففى سنة ٦٢٧هـ/ ١٢٢٩م استنجد[3] الملك الأشرف الأيوبى، بسلطان سلاجقة الروم علاء الدين كيقباد لأن الملك جلال الدين الخوارزمى، أخذ منه خلاط وكانت للأشرف . وقد وافق السلطان السجلوقى على التعاون معه ضد الخوارزميين ، لأنه كان يخاف منهم أيضاً على بلاده المجاورة لبلادهم .

وفى نفس الوقت أرسل الكامل « رسله ليخبروه بأنه جهز ٢٥ ألفًا من العسكر إلى أذربيجان ، وعشرة آلاف إلى ملطية ، وأنه حيث يأمر فطاب قلب الكامل بذلك لأنه كان مهتما بالخوارزمية . وتقابل الطرفان فى مكان يقال له « ياللرحمة » بين خلاط واذربيجان ، حيث انتصر الأيوبيون . واستعاد الأشرف بلاده وأضاف كيقباد أرضروم إلى بلاده التى أصبحت تتاخم أطراف أذربيجان[4] .

وفى بعض الأحيان كان بعض ملوك بنى أيوب يتفقون مع سلاطين سلاجقة الروم ، وعندما تزداد حدة أطماع أحد أفراد الأسرة الأيوبية على حساب الآخرين . حتى

---

(١) أبو شامة : المصدر السابق ، جـ٢ ص١٩٢ .
ابن الأثير : الكامل ، جـ١٢ ص٧٦ .
(٢) أبى الفدا : المصدر السابق، جـ٣ ص١٢١ .
(٣) الملك الأشرف : ابن العادل أبو بكر ، ولد بمصر سنة ٥٧٨هـ/١١٨٢م (ت٦٣٥هـ/١٢٣٧م)، وكان حاكما على الرها وحران وماردين واخلاط ، وميافارقين وسنجار ونصيبين والجزيرة .
راجع :
ابن خلكان : المصدر السابق ، م٥ ص٣٣٣ .
زبيدة عطا : المرجع السابق ، ص ١٢٥ ـ ١٢٦ .
(٤) المقريزى : السلوك جـ١ ق١ ص٢٣٨ (ص٢٧٥ ـ ٢٧٧ الطبعة الثانية)
زبيدة عطا : المرجع السابق ص ١٢٥ ـ ١٢٦ .

يصل الأمر فى بعض الأحيان أن يترك ملوك بنى أيوب الدعاء فى الخطبة لسلطان مصر الأيوبى ، ويقيمونها لسلطان سلاجقة الروم وهو ما حدث مرتين إحداهما سنة ٥٩٩ هـ/ ١٢٠٢م عندما قطع الملك الأفضل الأيوبى الخطبة فى سميساط لعمه الملك العادل سلطان مصر ، وخطب للسلطان ركن الدين سليمان بن قلج أرسلان (ت ٦٠٠هـ/ ١٢٠٣م) صاحب بلاد الروم لأن الأفضل أرسل ابنته تتشفع له عند العادل فى دمشق الذى أخذ منه رأس عين وسروج وقلعة نجم ولم يترك له إلا سميساط ، فلم يقبل شفاعتها وأعادها خائبة[1] . (راجع خريطة ٢) .

أما المرة الثانية التى خطب فيها بعض أمراء البيت الأيوبى للسلطان السلجوقى كانت سنة ٦٣٧هـ/ ١٢٣٩م[2] ، أو كما يذكر المقريزى[3] : فى يوم الجمعة «ذى القعدة سنة ٦٣٨هـ/ ١٢٤٠م) حيث قطع الملك الصالح إسماعيل الخطبة للصالح أيوب في بلاده على منابر دمشق ، وخطب للسلطان غياث الدين كيخسرو بن كيقباد[4] ، ونثر على ذلك الدنانير والدراهم وكان يومًا مشهودًا وحضر رسل الروم وأعيان الدولة الذين أنعم عليهم وخلع عليهم[5] .

وفى سنة ٦١٥هـ/ ١٢١٨م اتفق الملك الأفضل بن صلاح الدين صاحب

---

(١) المقريزى : السلوك جـ١ ق١ ص١٦١ ، ١٦٢ ص١٩٤ (الطبعة الثانية)
ابن كثير : المصدر السابق ، جـ١٣ ص ٤١
ابن الفدا : المصدر السابق جـ٢ ص١٠٩
الحنبلى : المصدر السابق ، ص٥٩
كما خطب الأفضل سنة ٦٠١هـ/١٢٠٤م للملك غياث الدين كيخسرو .

(٢) ابن كثير : المصدر السابق ، جـ١٣ ص١٥٤ .

(٣) المقريزى : السلوك جـ١ ق٢ ، ص٣٠٨ ، ٣١٠ (اختلف المقريزى عن ابن كثير فى تأريخ الواقعة المشار إليها) .

(٤) المقريزى : السلوك ، جـ١ ق٢ ص٣٠٨ .
سبب ولاء الملك الصالح إسماعيل للسلطان السلجوقى ، أن ملوك الشام من بنى أيوب كانوا قد اتفقوا على مخالفة السلطان الصالح أيوب والخوارزمية ، فاستطاع السلطان السلجوقى أن يدخل آمد ويحاصر ميافارقين بحيث امتدت حدود السلاجقة إلى نفس الحدود التى كانت للدولة البيزنطية من قبل بل تجاوزت هذه الحدود نحو الجزيرة .
زبيدة عطا : المرجع السابق ، ص ١٢٧ ـ ١٢٨ .

(٥) أعيدت الخطبة على منابر دمشق للسلطان الصالح أيوب سنة ٦٤٠هـ/١٢٤٢م .

سميساط مع السلطان كيكاوس على اقتسام بلاد الملك الظاهر ـ عم الأشرف ـ والتى آلت إلى ابنه الطفل ثم يفتحان البلاد الشرقية التى هى للملك الأشرف (بن العادل صاحب مصر) وتكون من نصيب كيكاوس ، ويشترط أن تكون الخطبة فى كل ذلك للسلطان السلجوقى[1] ، وبالفعل استقبل السلطان كيكاوس السلجوقى فى الأناضول ، الملك الأفضل وقدم له شيئا كثيراً من المال والخيل والسلاح وغيره[2] .

وهناك نوع آخر من العلاقات السياسية التى قامت بين السلاجقة والأيوبيين بسبب النزاع فى السيطرة على بلاد الشام ، منها الاتفاق الذى تم بين أمراء البيت الأيوبى سنة ٦٣١هـ/١٢٣٣م مع السلطان السلجوقى علاء الدين كيقباد ضد أطماع الملك الكامل صاحب مصر فى بلاد بعض أمراء البيت الأيوبى وبلاد السلاجقة بالأناضول . وكان الملك الكامل يخاطب قائلا : إن بنيته أن يكون ملك الروم له[3] . ولذلك خاف عدد من أفراد البيت الأيوبى إذ لو أن الملك الكامل دخل بلاد السلاجقة فى الأناضول ففى رأيهم سوف يأخذ جميع ما بأيديهم ، لذلك اتفقوا مع السلطان علاء الدين السلجوقى ضد الكامل ، وتمكنوا من هزيمة عساكره فى طريق خرتبرت

---

(١) أبى الفدا : المصدر السابق ، جـ٣ ص١٢٥ .
ابن كثير : المصدر السابق ، جـ١٣ ص٧٩ .
المقريزى : السلوك ، جـ١ ق١ ، ص١٨٩ ـ ١٩٠ .
ابن تغرى بردى : النجوم ، جـ٦ ص ٢٢٢ .
ابن الأثير الكامل ، جـ١٢ ص١٦٠ .
ابن خلكان : المصدر السابق م٥ ص ٣٣١ .

(٢) من خلال الاتفاق المشار إليه تمكن الملك الأفضل الأيوبى من الاستيلاء على حصن رعبان ، واستولى كيكاوى على « تل باشر » ولكنه بدلا من أن يسلمها للأفضل أخذها لنفسه مما نفر أهل البلد منه . وعاد الخلاف بين الطرفين مرة أخرى فى نفس العام . وأشارت بعض المصادر أن الأمير عز الدين كيكاوس هو الذى اطمع الفرنجة فى دمياط . راجع :
ابن تغرى بردى : النجوم ، جـ٦ ص ٢٢٤ .

(٣) من أسباب محاولة الملك الكامل غزو بلاد الروم أن السلطان علاء الدين كيقباد استطاع فى سنة ٦٣٩هـ/١٢٣٣م أن يأخذ خلاط وسرمارى من الملك الأشرف الأيوبى وأخذ بلاد الملك الكامل فى الشرق وأخربها .
راجع : المقريزى : السلوك جـ١ ق١ ص٢٥١ ، جـ١ ق١ ص٢٨٨ الطبعة الثانية زبيدة عطا : المرجع السابق ، ص١٢٧ .

وأخذوا قلعة السويداء وأسروا من بها وهدموها وأخذوا قطينا وأسروا من بها[١] سنة ٦٣١هـ/ ١٢٣٣م . واستطاع السلطان السلجوقى من خلال هذا النصر أن يأسر مجموعة من أمراء بنى أيوب فى الأناضول ، وإن كان قد أحسن لهم ثم أطلق سراحهم[٢] .

وفى سنة ٦٣٣هـ/ ١٢٣٥م استطاع الملك الكامل وأخيه الملك الأشرف أن يستعيدا بالقوة حران والرها من السلاجقة ، واستولوا على ما كان بهما من أموال ، وأسر الكامل ما يزيد على ثمانمائة من أمراء الرها وهدم قلعتها ، وأخذ حران وأسر من كان بها من جنود السلطان علاء الدين وأمرائه ومقدميه والصوباشية وكانوا سبعمائة وخمس وعشرين رجلا ، وخرب مدينة دنيسر وأرسل أسرى هذه البلاد ويزيد مجموعهم على الثلاثة آلاف إلى مصر[٣] .

وعلاوة على العلاقات السياسية السابق الإشارة إليها ، وجدت أنواع متعددة من العلاقات الاجتماعية ومنها علاقات النسب والمصاهرة وهى من أقوى العلاقات التى من شأنها نقل التأثيرات الحضارية وبوجه خاص من السلاجقة إلى الأيوبيين .

ومن أمثلة هذه العلاقات الرسل التى كان يبعثها الطرفان مع التقدمة ـ الهدايا ـ

---

(١) المقريزى : السلوك جـ١ ق١ ص٢٥١ هامش ٥ ، ٦ ص٢٥١ جـ١ ق١ .
خرتبرت : اسم ارمنى يطلق على حصن زياد من بلاد الروم فى اقصى ديار بكر . المقريزى : السلوك ، جـ١ ق١ ، هامش ص٢٤٩ (ص٢٨٩ ـ الطبعة الثانية) .

(٢) من الأمراء الذين استسلموا للسلطان علاء الدين السلجوقى ، الملك المظفر الأيوبى صاحب حلب ـ راجع :
ابن خلكان : المصدر السابق ، م٥ ص٣٣٣ .
أبى الفدا ، المصدر السابق حـ٣ ص١٦٢ .
ابن العبرى : المصدر السابق ص ٤٣٥ .
المقريزى : السلوك ، جـ١ ق١ ص٢٦٨ ـ ٢٤٩ .
ابن تغرى بردى : النجوم ، جـ٦ ص ٢٨٢ ، ٢٨٣ .
زبيدة عطا : المرجع السابق ، ص١٢٧.

(٣) أبو شامة : الذيل على الروضتين ، ص١٦٢ .
أبى الفدا : المصدر نفسه ، جـ٣ ص١٦٢ ، ١٦٤ .
المقريزى : السلوك ، جـ١ ق١ ص٢٥٠ ، ٢٥١ .
ابن تغرى بردى : النجوم ، جـ٦ ص٢٩٣ .

فى كثير من الأحوال ، ومنها فى مناسبات تقديم واجب العزاء فقد أرسل ملوك بنى أيوب رسلهم لتقديم العزاء فى وفاة السلطان علاء الدين كيقباد سنة ٦٣٣هـ/ ١٢٣٥م ١٢٣٦م ورغم اختلاف الملك الكامل مع سلاجقة الروم ـ فى ذلك الوقت ـ لكنه أرسل « أفضل الدين محمد الخونجى » ليقدم العزاء للملك غياث الدين السلجوقى فى وفاة أبيه ، ومعه برسم الصدقة عن المتوفى ثياب أطلس برسم أغشية القبر[٢] . وجاءت رسل سلاجقة الروم إلى القاهرة سنة ٦٣٦هـ/ ١٢٣٨م لتقديم واجب العزاء فى وفاة السلطان الملك العادل الأيوبى[٣] . علاوة على تبادل الرسل بينهما فى أمور أخرى كثيرة[٤] .

وتشابكت علاقات النسب بين الأيوبيين والسلاجقة واتابكيتهم . فقد زوج السلطان صلاح الدين أخته ربيعة خاتون بنت أيوب للأمير سعد الدين مسعود بن معين الدين نائب دمشق وأتابك عساكرها من قبل نور الدين . وتزوج صلاح الدين سنة ٥٧٢هـ/ ١١٧٦م من أخت سعد الدين ـ المذكور ـ بعد وفاة زوجها اتابك نور الدين زنكى[٥] .

أما عماد الدين زنكى وأخوه الملك القاهر عز الدين مسعود ولدى نور الدين أرسلان شاه صاحب الموصل ، قد تزوجا ابنتى مظفر الدين كوكبورى صاحب أربل

---

(١) المقريزى : السلوك ، جـ١ ق١ ص٢٥٤ ، هامش ص٢٥٤ .

(٢) المقريزى : السلوك ، جـ١ ق١ص٢٣ ، ٢٥٤ . استنجد أهل حماه سنة ٦٣٥هـ بسلاجقة الروم ، لأن أسد الدين صاحب حمص أغار عليهم بعد وفاة الملك الكامل .
راجع : المقريزى : السلوك جـ١ ق١ ص٢٦٩ .

(٣) المقريزى : السلوك ، جـ١ ق١ ص٢٧٥ .

(٤) راجع : المقريزى : السلوك ، جـ١ ق١ ص٢٧٥ .

(٥) البندارى الاصفهانى : المصدر السابق ، ص ٢٧٢ ، ٢٧٣ .
ابن كثير : المصدر السابق ، أحداث سنة ٥٧٢هـ ، جـ١٢ (الطبعة السادسة الصادرة سنة ١٩٨٥ عن بيروت) لما توفى سعد الدين زوج أخت السلطان صلاح الدين زوجها السلطان صلاح الدين مرة ثانية من الملك مظفر الدين صاحب أربل .
ابن كثير : المصدر نفسه ، جـ١٣ ص١٧٠ (الطبعة السابعة ١٩٨٨) ، الصادرة عن بيروت ١٩٨٨م) .

فى حياة أبيهما ، وأم الابنتين هى ربيعة خاتون بنت أيوب أخت الملك العادل[1] .

وتزوج الملك الأشرف بن العادل أخت نور الدين زنكى صاحب الموصل وهى الأتابكية خاتون بنت عز الدين مسعود بن مودود بن زنكى بن اقسنقر ، (توفيت ٦٤٠هـ/ ١٢٤٢م)[2] .

ويذكر ابن كثير[2] : فى أحداث سنة ٦٣٤هـ/ ١٢٣٦م أن السلطان الملك العادل زوج ابنته بسلطان الروم فى ذلك الوقت وهو علاء الدين كيقباد الأول بن كيخسرو .

وفى سنة ٦٣٥هـ/ ١٢٣٧م تزوج غياث الدين كيخسرو الثانى بن علاء الدين كيقباد ، من غازية[3] خاتون بنت العزيز محمد صاحب حلب ، وقام باتمام العقد بينهما الصاحب كمال الدين بن أبى جراده بن العديم[4] وانكح الملك الناصر يوسف ابن العزيز (ت ٦٣٤هـ/ ١٢٣٦م) من ملكة خاتون ابنة علاء الدين كيقباد الأول وإحدى ورثته على العرش[5] .

---

(١) صار لعماد الدين زنكى بعد وفاة أبيه حكم قلعتى العقر وشوش (وهما قلعتان بالقرب من الموصل) .
راجع ابن واصل : المصدر السابق ، جـ٤ ص٢٠ ، هامش ٤ ص ٢٠ .

(٢) ابن كثير : المصدر نفسه ، جـ١٣ ص٣٧ (أحداث سنة ٦٠٠هـ/ ١٢٠٣م) ، (الطبعة السابعة ١٩٨٨م) .
زامباور ، المرجع السابق ، جـ٢ ، ص ٢١٦ ، ٢١٧ .

(٣) بدر الدين العينى « محمود بن أحمد بن موسى » (ت٨٥٥هـ/١٤٥١م) = عقدالجمان فى تاريخ أهل الزمان) .
تحقيق : محمد محمد أمين ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب ، صدر منه (٣ أجزاء (٨٧ ـ ١٩٩٠م) جـ١ ، ص ٢٠٤ .

(٤) ابن العديم : هو « الملك الصاحب كمال الدين أبى القاسم عمر بن أحمد ابن هبة الله » ، (٥٨٨ ـ ٦٦٠هـ/١١٩٢ ـ١٢٦٠م) ولد بحلب وتولى بها منصبى التدريس والقضاء ، وكان وزيرا لصاحبها الملك العزيز ثم لابنه الملك الناصر من بعده . وسافر عدة مرات إلى بغداد والقاهرة وهو مؤلف « بغية الطلب فى تاريخ حلب » والمختصر منه . راجع : ابن شاكر الكتبى : (ت٧٦٤هـ/١٣٦٢م) .
ـ فوات الوفيات والذيل عليها . تحقيق : د. إحسان عباس . دار الثقافة ببيروت ١٩٧٤ (٤ أجزاء) ، جـ٣ ص١٢٦ ـ ١٢٧ .
المقريزى : السلوك ، جـ١ ق٢ ص٢٧٢ .

(٥) أبى الفدا : المصدر السابق ، جـ٣ ص١٧٠ ، ابن كثير ، المصدر السابق ، جـ١٣ ص١٨٥ ، المقريزى : السلوك ، جـ١ ق٢ ، ص٢٧٢ .

ويلاحظ أنه ، حتى لو كانت بعض هذه الزيجات قد عقدت لأسباب سياسية فلابد صاحبها شوار عرس انتقلت معه بعض التأثيرات ، وعلى الأخص فى الفنون الزخرفية .

وقويت الصلة بين السلاجقة والأيوبيين حتى تشابهت القابهم وأسمائهم[1] .

ب ـ مظاهر التأثيرات السلجوقية على الحضارة الأيوبية بمصر :

أشارت آراء عديدة إلى وجود تأثيرات حضارية سلجوقية على مصر فى العصرين الأيوبى والمملوكى ، وإن كانت هذه الآراء سواء التى وردت فى المصادر[2] أو المراجع الحديثة[3] ، وقد جاءت محتوية على إشارات عامة إلى وجود مثل هذه التأثيرات ، وحتى الدراسات التى حاولت التعمق فى هذه التأثيرات قد اقتصرت على ظاهرة محددة بعينها « كالاقطاع »[4] ، أو « وظيفة السلطان »[5] ، ولم تكن غاية ـ معظمها ـ تتبع

(١) على سبيل المثال : أطلق الملك محمد بن عمر بن شاهنشاه بن أيوب صاحب حماة (ت٦١٧هـ/١٢٢٠م) على ابنه الأكبر الملك الصالح اسم « قلج ارسلان » وهو الذى تولى الملك من بعده .

ابن تغرى بردى : النجوم ، جـ٦ ص ٢٥٠ .

أيضًا عرف من ملوك السلاجقة تورانشاه بن قرا ارسلان بك السلجوقى وعرف أخو السلطان صلاح الدين باسم « تورانشاه » .

(٢) إشار أبو شامة : « أن نور الدين فتح مصر وأعمالها وأنشأ دولتها ورجالها » الروضتين جـ١ ، ص١١ .

وذكر القلقشندى : « إن الدولة الأيوبية جرت على ما كانت عليه الدولة الأتابكية عماد الدين زنكى بالموصل » .

القلقشندى : « أبو العباس أحمد بن على بن أحمد » (ت٨٢١هـ/١٤١٨م) صبح الأعشى فى صناعة الإنشا (١٤ جزء) ، دار الكتب ، القاهرة ١٠ ـ ١٩١٧م ، جـ٤ ص٥ .

(٣) محمد مصطفى (د.) وآخرين : مجلد تاريخ الحضارة المصرية (المجلد الثانى) ، مكتبة مصر (بدون تاريخ) ، م٢ ص٤٨٢ .

أحمد مختار العبادى (د.) : قيام دولة المماليك الأولى بمصر والشام مؤسسة شباب الجامعة بالاسكندرية ، سنة ١٩٨٢ ، ص٧٣ ، ٧٨ .

أحمد صادق : المرجع السابق ، ص ٣٥٢ ـ ٣٥٥ .

(٤) إبراهيم على طرخان (د.) : النظم الاقطاعية فى الشرق الأوسط فى العصور الوسطى . دار الكاتب العربى للطباعة والنشر ، القاهرة ١٩٦٨ ، ص٣٠

(٥) الباشا : الألقاب ، ص ٣٢٣ ، ٣٣٣ .

التأثيرات السلجوقية وإبراز الأدلة عليها ، تتبعا شاملا لجميع جوانبه .

لذلك فسوف نحاول هنا تجميع مظاهر التأثيرات السلجوقية على الحضارة الأيوبية في دراسة تعتمد الرؤية الشاملة للظواهر الحضارية التي خضعت للتأثير مع محاولة التدليل على وجود مثل هذه التأثيرات .

وأنه وإن كانت الدراسة تقسم مظاهر الحضارة إلى أقسام لتدرس التأثيرات السلجوقية على كل قسم ، إلا أن هذا التقسيم هو أمر ضروري للفهم وإن كان لا يكافئ الواقع من حيث تضافر جميع هذه الأقسام وتفاعلها في نسيج واحد كلي أشد غنى من المجموع الحسابي للعناصر التي انقسم إليها قسمة هي في المحل الأول نظرية .

١ ـ مظاهر التأثيرات السلجوقية في نظم الحكم الأيوبي بمصر :

ـ السلطان :[١]

يعتبر الناصر صلاح الدين الأيوبي هو أول من تلقب بهذا اللقب كحاكم أعلى في مصر الإسلامية وأول من أدخل نظام حكم السلاطين كما عرفه السلاجقة في الشرق ، ذلك أن مصر لم تعرف حكامًا من السلاطين أو الملوك قبل الأيوبيين . وقد ذكر المقريزي[٢] : أن حكام مصر كانوا ثلاثة أقسام القسم الأول : « ولاه » ويطلق عليهم لقب (أمراء) وقد حكموا مصر منذ فتحها إسلاميا حتى عصر الفواطم . والقسم الثاني : ويطلق عليهم « الخلفاء الفاطميون » ، وانتهوا من حيث بدأ الناصر صلاح الدين القسم الثالث : بحكم السلاطين .

---

(١) ورد لقب السلطان في كثير من آيات القرآن الكريم . راجع
محمد فؤاد عبد الباقي : المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ، دار الشعب ١٩٤٥ ، ص ٣٥٤ ـ ٣٥٥ .
راجع أيضًا : نظام الملك : المصدر السابق ، ص ٣٢٣ .
حسن الباشا : الألقاب ، ص ٣٢٣ .
عبد الحميد يونس (د.) وآخرين : دائرة المعارف الإسلامية ، مادة « سلطان » (١٥ جزء) ، القاهرة ، جـ٢ ، ص ٨٠ ـ ٨١ .
محمد محمود إدريس (د.) : رسوم السلاجقة ، ص ٢٥
شاخت وبوزورث / المرجع السابق جـ١ ص٢٤٧ ، هامش ١ ص ١٩ جـ٣
(٢) المقريزي الخطط جـ٢ ، ص ٢٣٢

ورغم أن لقب السلطان كحاكم أعلى قد عرف قبل[1] السلاجقة ، لكنه انتقل إلى مصر فى العصر الأيوبى عن طريق السلاجقة .

فأول من لقب به هو : « أبو شجاع محمد بن جفرى بك بن سلجوق ، وكان أول من ذكر بالسلطنة على منابر بغداد »[2] ، فقد تبين للسلاجقة أن لقب السلطان يتفق ورسوم دولتهم الجديدة وتصورهم لفكرة السيطرة التى ساروا عليها فى حياتهم القبلية ، وبالتالى يتناسب وفكرة السيطرة السياسية التى كانت مطمعهم ولذلك تركوا لقب شاه أو ملك لأنه يتبع غيره فى حكم الأقاليم[3]، أما لقب سلطان فى نظرهم فيتفق مع المعنى الذى أوضحه ابن إياس[4] فى التحليل التالى : أنه ـ السلطان ـ يطلق على من يمتلك عدة بلاد ، ويكون فى ولايته عدة ملوك ، ويكون عسكره عشرة آلاف أو نحو ذلك ، ويخطب باسمه فى عدة أماكن شتى ، وتضرب السكة باسمه وعندما تتوافر هذه الشروط مجتمعة ، يطلق عليه لقب السلطان الأعظم » أو المعظم ، واللقب الأخير أطلق على السلطان ألب أرسلان السلجوقى سنة ٤٥٩هـ/ ١٠٦٦م[5].

وقد كانت « قيادة الحرب » من المهام الرئيسية للسلاطين السلاجقة الذين بالغوا فى الاهتمام بها مما كان له عميق الأثر فى حماية الأمة الإسلامية . ويكفى أن السلطان صلاح الدين الذى تأثر بهذا التقليد هو الذى قاد بنفسه ـ بعد اعتلائه حكم مصر ـ الجيوش ضد الصليبيين وانتصر عليهم انتصاراً ساحقاً[6] وسار الأيوبيون على

---

(١) عرف عند الغزنويين والبويهيين . الباشا : الألقاب ، ص ٣٢٣ ، ٣٢٤ .

(٢) السيوطى : الوسائل إلى معرفة الأوائل ، ص ١٠٥ .

(٣) محمد محمود إدريس : رسوم السلاجقة ، ص ٢٥ .

(٤) بدائع الزهور جـ١ ص ٢٤١ .
راجع : السبكى: « تاج عبد الوهاب » (ت٧٧١هـ/١٣٠٩م) . معيد النعم ومبيد النقم ، لبنان ١٩٨٦ ، ص٢١ .

(٥) الباشا : الألقاب ، ص ٣٣٠ .

(٦) فقد استطاع سلاطين السلاجقة حماية الخلافة العباسية من السقوط أمام الشيعة ، عندما قضى طغرلبك بنفسه على حركة البساسيرى .
راجع الفصل الأول ص١٩ ـ ٢٠ .
واستطاع الب ارسلان أن يضيف فتحا جديدا للبلاد الإسلامية فى آسيا الصغرى عندما انتصر على =

نظام اتبعه السلاجقة وهو مبدأ أساسى فى نظام ولاية العرش ، أنه ليس بالضرورة أن يتولى العرش الأكبر سنان ، بل الأجدر والأقوى ـ فقد تولى طغرلبك السلطنة السجوقية سنة ٤٤٧هـ/ ١٠٥٥م بينما أخوه جغرى بك كان أسن منه ، ولكنها أسندت لطغرلبك لقوة شخصيته وشجاعته وتدينه وذكائه[١].

وبالمثل فإن أول سلاطين بنى أيوب فى مصر هو صلاح الدين (٥٦٧هـ/ ١٠٧٤م) ، رغم أن تورانشاه ـ أخاه ـ كان أسن منه[٢]. وتولى السلطنة العزيز بالله رغم أنه أصغر أخوته[٣]، وكان الأفضل أكبر منه . وتسلطن الملك العادل الثانى فى

= الروم البيزنطى فى ملازكرد ، علاوة على كفاحهم ضد الصليبيين فى الشام . راجع الفصل الأول ، هامش ٣ ص ٢٢ .

أيضاً كان صلاح الدين بعد اعتلائه حكم مصر يقود الجيوش ضد الصليبيين بنفسه وانتصر عليهم انتصارا ساحقا فى حطين ٥٨٣هـ/١١٨٧م ، وأسر من ملوكهم .

راجع عن معارك سلاطين السلاجقة والأيوبيين :

أبو شامة : الروضتين جـ٢ ص٧٦ ، ٧٩ ، ٨١ .

ابن شداد : المصدر السابق ص٧٥ ، ٧٦ ، ٧٨ ، ٧٩ .

ابن واصل : المصدر السابق جـ٢ ص١٥٧ ، ١٥٨ ، ١٨٧ ، ١٨٩ ، ١٩٥ .

الاصفهانى : المصدر السابق ص٤٠ .

السيد الباز العرينى : مصر فى عصر الأيوبيين ، ص٦٦ ، ٦٨ ، ٨٠

سعيد عاشور والرافعى : المرجع السابق ، ص ٣٣٠ .

عبد العزيز عبد الدايم : بيت المقدس ، ص ٩٤ : ٩٦ .

زبيدة عطا : المرجع السابق ص٤٩ ، ٥٠ / قاسم عبده قاسم : ماهية الحروب الصليبية ، ص ١٤٢ : ١٤٦ .

Oman (C): A History of Art of War in the Mid dle Ages (A. D. 278 - 1515), New York, 1953, p. 55 .

(١) عبد النعيم محمد حسنين : المرجع السابق ، ص ١٥٧ .

صارت الخلافة الفاطمية فى مصر على مبدأ ولاية العهد بالوراثة .

راجع : على حسن الخربوطلى (د.) : غروب الخلافة الإسلامية . مؤسسة المطبوعات الحديثة ، بالقاهرة ، (بدون تاريخ) ، ص١٩٩ .

الرافعى ، عاشور : المرجع السابق ، ص ٢٦٢ .

(٢) العماد الحنبلى : المصدر السابق ، جـ٤ ص٢٥٥ .

ابن تغرى بردى : النجوم ،جـ٥ ص٣٥٣

(٣) ابن إياس : المصدر السابق . جـ١ ، ص ٢٢٠

أواخر (سنة ٦٣٥ ـ ٦٣٧هـ/ ١٢٣٧ ـ ١٢٣٩م) ، رغم أن أخاه الأكبر منه هو الملك الصالح نجم الدين أيوب[١]، (انظر جدول ٢) .

تأثر أيضًا سلاطين بنى أيوب ، من سلاطين السلاجقة بنظرية « اللامركزية فى الحكم » بمعنى أن للسلطان الحق فى أن يستقل بشئون أقاليمه الداخلية ـ عن الخلافة العباسية ـ ويعزى إليه الفضل فى ضم ما يمكن ضمه من البلاد المجاورة[٢]. وقد ساعد هذا النظام كثيرًا سواء السلاجقة أو الأيوبيين على الارتقاء ببلادهم ، وأدى ذلك إلى ظهور مراكز ثقافية وفنية متعددة ، فلم تعد بغداد أو القاهرة فى الخلافتين العباسية والفاطمية هما المراكز الرئيسية للحضارة والثقافة والفنون فحسب ، بل ظهرت إلى جانبهما مراكز أخرى مثل مدينة نيسابور والرى وقونيه وأصفهان والموصل ودمشق فى العصر السلجوقى . والقاهرة والإسكندرية ودمياط ، وغيرها من البلاد فى مصر فى العصر الأيوبى .

العلاقة بين السلاطين الأيوبيون ، والخلفاء العباسيون :

اتبع سلاطين السلاجقة فى حكمهم نظرية أشبه بنظرية الحق الملكى المقدس[٣]

---

(١) ابن الأثير : الكامل ، جـ١٢ ص٣٥١ ـ ٣٥٢ .
ابن تغرى بردى : النجوم ،جـ٦ ص ٣٣ ، ص ٣١٩ .

(٢) توجد صورة عهد صادر عن ديوان الإنشاء ببغداد ، بمقتضاه تولى صلاح الدين ملك مصر وأعمالها والصعيد الأعلى والأسكندرية ـ ويتولى أيضًا بمقتضى هذا العهد ـ ما يفتحه من بلاد الغرب والساحل وبلاد اليمن وما افتتحه منها ويستخلصه بعد من ولايتها .
ابن واصل : المصدر السابق ، جـ٣ ص٣٠٠ ـ ٣٠١ .
راجع :
مواهب عبد الفتاح : « الحياة السياسية والحضارية فى عصر السلاجقة » .
(رسالة ماجستير قدمت فى كلية الآداب / جامعة القاهرة سنة ١٩٨٢ ، لم تنشر بعد) ، ص ٧٧ ، ٧٨ .

(٣) الحق الملكى : هى النظرية التى قام على أساسها الحكم الساسانى منذ تأسيسه فى عهد اردشير الأول سنة ٢٢٦م،حتى نهاية أمره فى حكم يزدجر الثالث . وهو حكم استبدادى فردى يقوم على الاعتقاد بنظرية الحق الإلهى المقدس للملوك . وهو الحق الذى اتاح لاردشير أن يسمى نفسه شاهنشاه أو « ملك الملوك » لأن تاج دولة الفرس لا يلبسه إلا كائن الهى يحاط بمظاهر التقديس والإجلال .
صبحى الصالح (د.) : النظم الإسلامية وتطورها . دار العلم للملايين ، بيروت ، الطبعة الخامسة ١٩٨٠ ، ص ٣٠ .

"The Divine Right of King" والتى يعبر عنها « بالحق الإلهى »[1] وهو المعنى الذى أشار إليه الوزير نظام الملك فى كتابه « سياست نامة » ، وفى أن الله اختار السلطان وميزه على عباده وجعلهم جميعاً خاضعين له » [2]، بمعنى أن كل رجل لا ينتسب إلى البيت المالك ويتولى الملك ، ويعتبر مغتصباً لحق غيره ، فالخليفة نائب عن الرسول فى حكم المسلمين ، وصاحب الحق الشرعى فى ذلك . بمعنى آخر أن السيادة فى أسرة السلاجقة يمنحها الله لهم ويصادق عليها الخليفة كسلطة دينية ، وكما لا يوجد إلا خليفة واحد كرئيس دينى للجماعة الإسلامية ، كذلك لا يمكن أن يكون هناك إلا سلطان واحد مسئول عن النظام والأمن والحكومة فى الإمبراطورية الإسلامية . والخليفة يمثل فى رأيهم السلطة الدينية وهى من أشرف المهمات ويشكل حماية لحكم العالم ، ومنه يأخذ السلاطين التفويض الشرعى ، فالمسلمون لا يعترفون بالحاكم الذى لا يحظى بموافقة الخليفة العباسى ، فالخليفة يمثل السلطة ومانح السلطة وهو يملك ولا يحكم . أما السلطان فميثل القوة ويملك ويحكم ويمثل الجانب الفعال فى الحكومة فى الحكم والتدبير[3] .

ولذلك لم يحاول السلاجقة إسقاط الخلافة العباسية رغم ضعفها ، ورغم مقدرتهم على ذلك ، بل حرصوا على حمايتها بكل الطرق الممكنة . فقد أصبح الخليفة فى نظرهم هو مصدر السلطات ، والخلافة نظام لابد منه لصلاح العالم . واستقامة أموره . والذى يؤكد هذه الرؤية بعض الألقاب التى اتخذها الخلفاء العباسيون مثل لقب « خليفة الله فى الأرض»[4] . ولذلك عمل طغرلبك منذ أول عهده بالسلطنة على حماية الخلفاء العباسيين وإعادة الخلافة لشرعيتها فى الحكم رغم قوته، ورغم مقدرته على إسقاطها .

---

(١) حسين أمين (د.) : نظم الحكم « مجلة سومر » ، تصدرها العراق ، م٢٠ لسنة ١٩٦ ص٢١١ .
على حسن الخربوطلى : المرجع السابق ، ١ ٣ ١ .

(٢) عن « محمد محمود إدريس : رسوم السلاجقة ص١٣١ .

(٣) شاخت وبوزورث : المرجع السابق ، جـ١ ، الطبعة الثانية ، ١٩٨٩م ، ص٢٤٨ ، ٢٥١ .

(٤) راجع : عبد الباقى : المرجع السابق ص٢٤٠ .
نظام الملك : المصدر السابق ، ص ٩١ .
حسن الباشا : الألقاب ص ٢٧٥ : ٢٧٧ .
صبحى الصالح : المرجع السابق ، ص ٧٢ ، ٢٦٩ .

كذلك حرص سلاطين بنى أيوب منذ سلطنة صلاح الدين على الانتماء إلى الخلافة العباسية فى بغداد ، فعقب إسقاط الخلافة الفاطمية سنة ٥٦٧هـ/ ١١٧١م كان الدعاء للمستضيء العباسى على منابر مصر والقاهرة[١] . ولم يركب صلاح الدين فى القاهرة إلا بعد وصول التقليد والخلع إليه من الخلافة العباسية فى بغداد وأيضًا يعتبر الناصر يوسف الأيوبى ، صاحب دمشق ، (حكم فيما بين ٦٤٨ ـ ٦٥٩هـ/ ١٢٥٠ ـ ١٢٦٠) أول من حاول إحياء الخلافة العباسية[٢] .

نائب السلطنة :

تعتبر من الوظائف الهامة التى ارتبطت فى ظهورها إلى حد كبير بمنصب السلطان كحاكم أعلى ، فالنائب فى السلطنة ينوب عنه فى حالة غيابه ، وبالتالى فهذه الوظيفة لم تكن لها ذكر فى عصر الفاطميين . وإذا كان الغزنويين عرفوا حكم السلاطين قبل السلاجقة ، فإن وظيفة نائب السلطنة لم تعرف حتى عند السلاجقة إلا فى عصر السلطان سنجرشاه (٤٨٥ ـ ٥٥٢هـ/ ١٠٩٢ ـ ١١٥٧م) ، فهو أول من اتخذ نائبًا عنه[٣] ، عندما عهد لابن عمه محمود بن محمد بن ملكشاه أن يكون نائبًا عنه فى العراق (٥٠٨هـ/ ١١١٤م) وولى عهده وخطب له على منابر خراسان[٤] .

لذا فقد جانب الصواب الرأى[٥] الذى ذكر أن الأيوبيين قد ابتدعوا هذه الوظيفة، وإنما هى بتأثير من الحضارة السلجوقية ونظرا لأن صلاح الدين كان كثير التغيب

---

(١) ابن الأثير : الدولة الاتابكية ، ص ١٥٦ ، ١٥٧ .

(٢) على حسن الخربوطلى : المرجع السابق ، ص ١٣٩ ـ ١٤٠ .
سقطت الخلافة العباسية فى بغداد على أيد التتار سنة ٦٥٦هـ/١٢٥٨م
السيوطى : تاريخ الخلفاء ، ص ٤٧١ ـ ٤٧٢ .

(٣) راجع القلقشندى : صبح الأعشى ، جـ٤ ، ص١٦ السبكى : معيد النعم ، ص٢٤ .
المقريزى : السلوك ص ٦٢٤ حاشية ١ .
ذكرت بعض الآراء أن وظيفة نائب السلطنة استحدثت فى العصر البويهى فاضل الخالدى : الحياة السياسية ونظم الحكم فى العراق خلال القرن الخامس الهجرى . جامعة بغداد ١٩٦٩م ، ص٢٥٢ .

(٤) ابن الأثير : الكامل ، جـ١١ ص٧٧ .
محمد محمود إدريس : رسوم السلاجقة ، ص ٧٠ .

(٥) على إبراهيم حسن : دولة المماليك البحرية ، ص ٢٧٥ .

عن الديار المصرية ، بسبب كثرة حروبه فى الشام ، فقد اعتمد كثيراً على وجود نائب عنه فى السلطنة أثناء غيابه ، ولكنه لم يعتمد على شخص واحد فى وظيفة النيابة ، فقد اسندها مرة لأخيه سيف الدين أبو بكر[١] ، مرة أخرى إلى ابن أخيه الملك المظفر تقى الدين عمر بن شاهنشاه[٢] .

ولما استقل الملك العادل بمصر استدعى ابنه الملك الكامل ناصر الدين محمدا من الشرق وجعله نائباً عنه بالديار المصرية[٣] .

الاتابك : [٤]

من أهم الوظائف التى ارتبطت بنظم الحكم وظهـرت لأول مـرة فى العـصـر السلجوقى هى وظيفة الاتابك وربما ظهرت هذه الوظيفة بتأثير من عاداتهم القبلية التى أحيوها من خلال تكليف السلطان لأحد الأشخاص بالوصاية على أبنائه يكون قوى الشخصية يطلق عليه اسم « الاتابك » . وقد جانب الصواب بعض الآراء[٥] عندما ذكرت أن أول من تلقب به كان عماد الدين زنكى ابن آقسنقر عندما سلمه السلطان محمود ابن ولده فروح شاه ليربيه . لأن المصادر كالسيوطى والقلقشندى[٦] قد أشارت إلى أن الوزير السلجوقى نظام الملك كان أول من تلقب « بالاتابك » وكان ذلك سنة ٤٦٥هـ/ ١٠٧٢م عندما كلفه داود بالوصاية على ابنه آلب أرسلان .

وأهمية هذه الوظيفة ترجع إلى أنه مع مرور الأيام ، قد ازداد نفوذ الاتابكة ، بسبب

---

(١) البندارى الأصفهانى : المصدر السابق ، ص ٢٣٣ .
ابن واصل : المصدر السابق جـ٣ ص١١٣ .

(٢) البندارى الاصفهانى : المصدر السابق ، ص ٢٤٥ .

(٣) ابن واصل : المصدر السابق جـ٣ ص١١٢ .

(٤) أتابك : لفظ مركب من قطعتين أطا بمعنى أب ، وبك بمعنى أمير ، ومعناها : الأمير الوالد . راجع:
ابن واصل : المصدر السابق جـ١ هامش ٥ ص٢٣ .
السيوطى : الوسائل إلى معرفة الأوائل ، ص ٨٥ .
حسن الباشا : الألقاب ، ص١٢٢ ـ ١٢٣ .

(٥) سرهنك : المرجع السابق ، هامش ١ ص ١٥٨ جـ٢ .

(٦) القلقشندى : المصدر السابق ، جـ٥ ص١٨ .
السيوطى : تاريخ الخلفاء ص٤٢٢ .
الوسائل إلى معرفة الأوائل ص٨٥ .

إسناد السلطنة إلى أطفال صغار السن من الأسرة السلجوقية ، ويكون الوصى على السلطان الطفل هو أتابكه الذى يتولى الحكم نيابة عنه وبدلاً من أن يصون له الحكم، كان يستقل بالحكم فى كثير من الأحيان لنفسه وكانت هذه الوظيفة من الأسباب التى أدت إلى ضعف وتفكك الإمبراطورية السلجوقية وانهيارها ، لأنها أخذت تنقسم إلى اتابكيات مستقلة ، مثل اتابك اق سنقر الذى أسس الدولة الأتابكية فى الموصل ، وأتابكه سنجار وآل سلغر وغيرهم[١] .

وبعد أن استقل صلاح الدين بحكم مصر ، أدخل هذه الوظيفة ، عندما أعطى أخاه العادل إقطاعًا له بمصر وعينه أتابكًا على ابنه العزيز عثمان[٢] . وكان الملك الأفضل اتابكا على الملك المنصور سنة ٥٩٥هـ/ ١١٩٨م[٣] .

وظلت وظيفة « الاتابك » معمولا بها طوال حكم الأيوبيين فى مصر ، حتى استطاع أحد الأتابكة أن يستقل بالحكم ـ تقريبًا ـ وانتهى على يد الأتابكة حكم الأيوبيين فى مصر ، فقد كان عز الدين أيبك اتابكًا على الملك الأشرف بن صلاح الدين يوسف الذى كان عمره حوالى ثمانى سنوات ، وفى سنة ٦٥٢هـ/ ١٢٥٤م كان يخطب لهما وضربت السكة باسمهما ، حتى استطاع أيبك أن يستقل بالسلطنة ، وهنا أسقط اسم الأشرف من السكة والخطبة[٤] .

٢ ـ مظاهر التأثيرات السلجوقية فى العوايد السلطانية فى العصر الأيوبى بمصر :

موكب تقلد السلطنة[٥] (حفلات التتويج)

---

(١) الحسينى : المصدر السابق ، ص١٤٩ .
حربى أمين : المرجع السابق ، ص ٣١٣ .
(٢) ابن تغرى بردى : النجوم ، جـ٦ ص١٠٣ .
(٣) الباشا : الفنون والوظائف جـ١ ص١٠ هامش ٢ .
(٤) المقريزى : السلوك جـ١ ق٢ ص٣٦٨ ، ٣٦٩ .
السيوطى : تاريخ الخلفاء ص٤٦٥ .
(٥) تعرض كثير ممن كتبوا من نظم الحضارة السلجوقية ، أو الأيوبية والمملوكية لدراسة هذا النوع من المواكب ، ولكن الدراسة كانت تختص فى وصف ما يحدث فى كل عصر من العصور المشار إليها على حده . ولم تكن الدراسة بغرض تتبع مظاهر الموكب ومقارنته بما كان يحدث بين السلاجقة فى الشرق ، والأيوبيين أو المماليك فى مصر .
راجع : محمد محمود إدريس : رسوم السلاجقة ، ص١٨٥ ـ ١٨٦ .
على إبراهيم حسن : تاريخ المماليك البحرية ، ص ٤٦٨ .

رغم أن الغزنويين عرفوا لقب السلطان كحاكم أعلى ، إلا أنهم لم يعرفوا نظم المواكب السلطانية ، وأول من عرفها السلطان السلجوقى طغرلبك من قبل الخليفة العباسى المقتدر بالله[١] . فمنح طغرلبك فى ٢٥ ذى الحجة سنة ٤٤٧هـ/ ١٠٥٥م ، سبع دراريع[٢] ، وتاجا مرصعًا ، وعمامة مسكية ، فسمى «المتوج والمعمم»[٣] ، كما

---

(١) شاع عن الخلفاء العباسيين قبل ظهور السلاجقة الخلع على أمرائهم من الولاة ، والولاة المستقلين كالطولونيين فى مصر ـ وعلى سبيل المثال كان الطولونيون يكتفون فى مصر بوصول رسول الخلافة حاملا كتاب الخليفة العباسى بالولاية ومعه اثنتا عشرة خلعة وسيف وتاج ووشاح مع خادم .

(٢) الدراعة : جبه مشقوقه المقدم ، والمدرعة : ضرب آخر ولا تكون إلا من الصوف خاصة .
ابن منظور : « جمال الدين محمد بن مكرم الأنصارى » (ت٧١١هـ/١٣١١م) ـ لسان العرب . طبعة دار الشعب ١٩٨٤ ، ص ١٣٦١ / المعجم الوسيط ، جـ١ ص٢٨٠ تكون الدراعة أو الجبة السابغة سوداء اللون ، لأن اللون الأسود شعار الخلافة العباسية ، وكان اللون الأبيض شعار الفاطميين وحيث صار شعار السلطنة الرسمى العمامة السوداء والجبة السوداء مع حزام من شريط مذهب معلق به سيف بداوى .
راجع ابن تغرى بردى : النجوم ، جـ٥ ص١١٣ ، ٣٢٢ .
ابن سيدة : المخصص ، جـ٤ ، ص ٣٦ .
صلاح حسين العبيدى : الملابس العربية الإسلامية فى العصر العباسى من المصادر التاريخية والإدارية بغداد ١٩٨٠م ، ص ٢٥٥ .
أول من لبس اللون الأسودوزير الهادى وأصحابه سنة ١٢٥هـ/٧٤٢م بعد مقتل يحيى بن برمك ، ولبسها العباسيون بعد مقتل مروان إبراهيم بن محمد ولبسها السفاح أمير دمشق ، راجع :
السيوطى : الوسائل إلى معرفة الأوائل / على إبراهيم حسن : المرجع السابق هانش ٦٥ ص٥٠ .
ماير (ل. أ) الملابس المملوكية ، ترجمة : صالح الشيتى ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٧٢ ، ص ٢٩ : ٣١ ، ص ٢٤ ، بيروت ١٨٤٥ .
Dozy (E. P. A) : Dictonn aire Détaillé des Noms des Vêtemonts
Chez les Arabs, p. 180 - 181 . بيروت ١٨٤٥

(٣) كان القصد من خلع الخليفة على السلطان العمامة والتاج ، أن السلطان جمع فى الحكم بين تاج العجم وعمامة العرب ، وهى عمامة مدورة بعذبة قدر ذراع ترسل بين الكتفين ، وأول من لبس العمامة النبى صلى الله عليه وسلم ثم بعض الصحابة ثم العباسيون . راجع
ماير : المرجع السابق ص ٢٩ ، ٣٠ . ابن سيده : المخصص ، جـ٤ ص٨٢ ، صلاح حسين العبيدى ، المرجع السابق ، ص ١١٣ .
Dozy : op. cit., p. 303 : 311 .

منحه طوق ذهب ، وسيفين[١] وفرس النوبة[٢] ، ولوائين[٣] غير أن أهم ما كان يمنحه الخليفة العباسى للسلطان « كتاب التفويض وكان يكتب فيه اسم السلطان المفوض إليه الحكم وألقابه وتوصية من الخليفة أن يراعى الله فى الحكم بين الرعية[٤] ، ويأمر الخليفة بالدعاء للسلطان على المنابر وعلى الأخص فى العراق[٥] .

وفى حالة السلاطين السلاجقة كانت المنح السابقة من الخليفة تتم فى قصر الخلافة ، ثم يخرج السلطان لابسا الخلعة السوداء راكبا فرس النوبة وأصحابه مشاه بين يديه ، ثم يدخل البلد ـ بغداد ـ ويخرق الأسواق من باب سور الحلبة إلى أن يجاوز الرحبة حتى يصل باب النوبى ، ثم ينزل ولزموه بتقبيل العتبة ، ثم يركب مرة ثانية

---

(١) السيفان : سبق أن قلد الخلفاء العباسيون الملوك من بنى بويه سيفا واحدا . غير أن تقليد الخليفة العباسى للسلطان طغرلبك سيفين قصد به الإشارة إلى تقليده ولايتين ، ولذا خاطبه بملك المشرق والمغرب راجع :

الأصفهانى : المصدر نفسه ، ص ١٧ .

السيوطى : تاريخ الخلفاء ، ص٤٠٧ .

(٢) فرس النوبة : يكون أسود القوائم والمعارف ، وعليه مشدة سوداء وكنبوش أسود ، والمشدة هى شال حرير ،والكنبوش هى البردعة .

حسن إبراهيم حسن : المرجع السابق ص٢٥٠ هامش ٢ .

(٣) اللواء : هو العلم الضخم . وقد عرفه العرب فى الجاهلية والإسلام والراجح أنهم اقتبسوه عن الروم والفرس . ويطلق الروم اسم العقاب على اللواء لوجود رسم النسر عليه . واللواء فى الإسلام من علامات الأمير يدور معه حيث دار فى المعركة . وكان يراعى فى اللواء الخاص بالخليفة أن يكتب فيه اسم الخليفة القائم فى الحكم والقابه سواء أكان الخليفة عباسيا أو فاطميا . راجع :

ابن تغرى بردى : النجوم ، جـ٦ ص٥ .

عبد الرءوف عون (د.) : الفن الحربى فى صدر الإسلام . دار المعارف بمصر ١٩٦١ ، ص٨٢ ، ٨٧ .

أحمد رمضان (د.) : الخلافة فى الحضارة الإسلامية . الطبعة الأولى ـ دار البيان العربى ، جدة ١٩٨٣ ، ص٢٧٩ ، ٢٨٠ .

حورية عبده (د.) : النظم الحربية فى مصر زمن الفاطميين ،دار الفكر العربى ، القاهرة ١٩٨٠ ، ص ٤٦ .

(٤) المقريزى : السلوك ، جـ١ ق١ ص٢٤٢ .

(٥) ابن تغرى بردى : النجوم ، جـ٥ ص٣٢٢ .

ويخرق به السوق حتى يعبر باب السلطان[١] وينزل بدار السلطنة[٢]، وتضرب على بابه الطبلخاناه[٣] فى الصلوات الخمس

أما فى مصر الفاطمية فرغم معرفتها لكثير من المواكب وما يصاحبها من احتفالات بصفة خاصة[٤]، إلا أنها لم تعرف موكب تقليد السلطنة (تتويج) الذى

---

(١) باب النوبى ، باب السلطان : هما من أبواب مدينة بغداد . راجع :
جورج مقدسى (د.) ، صالح أحمد العلى (د.) : خطط بغداد فى القرن الخامس الهجرى . مطبعة المجمع العلمى العراقى سنة ١٩٨٤م ، ص٤٨ ، ٤٩ ، ٥٤ ، ٦٩ .

(٢) راجع : الاصفهانى : المصدر السابق ، ص ٢٢٢ ـ ٢٢٣ .

(٣) الطبلخاناه : كلمة فارسية تعنى الموسيقى السلطانية أو بيت الطبل وتكون هذه الفرقة صحبة السلطان فى الأسفار والحروب .
العينى : عقد الجمان ، جـ١ هامش ث ص٤٠ .
وضرب الطبول أو الطبلخاناه من العادات الساسانية الأصل التى كان يقصد منها إعلان يوم جديد .
وفى العصر الإسلامى ، كان يعنى ضرب الطبل الإعلان عن دخول وقت الصلوات الخمس فى حضرة الخليفة العباسى فقط . ثم بدأت تضرب لولاة العهد وأمراء الجيوش ولكن ثلاث مرات فى اليوم فقط هى الصبح والغداة والعشى ، إذا كانوا فى بعد أو فى سفر عن حضرة الخليفة ، وقد ضربت لأمراء بنى بوية فى بغداد سنة ٣٦٨هـ/٩٧٨م ثلاث مرات فقط ، ولم تضرب خمس مرات إلا للخليفة العباسى ثم لأول مرة تضرب خمس مرات للسلاطين السلاجقة .
وتتكون الطبلخاناة من أربعين أميرا يخدم كل أمير منهم أربعون مملوكا وكبيرهم « أمير طبلخاناه » .
راجع :
هلال الصابى : « أبو الحسن بن إبراهيم بن إسحق » (ت٤٤٨هـ/١٠٥٦م) رسوم دار الخلافة . تحقيق : ميخائيل عواد ، بغداد ١٩٦٤م . ص١٣٦ ، ١٣٧ .
نظام الملك : المصدر السابق ، ص ٢٤٨ .
ابن تغرى بردى : النجوم ، جـ٥ ص١٨٧ ، جـ٨ هامش ١ ص٤٤ جـ١٠ هامش ٥ ص ٤٠ .
السيوطى : تاريخ الخلفاء ، ص ٤٠٧ .
وضرب الطبلخانة أثناء الحروب القصد منه تهييجا للنفس عند الحرب وتقوية الجأش .
القلقشندى : المصدر السابق ، جـ٤ ص٨ ، ٩ . وفى العصر المملوكى تولى أمر « الطبلخاناه » أمير علم » وله الحق وقت الحرب فى ضرب الطبل لتهييج العسكر فى الأقدام على المبارزة ، أو الكف حسبما يقتضيه دين الله تعالى .
السبكى : معيد النعم ، ص ٣٥ .

(٤) إذا حاولنا مقارنة موكب تقلد السلطنة ببعض مواكب تقلد المناصب العليا فى الدولة الفاطمية ، مثل الاحتفال بولى العهد الخليفة الفاطمى نجد أن أهم ما يميز هذا الاحتفال هى الوصية التى تصدر =

لم يدخل مصر إلا على أثر دخول لقب وحكم السلاطين ، ومحاكاة ما كان يحدث لسلاطين السلاجقة عند تقليدهم بمعرفة الخلفاء العباسيين وقد عرفت مصر مواكب تقليد السلطنة لأول مرة بعد سقوط الخلافة الفاطمية .

وقد عرفت مواكب السلطنة أو التتويج فى مصر بل أصبحت من أهم عوايد القاهرة وذلك منذ أن استقل الناصر صلاح الدين بحكم مصر إذ أرسل له الخليفة العباسى سنة ٥٧٦هـ/ ١١٨٠م رسوله شيخ الشيوخ أبو القاسم عبد الرحيم ، ومعه شهاب الدين بشير الخاص بالتفويض والتقليد[١] والتشريف والخلع ، وهى فرجية سوداء بطراز مذهب وعمامة سوداء بطراز ذهب ، وطوق ومشدة سوداء مذهبة ، وتخت وسرفار[٢] وفرس أشهب من مواكب الخليفة عليه سرج أسود وسلال أسود وطوق

= عن الخليفة لمن يخلفه من أولاده ، بحيث يتولى الخلافة آخر من نص عليه الخليفة قبل وفاته ، وكان يكتفى بمبايعة الناس لولى العهد . وينحصر الاحتفال بهذه المناسبة فى الخلع على كافة أهل الدولة وعمل السماط لأهل القاهرة والطارئين من البلاد . ونثر الأموال واجتماع العامة تحت المنظرة لرؤية أمير المؤمنين الذى كان يشرف عليهم من المنظرة فيقبلون الأرض وينصرفون .

ويخرج ولى العهد راكبا من القاهرة إلى مصر وقد زينت الطرقات ولم يكن يشارك رجال الدولة فى هذا الاحتفال . فيما عدا ليالى الوقود والمولد النبوى حيث كان يقود الموكب قاضى القضاة .

ولا يخرج الخليفة فيهذه المواكب إلا فى موكب عيد رأس السنة الهجرية ، حيث كان يخرج من باب القصر راكبا إلى ميدان بين القصرين إلى باب النصر عائدا من باب الفترح ، وكلا البابين فى الجهة الشرقية .

راجع :

المقريزى : الخطط جـ١ ص ٣٥٥ ، ٤٦٧ ، ٤٤٥ : ٤٤٦ .

اتعاظ الحنفا : جـ٢ ص١٨١ ، جـ٣ ، ص١٠٠ ، ١٠١ .

ابن تغرى بردى : النجوم ، جـ٤ ص٧٧٩ .

عبد المنعم ماجد : (د.) : نظم الفاطميين ورسومهم فى مصر (جزءان) ، مكتبة الانجلو المصرية ، الطبعة الثالثة لسنة ١٩٧٨ ، جـ٢ ص٦٢ ، ٩١ .

عبد المنعم سلطان (د.) : المجتمع المصرى فى العصر الفاطمى ، دراسة تاريخية وثائقية ، دار المعارف مصر ١٩٨٥ ، ١٣١ ، ١٣٥ ، ١٦٢ ، ١٦٣ .

(١) ابن واصل : المصدر السابق ، جـ١ ص٢١٩ .
المقريزى : السلوك جـ١ ق١ ص٤٦ .
راجع : البندارى الاصفهانى : المصدر السابق ، ص ٦١ .

(٢) سرفار : هو الجزء الذى يقبض عليه الراكب من اللجام .
العينى : السيف المهند ، هامش ٢ ص١٩٥ .

مجوهر ، وعلم أسود عليه ألقاب الخليفة العباسي وعدة طبول وبقج[1] ذهب ، وسيف جميع قرابة ملبس بالذهب[2].

وفي العاشر من رجب سنة ٥٧٦هـ/ ١١٨٠م خرج قاضى القضاة صدر الدين بن درباس والشهود والمقرئون والخطباء إلى خيمة الواصل بالخلعة وزينت البلد وضربت نوب الطبلخانات على باب دار السلطان الناصر صلاح الدين الواصل بالخلعة وفي اليوم التالي ركب السلطان صلاح الدين بالخلع ودخل القاهرة والوزير بين يديه على فرس حاملا عهد السلطان أو التقليد الذى كتبه الخليفة العباسي بموافقته على سلطنة الناصر صلاح الدين[3] فى حكم مصر . فيدخل القاهرة من باب الفتوح أو من باب النصر إلى أن يشق القاهرة ويخرج من باب زويلة[4]. وهنا يركب الأمراء وبقية العسكر[5]. وبعد بناء القلعة وجعلها مقراً للسلطنة ، أصبح موكب التتويج أو السلطنة يصعد إلى القلعة ، مثل موكب السلطان الملك الكامل (٦١٥ ـ ٦٣٥ هـ/ ١٢١٨ ـ ١٢٣٨م) . ولما آل لبنى أيوب حكم الشام مع مصر ، أصبح الخليفة العباسي يرسل لهم ضمن خلع السلطنة سيفين لا سيفاً واحداً ، ويعنى هذا الجمع فى الحكم على الشام ومصر[6].

وكان يصاحب موكب التتويج ـ ومواكب سلطانية أخرى ـ حمل شعائر

(١) بقج : جمع بقجة ، وهى كلمة فارسية الأصل معناها الصرة لوضع الأشياء .
العينى : المصدر السابق ، هامش ٣ ص١٩٥ .
طوبيا العنيسى : المرجع السابق ، ص١٢ .

(٢) أبو شامة : الروضتين ، ج٢ ص١٩ .
أبى الفدا : المصدر السابق ، جـ٣ ص١١٤ ـ ١٣٩ .
المقريزى : السلوك ، جـ١ ق١ ص١٦٨ .

(٣) المقريزى الخطط ، جـ٢ ص١٠٧ ـ ١٠٨ .

(٤) كانت المواكب السلطانية تشق القاهرة حتى تصل إلى باب زويلة من عدة طرق .
راجع : محمد حسام الدين إسماعيل : « منطقة الدرب الأحمر ـ دراسة للقسم الثالث من ظاهر القاهرة القبلى » . (رسالة ماجستير ـ غير منشورة ، مقدمة لكلية الآداب بسوهاج ـ جامعة أسيوط ١٩٨١) ، ص٥٨ .

(٥) راجع : المقريزى : الخطط جـ٢ ص١٠٧ ، ١٠٨ .

(٦) البندارى الاصفهانى : المصدر السابق، ص ٦١ .
المقريزى : السلوك جـ١ ق١ ص٢٢٠ ، ص١ ق٢ هامش ٣ ص٣١٩ .

السلطنة، وبعض هذه الشعائر عرف فى مواكب الخلفاء الفاطميين فى مصر[1]، والبعض الآخر عرفته مصر لأول مرة منذ العصر الأيوبى لأنه مأخوذ عن شعائر السلطنة السجوقية كالغاشية والسنجق .

الغاشية :[2]

هى كلمة من أصل عربى فيقال غشى الشىء وعلى الشىء ، أى جعل عليه غشاء ، والغاشية هى الغطاء[3]. ويقول ابن منظور[4]: « أن الغاشية هى الحديدة التى فوق مؤخرة الرحل ، وغاشية السرج هى غطاؤه والغاشية : ما ألبس صفن السيف من الجلود من أسفل شارب السيف إلى أن يبلغ نصل السيف » . والغاشية كما عرفها القلقشندى[5]: « هى سرج من أديم مخرزة بالذهب يخالها الناظر جميعها مصنوعة من الذهب ، تجعل بين يديه فى المواكب الحفله كالميادين والأعياد ونحوها يحملها الركاب دارية[6] رافعاً لها على يديه يلفتها يمينا وشمالاً » .

وعلى ضوء هذا التعريف تكون الغاشية هى السرج المذهب الذى يحمله الركاب دراية فى الموكب لفرجة العامة عليه ، وكان أحياناً يوضع على الفرس[7]، وفيما يعتقد

---

(١) راجع : القلقشندى : المصدر السابق ، جـ٤ ص٦ : ٩ .

(٢) الغاشية : من الألفاظ التى وردت فى آيات القرآن الكريم . راجع :
محمد فؤاد عبد الباقى : المرجع السابق ، ص ٤٩٨ .

(٣) المعجم الوسيط ، جـ٢ ص٦٥٣ .

(٤) لسان العرب ، ص ٣٢٦١ .
Becker (C) : Le Ghashiya Comme Embléme de la Rayanté, palermo, 1910 .

(٥) صبح الأعشى : جـ٤ ص٧ .

(٦) الركاب دارية : هم الذين يتقدمون مواكب السلاطين ، ويتبعون بيت الركائب الذى تحفظ فيه عدد الخيل من السروج واللجم والكنابيش المتخذة من الذهب المزركشة بالريش وغير المزهرة ، والمسئول عن بيت الركاب هو المهتار .
القلقشندى : المصدر نفسه ، جـ٤ ص ١٢ .
العينى : السيد المهند ، هامش ٣ ص ٢٠٠ .

(٧) ابن واصل : المصدر السابق ، جـ٣ هامش ٢ ص ٢٥ .
عرفها البعض بأنها « قبة » ، راجع :
سعيد عاشور ، العصر المماليكى فى مصر والشام ، دار النهضة العربية ، الطبعة الثانية ـ القاهر ١٩٧٦، ص٤٥٨ .

أنه فرس النوبة الذى يحفظ بقرب حضرة السلطان بالقلعة أو فى الاسفار لاستخدامه فى الطوارئ[1] .

ويعتقد أن الغاشية عرفت لأول مرة كشعار من شعائر السلطنة عند السلاجقة ، فيذكر الحسينى[2] : « أن السلطان طغرلبك بعد انتصاره على البساسيرى وعودة الخليفة العباسى إلى بغداد ترجل السلطان وحمل الغاشية قريب دار الخلافة » .

وقد عرف الفاطميون فى مواكب الخلفاء فى مصر حمل الجتر أو المظلة[3] ، لكنهم لم يعرفوا اللعب بالغاشية .

فقد عرفت الغاشية بأشكالها المعروفة منذ السلاجقة لأول مرة فى مصر بعد اعتراف الخلافة العباسية بحكم الناصر صلاح الدين الأيوبى ، وقد صارت الغاشية فيما يذكر القلقشندى[4] : من رسوم الملك وآلاته ، وكانت تحمل أمام السلطان فى المواكب وإينما ذهب السلطان وفى أثناء السفريات[5] . ويحملها السلطان أمام ابنه عندما يسند إليه ولاية العهد[6] . كما كانت تحمل عند وفاة الملوك ، فقد حملها الأمراء عند وفاة الملك الظاهر غازى بن صلاح الدين[7] (٦١٣هـ/ ١٢١٦م) .

السنجق :[8]

السناجق : هى رماح تصنع كلها من الفولاذ ، أو من الخشب برؤوس من

(١) العينى : عقد الجمان ، جـ٣ هامش ١ ص٢٧٢ .
(٢) أخبار الأمراء والملوك السلجوقية ، ص٦٣ .
(٣) القلقشندى : المصدر السابق ، جـ٤ ، ص٧ ، ٨ .
(٤) المصدر نفسه ، جـ٤ ص٦ ، ٧ .
(٥) راجع : العينى : عقد الجمان جـ٢ ص٣٣٧ .
(٦) راجع : العينى : المصدر نفسه ، جـ١ ص٣٧٧ .
(٧) ولد الظاهر غازى بمصر سنة ٥٦٨هـ/١١٧٢م وتولى الحكم فى دمشق ٥٨٢هـ/١١٨٦م .
(٨) السنجق : ذكرت بعض الآراء أنها كلمة فارسية الأصل معربة عن « سنجوق » والجمع سناجق .. ويعنى السنجق الراية الصغيرة الدائرة تحت لواء واحد وعادة ما تكون من اللون الأصفر .
ابن الأثير : الدولة الأتابكية ، هامش ١ ص٩٣ .
ابن تغرى بردى : النجوم ، جـ٥ ص٢٨٦ .
القلقشندى : المصدر السابق جـ٤ ص٦ و٨ ، جـ٥ ، ص٤٥٨ .
وذكرت آراء أخرى أن السنجق كلمة تركية الأصل .
ابن واصل : المصدر السابق جـ٣ هامش ١ ص ٢٥ .
العينى : عقد الجمان ، جـ١ هامش ١ ص ٤٠ .

الصلب بسن فولاذ[١] .

وتعتبر السناجق من شعائر السلطنة ، وكانت السناجق السلطانية من اللون الأصفر[٢] . وأول من حمل السنجق كان السلطان السلجوقى ملكشاه ثم حملها الأمير محمود بن زنكى الذى يعتبر أول من حملها من ملوك الأطراف فى عصر السلاجقة[٣] . وغالبًا ما كانت تحمل السناجق فى أوقات الحروب .

ولم تعرف السناجق فى العصر الفاطمى ، وأول من حمل السنجق فى مصر كان السلطان صلاح الدين الأيوبى ، وكانت السناجق ترسل لبنى أيوب .. من الخلافة العباسية فى بغداد[٤] ، ضمن خلع السلطنة التى يرسلها الخليفة إلى السلطان بمناسبة تتويجه على العرش ويسمى « السنجق الخليفتى » وكان يحمل السنجق للسلطان « السنجقدار » [٥] . بالإضافة إلى أن السناجق كانت توضع على قبر السلطان المتوفى ، وهو ما حدث عندما نقلت شجرة الدر رفات زوجها السلطان الصالح نجم الدين أيوب إلى الضريح الذى شيدته له بجوار المدرسة الصالحية ، فقد وضعت عند القبر سناجق السلطان وبقجته وتركاشه[٦] .

٢ ـ مظاهر التأثيرات السلجوقية فى الحضارة الأيوبية عسكريًا بمصر :

« العنصر التركى » :

من أهم النظم العسكرية التى ظهرت فى العصر السلجوقى هى اعتمادهم على العنصر التركى وخاصة من الأرقاء ، وكان من الطبيعى أن تزداد أعداد العناصر التركية

---

(١) راجع : ماير : المرجع السابق ، ص ٨٣ .
(٢) القلقشندى : صبحى الأعشى ، جـ٤ ص٨ .
(٣) راجع أبو شامة : الروضتين ، جـ١ ص٦٥ .
السيوطى : الوسائل إلى معرفة الأوائل ، ص ٨٣ .
(٤) أبو شامة : المصدر السابق جـ٢ ص٤٤ .
أبى الفدا : المصدر السابق ، جـ٣ ص١٣٩ .
ابن واصل : المصدر السابق جـ١ هامش ٢ ص١١٧ ، جـ٣ ، ص ٤٤ .
(٥) المقريزى : السلوك ، جـ١ ق١ هامش ١ ص١٢٤ .
(٦) المقريزى : الخطط ، جـ٢ ص٣٧٥ .

لانتماء السلاجقة إليهم ، ومعظم الأتابكيات التى انسلخت عنهم كانوا أيضًا رقيقًا تركيا فى الأصل مثل أتابك عماد الدين زنكى ابن آق سنقر الذى أسس الدولة الأتابكية [١] ، ومثل أنوشتكين وكان ساقيا للسلطان ملكشاه السلجوقى وأسس الدولة الخوارزمية[٢] .

ورغم أن الأسرة الأيوبية التى حكمت مصر كانت كردية الأصل إلا أن الأيوبيون أخذوا عن السلاجقة الاعتماد على طبقة الأرقاء من الترك بصفة أساسية[٣] ، لدرجة أن بعض المصادر نعتت الدولة الأيوبية « بدولة الترك » . الأمر الذى أفصح عنه ابن الأثير[٤] من خلال عدة إشارات منها : أن أبنة الوزير الصالح طلائع التى تزوجت سنة ٥٥٥هـ/ ١١٦٠م الخليفة العاضد الفاطمى ، قد عاشت حتى خرج الأمر من العلويين إلى الأتراك (يقصد الأيوبيين) وفى أحداث سنة ٥٦٥هـ/ ١١٦٩م منها ما حدث بعد أن صد أسد الدين شيركو الفرنجة عن دمياط ، وكاتب فرنجة الشام بنى جلدتهم من فرنجة صقلية والأندلس قائلين : أنهم يعرفونهم ، « بما تجدد من ملك الأتراك لمصر »[٥] ، وقد أشار ابن جبير[٦] ، « أن الغز[٧] ـ أى الأتراك ـ قد استولوا على الدولة العبيدية .

وقد احتوى كتاب البداية لابن كثير[٨] إشارات عدة فى هذا المعنى منها أنه كان يستخدم لفظ الأتراك بدلا من الأيوبيين فى وصف بعض الأحداث وعلى سبيل المثال أحداث ٥٦٢هـ/ ١١٦٦م عندما ذكر : « أنه وقع فى نفوس المصريين أن صلاح الدين سيملك الديار المصرية وفى ذلك يقول الشاعر عرقله :

---

(١) راجع : سعيد الديوه جى : تاريخ الموصل ، مطبوعات المجمع العلمى العراقى ، ١٩٨٢ ، جـ١ ، ص ٢٥٥ .

(٢) عصام الدين عبد الرءوف ، المرجع السابق ص ٢٥٦ .

(٣) عناصر الجيش الفاطمى ، راجع الفصل الأول ، ص٤٥ هامش ٤ .

(٤) الكامل ، جـ١ ص٢٥٥ .

(٥) الكامل : جـ١١ ص٣٥١ .

(٦) الرحلة : ص ٥٠ (شاركه نفس الرأى ، على مبارك ، المرجع السابق ، جـ١ ص٣) .

(٧) يقصد بالغز ، الترك والتركمان والقبق وهى كلها عناصر تركية .

(٨) ابن كثير : المصدر السابق ، جـ١٢ ص٦٧ .

وردت أيضاً السيوطى : حسن المحاضرة جـ٢ ص٣ .

أقول والأتراك قد أزمعت * مصر إلى حرب الأعاريب

رب كـمـا ملكتـهـا يوسف الصـديق من أولاد يعـقـوب

يملكهـا فى عـصـرنا يوسف الصـادق من أولاد أيوب

وفى أحداث سنة ٥٦٧هـ/ ١١٧١م يذكر : « أن صلاح الدين بعد أن أسكن أكثر الأمراء فى دور من كان ينتمى إلى الفاطميين ، ولا يلقى أحد من **الأتراك** أحداً من أولئك الذين كانوا بها من الأكابر إلا شلحوه ونهبوا داره » .

وهو نفس ما تضمنته بعض كتابات ابن تغرى بردى(١) : فقد ذكر « أن العاضد عندما خاف عاقبة أمر صلاح الدين بمصر أمر خادمه مؤتمن الخلافة بقتال **الترك والغز** » .

وعندما انتصر صلاح الدين فى حلب على الصليبيين كتب له الشاعر المصرى المعروف « ابن سناء الملك » قصيدة طويلة يمدحه فيها ، وافتتحها كالآتى :

« بدولة الترك عزت ملة العرب * وبابن أيوب ذلت شيعة الصلب »(٢)

مما سبق يتضح لنا أن أغلب المصادر نعتت الدولة الأيوبية بدولة الترك .

ومما يؤيد الرأى المشار إليه ما ذكرته المصادر أيضاً : أن صلاح الدين منذ أن وزر(٣)

---

(١) النجوم ، جـ٥ ص٣٥٤ .

(٢) توفى ابن سناء الملك فى القاهرة سنة ٦٠٨هـ/١٢١١م .

راجع عنه : ابن خلكان : المصدر السابق ، م٦ ص٦١ .

العماد الحنبلى : المصدر السابق جـ٥ ص٣٥ .

محمد إبراهيم (د.) : ابن سناء الملك حياته وشعره . دار الكاتب ، القاهرة ١٩٧م .

د. عبد اللطيف حمزة : الأدب المصرى من قيام الدولة الأيوبية إلى مجىء الحملة الفرنسية . مكتبة النهضة (سلسلة الألف كتاب) ، ص ٧٦ .

Ayalon (D) : Names Titles and "Nisbas" of the Mamluks (The Mamluk Military Society), London, 1979, p. 189 .

(٣) نبذ صلاح الدين عناصر الجيش الفاطمى المشار إليهم فى المقدمة . ثم كوّن أغلب جنسيات جيشه من الأكراد والعرب والترك بوجه خاص . كما ضم العزيز عثمان الأيوبى عددا من الأرقاء الأتراك ليحد من نفوذ المغاربة . راجع :

المقريزى : الخطط ، جـ١ ص٩٤ . =

للعاضد الفاطمى ، شكل أول فرقة من الأرقاء الأتراك ، وأصبحوا إحدى الفرق الهامة في جيشه المتنوع الجنسيات(١). بحيث كان العنصر التركى أبرز عناصر الجنسيات الأخرى فى الجيش ، بل وفى أحداث العصر الأيوبى ، لدرجة أنه فاق الجنس الكردى الحاكم ، حتى أن خلفاء صلاح الدين لم يكونوا مسرورين من الأكراد ، لذلك لجأوا إلى الإكثار من العنصر التركى والجركسى وغيرهم من العرب الساكنة حول حوض البحر الأسود وقزوين(٢) وظل الأيوبيين يكثرون من الاعتماد على الأرقاء (٣) من العنصر التركى فى شكل تصاعدى ، حتى وجدنا السلطان الصالح نجم الدين أيوب يكثر من شراء المماليك الأتراك ، ويجعل منهم حرسا خاصا له ، وأطلق عليهم اسم «المماليك البحرية» تمييزا لهم عن المماليك الصالحية السابقة ، وأباح لهم الحرية دون غيرهم من الطوائف الأخرى من العسكر حتى ضج بهم الناس ، فأنشأ لهم قلعة

= ابن إياس : المصدر السابق ، جـ١ ص٢٤٤ .
على مبارك : المصدر السابق ، جـ١ ص١٣٣ .
سعيد عاشور : العصر المماليكى ، ص٤ ، ص ٧٦ .
حورية عبده سلام : المرجع السابق ، ص ١٧ ـ ١٨ .
عبد العزيز عبد الدايم : الرق ، ص ٢٥ ، ٢٦ عن الأماكن التى جلب الأيوبيين مماليكهم منها ، المرجع نفسه ، ص٢٨ .

(١) اشترى صلاح الدين ١٢ ألف مملوك من الجراكسة والأتراك بعد تدريبهم على العسكرية وفنون الحرب .
أنور زقلمة : المرجع السابق ، ص١٤ .
وكان صلاح الدين يجمع تحت أمرته عددا من التركمان والعرب عند اقتراب أى حرب وعند انتهاء الحرب يعودون إلى أعمالهم .
Reinaud (M.) : Del L' Art Militaire Chez les Arabs au Moyen Ages. "Journal Asiatique" 1848, p. 230 .

(٢) Reinaud : op. cit., p. 230 .

(٣) استخدم الرقيق من الاتراك فى البيوت الإسلامية منذ أواخر القرن الأول من الهجرة لوفائهم وشجاعتهم وتمام قاماتهم وظرافة شمائلهم ، ثم انتشر استعمالهم طوال العصر الإسلامى وكونوا قبل اجتياح السلاجقة دويلات مستقلة حكمت لفترات قصيرة من الزمن كالدولتين الطولونية والغزنوية . راجع :
القلقشندى : المصدر السابق ، جـ٤ ص٤٥٨ .
سعيد عاشور : العصر المماليكى ، ص ١ ، ٢ .
أحمد مختار العبادى : المرجع السابق ، ص ٢١ : ٢٦

الروضة[1] . بحيث يمكن اعتبار الدولة الأيوبية الكردية ، قد تفرعت أو انسلخت بطريق غير مباشر عن الدوْلة السلجوقية . وبذلك يكون السلاجقة قد ظهر لهم أكبر تأثير فى الحضارة الإسلامية فى مصر فى العصر الأيوبى وهو « تتريك مصر » بنسبة ملحوظة .

عرض الجند والعناية بمظهرهم :[2]

اهتمت الدولة الإسلامية منذ نشأتها بتنظيم الدواوين ، وقد اعتنى العرب – فى المقام الأول – بأمر الجيوش لمواصلة الفتوحات الإسلامية وتأمينها ، ومن مظاهر هذا الاهتمام نظام عرض الجيش وكان المسئول عنه فيما يذكر الماوردى[3] : « أمير الجهاد أو أمير الجيش » ، والغرض من استعراضه للجند هو فحصهم على غرار ما يسمى الآن « يكشف الهيئة »[4] ، والذى بمقتضاه يتم قبول الجندى فى الديوان وتحديد مكانه وموقعة من الجيش ومقدار عطائه[5] ، وبمقتضاه أيضًا يتم تنظيم صفوف المقاتلين

---

(١) جلال الدين السيوطى : (ت٩١١هـ/١٥٠٥م) .
بلبل الروضة ، دراسة وتحقيق : د. نبيل محمد عبد العزيز ، مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٨١م ، ص١١.

(٢) العناية بأمر الجنود وخيولهم من العادات الساسانية القديمة .
راجع : نظام الملك : المصدر السابق ، ص٢٢٠ .

(٣) الماوردى : « أبى الحسن على بن محمد بن حبيب » (ت٤٥٩هـ/١٠٥٨م) .
« الأحكام السلطانية » . مكتبة مصطفى البابى الحلبى . الطبعة الثالثة ، القاهرة ١٩٧٣ ، ص٣٥ .

(٤) صلاح الدين البحيرى (د.) : ديوان الجيش فى الدولة الأيوبية . (المجلة التاريخية ٧٦ – ١٩٧٧م) – ص١٨٤ .
كشف الهيئة : يتم فيه فحص نوعية الجنود من الآفات المانعة من القتال ، ومعرفة من منهم فارسا أو راجلا . والتحقق من بلوغ الجندى ، ومدى اقباله على القتال ، فإن ضعفت كفاءته القتالية لا يثبت فى الديوان . أما من يثبت صلاحيته فيتم ترتيب وضعه فى صفوف الجيش حسب سابقية دخوله فى الدين ثم السن ثم الشجاعة ، ثم القرعة عند التساوى فى الشروط السابقة . ومن خلال هذا العرض يتم تقدير العطاء المادى له وفق كفايته ومن يعولهم وعدد خيوله والمكان الذى سوف يذهب إليه .
الماوردى : المصدر السابق ، ص ٣٥ .

(٥) الماوردى : المصدر نفسه ، ص ٣٥ ، ٣٦ .
أبى يعلى : « محمد بن الحسين الفراء الحنبلى » (ت٤٥٨هـ/١٠٦٥م) الأحكام السلطانية (مطبعة أولاد مصطفى الحلبى . القاهرة ١٣٥٧هـ/١٩٣٨م) ص٢٣ .

والخيول[1] حسب حالة وكفاءة كل منهم[2].

وفى مصر فى العصر الفاطمى ترك الخلفاء الفاطميون أمر الاهتمام بعرض الأجناد بزيهم وسلاحهم وحليهم ودوابهم لاختصاص صاحب ديوان المجلس كما يذكر : ابن الطوير[3]، فيما عدا اهتمام الخلفاء الفاطميين بعرض الخيل فقط[4]، إضافة لما يقوم به ديوان الجيش .

ولم تخل الحضارة السلجوقية وهى تقوم فى أهم خصائصها على الفضيلة الحربية من أمر عناية السلاطين بأمر الجند واستعراضهم بأنفسهم للتفتيش ، ليس فقط للتأكد من مدى كفايتهم الحربية ، بل أيضًا للبحث عن مدى تحمل الجند والخيل ومدى عنايتهم بملبسهم وسلاحهم وخيولهم ، بل حتى بسلوكهم فى مال الرعية[5]. على أن اهتمام سلاطين السلاجقة الشخصى بأمر الجند ، لم يمنع من اضطلاع ديوان[6] الجيش بأمر عرض الجند بمعناه السابق الإشارة إليه ، وقد أطلقوا فيما يبدو على

---

(١) الغرض من تفقد أحوال الخيل أن لا يدخل أمير الجهاد فى الحرب خيلا ضخما ولا ضرعا صغيرا ولا حطما كسيرا ولا أعجف زارحا هزيلا ، لأنها لا تقى ، وربما كان ضعفها وهنا ويتفقد ظهور الامتطاء والركوب فيخرج منها ما لا يقدر على السير ويمنع من حمل زيادة على طاقتها .
الماوردى : المصدر السابق ، ص ٣٥ .
اهتم الطولونيين بعرض الخيل واعتبر عندهم من عجائب الإسلام الأربعة ، والثلاثة الأخرى هى (رمضان بمكة والعيد بطرسوس ، والجمعة ببغداد) .
المقريزى : الخطط ، جـ١ ص٣١٨ .

(٢) راجع : الماوردى : المصدر السابق ، ص٣٦ : ٥٤ .

(٣) المقريزى : الخطط ، جـ١ ص٣٩٧ .

(٤) المقريزى : الخطط ، جـ١ ص٤٥٢ .
ماجد : خلافة الفاطميين ، ص ٣٢١ .

(٥) على سبيل المثال : عندما بلغ السلطان الب ارسلان أن بعض خواص مماليكه سلب من آخر أزارا ، أخذ المملوك وصلبه فارتدع الباقون
ابن الأثير الكامل ، جـ١٠ ص٧٢

(٦) عرف ديوان الجيش عند الغزنويين والبويهيين ، باسم « ديوان العارض أو العرض » .
راجع عصام الدين عبد الرءوف المرجع السابق ، ص ١٦٥ ـ ١٦٦ .
فاضل الخالدى المرجع السابق ، ص ٢٦٨ .

الشخص الذى يقوم بهذه المهمة لقب « متولى عرض الجيش »[1].

ولقد وصلت درجة تجمل عساكر السلاجقة أن صاروا من دواعى الفرجة للناس ، وشبههم أهل بغداد بالملائكة[2]. ولا شك أن الشعر مرآة صادقة لما يدور من أحداث العصر ، فقد أنشد أحد شعراء[3] السلاجقة يصف مماليك الأتراك بأبيات من الشعر منها :ـ

« فى فتية من جيوش الترك ما تركت * للرعد كراتهم صوتا ولا حيتا

قوم إذا قوبلوا كانوا ملائكة * حسنا وإن قوتلوا كانوا عفاريتا »

وكان سلاطين السلاجقة يشجعون أمراءهم أن يعتنوا بأمر الجنود ، فكان السلطان ملكشاه يستحسن من الأمير آق سنقر[4] الحاجب التجمل العظيم فى عساكره ، وبحيث لم تقاربه عساكر السلطان وكان السلطان يستحسن منه ذلك[5]. ووصف الحسينى[6] : « اتباع السلطان محمود السلجوقى وعساكره بأنهم شبهه الطواويس زينة.

لذلك لا يبدو غريبًا على صلاح الدين الأيوبى الذى تربى فى حضن الحضارة السجلوقية ، أن يتأثر بالسلاجقة فى هذا المضمار فقد اهتم بنفسه بأمر عرض الجند ، إذ بعد أزالته للدولة الفاطمية ، « أمر عساكره قديمها وجديدها أن تركب بسلاحها وخيولها ، وخرج لعرضهم ، وهى تمر عليه موكبًا بعد موكب[7] ، وطلبًا بعد

(١) فى العصر السلجوقى ممن تولوا وظيفة « متولى عرض الجيش » شمس الملك بن نظام الملك . راجع : الاصفهانى : المصدر السابق ، ص ٩٧ .

(٢) عمر بن شاهنشاه : المصدر السابق . ص ١٨٧ ـ ١٨٨ .

(٣) هو الشاعر إبراهيم بن عثمان بن أحمد أبو إسحق الغزى (ولد ٤٤١هـ/١٠٤٩م ، ت٥٤٢هـ/١١٤٧م) .
ابن الأثير : الدولة الاتابكة ، ص٨ .

(٤) آق سنقر : راجع : ابن الأثير : الدولة الأتابكية ص٤ .
ابن خلكان : المصدر السابق م١ ص٢٤١ .

(٥) ابن الأثير : الدولة الاتابكية ، ص٨ .
أبو شامة : الروضتين ، جـ١ ص٦٥ .

(٦) الحسينى : المصدر السابق ، ص٣١ .

(٧) المقريزى : اتعاظ الحنفا ، جـ٣ ص٣٠٧ .

طلب»[1] .

ويحكى عن عساكر الملك المعظم عيسى بن العادل أبى بكر ، أنهم « كانوا فى غاية التجمل »[2] .

وقد حرص الأيوبيون على استعراض جنودهم أمام رسل الروم والفرنج ، ليعرفوا كيف أن ملكا من ملوك الإسلام لم يحز مثلها حتى شاهدوا ما أرغم أنوفهم »[3] .

ومما أخذه الأيوبيون عن السلاجقة من رايات تحمل للسلاطين وخاصة عند خوضهم المعارك ، أو فى المواكب الخاصة بالمعارك ، حملة راية الجاليش[4] .

الجاليش :[5]

عرف العصر الفاطمى البنود التى هى الرايات والأعلام[6] ، والتى عرفت فى زمن

---

(١) الطلب : بلغة الغز هو الأمير المقدم الذى له علم معقود وبوق مضروب وعده من الجند من مائتى فارس إلى مائة فارس إلى سبعين فارسا .
المقريزى : اتعاظ الحنفا ، جـ٣ ص٣٢٧ ، وفى تعريف آخر : الطلب هو لفظ كردى معناه الأمير الذى يقود مائتى فارس فى ميدان القتال كما يطلق على الكتيبة .
بيبرس المنصورى : « ركن الدين بيبرس بن عبد الله الدوادار » (ت١٣٢٤/٧٢٥) التحفة الملوكية فى الدولة التركية . نشره عبد الحميد صالح ، الدار المصرية اللبنانية ١٩٨٧ ، ص٩٦ هامش ١ .
ثم صار الطلب يطلق على الكتيبة والجيش وهى من مائة إلى ألف فارس . وبحيث صار للسلطان طلبه ، كما كان للأمراء .
ابن تغرى بردى : المنهل ، جـ٥ ، هامش ٤ ، ص٢٧٧ .

(٢) ابن الفدا : المصدر السابق ، جـ٣ ص١٤٥ .

(٣) المقريزى : الخطط ، جـ١ ص٨٦ .

(٤) سعيد عاشور : العصر المماليكى ، ص ٤٢٥ .

(٥) الجاليش أو الشاليش ، كلمة تركية الأصل تعنى مقدمة القلب فى حالة الحرب حتى يكون السلطان فى قلب الجيش . راجع :
ابن تغرى بردى : المنهل : جـ٢ هامش ١ ص٤٨٣ .
أحمد مختار العبادى : المرجع السابق ، ص ٧٨ ، ٧٩ .
Dozy : op. cit., vol. 2, p. 27

(٦) المقريزى : الخطط جـ١ ص٤٢٣ .

المقريزى باسم « العصائب السلطانية »[1]. ويطلق القلقشندى على جميع أنواعها اسم « الاعلام »[2]، ولكن لم يعرف العصر الفاطمى ، ضمن الرايات والاعلام التى عرفها، راية الجاليش .

فالجاليش راية أو علم من اللون الأصفر فى أعلاها خصلة كبيرة من الشعر[3]، وهى من العادات التركية القديمة التى حافظ عليها السلاجقة بعد تكوين إمبراطوريتهم فى العصر الإسلامى ، فقد كانت بعض أعلامهم تزينها خصلة كبيرة من شعر ذنب الخيل ، وقد عرف هذا الشكل من الرايات لأول مرة فى العصر الأيوبى[4] فى مصر .

وكان الجاليش يعلق على المكان الذى تدق حوله الطبول والمزامير أمام مقر السلطان ، وفى أثناء الحروب كان يوضع الجاليش فى طليعة الجيش ليكون أمامه[5]، ثم صارت تطلق على مقدمة الجيش أو طلائعه ، وسميت بذلك لأن ترتيب جاليش السلطان فى المعارك التى يخوضها يكون عادة فى مقدمة القلب من جميع الصفوف[6] .

نظام دفع رواتب الجند :

تميز العصر الفاطمى بالسير على ما كان متبعًا منذ ظهور الإسلام وعند الخلفاء من الأمويين والعباسيين فى دفع رواتب الجند عن طريق « العطاء »[7]، وهى الأموال التى تجبى من الخراج وتفرق على الأمراء ، والعمال والأجناد على قدر رتبهم وبحسب مقاديرهم[8] .

---

(١) العصائب السلطانية : مفردها العصابة ، وهى راية عظيمة من حرير أصفر مذرزة بالذهب عليها القاب السلطان واسمه .
القلقشندى : المصدر السابق ، جـ٤ ص٨ .

(٢) القلقشندى : المصدر نفسه ، جـ٤ ، ص٨ .

(٣) القلقشندى : المصدر نفسه ، جـ٤ ، ص٨ .

(٤) أحمد مختار العبادى : المرجع السابق ، ص٧٨ ، ٧٩ .

(٥) عبد المنعم ماجد : نظم دولة سلاطين المماليك ورسومهم فى مصر (جزءان) مكتبة الأنجلو المصرية ، ٦٧ (١٩٦٨م جـ١ ص١٥٨ ، ١٥٩ .

(٦) على إبراهيم حسن : تاريخ المماليك البحرية ، ص٣٥٥ .

(٧) العطاء : هى الأموال التى تجبى من خراج الأرض .

(٨) المقريزى : الخطط جـ١ ص٩٥ .

فلما جاء السلاجقة غيروا ذلك النظام واستبدلوا به نظام الإقطاع وخاصة منذ وزارة نظام الملك فكما يذكر المقريزى[1] : هو أول من عرف أنه فرق الإقطاعات على الجند ، وبحيث عممه على الجند وفى جميع البلاد الخاضعة للحكم السلجوقى ، فقد استبدل دفع رواتب الجند بنظام « الإقطاع » بدلا من نظام « العطاء » .

وكان المسئول عن دفع رواتب الجنود خلال العصر الفاطمى هو « ديوان الجيش» الذى يطلق عليه أيضًا « ديوان المستوفى »[2] ، والذى كان ينقسم إلى إدارتين ، إدارة تختص بعرض الخيل والأجناد ، والإدارة الثانية تختص بدفع رواتب الجند[3] ، ولذلك وضع له المقريزى[4] العنوان التالى : « ديوان الجيوش والرواتب » .

أما خلال العصر الأيوبى فى مصر ، فقد أُدخل نظام الإقطاع تأسيًا بنظم السلاجقة لذلك دفع صلاح الدين رواتب الجند بنظام الإقطاع ، وطبقًا لهذا التأثير الحضارى الذى أخذ به الأيوبيون فى مصر فقد اشتمل ديوان الجيش على إدارة عرفت «بديوان الإقطاع» [5] ، والتى يبدو أنها استبدلت بإدارة دفع الرواتب فى ديوان الجيش أو ديوان المستوفى أو ادمجت فيها .

---

(١) المقريزى : المصدر السابق ، جـ١ ص٩٥ .

(٢) نظير حسان سعداوى : جيش مصر أيام صلاح الدين ، ص٢٩ .
راجع : المقريزى : الخطط جـ١ ص٤٠١ .

(٣) صلاح الدين البحيرى : المرجع السابق ، ص ١٧١ : ١٧٢ .

(٤) راجع : المقريزى : الخطط ، جـ١ ص٤٠١ .

(٥) راجع : المقريزى : الخطط ، جـ١ ص٤٠١ .
صلاح الدين البحيرى : المرجع السابق ، ص ١٧١ .
نظير حسان سعداوى : جيش مصر أيام صلاح الدين ، ص ٢٩ ، ٣٢ ، ٣٣ .
إبراهيم على طرخان : المرجع السابق ، ص ١١٩ .
راجع : المقريزى : المرجع السابق ، جـ١ ص٤٠١ .

٤ ـ مظاهر التأثيرات السلجوقية فى الحضارة الأيوبية اقتصاديًا بمصر :

الإقطاع :[١]

استطاع الوزير السلجوقى نظام الملك بثاقب بصره وبدراسته لأحوال الإمبراطورية السلجوقية اقتصاديًا ، أن يجد فى نظام الإقطاع الحل الاقتصادى الذى يتلاءم مع العدد الكبير من الدول التى خضعت لحكمهم ، والتى آل الكثير من أراضيها الزراعية إلى الخراب ، فهو أول من وزع الإقطاعات[٢] على الجند كما سبقت الإشارة .

وقد تمكن السلاجقة عبر هذا النظام المالى من توطيد حكمهم السياسى على هذه البلاد المترامية الأطراف ، ومن تعمير أراضى شاسعة . وهكذا أصبح نظام الإقطاع أمثل أسلوب لدفع رواتب الجند حتى يقوى إخلاصهم فى ميدان القتال بعد أن اطمأنوا إلى مصدر مالى ثابت تدفع منه تلك الرواتب ، هذا إضافة إلى راحة الشعب من انعكاس معاناتهم عليه لذلك فإن نظام الإقطاع يمكن اعتباره من أهم مظاهر حضارة عصر السلاجقة .

---

(١) الاقطاع : نظام من النظم المالية التى ظهرت فى الشرق الأوسط فى الدول الإسلامية فى العصور الوسطى ، حيث يستخدم الاقطاع محل العطاء أو الرواتب لرجل الجيش . وقد حدد القلقشندى أقسام الأراضى المقطعة راجع :
صبحى الأعشى : جـ١٣ ص١١٣ .

(٢) قبل السلاجقة : عرف نوع مختلف أطلق عليه لفظ أقطاع منذ عهد الرسول (ﷺ) عندما اقطع أناسا من مزينة أرضا بقصد تعميرها . ثم اتبعه الخلفاء الراشدون مع القبائل العربية لتشجيعهم على الهجرة إليها ولكى يزداد عدد المقاتلين . واتبعته الدولة الأموية فى الأرض البور بغرض إصلاحها ، وصار عليه الخلفاء العباسيون مع خواصهم ومؤيديهم ـ ولكن هذا النوع من الاقطاع كان ينطوى على حقوق البيع والتوريث والهبة ، أى كان قريبا من نظام الملكية .
وتوسع البويهيون فى الأخذ بنظام الاقطاع الحربى بوجه خاص دون تحديد زمن أو منصب ، ولكنهم أساءوا استخدامه ، وبصفة خاصة عندما أقصوا العرب عن بلادهم تدريجيا لذلك كثرت الفتن والثورات . راجع :
المقريزى : الخطط ، جـ١ ص٩٥ : ٩٧ .
إبراهيم على طرخان : المرجع السابق ، ص٢١ : ٢٤ .
محمد رجائى ريان (د.) : الاقطاع العسكرى فى العهدين المملوكى والعثمانى (مجلة الدارة ـ السعودية، أكتوبر ١٩٨٨) ، ص١٢ : ١٤ .
قاسم عبده قاسم : ماهية الحروب الصليبية ، ص ١٩٤ .

وإذا كان الفاطميون فى مصر[1] قد عملوا بنظام الإقطاع بصورة جزئية وخاضعة لولاية الدولة ، فقد ظل الفلاحون خاضعون للدولة وليس للمقطع ، مع استمرار دفع رواتب الجند بنظام العطاء ، علاوة على أن المقطع لم يكن مطالبًا بتقديم أى خدمة عسكرية[2] كما كان الحال فى الإقطاع السلجوقى ، وظل الخليفة الفاطمى يقرر مقدارا من المال على الأرض المقطوعة دون المقطعين لبيت المال ، ومن حقه أيضًا انتزاع الإقطاع ومصادرته فى أى وقت[3].

أما نظام الإقطاع الذى يرجع إلى الوزير نظام الملك الفضل فى تنظيمه وتعميمه فى العصر السلجوقى فكان نوعين هما : الإقطاع الحربى ، والإقطاع الإدارى .

---

(١) عرفت مصر قبل العصر الفاطمى نماذج بسيطة من صور الاقطاع ، القريبة من نظام الملكية ، فمن أمثلته :

ـ فى العصر الاخشيدى عندما منح كافور الاخشيدى ، أحد مماليكه فاتك المجنون الفيوم وأعمالها اقطاعا له ، فانتقل إليها واتخذها سكنا له .

ابن خلكان : المصدر السابق ، م٤ ص٢١ ، ٢٢ .

(٢) كان يشرف على ما يمنح من اقطاعات فى العصر الفاطمى ديوان الجيش أو ديوان المستوفى ، وكان الفاطميون يطلقون على ما يكتب عندهم من اقطاعات اسم « السجلات » وكان يثبت فيه الأموال التى يدفعها المقطعون لبيت المال . راجع :

المقريزى : الخطط . جـ١ ص٨٣ .

حسنين ربيع (د.) : النظم المالية فى مصر زمن الأيوبيين ، مطبعة جامعة فؤاد الأول سنة ١٩٦٤ ، ص١٢ .

نظير سعداوى : المرجع السابق ، ص٢٩ .

Rabie, (H. M.) The finacial system of Egypt, Landon, 1972, p. 26 : 28 / Reinaud : op. cit., p. 234 .

أحمد صادق : المرجع السابق ص٣٢٦ .

(٣) من أمثلة الاقطاعات فى الدول الفاطمية . ما كان للمأمون البطائحى ، راجع :

المقريزى : الخطط ، جـ١ ص٤٤٢ : ص٤٤٣ .

كما فرض الصالح طلائع جزءا من اقطاع المقدمين من الأجناد لمصالحة الأفرنج واتقاء شرهم كأتاوات .

ابن القلانس : المصدر السابق ، ص ٣٣١ .

وعندما تولى أسد الدين شيركوه الوزارة اقطع عساكره الاقطاعات بالبلاد .

ابن الأثير : الدولة الاتابكية ، ص١٤٠

أما الإقطاع الحربي : فقد ظهر في صورة توزيع الأرض بين الأمراء وجنودهم مقابل ما يؤديه لهم من خدمات عسكرية وقت الحروب ، فقسمت أراضي بلاد الشام وإيران والجزيرة إقطاعا بين مماليك السلاجقة ، وتمكن هؤلاء المقطعين من تكوين الجيوش الخاصة ، المجهزة على نفقة المقطع بالمال والعتاد بحيث تكون مجهزة في خدمة السلطان السلجوقي إذا ما دعاهم لذلك ، كما يقدم المقطعون مبلغًا سنوياً من المال لخزانة السلطان[1] وعلى المقطع أيضًا حماية مال الرعية فلا يأخذ منها إلا بالحق والحسنى مقابل توفير الأمان والطمأنينة لهم ولأموالهم ولنسائهم وضياعهم وعيالهم[2] .

أما الإقطاع الإداري: فقد ظهر في العصر السلجوقي في صورة توزيع البلاد إقطاعًا بين أفراد الأسرة الحاكمة ، والقصد منه تلاشي ما قد يثور بين أفراد الأسرة من نزاع حول السلطنة ، وقد بدأ السلطان طغرلبك بتطبيق هذا النظام على أفراد أسرته منذ سنة ٤٣٠هـ/ ١٠٣٨م عندما منح لأخيه جغرى بك إقطاعًا من نهر جيحون إلى نيسابور ، ولأخيه من أمه وهو ابن عمه إبراهيم ينال بن سلجوق قهستان وجرجان ، ولابن عمه ابن على الحسن موسى بن سلجوق هراه وبوشيخ وسجستان وبلاد الغور[3] .

وفي مصر ذكر المقريزى[4] : أنه « منذ كانت أيام السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب إلى يومنا فإن أراضي مصر كلها صارت تقطع للسلطان وأمرائه وأجناده » . فقد دخل الإقطاع مصر ـ فيما نعتقد ـ تأثراً بالسلاجقة ، ليس لأن شيركوه وصلاح الدين كانوا من أمراء الإقطاع الذين خدموا لدى السلاجقة والزنكيين في الشام فحسب[5] ، بل لأنهم وجدوا أن كثرة المجاعات التي منيت بها مصر أدت إلى إهمال الأرض بسبب قلة السكان وعن طريق نظام الإقطاع يمكن إعادة تعميرها ، علاوة

---

(١) الاصفهاني / المصدر السابق ، ص ٦٠ .

(٢) راجع : نظام الملك : المصدر السابق ، ص ٦٢ ، ١٧١ .

(٣) الاصفهاني : المصدر السابق ، ص ١٠ .
فاضل الخالدى : المرجع السابق ، ص ١٦٣ ، ١٦٤ .

(٤) المقريزى : الخطط جـ١ ص٩٧ .

(٥) نظير حسان سعداوى : المرجع السابق ، ص ٣٢ .
طرخان : المرجع السابق ص٣٢ .
Rabie : op. cit., p. 26 .

على أن هذا الأسلوب سوف يتيح له ـ للسلطان ـ تكوين جيوش كبيرة ومستعدة لخوض غمار معاركهم ضد الصليبيين فى الشام .

وقد بدأ السلطان صلاح الدين توزيع الإقطاعات على أفراد الأسرة الأيوبية وكبار الأمراء (٥٦٤هـ/ ١١٦٨م) عندما اقطع أباه نجم الدين أيوب الإسكندرية ودمياط والبحيرة وأقطع أخاه شمس الدولة قوص وأسوان وغيذاب[١] . وعندما عهد صلاح الدين لابن أخيه الملك المظفر تقى الدين الولاية على الديار المصرية (٥٧٨ ـ ٥٧٩هـ/ ١١٨٢ ـ ١١٨٣م) ، وحكمه فيها ، أعطاه إقطاعًا بمصر فى البحيرة والفيوم وقايات وبوش[٢]، وكتب له تقليداً بذلك ، وعوضه عن بوش التى أخذها منه فيما بعد بسمنود وفوه وحوف رمسيس[٣] .

كما منح أخاه العادل سنة ٥٨٠هـ/ ١١٨٤م إقطاعًا بالديار المصرية والشام وبلاد الجزيرة وديار بكر[٤] .

وهنا يلاحظ أن الإقطاع الأيوبى قد سار على نفس نظم الإقطاع الذى وضع قواعده الوزير السلجوقى نظام الملك من حيث توزيع الإقطاع الواحد فى بلاد متفرقة ، وتبديل الإقطاع بين آن وآخر ، حتى لا يقوى المقطع بما يكون له من عصبية وقوة فلا يشكل خطراً على الدولة ، كما فعل تقى الدين عمر[٥] .

---

(١) أبو شامة : الروضتين ، جـ١ ص١٨٤ .
المقريزى : اتعاظ الحنفا ، جـ٣ ص٣١٧ .
حسنين ربيع : المرجع السابق ، ص ٢٦ ، ٢٧ .
راجع عن توزيع صلاح الدين الديار بين أفراد أسرته .
ابن كثير : المصدر السابق ، جـ١٣ ، ص٦ (الطبعة السابعة ١٩٨٨) .

(٢) القايات تقع بالمنيا الحالية ومركزها مغاغة ، وتقع بوش فى بنى سويف ومركزها بنى سويف . المقريزى السلوك جـ١ ق هامش ١ ص٨٢ .

(٣) عمر بن شاهنشاه : المصدر السابق ص١٥٤ ـ ١٥٥ .
البندارى الاصفهانى : المرجع السابق ، ص٢٣٤ .
ابن خلكان : المصدر السابق م٣ ص٤٥٦ ـ ٤٥٧ .

(٤) عن نسخة توقيع صادرة عن السلطان صلاح الدين إلى أخيه الملك العادل أبى بكر سنة ٥٨٠هـ .
ابن واصل : المصدر السابق ، جـ٣ ص٣٨٤ (الملحق رقم ٣٣) .

(٥) عندما منح السلطان صلاح الدين مديرية الشرقية اقطاعا لأخيه العادل ، غضب ابن أخيه تقى الدين عمر ، وأخذ يعد العدة للمسير بجيشه لفتح المغرب يلتمس لنفسه ملكا هناك .
راجع خطاب بقلم القاضى الفاضل أرسله صلاح الدين إلى ابن أخيه تقى الدين فى هذا المعنى . ابن واصل . المصدر نفسه جـ٣ ص٣٠٨ . ٣٠٩

ومن قواعد الإقطاع السلجوقى أيضًا أنه كان يعطى الحق للمقطع فى أن يفتح ما يشاء من البلاد المجاورة ويضمها إلى ولايته بشرط عدم الجور على حقوق الآخرين(١).

من ذلك أنه بعد فتح السلطان السلجوقى ألب أرسلان لبعض مدن آسيا الصغرى عهد بها لسليمان بن قتلمش بن أرسلان ٤٦٤هـ/ ١٠٧٢م ، وقد استطاع الأخير فتح بعض مدن آسيا الصغرى وضمها إليه عندما استطاع الاستيلاء على نيقية ٤٦٨هـ/ ١٠٧٥م وجعلها عاصمة له(٢).

وقد اتبع صلاح الدين نفس الأسلوب ، عندما أطلق لأخيه تورانشاه البلاد التى يفتحها ، وبالفعل بعدما تمكن تورانشاه من فتح بلاد النوبة سنة ٥٦٨هـ/ ١١٧٤م ضمها لإقطاعه وجعل مدينة قوص مركزاً لإقطاعه وأقطع إبراهيم الكردى أحد أمرائه قلعة إبريم ، كما فتح اليمن وصارت إقطاعا له(٣).

ومن نظم الإقطاع السلجوقى فيما يختص به السلطان أن يحدد الأراضى المقطعة تحديداً دقيقًا ولأجل مسمى ، فليس من حق المقطع أن يبيع إقطاعه من الأراضى أو يورثها ، ولكن يمكن له تحويلها إلى راتب(٤) يأخذه من الدولة بعد سحب إقطاعه ومع ذلك ففى الحالات التى كان يحدث فيها توريث الإقطاع ، فيرث الجندى أباه فى ماله من إقطاعات ، فقد انحصر أرث الإقطاع فى حق الاستغلال فحسب(٥)

---

(١) فاضل الخالدى : المرجع السابق ، ص ١٦٣ ، ١٦٤ .

(٢) راجع :

زبيدة عطا : المرجع السابق ، ص٥٧ .

(٣) إبراهيم طرخان : المرجع السابق ، ص ٣٧ .

راجع أمثلة اقطاعات أمراء الأيوبيون ومماليكهم .

أبو شامة : الروضتين ، جـ٢ ص٥٣ ، ١٥٠ .

ابن الأثير : الدولة الأتابكية ، ص١٤٠ .

ابن واصل : المصدر السابق ، جـ٣ ص٥١ .

ابن تغرى بردى : النجوم ، جـ٦ ص١٣ .

(٤) منحت الرواتب النقدية والعينية للأجناد والفرسان الصغار لمن لا يأخذون اقطاعات . راجع :

قاسم عبده قاسم : ماهية الحروب الصليبية ، ص١٩٥ .

راجع أمثلة وراثة الاقطاعات : البندارى الاصفهانى : المصدر السابق ، ص٢٧٧ .

(٥) راجع : إبراهيم طرخان : المرجع السابق ، ص ٢٢ ، كارل بروكلمان : المرجع السابق ، ص ٢٨٠ ـ ١٨١ .

مواهب عبد الفتاح : المرجع السابق ، ص٩٩ ـ ١٠٠ .

ولذلك رفض السلطان صلاح الدين عندما طلب أخوه الملك العادل أن يكتب له حلب كتباً ككتاب البيع والشراء[1].

كما ورث الأيوبيون من السلاجقة منح الإقطاعات فى أغراض متعددة علاوة على الأغراض الحربية ، فعلى سبيل المثال بمنح كمكافأة أو كرشوة لتنفيذ مهمة أو مؤامرة أو جلب للأعوان ، ومن أمثلة ذلك فى العصر الأيوبى الإقطاعات التى بذلها الملك العادل أبو بكر لجلب الأعوان لحسم النزاع الذى يدب بينه وبين العزيز عثمان[2]، الأمر الذى يذكرنا بالمملوك طغرل الخاص الرومى عندما نجح سنة ٥٨٧هـ/ ١١٩١م فى أن يستحلف الأمراء للخليفة الناصر لدين الله على الخلافة العباسية « فأقطعه الخليفة البصرة وجعل فى خدمته خمسمائة مملوك »[3].

ومن مميزات الإقطاع السلجوقى أنهم لم يستثنوا منه القبائل العربية ، كما فعل البويهيون ، فعلى سبيل المثال ظفر عدد كبير من أسرة العقيلى العربية بإقطاعات طيبة من السلاطين السلاجقة[4]. ونهج السلطان صلاح الدين نفس النهج ، فقد أقطع القبائل العربية الإقطاعات كأجر كى يساهموا فى حماية حدود البلاد وعلى سبيل المثال كان إقطاع قبيلة جذام فى هربيط وتل بسطة ونوب[5].

وقد وسّع صلاح الدين من دائرة منح الإقطاعات ، فمنحها فى بعض الأحيان لأعدائه كى يتقى شرهم ، ومثال ذلك عندما أقطع فرسان الداوية والاستبارية من الصليبيين بعض البلاد حقنا للدماء معهم مؤقتا ، وكان ذلك على أثر انتصاره فى موقعة حطين سنة ٥٨٥هـ/ ١١٨٩م[6].

ووسع خلفاء صلاح الدين فى منح الإقطاعات وجعلوها كنوع من الهبة ، مثلما

---

(١) حدث التوريث فى الاقطاعات فى الدولة النورية . راجع :
قاسم عبده قاسم : ماهية الحروب الصليبية ، ص١٩٥ .
(٢) راجع : إبراهيم طرخان : المرجع السابق ، ص٤٤ .
(٣) عمر بن شاهنشاه : المصدر السابق ، ص١١٨ .
(٤) راجع طرخان : المرجع السابق ، ص٢٧ .
(٥) نظير حسان سعداوى : المرجع السابق ، ص٣ .
طرخان : المرجع السابق ، ص٤١   Rabie : op. cit., p. 38 .
(٦) طرخان : المرجع نفسه ، ص ٤٢ .

أقطع الملك الأفضل بن صلاح صيدا لولده الملك المعظم ، فأنعم بها على أخيه الملك المغيث[1] .

وقد ورث الأيوبيون عن السلاجقة[2] استعمال الإقطاع كنوع من العقاب وخاصة أثناء الحروب ، فقد صادر السلطان صلاح الدين إقطاعات الجند المقصرين فى القتال[3] ، أو الذين تعاونوا مع الأعداء ، ففى سنة ٥٥٧ صادرت مستغلات[4] عربان الشرقية وإقطاع جذام وتعلبه لكثرة حملهم الغلال إلى بلاد الإفرنج[5] .

ومن أهم المميزات التى حققها نظام الإقطاع أنه « وفر الأموال الكثيرة لخزانة الدولة مما جعل لأرباب العلوم وأصحاب الحقوق حقوقًا لا توفر ورسوما لا تغير وأصبح لأهل العلم ميراثًا يأخذونه بقدر الفرائض من السلطان »[6] .

ورغم مزايا نظام الإقطاع وفائدته لدول العصور الوسطى ، فقد كانت أهم مساوئه تلك التى أدت إلى أن يرث الإمبراطورية السلجوقية أمراء الإقطاعات ومنهم الاتابكة ، وهو أيضاً ما آلت إليه الدولة الأيوبية[7] كما أشرنا من قبل .

---

(١) ابن شداد : « عز الدين أبى عبد الله بن إبراهيم الحلبى » (ت٦٨٤هـ/١٢٨٥م) .
الأعلاق الخطيرة فى ذكر امراء الشام والجزيرة ، تحقيق سامى الدهان المعهد العلمى الفرنسى للدراسات العربية بدمشق ، ١٩٦٢ ، ص٩٩ .

(٢) راجع : حربى أمين : المرجع السابق ، ص٢٩٤ ـ ٢٩٥ .
وسوف نوضح أمثلة أخرى لمصادرة الاقطاعات فى موضع آخر من البحث .

(٣) راجع : Rinaud : op. cit., p. 235 .

(٤) المستغل : هو كل ما اغل من أرض أو عقار أو حانوت أو سوق أو طاحون
المقريزى : السلوك ، جـ١ ق١ هامش ٤ ص٧١ .

(٥) المقريزى : السلوك جـ١ ق١ ص٧١ .

(٦) الاصفهانى : المصدر السابق ، ص٦١ .

(٧) من الأسباب التى أدت إلى أن يرث أمراء الاقطاعات الامبراطورية السلجوقية ثم الدولة الأيوبية ، أن الجيش صار مقسما إلى مجموعات تخضع كل مجموعة إلى الأمير المقطع ولم تكن هذه الجيوش تخضع لقيادة السلطان نفسه ، مما جعلها فى كثير من الأحوال مجرد تحالف بين كبار الأمراء وكانت عبرة الاقطاعات للأجناد من الأتراك والتركمان هو دينار واحد كامل .
راجع : الأسعد بن مماتى : (ت٦٠٦هـ/١٢٠٩م) .
قوانين الدواوين : مكتبة مدبولى ، الطبعة الأولى ١٩٩١ ، ص ٣٦٩ .
قاسم عبده قاسم : المرجع السابق ، ص١٩٤ ـ ١٩٥ .
على بيومى : المرجع السابق ، ص ٥٥

المصادرات المالية :[1]

هو ضرب من ضروب العقاب يقع على كل من كانت له صلة بالحكومة مشتبهاً في نقاوة يده فكان يصادر ، وهو الأصل الذى قام عليه نظام المصادرات المالية منذ عصر الخلفاء الراشدين[2] . وقد تطور هذا النظام المالى فى أوائل القرن الرابع الهجرى ـ العاشر الميلادى[3] بحيث أن السلاجقة ولعوا بهذا النظام المالى ، وتوسعوا فى تطبيقه سواء مع بعض أفراد الأسرة السلجوقية ، أو مع كبار رجال الدولة ، كالوزراء والولاة وتعرض الكثيرون ممن تمت مصادرة ممتلكاتهم وأموالهم للعزل من المنصب الوظيفى ، وأحياناً يحبس أو يقتل بسبب ابتزازه لأموال الناس ، وقضاء حاجاتهم عن طريق الرشوة[4] ، والتى كانت سببا فى تضخم ثرواتهم المصادرة بل صادر السلاجقة حتى النساء .

وفيما يبدو أن السبب وراء انتشار ظاهرة المصادرات المالية هو رغبة الحكام سد العجز فى نفقاتهم .

ومن أمثلة المصادرات المالية فى عصر السلاجقة ما حدث فى عصر السلطان أبى شجاع محمد بن ملكشاه عندما حاز أموال الوزير مجد الملك[5] ابن نظام الملك ،

---

(١) المصادرة : صادرة ، طالبه فى الحاح ، وصادرت الدولة الأموال ، أى استولت عليها عقوبة لمالكها . المعجم الوسيط ، جـ١ ، ص ٥٠٩ .

(٢) عرفت نماذج من المصادرات المالية فى عهد الخليفة عمر بن الخطاب عندما صادر أموال عماله على الكوفة والبصرة والبحرين ، وفى زمن هشام بن عبد الملك ، صادر يوسف بن عمر الوالى على الكوفة أموال أحد التجار لأنه كان عليه مبلغ من المال لم يرده لآخر . راجع :
البلاذرى : أحمد بن يحيى بن جابر (ت٢٧٩هـ/٨٩٢م) .
ـ فتوح البلدان ، تحقيق . د. صلاح الدين المنجد (٣ أجزاء) مكتبة نهضة مصر ٥٦ : ١٩٥٨) جـ٢ ص٣٨٥ .

(٣) عرف عن البويهيين أكثارهم من استخدام أسلوب المصادرات المالية . راجع :
فاضل الخالدى : المرجع السابق ، ص٢٨١ .

(٤) فقد ذكر الاصفهانى : أن الأمير دبيس عاد بالرشوة نائبا عن السلطان السلجوقى مغيث الدنيا والدين محمود بن محمد بن ملكشاه فى العراق بدلا من الأمير المجاهد بهروز الخازم .
تاريخ دولة آل سلجوق ، ص١١٥ .

(٥) الاصفهانى : المصدر السابق ، ص٨٦ .

كما صادر أموال الأستاذ موفق أبو ظاهر الخاتونى من صدور الدولة وأعيان المملكة وكان مستوفى ديوان السلطان ونقل من بغداد إلى جرجان[١]، ودفعه إحساسه بالظلم من مصادرة أمواله أن سجلها فى أبيات من الشعر قائلا منها :[٢]

« نهبوا ما ملكت فى بغدادى * واستباحوا ذخائرى وعتادى »

« فأنا اليوم غير ذقنــى وسنــى * مثلما كنت ساعـة الميـلاد »

وصادر السلطان مسعود السلجوقى وزيره عز الملك بن مجد الملك اليزدجرى بسبب نشره الظلم وسوء خلقه وكثرة طمعه فأمر بقتله ومصادرة كل ما حصل عليه خلال فترة توليه الوزارة[٣].

وشاع عن الوزير السلجوقى القوام الدركزينى كثرة مصادرته للقوم[٤] وبل حرص الوزير السلجوقى شمس الدين بن نظام الملك ـ فى عهد السلطان محمود بن محمد ملكشاه ـ أن أكثر من مصادرة أموال الأغنياء والتجار[٥] .

أما بالنسبة للنساء : فقد صادر الوزير نظام الملك ٤٦٧هـ/ ١٠٧٤م الأموال العظيمة لكوهر خاتون عمة السلطان ملكشاه وأخت السلطان ألب أرسلان ، وأمر بقتلها[٦] ، وهناك أمثلة أخرى[٧] .

وفى مصر عرف فى العصر الفاطمى ـ وما قبله ـ نماذج متفرقة لاستخدام أسلوب المصادرات المالية[٨] لكن فيما يبدو أن الأيوبيين تأثروا بالسلاجقة فى التوسع فى

---

(١) الاصفهانى : المصدر السابق ، ص١٠١ ـ ١٠٢ .
(٢) الاصفهانى : المصدر نفسه ، ص١٠٣ .
(٣) حربى أمين : المرجع السابق ، ٢٩٤ ـ ٢٩٥ .
(٤) راجع : الحسينى : المصدر السابق ، ص٢٠٥ .
حربى أمين : المرجع السابق ، ص٢٨٧ .
(٥) حربى أمين : المرجع نفسه ، ص٢٩١ .
(٦) ابن تغرى بردى : النجوم ، جـ٥ ، ص١٠٠ .
(٧) راجع : ابن الوردى : المصدر السابق ، جـ٢ ص٧ .
(٨) من أمثلة المصادرات المالية فى مصر قبل العصر الأيوبى ، ما شاع عن الأخشيد (٣٠٠ ـ ٣٥٠هـ/ ٩١٢ ـ ٩٦١م) أنه كان يصادر بعض عماله وثقاته وأهلهم .
أدم ميتز : المرجع السابق ، جـ١ ص١٩٣ ـ ١٩٤ . =

استخدام هذا الأسلوب المالى ، بحيث أصبحت أموال المصادرات من موارد الدولة الطارئة ، وعلى الرغم من أن هذا الأسلوب المالى يعتبر من مساوىء الحضارة ، وبمعنى أدق هو من مساوىء حكم السلاطين بسبب الصراع الذى كان يدور بين أفراد الأسرة الحاكمة على هذا المنصب ، لذا غالبًا ما كان ينفذ بكثرة لا داعى لها وبتعسف وبدون أسباب مقنعة ، إذ فيما يبدو أن سلاطين بنى أيوب وجدوا فيه مصدرًا ماليًا هاما يضطرون إلى اللجوء إلى استخدامه حتى يتمكنوا من خلال الأموال العظيمة التى يحصلون عليها بهذه الطريقة ، أن يثبتوا حكمهم ـ وفيما يذكر المقريزى[1] ـ تقوى يدهم وتتوفر مهابتهم . لذلك لم يعارض سلاطين بنى أيوب بعض وزرائهم عندما بالغوا وتعسفوا فى استخدام أسلوب المصادرات المالية مع الرعية ، مثلما حدث فى عصر السلطان الملك العادل الأمر الذى سوف نوضحه .

وقد بدأ صلاح الدين الأيوبى بعد أن أسقط الخلافة الفاطمية فى مصادرة القصور والخزائن والمكتبة ، وتقريبًا صادر كل ما يمت للخلافة الفاطمية[2] فضلا عن أن صلاح الدين قد استخدم أسلوب المصادرات فى « الإقطاع » ـ سبق وذكرنا أمثلة ـ ومنها أيضًا عندما صادر الإقطاعات من الجند المقصرين فى واجب الدفاع فى الحرب ضد الفرنجة كعقاب لهم ، فقد تسببوا فى هزيمة صلاح الدين عند نهر تل الصافية بالرمل سنة ٥٧٣هـ/ ١١٧٣م[3] ، وصادر العزيز عثمان سنة ٥٩٤هـ/ ١١٩٧م عددًا من الأغنياء .

= وفى العصر الفاطمى عمّر بدر الجمالى جامع العطارين بالاسكندرية (٤٧٩هـ ـ ١٠٨٦م) من مال المصادرات ، وبعد مقتل الأفضل بن بدر الجمالى صادروا أمواله واستولوا على خزائنه .

ابن ميسر : المصدر السابق ، ص٤٦ ، ٧٩ ، ٨٠ .

العماد الحنبلى : المصدر السابق جـ٤ ص٧٨ .

المقريزى : الخطط ، جـ١ ٣٨٢ / حسن إبراهيم حسن : الفاطميون فى مصر ، ص٢٤١ ، ٢٤٣

محمد حمدى المناوى : المرجع السابق ، ص٩٠ ـ ٩١ .

(٢) الخطط ، جـ٢ ص٣٧٢

(٣) ابن الأثير : الكامل ، جـ١١ ص٣٦٩ . ابن كثير : المصدر السابق ، جـ١٢ ص٢٦٦ / المقريزى : الخطط ، جـ١ ص٤٤٤ / ابن تغرى بردى : النجوم جـ٥ ص٩٦٥ / حسين ربيع ، المرجع السابق ص٥٣

(٤) المقريزى السلوك ، جـ١ ق١ ص٦٤ ، ٦٥

Rabie : op. cit.. p. 60

وبعد وفاة الأمير بهاء الدين قراقوش الخصى (ت ٥٩٧هـ/ ١٢٠٠م) تسلم العادل داره بما حوته من الذخائر ، وصارت إقطاعاته للملك الكامل[١] .

ولم يكن من حق السلطان وحده استخدام أسلوب المصادرات المالية ، بل كان على ما يبدو من اختصاص الوزير ، أو بمعنى آخر يقوم بالمصادرة الوزير بتحريض من السلطان .

فقد اشتهر عن الصاحب صفى الدين بن شكر الدميرى وزير الملك العادل (٦١٥هـ/ ١٢١٨م) كثرة المصادرات التى أجراها خلال فترة وزارته ، واتبعها مع أكابر دولته والمستوفيين واستعفى أموالهم لدرجة أن القاضى الفاضل فر إلى بغداد واستشفع بالخليفة العباسى عند العادل .

وصادر بن شكر أموال كثير من التجار والكتاب ، وقرر على الأتراك مالا ، بحيث جمع مالاً عظيماً [٢] ورغم كثرة المظالم التى أحدثها بن شكر بسبب تعسفه فى توقيع المصادرات على الرعية ، فقد كانت له مكانة عظيمة عند الملك الكامل بسبب الأموال التى وفرها له[٣] .

حتى الفقهاء شملتهم المصادرات المالية ، فقد صادر الملك العظيم العادل الفقيه ضياء الدين بن الوراق وأمر بالحوطة على جميع موجود الفقيه وماله وأملاكه واعتقل بالرصد، لأنه رفض أن يحلف للملك العادل توليه السلطنة ، كما صادر الأمير الكبير فخر العرب ثعلب أمير الحاج لنفس السبب أيضاً[٤]. كما صادروا أموال القاضى الأشرف أحمد بن الفاضل ومكتبته[٥] .

وشملت المصادرات المالية حتى النساء فى العصر الأيوبى فبعد وفاة ربيعة خاتون أخت السلطان صلاح الدين صادروا خادمتها الشيخة الصالحة آمه اللطيف بنت

---

(١) أبو شامة : الروضتين ، جـ٢ ص٢٤٤ .

ابن كثير : المصدر السابق جـ١١٣ ص٣١ (الطبعة السابعة ١٩٨٨م) .

(٢) المقريزى : السلوك ، جـ١ ق١ ص ١٩٢ ، ١٩٣ ، ٢٠٥ .

(٣) راجع : المقريزى : الخطط ، جـ٢ ، ص ٣٧٢ .

(٤) المقريزى : الخطط ، جـ٢ ص٣٧٣ .

(٥) حسنين ربيع : المرجع السابق ، ص٥٣ ، ٥٤ .

الناصح وحبست مدة[1]. كما صادر الملك الصالح أيوب أموال أمرأة أبيه وجواهرها وأموال سائر الأمراء الذين وافقوا على خلع أخيه العادل الصغير .

واستُخدم أسلوب المصادرات المالية أيضًا عندما يُراد توفير مكان ما داخل القاهرة لإقامة منشآت معمارية عليها ، فقد صادر الصالح أيوب سنة ٦٣٩هـ/ ١٢٤١م بعض المنشآت الصغيرة عند تشييده المدارس فى شارع بين القصرين ، وعند تشييد قلعة الروضة [2].

والعصر الأيوبى يمتلئ بأمثلة عديدة ومتنوعة لأمثال المصادرات المالية[3].

٥ ـ مظاهر التأثيرات السلجوقية فى الحضارة الأيوبية دينيا بمصر :

« العقائد : « المعتزلة ـ الأشعرية » :

كان من أثر اعتناق السلاجقة للمذهب السنى والتعصب له ضد المذهب الشيعى أن حاربوا المعتزلة[4] من علماء الكلام لأنهم أكثر فرق المتكلمين انتشاراً بين الشيعة ،

---

(١) ابن كثير : المصدر السابق ، جـ١٣ ص١٧٠ (اطبعة السابعة ١٩٨٨م) .

(٢) حسنين ربيع : المرجع نفسه ، ص٥٤ .

(٣) راجع : ابن كثير : المصدر نفسه ، جـ١٣ (ص١١٦ ، ١٦٧ ، ١٧٢ ، ١٨٠) (الطبعة السابعة ١٩٨٨) .

المقريزى : الخطط ، جـ٢ ص٣٧٣ .

(٤) المعتزلة : من المتكلمين الذين افترقوا عشرين فرقة من اسمائها : الواصلية والعمروية والنظامية ... والهزلية ... الخ » .

البغدادى : « عبد القادر بن طاهر محمد الأسفرائينى ، التميمى » (ت٤٢٩هـ/١٠٣٧م) .

الفرق بين الفرق ، طبعة بيروت ١٩٨٥ ، ص١٨ .

غير أنه مهما وقعت الاختلافات بينهم فى الفروع ، فإنهم يتفقون على أن أحدا منهم لا يستحق اسم الاعتزال حتى يقول بالأصول الخمسة وهى : التوحيد والعدل ، والوعد والوعيد ، والمنزلة بين المنزلتين ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

أما أصل التوحيد فيدل على أنهم من خواص أهل العلم والنظر الذين نزهوا الحق تبارك وتعالى فقالوا (« الله واحدا ليس كمثله شيء ، وهو السميع البصير » وهو ليس بجسم ولا شبح ولا صورة ولا لحم ولا دم » وهنا نزهه المعتزلة عن كل الإسرائيليات التى نشرها مجسمة خراسان وعلى رأسهم مقاتل ابن سليمان ، وغلاة الشيعة وعلى الأخص البيانية . الشهرستانى : المصدر السابق ، جـ١ ص١٥٣ . وأخص ما يميز المعتزلة نفيهم الصفات القديمة أصلا ، فقالوا أن الله « عالم لذاته ، =

ويرجع الفضل إلى الوزير السلجوقي نظام الملك الذى جعل السلطان السلجوقي ألب أرسلان ، يأخذ بالعقيدة الأشعرية[1] ويمنع الأوامر التى كان قد أصدرها السلطان السجلوقى طغرلبك سنة ٤٤٥هـ/ ١٠٥٣م عندما أمر بلعن الرافضة ومعهم الأشاعرة على المنابر ، فقد اعتبر الأشعرى مبتدعاً يزيد على المعتزلة ، لأن المعتزلة اثبتوا أن القرآن فى المصحف والأشعرى نفاه[2] . كما تمكن الوزير نظام الملك من إعادة العلماء الذين فروا من البلاد بسبب عقيدتهم الأشعرية مثل الإمام الجوينى[3] ومنذ ذلك التاريخ صار سلاطين السلاجقة فى إيران والعراق والأناضول على العقيدة الأشعرية ، وحاربوا المعتزلة حرباً شديدة حتى أنهم الزموا شيخ المعتزلة فى الكرخ أبو على بن الوليد سنة ٤٧٨هـ/ ١٠٨٥م ، أن يلزم بيته خمسين سنة لا يظهر[4] ، بل وتصدى الإمام

= حى لذاته ، لا بعلم وقدره وحياه ، وهى صفات ومعان قائمة به ، لو شاركته الصفات فى القدم الذى هو أخص الوصف لشاركته فى الالهية .

الشهرستانى : المصدر السابق ، جـ١ ص٤٤ . أما مشكلة كلام الله فقد اتفقوا على أن « كلامه محدث مخلوق فى محل ، وهو حرف وصوت كتب أمثاله فى المصاحف حكايات عنه .

الشهرستانى : المصدر نفسه جـ١ ص٤٥ .

وقد اعتنق الخليفة المأمون العباسى قولهم فى خلق القرآن .

السيوطى : تاريخ الخلفاء ، ص ٣٠٩ .

(١) انتشر مذهب الأشعرى فى العراق سنة ٣٨٠هـ/٩٩٠ ومنها انتقل إلى الشام وغيرها من البلاد .
راجع : الفصل الأول ص٤٩ ، المقريزى : الخطط جـ٢ ص٣٥٨ .

(٢) بل لقد رفض السلطان طغرلبك رفع لعن الأشاعرة من على المنابر رغم توسط البعض عنده .
ابن تغرى بردى : النجوم ، جـ٥ ، ص٥٤ ، ٥٥ .
راجع : ابن الأثير : الكامل ، جـ١٠ ، ص٣٣ ، ص٢٠٩ .
ابن خلكان : المصدر السابق م٥ ص١٣٨ .

(٣) الجوينى : أبو المعالى الجوينى عبد الملك بن أبى محمد بن عبد الله بن يوسف الفقيه الشافعى .
والجوينى لقب نسبة إلى مسقط رأسه فى بلده جوين بنيسابور ، دافع عن الأشعرية دفاعًا عظيما فانتشر ذكره فى الآفاق ، وبسبب اضطهاد السلطان طغرلبك للأشاعرة ولعنهم هرب إلى مكه فجاور بها أربع سنين ولهذا لقب « إمام الحرمين » وعاد فى أيام الوزير نظام الملك السلجوقى إلى نيسابور ثم إلى بغدد حتى ولاه التدريس بالمدرسة النظامية (ت٤٧٨هـ/١٠٨٥م) .
راجع : الشهر ستانى : المصدر السابق جـ١ هامش ١ ص٩٨ .
ابن الأثير : الكامل جـ١٠ ص٣٣ ، ص٢٠٩
السيوطى : تاريخ الخلفاء ص٤٢٠ / ابن خلكان ، المصدر السابق ، م٣ ص١٦٧ ترجمة رقم ٣٧٨

(٤) العماد الحنبلى : المصدر السابق ، جـ٣ ص٣٦٢

أبى حامد الغزالى إلى محاربتهم وتكفير آرائهم فى مؤلفه : « الجام العوام عن علم الكلام»[1] ، فقد ساهم الأشاعرة ثم أبو حامد الغزالى « حجة الإسلام » فى رفض آراء المعتزلة بحجج وآراء من كتاب الله والسنة ، وتمكنوا من إعادة الخوف إلى قلوب الناس من الله عز وجل عن طريق الوعظ .

وتختلف العقيدة الأشعرية عن المعتزلة فى امرى الصفات وكلام الله[2] فى أصل العدل[3] ،

---

(١) راجع : « الجام العوام عن علم الكلام » ، أبو حامد الغزالى ، طبعة إدارة الطباعة المنيرية ، مصر (١٩٣٢م / ١٣٥١م) .

(٢) إذ يقول الأشاعرة : إن الله تعالى واحد فى ذاته لا قسيم له ، وواحد فى صفاته الأزلية لا نظير له ، وواحد فى أفعاله لا شريك له ، فلا قديم غير ذاته ، ولا قسيم له فى أفعاله ، ومحال وجود قديمين وذلك هو التوحيد ، وأن الله تعالى عالم بعلم ، قادر بقدره ، حىٌ بحياة مريد بإرادة ، متكلم بكلام ، سميع بسمع ، بصير ببصر ، وهذه صفات أزلية قائمة بذاته لا يقال هى هو ولا غيره ، ولا هى هو ولا غيره .
الشهرستانى : المصدر السابق ، جـ١ ص٩٥ .

(٣) فى رأى المعتزلة : أن « العدل » هو ما يقتضيه العقل من الحكمة ، وهو إصدار الفعل على وجه الصواب والمصلحة ، فما يصدر عن الله فعل واحد ، هو صواب ومصلحة وخير فقط ، أما غير ذلك فلا يصدر عنه ، فالله لا يفعل القبح ولا يريده » ، فالله لا يحب الفساد ولا يخلق أفعال العباد بل يفعلون ما أمروا به ونهوا عنه بالقدرة التى جعلها الله لهم وركبها فيهم ، وأنه لم يأمر إلا بما أراد ، ولم ينه إلا عما كـره ، وأنه ولىّ كـل حسنة أمر بها ، وبرئ من كل سيئة نهى عنها ، لم يكلفهم ما لا يطيقونه ولا أراد منهم ما لا يقدرون عليه ، وأن أحدا لا يقدر على قبض ولا بسط إلا بقدرة الله التى أعطاهم أياها ، وهو المالك لهم دونهم ، يفنيها إذا شاء ويبقيها إذا شاء ولو شاء لجبر الخلق على طاعته ، ومنعهم اضراريا من معصيته ولكان على ذلك قادرا ، على أنه لا يفعل إذا كان فى ذلك للمحنة وإزالة للبلوى .
المسعودى : (أبو الحسن على بن الحسن بن على / ت٣٤٦هـ / ٩٥٧م) .
ـ مروج الذهب ومعادن الجوهر ـ الطبعة الثالثة ، ١٣٧٧هـ/١٩٥٨ ، (٩ أجزاء) جـ٣ ، ص١٥٣ .
وخلاصة رأى المعتزلة فى أصل العدل أنهم « اتفقوا على أن العبد قادر خالق لأفعاله ، خيرها وشرها ، مستحق على ما يفعله ثوابا أو عقابا فى الدار الآخرة ، والرب تعالى منزه عن أن يضاف إليه شر أو ظلم ، وفعل هو كفر ومعصية لأنه لو خلق الظلم ، كان ظالما كما لو خلق العدل كان عادلا .
الشهرستانى : المصدر السابق جـ١ ص٤٥
أما الأشاعرة : فقد هاجموا المعتزلة فى هذا الأصل أشد هجوم ، وعابوا عليهم بشدة قولهم « أفعال العباد مخلوقة لهم » ، وذهبوا إلى أنه لا خالق للأفعال إلا الله ، وأنه قدر كل شىء قبل وقوعه ، وبالتالى قالوا بمذهب الكسب ، أى الأفعال مخلوقة من الله مكسوبة من العبد .
راجع « الشهرستانى « المصدر نفسه ، جـ١ ص٩٥

والوعد والوعيد[١] ، والمنزلة بين المنزلتين[٢] ، أما الأصل الخامس عند المعتزلة، وهو أصل الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، فهو أصل عملى أخلاقى لا خلاف عليه بين أهل الفرق جميعًا ، على أن أهم ما يميز المعتزلة هو منهجهم الذى يقوم على أن العقل يحسِّن ويقبِّح والسمع الطاف للبارى تعالى[٣]. أما الأشاعرة : فيقولون أن الواجبات كلها سمعية ، والعقل لا يوجد شيئًا ولا يقتضى تحسينا ولا تقبيحًا فمعرفة الله تعالى بالعقل تحصل ، وبالسمع تجب ، قال تعالى : « وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا »[٤].

---

(١) اتفق المعتزلة على أن المؤمن إذا خرج من الدنيا على طاعة وتوبة ، استحق الثواب والعوض ، والتفضل معنى آخر وراء الثواب ، وإذا خرج من غير توبة عن كبيرة ارتكبها استحق الخلود فى النار ، ولكن يكون عقابه أخف من عقاب الكفار .
الشهرستانى : المصدر السابق ، جـ١ ص٤٥ .
أما الأشاعرة . فقالوا بأن كلام الله الأزلى وعد على ما أمر ، وأوعد على ما نهى فكل من نجا واستوجب الثواب فبوعده ، وكل من هلك واستوجب العقاب فبوعيده فلا يجب عليه شىء من قضية العقل » .
الشهرستانى : المصدر السابق ، جـ١ ص٥٩ .

(٢) فى رأى المعتزلة : أن مرتكب الكبيرة ليس مؤمنا ولا كافرا ، ولكنه فى منزلة بين المنزلتين ، فإذا خرج من الدنيا قبل أن يتوب يكون مخلدا فى النار ، لكونه يشبه المؤمن فيعقده ولا يشبه فى عمله ، ويشبه الكافر فى عمله ولا يشبه فى عقده . وبذلك أصبح وسطا بين الاثنين .
الشهرستانى : المصدر نفسه جـ١ ، ص ٤٨ .
الاسفرينى : المصدر السابق ص٤٢ .
أما الأشاعرة : فيقولون أن صاحب الكبيرة إذا خرج من الدنيا من غير توبة يكون حكمه إلى الله تعالى ، أما أن يغفر له برحمته ، وأما أن يشفع فيه النبى ﷺ ، إذ قال : « شفاعتى لأهل الكبائر من أمتى » وأما أن يعذبه بمقدار جرمه ، ثم يدخله الجنه برحمته ، ولا يجوز أن يخلد فى النار مع الكفار، لما ورد به السمع بالإخراج من النار من كان فى قلبه مثقال ذرة من الإيمان . على أن الله لو أدخل الخلائق بأجمعهم الجنة لم يكن حيفا ، ولو أدخلهم النار لم يكن جورا ، إذا الظلم هو التصرف فيما لا يملكه المتصرف ، أو وضع الشىء فى غير موضعه ، وهو المالك المطلق فلا يتصور منه ظلم ، ولا ينسب إليه جور .
الشهرستانى : المصدر السابق ، جـ١ ص١٠١ .

(٣) الشهرستانى : المصدر نفسه ، جـ١ ص٤٥ .

(٤) الشهرستانى : المصدر نفسه ، جـ١ ص١٠١ .

ولما ملك صلاح الدين الأيوبى الديار المصرية ، كان هو وقاضيه الشافعى المذهب « صدر الدين عبد الملك بن عيسى بن درباس المارانى »[1] من معتنقى العقيدة الأشعرية منذ كانا فى خدمة السلطان نور الدين زنكى بدمشق ، فنقلوا عقيدة الأشعرى من الشام إلى مصر . « وعقدوا الخناصر وشدوا البناء على مذهب الأشعرى ، وجعلوا فى أيام دولتهم كافة الناس على التزامه فتمادى الحال على ذلك جميع أيام الملوك من بنى أيوب »[2]. ووصل إعجاب صلاح الدين بالعقيدة الأشعرية أنه أنشأ المدرسة الناصرية بجوار الشافعى[3]، وخصصها لتدريس المذهب الشافعى فى الفقه والعقيدة الأشعرية فى علم الكلام ، ونص على ذلك صراحة فى اللوحة التأسيسية التى كانت تعلو المدرسة ، والمحفوظة حاليًا فى متحف الفن الإسلامى بالقاهرة[4]. ونقش فى هذه اللوحة خمسة أسطر نصها :

١ ـ بنيت هذه المدرسة باستدعاء الشيخ الفقيه الإمام الـ .... »

٢ ـ « الزاهد نجم الدين ، ركن الإسلام ، قدوة الأنام مفتى الفرق أبو البركات)».

٣ ـ الموفق الخبوشانى أدام الله توفيقه لفقهاء أصحاب الشا (فعى) .

٤ ـ « رضوان الله عليه الموصوفين بالأصولية ، الموحدة الأشعرية (المنصورين) على »

٥ ـ الحشوية[5] وغيرهم من المبتدعة وذلك فى شهر رمضان سنة خمس

---

(١) صدر الدين بن درباس : كردى موصلى (٥١٦ ـ ٦١٥هـ/ ١١٢٢ ـ ١٢١٨م) تولى قضاء الديار المصرية على المذهب الشافعى أيام السلطان صلاح الدين سنة ٥٦٦هـ/١١٧٠م ، وفى أيام حكم الملك العزيز بن صلاح الدين صرف عن الحكم سنة ٥٩٠هـ/١١٩٣م ، وأن كان أعيد فيما بعد للقضاء مرة أخرى .

السيوطى : حسن المحاضرة جـ١ ص٤٠٨ ، جـ٢ ص١٥٣ .

(٢) المقريزى : الخطط جـ٢ ص٣٥٨ .

(٣) السيوطى : المصدر نفسه ، جـ٢ ص٢٥٦ .

(٤) هى لوحة تأسيس من الرخام مساحتها ١٠٠ سم × ٥١ سم (رقم السجل : ٣٣٣٩) .

(٥) الحشوية : راجع الشهرستانى ، المصدر السابق جـ١ ص٩٦ .

وسبعين وخمسمائة »[1].

وشرط السلطان صلاح الدين في أوقافه على المدارس التي شيدها في مصر أن يكون التدريس فيها على العقيدة الأشعرية كالمدرسة الناصرية ، بجوار قبر الإمام الشافعي والناصرية بجوار جامع عمرو بن العاص والقمحية بمصر وخانقاة سعيد السعداء[2].

وحذا الأيوبيون حذو السلاجقة في شدة كراهيتهم للمعتزلة والتنكيل بهم ، فرغم أن الصوفي الكيزاني[3] كان شافعي المذهب ، لكن بعد دخول صلاح الدين مصر ، نبش الشيخ الخبوشاني قبره ، والذي كان مجاوراً لقبر الإمام الشافعي ، قائلاً : « إنه لا يتفق مجاورة زنديق إلى صديق » لأن الكيزاني كان معتزلي الكلام يقول أن أفعال العباد قديمة[4].

التصوف :[5]

من الظواهر الحضارية التي ميزت الحياة الدينية والاجتماعية في العصر السلجوقي،

---

(١) ذكرت الكتابات في :

Wiet (G.) Et (H.) : Les Mosquées du Caire, Vol. 2, : Paris, 1932, p. p. 170 .

Comb., (وآخرين) : Répertoire Chronologique d'Epigraphie .

Arabe, Le Caire, 1931 - 1964, vol. IX, p. 95 .

عبد اللطيف حمزة : المرجع السابق ، ص١٦٠ .

(٢) المقريزي : الخطط ، جـ٢ ص٣٤٣ .

(٣) راجع الفصل الأول ، ص ٥١ .

(٤) العماد الاصفهاني : خريدة القصر ، جـ٢ ص٩٧ ، ابن تغري بردي النجوم ، جـ٥ ص١٦٨ .

(٥) يعرف « التصوف » بأنه أسلوب حياة يهدف إلى الترقي بالإنسانية اخلاقيا ويتحقق بواسطة رياضات عملية معينة تؤدي إلى الشعور في بعض الأحيان بالفناء في الحقيقة الأسمى ، والعرفان بها ذوقا لا عقلا ، وثمرتها السعادة الروحية ، ويصعب التعبير عن حقائقها بألفاظ اللغة العلمية لأنها وجدانية الطابع وذاتية .

أبو الوفا التفتازاني (د.) : المدخل إلى التصوف ، القاهرة ، الطبعة الثانية سنة ١٩٧٦م ، ص١٠ ، ١١ ، ١٤ ، ١٦ راجع أيضاً : أحمد محمد نباتي : موقف الإمام ابن تيمية من التصوف والصوفية مكة ١٩٨٦ ، الشيخ مصطفى عبد الرازق « مادة تصوف » ، دائرة المعارف الإسلامية، م٥ ص٢٧٦ إبراهيم بسيوني (د.) : نشأة التصوف الإسلامي ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٩٠ ص٩ : ٣٢ .

انتشار ظاهرة التصوف السنى بصورة لم يسبق لها مثيل مع كثرة ظهور الفرق أو الطوائف الصوفية . وكان وراء انتشار هذه الظاهرة الدينية العارمة أسباب كثيرة منها الظروف السلبية(١) التى أحاطت بهذا المجتمع وجعلت الكثير من أفراده يسلكون سبيل التصوف والعزوف عن مباهج الدنيا والتقرب إلى الله .

وكان السلاطين السلاجقة ووزرائهم من أكبر مشجعى الصوفية ، لأنهم وجدوا فيهم الفئة الوحيدة التى ابتعدت عن الصراع على مناصب الدولة ، وواجهة يخفى وراءها السلاطين قبح أعمالهم المخالفة للشرع أمام الناس ، ووسيلة هامة من وسائل القضاء على الشيعة ، وظهر هذا التشجيع من خلال كثرة بناء الزوايا والأربطة والخانقاوات ووقف الأوقاف عليها للمتصوفة .

واشتهر عن السلطان طغرلبك السلجوقى أنه كان يزور بابا طاهر العريان فى همدان ويستمع إلى نصائحه وينفذها(٢) . وكان السلطان مسعود السلجوقى يزور فى بغداد الصوفى على بن الحسين أبو الحسن الغزنوى (ت ٥٥١هـ/ ١١٥٥م) الملقب بالبرهان(٣) . وحرص سلاطين السلاجقة على اصطحاب أعداد كبيرة من المتصوفة أثناء

---

(١) مثل اقصاء العنصر ذى الأصل العربى من مناصب الجيش ، والمناصب العليا ، فأحسوا بالظلم الذى دفعهم إلى التصوف ومثل مظاهر البذخ والخلاعة والخمر التى كانت تميز حياة طبقة السلاطين وأمرائهم ومماليكهم وتسلط السلاطين على الخلفاء العباسيين ، كأسر السلطان مسعود للخليفة المسترشد بالله العباسى فضح أهل بغداد . والكوارث الطبيعية المتلاحقة من أوبئة بمجاعات وحرائق وقحط ومن أمثلتها ما حدث فى السنوات التالية . ٤٣٩هـ ، ١٠٤٧م / ٤٤٠هـ ، ١٠٤٨م / ٤٤٩هـ ،١٠٥٧م / ٤٦٤هـ ، ١٠٧١م . ٤٦٨هـ / ١٠٧٥م / ٤٧٠هـ ، ١٠٧٧م / ٥١٨هـ ، ١١٢٤م / ٥٢٨هـ ، ١١٣٥م / ٥٦٢هـ ، ١١٤٦م / ٥٧٤هـ ، ١١٧٨م .
مع الفتن الداخلية الكثيرة بين انصار الشيعة والمذاهب السنية ، والحروب الصليبية . راجع : ابن القلانسى : المصدر السابق ، ص١٠٨ ، ٢١٢ ، ٢٤٣ ، ١٢١ ، ١٢٧ ، ٢٦٣ ، ٣٤٤ ، ٣٤٧ .
أبو شامة : الروضتين جـ١ ، ص١٠٤ ، ١٠٥ / ابن الأثير : الدولة الاتابكية ، ص١٠٨ ، ١٧٨ ، ١٧٩ ، ٢١٠ ، ٢٤٣ ، ١١٠ ، الكامل ،جـ١٠ ص٤٧٠ .
أبى الفدا : المصدر السابق جـ٢ ص١٥ ، ٣٣ ، ٣٤ ، جـ٣ ، ص٢١ ، ٢٧ ، ٢٨ . / المقريزى : اتعاظ الحنفا جـ٢ ص٢٣٤ / العماد الحنبلى : المصدر السابق ، جـ٣ ص٢٧٩ ، ٣٠٤ ، . ابن تغرى بردى : النجوم جـ٥ ص٤٣ ، ٤٤ ، ٤٧ ، ٥٩ ، ٦٠ ، ٦١ ، ١١٦ ، ١٢٠ ، ٣٧٣ ، ٣٢٥ ، ٥٥٢ ، ٥١١ ، ٢٦٨ . / السيوطى : تاريخ الخلفاء ، ص ٤٢١ ، ٤٢٢ ، ٤٢٥ ، ٤٢٦ .
(٢) عبد النعيم حسنين : المرجع السابق ، ص ١٧٦
(٣) ابن تغرى بردى : النجوم ، جـ٥ ص٣٢٣ .

خوض المعارك فيُذكر أن السلطان سنجر شاه بن ملكشاه اصطحب معه فى حروبه مع الخطا - فى بلاد ما وراء النهر - سنة ٥٣٦هـ ١١٤١م ، مايزيد على عشرة آلاف نفر من العلماء والصوفية[١] . وكان على رأسهم شيخ الإسلام الحسام عمر بن عبد العزيز بن مازه إمام الحنفية ببخارى ، وكان الملوك يصدرون عن رأيه[٢] .

وكان الوزير نظام الملك كثير الإنعام على الصوفية وعمّر لهم كثيراً من الرباطات فى العراق وبلاد العجم وأصفهان وسائر أقطار وأطراف البلاد وكان يطلق عليهم « جيش الليل » ويرى أهميته القصوى فى الدعاء للسلاطين أثناء حروبهم ليكون النصر حليفهم[٣] . بل أن التصوف انتشر حتى بين وزراء السلاجقة أنفسهم ، مثل نظام الملك[٤] .

ورغم ما أشرنا إليه فى الفصل الأول ، من ظهور بوادر لتأثير التيار الصوفى السنى القادم من الشرق السلجوقى فى العصر الفاطمى إلا أن السمات الاجتماعية والدينية خلال ذلك العصر والتى كان يغلب عليها كثرة الاحتفالات وما يصاحبها من كثرة الموائد والأسمطة واللهو والمرح وتوزيع « الكسوات » وبذل الأموال ببذخ شديد[٥] لم تمكن التيار الصوفى من الترسخ فى البيئة الاجتماعية لمصر ، وبالتالى فلم يكن له دور ملموس فى ذلك العصر .

ولما قامت الدولة الأيوبية ساهم سلاطين بنى أيوب بطريق مباشر وغير مباشر فى جذب تيار التصوف السنى القادم من الشرق السلجوقى ، عن طريق جذب الصوفية الوافدين من تلك المناطق بتهيئة عمائر الزهاد والصوفية لتكون مركزاً صوفيًا لهم وخاصة وسط القاهرة ، ومن أمثلة ذلك تحويل صلاح الدين دار سعيد السعداء بالقاهرة

---

(١) ذكر ابن كثير فى حوادث سنة ٥٣٦هـ أن خوارزم شاه قتل من عسكر السلطان سنجر مائة ألف قتيل منهم أثنا عشر ألفا كلهم صاحب عمامة ، وأربعة آلاف امرأة وأسرت زوجة سنجر .
(البداية والنهاية ، جـ١١ ، أحداث سنة ٥٣٦ هـ .

(٢) ابن تغرى بردى : النجوم ، جـ٥ ص٢٦٨ .

(٣) ابن القلانس : المصدر السابق ، ص١٢١ .
العماد الحنبلى : المصدر السابق ، جـ٣ ص٣٧٤ .

(٤) راجع : حربى أمين : المرجع نفسه ، ص ٢٤٨ ، ٢٨٩ .

(٥) راجع عبد المنعم ماجد : ظهور خلافة الفاطميين ، ص٣١٢ : ٣٢١ ، ٣٢٩ : ٣٣٢ .

لتكون أول خانقاة سنة ٥٦٩هـ/ ١١٧٣م لتجمع الطرق الصوفية الواردة من المشرق ، كما قرر لها وقفا تضمن إقامة المتصوفة بها أبدا ، كما وضع صلاح الدين فى مصر أول تنظيم رئاسى للطرق الصوفية عندما منح شيخ خانقاة سعيد السعداء لقب « شيخ الشيوخ » .

وبهذه الوسائل ساهم صلاح الدين كحاكم أعلى للبلاد فى ازدهار التصوف إبان العصر الأيوبى ، لأن صلاح الدين نفسه كان من المتصوفة ، وكان يحضر عنده الفقراء والصوفية ويعمل لهم السماع ويقعد حتى يفرغ الفقير من الرقص والسماع، ولم يلبس شيئًا مما ينكره الشرع ، ولم يخلف مالا ولا أملاكا[١] . وكان السلطان صلاح الدين يزور الخبوشانى ويسأله الدعاء وخاصة إذا خرج إلى غزو أعدائه[٢] . ومما جعل للوسائل التى اتخذها السلطان صلاح الدين أن تثمر فى ازدهار حركة الصوفية فى مصر ، أن البيئة المحلية نفسها منيت بظروف سلبية[٣] عديدة جعلتها من الخصوبة بحيث ترعى الصوفية القادمين من الشرق ، وتفرز أقطابا وطرقًا للتصوف فى مصر من المصريين ، حتى انتشر التصوف فى مصر وعم الفقير والغنى والمسلم والعامة والخاصة .

فمن الطرق الصوفية التى أسسها شيوخها فى الشرق السلجوقى وانتشرت فى مصر

---

(١) ابن الأثير : الكامل ، جـ١٢ ص٩٦ ـ ٩٧ .

(٢) ابن الزيات : « شمس الدين أبو عبد الله محمد » (القرن التاسع الهجرى / ١٥م) ـ الكواكب السيارة فى ترتيب الزيارة فى القرافتين الكبرى والصغرى ، بولاق ١٣٢٥هـ / ص٢١٤ .

(٣) مثل اقصاء العنصر العربى من الجندية وقد كانوا متقلديها فى مصر زمن الفتح العربى ، ومثل ثورات الشيعة وبنى الكنز ، ومجاهرة مماليك بنى أيوب بالمعاصى ، وانتشار الحشيشة وبيوت المزارة ، والخانات فضلا عن الحروب المتكررة مع الفرنجة ، وتوالى الكوارث الطبيعية من قحط النيل والأوبئة فى سنوات متقاربة مثل : سنة ٥٧٤هـ ـ ١١٧٩٨م / ٥٩٦هـ ـ ١١٩٩م / ٦٢٧هـ / ١٢٤٥م ، والزلازل منها ما حدث سنة ٥٦٥هـ ١١٦٩م / ٥٩٧هـ / ١٢٠٠م . راجع : ابن الأثير : الكامل جـ١٢ ص٢٤٠ / أبو شامة الروضتين جـ١ ص١٨٤ ، جـ٢ ص٢٤٤ ـ أبو الفدا : المصدر السابق جـ١ ص١٠٦ ، ١١١ ، ص٥٧ ، ص٥٩ .
الاصفهانى البندارى : المصدر السابق ، ص ١٥٢ ، ١٥٣ .
المقريزى : إغاثة الأمة ، ص ٢٩ ، ٣٠ .
على صافى حسين : المرجع السابق ، ص ١٩ : ٣٤ .

وصار لها اتباع من المصريين **الطريقــة الرفاعية**[1] ، والتى أسسـها فى أواسط البصرة الشيخ أحمـد بن أبى الحسن بن أبى العباس المعروف بابن الرفاعى (ت ٥٨٧هـ/ ١٩٩١م) وهو من أصل عربى من قبيلة بنى مراغة . وقد نقل هذه الطريقة الصوفية إلى مصر تلميذ الرفاعى أبو الفتح الواسطى الذى عاش بالإسكندرية ودفن فيها (ت ٥٨٠هـ/ ١١٨٤م) ، وانتشرت هذه الطريقة فى مصر وصار لها اتباع كثيرون حتى اليوم .

ومن أشهر اتباع الطريقة الرفاعية فى مصر الشيخ عبد العزيز الدرينى[2] توفى فى حدود بضع وتسعين وستمائة[3] ، وله أشعار صوفية رقيقة ، ومنها أشعار توضح أنه من اتباع الطريقة الرفاعية ، وهو القائل :

وسيدى ابن الرفاعــى * قطــب الحقيقة أحمــد

هذا مقــال الدرينــى * عبد العزيز بن أحمد[4]

ومن الذين اقتدوا بأقوال الرفاعى فى تصوفهم الشيخ أبو العباس أحمد بن الملتم (توفى فى حدود الستمائة ودفن بالحسينية بمصر)[5] ، وغيرهم[6] .

---

(١) الطريقة الرفاعية : تعتبر من أكثر الطرق الصوفية انتشارا فى الشرق والغرب ، وكان مؤسسها من الفقهاء الشافعية ـ وتوارث أولاد الرفاعى المشيخة عن أبيهم ، وأصحاب هذه الطريقة لهم طرق شاذة فى تصوفهم فمثلا يركبون الأفيال ويلعبون بالحيتان وينزلون فى تنانير تضرم بالنار فيطفئونها . راجع :
ابن خلكان : المصدر السابق ، م١ ، ص١٧١ ، ترجمة ٧٠ .
ابن تغرى بردى : النجوم ، جـ٦ ص٩٢ .
الشعرانى : المصدر السابق ، جـ١ ص١٥٦ : ١٦٠ .

(٢) الدرينى : لقب نسبة إلى مسقط رأسه وهى « ديرين » وهناك ديرين القرية القريبة من صعيد مصر ، ودرين بلد من أعمال الغربية بمصر .
راجع : العماد الحنبلى ، المصدر السابق جـ٥ ، ص٤٥٠ .
على صافى حسين : الأدب الصوفى ، ص٨٥ .

(٣) على صافى حسين : المرجع نفسه ، ص٨٦ .

(٤) على صافى حسين : المرجع نفسه ، ص١٨٩ .

(٥) الشعرانى : المصدر السابق جـ١ ص١٧٣ ـ ١٧٤ .

(٦) مثل الصوفى الحجاج الأقصرى .

ومن الطرق الصوفية المؤثرة فى حركة التصوف فى مصر ، **الطريقة القادرية** : وقد أسسها فى بغداد الشيخ عبد القادر الجيلانى (٤٧٠ ـ ٥٦١هـ/ ١٠٧٧ ـ ١١٦٥م) فقد تعلم الفقه فى بغداد ووعظ فيها واعتمد فى تصوفه على الكتاب والسنة وانتشرت طريقته فى مصر[١] ومن الذين تأثروا بتصوفهم بالطريقة القادرية الشيخ أبو الحسن الشاذلى (٥٩٣ ـ ٦٥٦هـ/ ١١٩٧ ـ ١٢٥٨م) ، والذى أصبحت له طريقة خاصة فى التصوف السنى انتشرت فى مصر وعلى الأخص فى مدينة الإسكندرية ، ويوجد اتباع لهذه الطريقة حتى الوقت الحالى (أى الطريقة الشاذلية)[٢] وممن تأثروا بالطريقة القادرية فى تصوفهم فى مصر الشيخ بدر الدين القونوى فقد أخذ التصوف عن الشيخ عمر حفيد الشيخ عبد القادر[٣] .

ومن الطرق الصوفية التى تأسست فى الشرق السلجوقى وكان لها اتباع فى مصر **الطريقة السهروردية** التى أسسها ابى النجيب السهروردى (٤٩٠ ـ ٥٦٤هـ/ ١٠٩٦ ـ ١١٦٧م) وهو من بغداد[٤] .

وإذا كانت الطرق الصوفية القادمة من الشرق السلجوقى قد وجدت اتباعا لها فى مصر ، فإن لهذا التيار الصوفى الوافد ، أثر آخر غير مباشر هو اذكاء النزعة إلى التصوف التى كانت مبثوثة منذ القدم فى روح الحضارة المصرية باعتبارها فرع النزعة المصرية العميقة إلى التدين ، وهكذا انبتت فى البيئة المصرية طرق صوفية مصرية انتشرت فى مصر ومنها إلى باقى العالم الإسلامى وتأثر مؤسسوها على نحو من الانحاء بالتيارات الصوفية الاتية من الشرق سواء عن طريق الدراسة فى الشرق أو أخذ العلم الصوفى من علماء درسوه فى الشرق . ومن أمثلة ذلك :

---

(١) راجع : أبو الوفا التفتازانى : مدخل إلى التصوف ، ص ٢٨٦ ـ ٢٨٧ .

(٢) ابن تغرى بردى : المنهل ، جـ ٢ ص٤٣ / السيوطى : حسن المحاضرة ، جـ١ ص-٥٢ .

(٣) ابن تغرى بردى : النجوم ، جـ١ ص١٦٥ : ١٧٠ .

كما أخذ التصوف عن حفيد الشيخ عبد القادر فى مصر ، الشيخ ابن رفاعة برهان الدين إبراهيم بن بهادر الغزى (ت٨١٦هـ/١٤١٣م) راجع :

السيوطى : حسن المحاضرة ، جـ١ ص٥٢٨

(٤) راجع ابن خلكان المصدر السابق م١ ص٤٨٠

أبو الوفا التفتازانى مدخل إلى التصوف ، ص ٢٩٠ ـ ٢٩٨ .

الطريقة البدوية[1] ومؤسسها : الشيخ أحمد بن على بن إبراهيم من نسل الحسين بن على فهو من أصل عربى (٥٩٦ ـ ٦٧٥ هـ/ ١١٩٩ ـ ١٢٧٦م) ، وأسس الشيخ أحمد البدوى طريقته الصوفية فى مصر بعد جلوسه مع أقطاب التصوف فى العراق ومنهم سيدى عبد القادر الجيبلى وسيدى أحمد بن الرفاعى وغيرهم[2] ، فدخل مصر فى عصر الكامل فى حوالى سنة ٦٣٤هـ/ ١٢٣٦م) ، حيث عرفت طريقته فى التصوف وهى « البدوية أو السطوحية » ، كما ساهم فى نشر التصوف فى مصر عندما أشار على أحد أصحابه وهو الشيخ أبو الفتح الواسطى أن يسافر إلى الإسكندرية ، فسافر إليها وأخذ عنه ـ فيما يذكر الشعرانى ـ[3] خلائق لا يحصون ، منهم الشيخ عبد السلام القليبى، والشيخ عبد الله البلتاجى وبهرام الدميرى وغيرهم[4] واستمر اتباع سيدى أحمد البدوى فى نقل طريقته فى التصوف إلى آخرين[5].

كما ذاع صيت كثير من المتصوفة المصريين ، ومنهم من كانت له أشعار صوفية رقيقة تهز الوجدان والمشاعر مثل الشيخ عمر بن الفارض « الملقب سلطان المحبين والعشاق » وهو مصرى الدار والمولد والوفاة (٥٧٦ ـ ٦٣٢هـ/ ١١٨٠ ـ ١٢٣٤م) ، وانتشر له اتباع كثيرون فى مصر ، ووصل فى زهده الصوفى أنه رفض مقابلة الملك

---

(١) الطريقة البدوية . راجع الشعرانى : المصدر السابق ، جـ١ ص٢٠٤
السيوطى : حسن المحاضرة ، جـ١ ص٥٢١ ٥٢٢
ابن إياس : المصدر السابق ، جـ١ ص٣٣٥ .
أبو الوفا التفتازانى : مدخل إلى التصوف ص٢٩٤ ، ٢٩٥ .
الطرق الصوفية (مجلة كلية الآداب ـ جامعة القاهرة ، م٢٥ لسنة ١٩٦٣ ، ص٧٣ / على صافى حسين : الأدب الصوفى ، ص ٤٧ ، ١٤٦ ، ١٥٠) .
(٢) الشعرانى : المصدر السابق ، جـ١ ص٢٠٧
(٣) الشعرانى : المصدر نفسه ، جـ١ ص٢٢٤
(٤) الشعرانى : المصدر نفسه ، جـ١ ص٢٢٤ .
(٥) من أشهر خلفاء الطريقة البدوية فى مصر الشيخ عبد العال (ت٧٣٠ : ١٣٣١م) .
راجع السيوطى . حسن المحاضرة ، جـ١ ص٥٢٥
الشعرانى : المصدر نفسه جـ١ ص٢٢٤

الكامل الأيوبى كما رفض الأموال التى أرسلها له لكى يوزعها على الفقراء »[1].

ومن الصوفية المصريين الذين ذاع صيتهم أيضاً الشيخ أبو القاسم القبارى (٥٨٧ ـ ٦٦٢هـ/ ١١٩١ ـ ١٢٦٤م) وانتشرت طريقته فى الإسكندرية بوجه خاص[2]. حتى صعيد مصر انتشرت فيه الطرق الصوفية التى أسسها شيوخها من المصريين ، مثل مدرسة التصوف التى أسسها الشيخ عبد الرحيم القنائى (ت ٥٩٢هـ/ ١١٩٥م) [3] والشيخ أبو الحسن الصباغ (ت ٦١٣هـ/ ١٢١٦م)[4]، وغيرهم كثيرون[5].

ولم يتأثر المتصوفة فى مصر فى العصر الأيوبى بحركة انتشار التصوف والفرق الصوفية فى الشرق السلجوقى ، بل تأثروا بالمنهج الصوفى الذى انتشر بين أكثر صوفية الشرق ، وهو التصوف السنى الخالى من البدع والذى ازدهر على يد المتكلم الأشعرى أبى حامد الغزالى ، فقد رفضوا الفلسفة طريقاً إلى اليقين وآثروا عليها التصوف الذى

---

(١) راجع : ابن خلكان : المصدر السابق ، م٣ ص٢٨٨ .
ابن كثير : المصدر السابق ، جـ١٣ ص ١٤٣ .
السيوطى : حسن المحاضرة ، جـ١ ، ص٥١٨ .
ابن تغرى بردى : النجوم ، جـ٦ ص٢٨٨ ،
ابن إياس : المصدر السابق ، جـ١ ص٢٦٦ .
أبو الوفا التفتازانى : مدخل إلى التصوف ، ص ٢٦٠ ـ ٢٦٣ .
على صافى حسين : الأدب الصوفى ، ص٩٢ : ١٠٤ .
ولابن الفارض ديوان شعر صوفى ، طبع بالمطبعة الحسينية بمصر ١٩١٣م .

(٢) السيوطى : حسن المحاضرة ، جـ١ ص٥٢٠ .
جمال الدين الشيال : إعلام الأسكندرية : ٢٢٤ : ٢٢٨

(٣) الشعرانى : المصدر السابق ، جـ١ ص١٧٢ ـ ١٧٣ .
السيوطى : حسن المحاضرة ، جـ١ ص٥١٥ ، ٥١٦ .

(٤) السيوطى : حسن المحاضرة ، جـ١ ص٥١٦ .
ابن إياس : المصدر السابق ، جـ١ ص٢٦٠ .
على صافى حسين : الأدب الصوفى ، ص ١٩٩ : ٢١٢ .

(٥) راجع ابن الزيات : المصدر السابق ، ص ٣١٦ .
السيوطى حسن المحاضرة جـ١ ص٥١٦ ٥٢٣ .

يقوم على عقيدة أهل السنة والجماعة[١] ، وظل الصوفية فى مصر يأخذون من تصوف الغزالى سواء بالاستشهاد بحكمه فى مجالسهم أو بالعمل والقول بما جاء فى مصنفاته[٢] .

وترتب على ازدهار هذا التيار الصوفى فى مصر فى العصر الأيوبى ، ظهور عوائد جديدة فى حضارة القاهرة فى ذلك العصر ، مثل انتشار حلقات الذكر ، والتى كان يحضرها صلاح الدين بنفسه ويشارك فيها بعض أمراء دولته[٣] .

ومن العوائد الجديدة التى ظهرت فى القاهرة أيضًا بفعل ازدهار حركة التصوف وكانت من دواعى الفرجة للناس وحصول البركة لهم ، حضورهم خصيصًا من مصر إلى القاهرة يوم الجمعة فى الجامع الحاكمى ، يتقدمهم شيخ الخانقاة ومعه خدام الربعة الشريفة محمولة على رأس أكبرهم وهم يسيرون فى خشوع حتى الجامع ، وبعد أداء صلاة تحية المسجد يتقدمهم شيخهم وهو يجلس تحت سحابة منصوبة له دائمًا ، ثم يجلسون وتفرق عليهم أجزاء الربعة فيقرأون القرآن حتى يؤذن المؤذن فتؤخذ منهم الربعة وبعد أداء شعائر صلاة الجمعة ينصرفون بنفس الطريقة إلى الخانقاة[٤] .

ومن الظواهر الحضارية التى ترتبت على انتشار حركة التصوف السنى فى مصر

---

(١) فقد ابتعد تصوف الغزالى ومتصوفو مصر الأيوبيون عن الآراء الفلسفية والعناصر الأجنبية التى ظهرت فى الفرق الصوفية الفارسية المتأثرة بالمعتقدات والأفكار الفارسية والهندية . راجع :
فاروق أحمد مصطفى : البناء الاجتماعى للطريقة الشاذلية فى مصر الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ القاهرة ١٩٨٠ ، ص ٧٥ ، ٧٦ ، ٧٧ .

(٢) راجع : أبو الوفا التفتازانى : مدخل إلى التصوف ، ص ١٩١ ـ ١٩٢ ، ٢٩١ ، ٢٩٣ / الطرق الصوفية ، ص٦٣ .

(٣) محمد مؤنس أحمد عوض : « التنظيمات الدينية الإسلامية والمسيحية فى بلاد الشام فى عصر الحروب الصليبية فى القرنين السادس والسابع ، الهجرى (الثانى عشر والثالث عشر الميلاديين) . رسالة ماجستير مقدمة لكلية الآداب جامعة عين شمس ، ١٩٧٤ ، غير منشورة ، ص١٥٠ .

(٤) المقريزى : الخطط جـ٢ ص٤١٥ .
راجع : عن عوائدهم فى نظم الأكل داخل الخانقاه :
ابن بطوطة : « محمد بن عبد الله » (ت٧٧٩هـ / ١٣٧٧م) .
« كتاب تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار الشهيرة » (جزءان) المطبعة الخيرية ، الطبعة الأولى ١٣٢٢هـ ، جـ١ ص٢٣ ـ ٢٤ .

الأيوبية معماريا بناء الخانقاوات والتى ارتبطت بها ظهور وظيفة ولقب « شيخ الشيوخ».

وهى الوظيفة الدينية التى أدخلها السلطان صلاح الدين فى مصر بعد تأسيس خانقاة سعيد السعداء سنة ٥٦٩هـ/ ١١٧٣م ، فكان أكبر شيوخها مقاماً ينعت بلقب « شيخ الشيوخ »[١]. إذ كانت هذه الوظيفة لا تسند إلا إلى أكبر رجال الدولة مقامة دينية ، فظلت محصورة فى إحدى الأسر الوافدة من الشرق ، وهى أسرة شيخ الشيوخ من حموية . ومهمة شيخ الشيوخ أن يتكلم عن جميع الطرق الصوفية وله التقدم على غيره من المشايخ ، وله تربية المريد ، ويتولى الإشراف على رجال الطرق الصوفية .

وفيما يُعتقد أن هذه الوظيفة عرفت فى الشرق قبل أن تعرف فى مصر الأيوبية ، فقد عرفت فى عصر الخليفة المستنجد بالله العباسى فى بغداد سنة ٥٤١هـ/ ١١٤٦م، وقد تولاها الشيخ إسماعيل ابن أبى سعد ، ومن بعده ابنه صدر الدين[٢]. وإن كان الراجح أن هذا اللقب قد أطلق أول مرة على أبى سعيد أحمد بن محمد دوست النيسابورى (ت ٤٧٩هـ/ ١٠٨٦م) فى بغداد .

٦ ـ مظاهر التأثيرات السلجوقية فى الحضارة الأيوبية علميا بمصر :

المدارس :

يعتبر الوزير السلجوقى نظام الملك رائد حركة إنشاء وتعميم المدارس فى كافة الأمصار الإسلامية [٣] لمحاربة المذهب الشيعى ولتنشيط الحركة العلمية والفقهية ،

---

(١) راجع : أبو الوفا التفتازانى : الطرق الصوفية ، ص ٦٤ / جورجى زيدان : المرجع السابق ، جـ١ ص٢٦١ ـ ٢٦٢ / السبكى : معيد النعم ، ص ٩٦ ـ ٩٧ .
أبو شامة : الروضتين ،جـ١ ص١٩١ / ابن تغرى بردى : النجوم ، جـ٥ ص٣٧٣ .
حسن الباشا : الألقاب ، ص ٣٦٦ / الفنون والوظائف جـ٢ ص٦٣٩ .

(٢) ابن تغرى بردى : النجوم ، جـ٥ ص١٢٤ .

(٣) فقد أنشأ نظام الملك المدارس التى أطلق عليها اسم « النظاميات » فى نيسابور وبغداد وخراسان وأصفهان والموصل وبلخ وجزيرة ابن عمر بالعراق .
نظام الملك : المصدر السابق ، ص ٥ .
ابن الأثير : الدولة الاتابكية ، ص ٩ .
أبو شامة : الروضتين ، جـ١ ص٢٥ . / حربى أمين : المرجع السابق ، ص٢٥٢ .

فالقصد من إنشاء المدارس كما يذكر ابن الحاج[1] : « أن يأتيها غالبًا من قصد العلم أو الاستغناء » ، فليس كل من دخل الجامع أو المسجد يريد أن يتعلم بالضرورة ، ولكن كل من دخل المدرسة يريد أن يتعلم بالضرورة .

وكان الوزير نظام الملك يحرص على جذب خيرة العلماء للتدريس في هذه النظاميات حتى تؤدى رسالتها على أعظم ما يكون ، وتكون في نفس الوقت أماكن جذب لعلماء المسلمين من كافة الأقطار فعندما شيد نظامية بغداد أختار لها أعظم علماء عصره مثل الاسفراييني والجويني إمام الحرمين ، وحجة الإسلام أبي حامد الغزالي[2] . وتميزت مدارس العصر السلجوقي بأنها ذات طابع رسمي لها نظامها العلمي والمالي وتشرف عليها الدولة .

ولكي يضمن بها دوام أداء رسالتها فقد رصدت عليها الأوقاف العديدة[3] .

وقد أشرنا إلى تأثير السلاجقة على العصر الفاطمي من حيث ظهور بناء بعض المدارس[4] التي لم تحظ بصفة الرسمية من قبل الدولة ، كما أنها كانت بغرض

---

(١) ابن الحاج : « أبو عبد الله محمد بن سعد البدرى » (ت٧٣٧هـ / ١٣٣٦م) ـ المدخل (٤أجزاء)، دار الحديث ، القاهرة ١٩٨١ ، جـ٢ ص١٠٣ .

(٢) راجع : ابن الأثير : الدولة الاتابكية ، ص٩ / أبو شامة : الروضتين جـ١ ص٢٥ .

(٣) عبد الغنى محمود عبد العاطى : المرجع السابق ، ص٥٨ راجع :
حسنى محمد حسن نويصر (د.) منشآت قايتباى الدينية . رسالة دكتوراه غير منشورة مقدمة لكلية الآثار جامعة القاهرة ، ١٩٧٥م ص١٥ .

(٤) كان تلقى العلم في العصر الفاطمي في مصر يتم من خلال الحلقات العلمية التي تعقد في المساجد والجوامع ، وفي بعض الديار كدار يعقوب بن كلس التي كان بها حلقة علم .
وقد شيد الفاطميون دار الحكمة من أجل تخريج الدعاة سنة ٣٩٥هـ/ ١٠٠٥م ، ثم أغلقت في عصر الوزير الأفضل بن أمير الجيوش ٤٨٧هـ/ ١٠٩٤م ، ثم شيد الوزير المأمون البطائحي دار العلم الجديدة في موضع آخر من القاهرة سنة ٥١٧هـ/١١٢٣م وظلت حتى زوال الدولة الفاطمية .
المقريزى : الخطط جـ١ ص٤٤٥ ، ٤٥٨ .
عبد اللطيف حمزة : الحركة الفكرية ، ص٧٥ .
ولكن يلاحظ أن الدارين السابقتين هما الوحيدتان اللتان شيدتا في العصر الفاطمي من أجل العلم ولم يعملا في وقت واحد ، بمعنى أنهما إن جاز القول ، دار واحدة طوال العصر الفاطمي ، فهي ظاهرة لم يتوسع الفاطميون في تعميمها ، كما فعل السلاجقة بنشر بناء المدارس في كل الأمصار .

تدريس المذهب السنى لمعتنقيه فحسب ، ولم يتجاوز عددها منذ عرفت فى العصر الفاطمى حتى نهايته فى طول البلاد وعرضها حوالى ثلاث مدارس[١] .

ولكن صلاح الدين الذى تعلم على يد علماء نظاميات بغداد ـ كما أشرنا ـ قد تأثر بعمارة المدارس بكل اتجاهاتها التى عرفت فى عصر السلاجقة ، وخاصة من حيث أنها واحدة من طرق محاربة المذهب الشيعى عن طريق العلم ، ولذلك فقد شرع فى بناء المدارس فى مصر منذ وزارته للعاضد ، عندما شيد أول مدارسه فى مصر بهدم دار المعونة وشيدها مدرسة للشافعية سنة ٥٥٦هـ/ ١١٧٠م والتى عرفت باسم « المدرسة الناصرية »[٢] وحتى يضمن لها ـ كنظاميات السلاجقة ـ صفة الرسمية ودوام اداء رسالتها فقد أوقف عليها الأوقاف ، من ذلك أنه أوقف على المدرسة الناصرية الصاغة وقرية[٣] ، ووقف على المدرسة القمحية بمصر القديمة قيسارية الوراقين وضيعة بالفيوم تعرف بالحنبوشية[٤] .

كما اختار ـ مثل نظام الملك ـ خيرة علماء العصر وخاصة من الوافدين للتدريس فى هذه المدارس ، فكان أول من درس بالمدرسة الناصرية أبو العباس أحمد ابن المظفر بن الحسين الدمشقى المعروف بابن زين التجار (ت ٥٩١هـ/ ١١٩٤م)[٥]، كما درس فى مدرسة منازل العز شهاب الدين الطوسى[٦] .

---

(١) سعاد ماهر : تطور العمائر الدينية بتطور وظائفها . المجلة التاريخية ، م٨ لسنة ١٩٧١ ، ص٦٠ .

(٢) المقريزى : الخطط جـ٢ ص٣٦٣ .

(٣) المقريزى : الخطط ، جـ٢ ص٣٦٤ .

وهى قرية « الإعلام » وتقع بحرى الفيوم إلى الشرق وتبعد عن الفيوم حوالى نصف ساعة وتحتوى على أديرة مستجدة ومزارع تين وجميز .

ابن عثمان النابلسى الصفدى : تاريخ الفيوم وبلاده ، طبعة بيروت ١٩٧٤ ، ص٦٠ .

(٤) الحنبوشية : وهى بلدة تقع آخر عمل الفيوم من الغرب وورائها الجبل ، وبها نخل وشجر كثير وتين وكمثرى وبها جامع تقام فيه الجمعة ، واشتهرت بكثرة غلتها من القمح .

الصفدى : المصدر نفسه ص١٩ ، ٥٩ حسنين ربيع : المرجع السابق ص٧٦ .

(٥) المقريزى : الخطط جـ٢ ص٣٦٣ ـ كما درس بها أيضاً ابن قطيطة بن الوزان ثم كمال الدين أحمد بن شيخ الشيوخ ، ثم القاضى شمس الدين أبو عبد الله محمد الحنفى قاضى العسكر الأموى فعرفت به « المدرسة الشريفية » .

المقريزى : الخطط جـ٢ ص٣٦٤ ، ص١١٨ .

(٦) المقريزى : الخطط جـ٢ ص ٣٦٣ .

وتعاقب خلفاء صلاح الدين على السير على منهجه فى انتشار بناء المدارس التى اكتظت بها القاهرة ومصر وبعض المدن الأخرى من مصر[١] ومما يدل على أن ظاهرة انتشار المدارس فى العصر الأيوبى تعتبر من التأثيرات السلجوقية ، أن عدد المدارس فى ذلك العصر[٢] يزيد كثيراً عن الثلاث مدارس التى أنشئت فى العصر الفاطمى ، بحيث أصبحت مدارس العصر الأيوبى ظاهرة حضارية تعبر بجلاء عن ذلك التأثير الآتى من الشرق .

أهمية دور رجال الدين والعلماء فى المجتمع المصرى :

أسفر تأثر صلاح الدين وخلفائه فى مصر بنظم الحضارة السلجوقية المتمثل فى انتشار بناء المدارس وتشجيع العلماء عن انعكاسات حضارية ظهرت بوضوح فى العصر الأيوبى . فقد ازدادت أهمية رجال الدين والعلماء فى المجتمع المصرى على غرار ما حدث عند السلاجقة ، فكما دأب سلاطين السلاجقة على أخذ رأى ومشورة رجال الدين والعلم قبل إصدار كثير من القرارات الهامة ، وعلى الأخص تلك المتعلقة بالحرب[٣] ، فقد سار صلاح الدين على نفس النهج حتى أنه لم يقدم على قرار هام لإسقاط الخلافة الفاطمية ، إلا بعد تشجيع ومشورة العالم الفقيه نجم الدين الخبوشانى، كما سبقت الإشارة ، واستشار شيخ الشيوخ بن حمويه فى كثير من الأمور العسكرية[٤] ، واعتاد أن يصطحب معه فى الحرب كثيراً من العلماء والفقهاء

---

(١) راجع : المقريزى : الخطط جـ٢ ص٣٦٤ : ٣٧٨ .

(٢) بلغ عدد مدارس العصر الأيوبى فى مصر حوالى إحدى عشرة مدرسة ، أو ما يزيد .

(٣) على سبيل المثال حرص السلطان السلجوقى ألب أرسلان على أخذ مشورة الفقيه الإمام أبو نصر محمد بن عبد الملك النجارى الحنفى ، الذى حفزه على بدأ القتال على الروم يوم الجمعة بعد الزوال حيث يكون جميع المسلمين يقفون خلف الإمام فى المساجد ويدعون له على المنابر ، وبالفعل أخذ بمشورته وبدأ الحرب فى التوقيت الذى حدده الفقيه ، فكان النصر الساحق حليف طغرلبك على اعدائه من الروم فى (ارضروم) .
الاصفهانى : المصدر السابق ، ص٤٢ ـ ٤٣ .
أحداث أخرى راجع : الاصفهانى : المصدر نفسه ، ص٢٣٢ .

(٤) راجع : الجزء الأول من هذا الفصل . ابن الأثير : الكامل ، جـ١٢ ، ص٢٠٠ .

لإثارة حماس الجنود فى الحرب[1] ، بل ولاشراك البعض منهم فى القتال خصوصاً إذا كانوا متمرسين بفنون الحرب مثل الفقيه عيسى الهكارى[2] (ت ٥٨٥هـ/ ١١٨٩م) الذى أبلى بلاء حسنا فى محاربة الصليبيين مع صلاح الدين فى سواحل الشام .

وكما اعتاد السلاجقة تكريم العلماء ، ووضعهم فى الأماكن والمناصب الهامة ، وإجراء الرواتب عليهم وابعاث بعضهم إلى الأمصار الخالية من العلم[3] ، فكذلك فعل صلاح الدين حتى وصل نفوذ بعض رجال الدين من العلماء درجة كبيرة فى العصر الأيوبى فى مصر ، مثل أولاد شيخ الشيوخ بن حمويه من أكابر دولة الملك الكامل صاحب مصر ، وكان معين الدين بن حمويه يباشر التدريس ويتقدم على الجيش[4] .

ولقد ازداد دور العلماء ونفوذهم فى العصر السلجوقى مع تقلص دور الخلفاء العباسيين فى الزود عن الرعية وحقوقهم ، بحيث أصبح العلماء حماة حقوق الشعب والدين الإسلامى أمام سطوة السلاطين فمنهم من أقنع السلطان بإسقاط المكوس عن الشعب كالواعظ ابن العبادى[5] ، ومنهم من ثار على اخطاء السلاطين فى حق البلاد

---

(١) مثل الشيخ الصوفى أبو الحسن الشاذلى الذى كان على رأس علماء المنصورة فى تثبيت الحمية فى نفوس الجند والمحاربين .
راجع : الشيال : أعلام الاسكندرية ، ص١٨٢ .

(٣) كان عيسى الهكارى مدرسا فى المدرسة الزجاجية فى حلب وعمل رسولا بين شيركوه وشاور فى مصر (٥٥٦هـ/١١٦٠م) علما بأن المدرسة الزجاجية هى التى دفن فيها عماد الدين زنكى والد آق سنقر .
راجع :
ابن العديم : المصدر السابق جـ٢ ص١١٣ .
ابن خلكان : المصدر السابق م٣ ص٤٩٧ .
ابن تغرى بردى : النجوم جـ٥ هامش ص٣٥٢ .
فقد ساهم كثيرا الوزير السلجوقى نظام الملك فى رفع مكانة وأهمية رجال الدين ، فإذا سمع عن تميز أحد العلماء وتبحره بنى له مدرسة ورصد له الراتب وأغناه ، حتى ينقطع لإفادة العلم ونشره ، وأحيانا كان يرسل العالم المتميز إلى بلد خال من العلم « فيحلى به عاطله » .
راجع : نظام الملك : المصدر السابق ، ص٥٩ .
ابن خلكان : المصدر السابق ، ص٥٩ .
ابن خلكان : المصدر السابق ، م٢ ص١٢٩ .

(٤) أبى الفدا : المصدر السابق ، جـ٣ ص١٦٩ .

(٥) السيوطى : تاريخ الخلفا ، ص ٤٣٨ ـ ٤٣٩ .

والعباد كالثورة التى قادها بابا إسحق سنة ٦٣٧هـ/ ١٢٣٩م[١]. ولقد انتقل هذا الدور المتنامي لرجال الدين والعلماء إلى مصر الأيوبية ، فوجدنا سلاطين بنى أيوب يحرصون على أخذ موافقة رجال الدين فى الأمور التى قد تحسب ضدهم فى حق البلاد والعباد، فعندما احتاج السلطان العزيز مجرد الاقتراض من مال الأيتام (المواريث) لينفق على حرب الفرنجة ـ وهى مهمة قومية دينية ـ لم يتجرأ على اتخاذ هذه الخطوة إلا بعد أخذ موافقة قاضى القضاة زين الدين على بن يوسف الدمشقى (٥٩٠هـ/ ١١٩٣م) الذى وافق أمام الشهود[٢]. وقد جاء الشيخ العز بن عبد السلام هربا من دمشق إلى القاهرة من سلطانها الصالح إسماعيل بن الكامل ، لأنه أنكر عليه تسليمه حصن شقيف إلى الفرنجة ، وأمر بإسقاط الدعاء له من الخطبة ولما قدم مصر رحب به السلطان الصالح نجم الدين وأسند إليه القضاء والخطابة بمصر سنة ٦٣٩هـ/ ١١٤٤م[٣] وعندما توجه السلطان الصالح أيوب لقتال الفرنجة صحب معه العز بن عبد السلام (سلطان العلماء) الذى دعا على الفرنجة ، فهبت ريح سوداء على مراكب الفرنجة فكسرتها وغرق معظمهم فى البحر وانتصر الصالح على الفرنجة[٤]. واستطاع العز بن عبد السلام أن يقف ضد كثير من الأمور الظالمة التى ارتكبها مماليك بنى أيوب[٥].

---

(١) المقريزى : السلوك ، جـ١ ق١ ص٣٠٧ .

(٢) أبى شامة : الذيل على الروضتين ، ص١٧٠ .

أبى الفدا : المصدر السابق جـ٣ ص١٧٧ .

(٣) ابن إياس : المصدر السابق ، جـ١ ، ص٢٧٣ ، ٢٧٤ .

السيوطى : حسن المحاضرة ، جـ٢ ص١٦١ .

(٤) ابن إياس : المصدر السابق ، جـ١ ص٢٨٠ ـ ٢٨١ .

(٥) السيوطى : حسن المحاضرة جـ٢ ، ص ١٦٢ ـ ١٦٣ .

ابن إياس : المصدر السابق جـ١ ، ص٢٧٣ : ٢٧٤ .

المجادلات والمناظرات العلمية وتأثيرتها الحضارية :

سبق أن عرفت المجادلات والمناظرات العلمية قبل ظهور السلاجقة[1] لكنها بفضل إنشاء المدارس النظامية كانت أكثر انتشاراً فى عصر السلاجقة لعدة أسباب منها : أن السلاجقة كانوا يختارون بعض المدرسين للتدريس فى تلك المدارس ممن ذاع صيتهم وتفوقهم فى المناظرات العلمية .

فعندما أعجب نظام الملك بتفوق الغزالى على مناظرية ، عهد إليه بالتدريس فى النظامية ، واعجب به أهل الطرق[2]. بحيث صارت المناظرات العلمية من المواد الدراسية الهامة ضمن مناهج التدريس فى نظاميات السلاجقة فقد ذكر ابن خلكان[3] : أن نظام الملك عهد بنظامية نيسابور للإمام الجوينى[4] ليجلس للخطابة بها وللوعظ والمناظرة .

ومن أسباب انتشار المناظرات العلمية فى عصر السلاجقة أيضاً كثرة المدارس التى شيدت للمذاهب الأربعة ، وكان علماء هذه المذاهب يدخلون بين بعضهم البعض فى مناظرات شديدة قد تصل إلى حد حدوث الفتن والاضطرابات فعلى الرغم من أن هذه المناظرات كانت تتناول موضوعات متعددة من النحو والصرف واللغة ، لكن أكثر ما كان يؤدى منها إلى التخريب والفتن هى المناظرات التى تدور حول الفقه والمسائل الدينية ، ومثال ذلك الفتنة التى حدثت سنة ٤٨٩هـ/ ١٠٩٥م عندما اتفق الشافعية

---

(١) عرفت المناظرات العلمية منذ أقدم العصور ، وفى المسيحية كمناظرات يوحنا الدمشقي وتيودر . وفى العصر الإسلامى ذات صيت مناظرات الخليفة المأمون فقد خصص لها يوما فى الأسبوع لمناظرة العلماء والفقهاء والمتكلمين .

الغزالى : « أبى حامد محمد بن محمد بن محمد » (ت٥٠٥هـ/١١١١م) .

ـ التبر المسبوك فى نصائح الملوك ، مطبعة الآداب والمؤيد بمصر والقاهرة سنة ١٣١٧هـ ، ص١١٦ .

ـ فازيليف : المرجع السابق ، ص ١٣ .

(٢) أبو شامة : الروضتين ، جـ١ ص٢٥ .

(٣) ابن خلكان : المصدر السابق م٣ ص١٦٨ .

(٤) راجع :

ابن خلكان : المصدر نفسه ، م٣ ص١٦٧ ـ ١٦٨ .

محمد بن عثمان حربى (د.) : أبو المعالى الجوينى وأثره فى علم الكلام ، بيروت ١٩٨٦ ، ص٢٩ .

والحنفية على الكرامية[١] ـ من علماء الكلام ـ بخصوص مسألة صفات الله ، وفيها خربت كثير من المدارس وقتل كثير من الطرفين[٢] ، والفتنة التى حدثت أيام السلطان سنجر السلجوقى بين الشافعية والحنفية وقتل فيها حوالى سبعون رجلا من الحنفية[٣] ، والمصادر تمتلئ بأمثال هذه المناظرات التى تؤدى إلى حد الفتن والاضطرابات[٤] .

وكان من أهم أسباب تشجيع السلاجقة على انتشار المناظرات العلمية ، هو اتخاذها وسيلة هامة من الوسائل العقلية المنظمة والفعالة فى نفس الوقت للرد على معتنقى المذهب الشيعى والإقلال من شأن مذهبهم ، ومن أمثال ذلك أن السلطان ملكشاه السلجوقى قد استدعى الغزالى ليناظر رئيس الشيعة الإسماعيلية ـ الحسن بن الصباح[٥] ـ فناظرهم وأجاب على مسائلهم وألف فى ذلك كتابا للرد عليهم بعنوان:

---

(١) الكرامية : هم أصحاب أبى عبد الله بن كرام (سجستان بنيسابور) (ت٢٥٥هـ/٨٦٨م) .
ومن آرائهم تجسيم صفات الله عز وجل ، بحيث وصف بن كرام معبوده ـ الله ـ فى بعض كتبه بأنه جوهر ، كما زعمت النصارى أن لله جوهر .
الشهرستانى : المصدر السابق جـ١ ص٩٢ ـ ١٠٨ ، هامش ١ ص ١٠٨ .

(٢) ابن الأثير : الكامل ، جـ١٠ ص٢٥١ .

(٣) الحسينى : المصدر السابق ، ص ٢٣٤ .

(٤) راجع :
ابن الأثير : الكامل جـ١٠ ص١٢٤ .
ابن خلكان : المصدر السابق ك٢ ص٢٠٨ .
ابن الوردى : المصدر السابق جـ١ ص٣٨٠ .
الاصفهانى : المصدر السابق ، ص٥٤ .
السيوطى : تاريخ الخلفاء ص٤٢٤ .
العماد الحنبلى : المصدر السابق جـ٣ ص٣٢٢ .

(٥) الحسن بن الصباح : أحد دعاة الشيعة الفواطم أعتبر نفسه بمنزلة الإله الذى شغله القصاص من الظالمين للمظلومين ، وأنفذ أوامره بالقتال منهم حتى لو كان خليفة أو سلطان ، واقنع جماعته بأن شارب الحشيش يذوق جميع لذات الفردوس ، واستطاع عن طريقهم أن ينفذ القتل والنهب . ولذلك أطلق عليهم اسم « فرقة الحشاشيين » ، راجع :
نظام الملك : المصدر السابق ، ص١٠ .
ابن ميسر : المصدر السابق ، ص ٤٩ هامش ١٩٩ .
الاصفهانى : المصدر السابق ، ص١٥٧ .
حربى أمين : المرجع السابق ، ص ٢٦٠ ، ٢٦٢ ، ٢٦٣ .
ميديو /
ـ خلاصة تاريخ العالم ، بيروت (الطبعة الثانية ١٤٠٠هـ) / ١٣٨٥ .

« المستظهرى فى الرد على الباطنية »[1].

لذا فقد أدت أمثال هذا المناظرات بخاصة بين الشيعة والسنة إلى كثير من الفتن والاضطرابات[2] .

أما فى مصر فى العصر الفاطمى ، فلم تكن أمثال هذه المناظرات تجد تشجيعًا لها وليس أدل على ذلك من أن المناظرات عندما بدأت تدور فى دار العلم أو الحكمة بالقاهرة ، أسرع الفاطميون بإغلاقها ، وإخراج المتنافسين منها .

وكان من نتائج تأثر صلاح الدين بالوسائل التى انتهجها السلاجقة فى الشرق لرفع العلم عن طريق بناء المدارس ، أن جعل أيضًا المناظرات من أهم المواد التى تدرس فى المدارس .

وكان أشهر من ذاع صيتهم فى المناظرات العلمية التى تصل إلى حد إحداث الفتن فى مصر فى العصر الأيوبى ، هم علماء وافدين من حواضر السلاجقة ، وخاصة من العنصر الفارسى (الإيرانى) مثل الخبوشانى الذى كان كثير الفتن منذ دخوله مصر إلى أن مات بها ، بسبب مجادلته وتكفيره للحنابلة كابن الصابونى وزين الدين بن نجيه ، يكفرونه ويكفرهم[3] ، وأيضًا الشهاب الطوسى الذى أحدث (سنة ٥٨٠هـ/ ١١٨٤م) الفتن بين الأشاعرة والحنابلة لأنه ينكر بعض المسائل فى علم الكلام على الحنابلة[4] .

وظهر أثر المناظرات العلمية والجدلية فى تراث علمى وصلنا من العصر الأيوبى ، مثل المصنف الذى خلفه لنا الملك المعظم عيسى (ت ٦٢٤هـ/ ١١٢٦م) الذى

---

(١) « والمستظهرى فى الرد على الباطنية » نشرة أغناطيوس جولدتسيهر فى ليدن ١٩١٦م ، وهناك طبعة أخرى عليها تعليق د. عبد الرحمن بدوى بعنوان : « مؤلفات الغزالى » طبعة القاهرة » ١٩٦٤ .

(٢) راجع : أبو شامة : الذيل على الروضتين ، ص٦ .
ابن الأثير : الكامل جـ١٠ ص٥٢٢ .
ابى الفدا / المصدر السابق جـ٢ ص٢٨ .
ابن تغرى بردى : النجوم ، جـ٥ ص ٥٠ ، ٢٠١ ، ٢٠٢ .

(٢) المقريزى : الخطط جـ١ ص٤٥٩ .

(٣) ابن تغرى بردى : النجوم ، جـ٦ ص١١٦

(٤) المقريزى : السلوك جـ١ ق١ ص٨٨ .

اعتنق المذهب الحنفى وتعصب له ، وصنف كتابا سماه : « السهم المصيب فى الرد على الخطيب البغدادى أبى بكر أحمد بن ثابت فيما تكلم به فى حق أبى حنيفة فى تاريخ بغداد »[1] وكـان السلطان الملك الكامل (ت ٦٣٥هـ/ ١٢٣٧م) يناظر العلماء ، ويمنحهم فمن أجاب قدمه وحظى عنده ، وكان يعقد كل ليلة جمعة مجلسا لأهل العلم عنده ويجلس معهم للمباحثة[2] وكان السلطان المعظم تورانشاه يجادل العلماء ويناظرهم فى القاهرة (٦٤٧هـ/ ١٢٤٩م) ، وخاصة مع الشيخ العز ابن عبد السلام ، والشريف عماد الدين ، وسراج الدين الأموى ، وغيرهم[3].

الفلسفة :

حارب السلاجقة الفلسفة حرباً شديدة بل شجعوا علماء عصرهم على وضع المؤلفات لتكفيرهم مثل أبى حامد الغزالى الذى جادل الفلاسفة فى كتابه « تهافت الفلاسفة »[4]. وفى كتابه « المنقذ من الظلال »[5] إذ وضع بياناً مفصلا لأصناف الفلاسفة وانتهى إلى تكفيرهم فى ثلاث نظريات فلسفية[6]، الأمر الذى حد من تطور الفلسفة فى ذلك العصر ، لأن من أسباب كراهيتهم للفلسفة ، أن الفاطميين شجعوا

---

(١) المقريزى : السلوك جـ١ ق١ ص٢٢٤ .

حاجى خليفة : المصدر السابق جـ١ ص ١٠١٠ .

(٢) المقريزى : السلوك جـ١ ق١ ص٢٦٠ .

(٣) المقريزى : السلوك جـ١ ق٢ ص٣٥٤ .

(٤) « تهافت الفلاسفة » : اطلعت على الطبعة الثانية الصادرة من بيروت ١٩٦٢م .

(٥) « المنقذ من الضلال » ، اطلعت على طبعة صادرة عن بيروت بتحقيق محمد محمد جابر سنة ١٩٨٧ .

راجع اصناف الفلاسفة كما ذكرها الغزالى : المصدر المشار إليه ، ص ١٢ ، ١٨ : ٢٢ .

وهناك طبعة أخرى من هذا المصدر حققها د. عبد الحليم محمود صادرة فى القاهرة ١٩٧٩م .

(٦) النظريات الفلسفية الثلاث هى : نظرية قدم العالم ، والقول بأن الله لا يعلم إلا الكليات فلا يعنى بالجزئيات ، وانكار بعث الأجساد والقول بأن الأرواح وحدها هى التى لا يجوز عليها الفناء .

الغزالى : المنقذ من الضلال ، ص١٨ : ٢٢ .

راجع : دى بور : المرجع السابق ، ص ٣٥٥ .

الفلسفة تشجيعًا كبيراً وجعلوا من الفلسفة اليونانية الأسلوب الفكرى لتأييد وجهة نظرهم فى المذهب الشيعى والعمل على سرعة انتشاره[1].

وعندما ملك صلاح الدين مصر حذا حذو السلاجقة فى كراهية الفلسفة ومتكلمى المعتزلة ، بل وصلت كراهيته إلى حد قتلهم فعندما بلغ السلطان صلاح الدين أن يحيى بن حبش أبى الفتوح شهاب الدين السهروردى (٥٤٩ ـ ٥٨٧هـ / ١١٥٤ ـ ١١٩١م) معاند للشرائع يستفيد من الفلسفة اليونانية والافلاطونية صاحب حكمه الاستشراق ، ورغم عمق مذهبه ، فإن صلاح الدين قد أمر بقتله ولقب «بالمقتول»[2] والشيخ سيف الدين الأمدى (٥٥١ ـ ٦٣١هـ/ ١١٥٦ ـ ١٢٣٣م) الذى تصدر بالجامع والمدرسة المجاورة لتربة الشافعى ، اتهم بانحلال العقيدة ومذهب الفلاسفة ، وعمل الفقهاء محضراً بذلك ، فاضطر إلى الهرب إلى حماة حيث توفى بدمشق[3]. أيضًا اتهم كمال الدين بن يونس (ت ٦٣٩هـ/ ١٢٤١م) فى دينه لكون العلوم العقلية غالبة عليه ، وكانت تعتريه غفلة لاستيلاء الفكرة عليه[4].

ومن الآثار التى ترتبت على كراهية الأيوبيين فى مصر للفلسفة والفلاسفة أن تأخرت العلوم الفلسفية فى العصر الأيوبى[5]، رغم ازدهارها فى العصر الفاطمى .

---

(١) ذكر المقريزى إن دعاة الفاطميين يتدرجون مع الناس فى توصيل تعاليم مذهبهم الشيعى ، فإذا تحققوا من وصول المرحلة الأولى إليهم ، أحالوهم بعد ذلك إلى ما تقرر فى كتب الفلاسفة من علم الطبيعيات والعلم الإلهى وغير ذلك من أقسام الفلسفة .
الخطط ، جـ١ ص٣٩٤ ـ ٣٩٥ .

(٢) أبو الوفا التفتازانى : المدخل إلى التصوف : ص٢٣٣ ، ٢٣٤ ، ٢٣٥ .
كارل بروكلمان : المرجع السابق ، ص٣٥٩ ـ ٣٦٠ .
شاخت وبوزورث : المرجع السابق ، جـ٢ ص٢٤٣ .

(٣) ابن خلكان : المصدر الساق ، م٢ ص٢٩٤ .
أبى الفدا : المصدر السابق ، م٣ ص١٦٣ .

(٤) أبى الفدا : المصدر نفسه م٣ ص١٧٨ .

(٥) راجع : قاسم عبده قاسم : ماهية الحروب الصليبية ، ص٢٠٨ ـ ٢٠٩ .

ظاهرة حب الأشخاص لتخليد ذكرهم من خلال المؤلفات الأدبية :

من أهم الظواهر الحضارية والملفتة للنظر فيما ألف فى عصر السلاجقة هو انتشار ظاهرة حب الأشخاص لتخليد ذكرهم والتى أفصحت عنها مؤلفات ذلك العصر ، بمعنى أن عدداً كبيراً من هذه المؤلفات عنون بأسماء منعوتة على ألقاب السلاطين والوزراء السلاجقة الذين عملت لهم أو بأمرهم .

وقد سبق عصر السلاجقة وجود نماذج متفرقة[١] لهذه الظاهرة خلال العصر الإسلامى ، ولكنها كثرت فى عصر السلاجقة بحيث أصبحت من الظواهر الحضارية مثل كتاب « العمدة » فى الفقه الذى صنفه أبو بكر الشاش للخليفة المسترشد بالله العباسى (تولى الخلافة سنة ٥١٢هـ/ ١١١٨م)[٢] وكان يلقب « بعمدة الدنيا والدين » وهو اللقب الذى نعت عليه اسم الكتاب كما ألف الجوينى (٤١٩- ٤٧٨هـ/ ١٠٢٨ - ١٠٨٥م) كتابا فى العقائد الإسلامية اسماه : « النظامية فى الأركان الإسلامية »[٣] . نسبة إلى لقب الوزير السلجوقى « نظام الملك » ويتضمن عقائد الإسلام وأحكام الصلاة والصيام والزكاة والحج . كما وضع علماء الفلك فى عصر السلطان جلال الدين ملكشاه (١٠٧٢ - ١٠٩٢م) كتابا عن الفلك بعنوان «مبدأ حساب التاريخ الجلالى » نسبة إلى لقب السلطان السلجوقى وإلى المرصد العظيم الذى أنشأه لتصحيح التقويم الفلكى[٤] .

---

(١) فقد صنف ابن زولاق كتابا اسماه « العيون الدعج فى حلى دولة بنى طغج » فهو منعوت على اسم محمد بن طغج الأخشيد . وكتب أبو نصر العتبى (ت٤٢٨هـ/١٠٣٦م) كتابا فى التاريخ عنوانه «تاريخ اليمينى» نسبة إلى لقب « يمين الدولة » الذى كان ينعت به السلطان محمود الغزنوى ، ويحكى سيرته الذاتية . وقد طبع هذا المخطوط فى القاهرة فى جزئين سنة ١٢٨٦هـ .

(٢) السيوطى : تاريخ الخلفاء ، ص ٤٣٢ .

العماد الحنبلى : المصدر السابق ، جـ٣ ص ٨٧ .

(٣) يحتفظ معهد المخطوطات العربية بالقاهرة بصورة ميكروفيلم لهذا المخطوط برقم « ١٢٣٧ » عن المخطوط الأصلى المحفوظ فى مكتبة أحمد الثالث باستانبول . وقد قام بنشر المخطوط وتحقيقه د. أحمد حجازى السقا ، ونشر فى القاهرة ١٩٨٧م بعنوان « العقيدة النظامية » .

(٤) بلغ اهتمام السلاجقة بأمر الملك أن شيد ملكشاه المرصد المذكور وجمع له أفاضل العلماء الذين صححوا التقويم الفارسى القديم « الرزنامة » ووجدوا فى كل ١٦١ سنة ، ٣٩ سنة كبيسة ، وليس ثمانى سنوات كبيسة فى كل ٣٣ سنة كما فعل الفرغ ، ووجدوا أن متوسط السنة ٣٦٥ يوما منذ ألفين وأربعمائة واثنين وعشرين سنة (٢٤٢٢) ، وصححوا خطأ حساب السنة الفارسية وقدره يوما =

كما ألف القاضى عمر بن سهلان الساوجى كتابا سماه : « بصائر نصيرى » ، أو البصائر النصيرية فى المناطق والحكمة نسبة لاسم الوزير : نصير الدين المظفر الخوارزمى الطوسى ، وزير السلطان سنجر السلجوقى ٥٢١هـ/ ١١٢٧م ، لأن هذا الوزير كان من المتبحرين فى العلوم العقلية والنقلية[1] .

وقد انتشر هذا النهج فى المؤلفات العلمية فى مصر فى العصر الأيوبى ، لأن أكثر من كتبوا للأيوبيين تلقوا تعليمهم فى عقر دار الحضارة السلجوقية وعلى يد علماء عصرهم . ففى التاريخ وضع شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل المقدسى (ت ٦٦٥هـ/ ١٢٦٦م) كتاب : « الروضتين فى أخبار الدولتين النورية والصلاحية »[2] أى وضع له عنوانًا منعوتا على لقب من أرخ لهما وهما مؤسسا الدولتين المشار إليهما : نور الدين زنكى ، وصلاح الدين الأيوبى[3] .

وصنف بهاء الدين يوسف بن رافع (ت ٦٣٢هـ/ ١٢٣٤م) كتاب « النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية » مقرونا باسم السلطان صلاح الدين « يوسف بن أيوب »

= فى كل عشرة آلاف سنة ، ووجدوا فى حساب السنة الغريغورية خطأ قدره ٣ أيام كل عشرة آلاف سنة وأطلق على هذا التصحيح أيضًا « التقويم الجلالى » . راجع : سيديو : المرجع السابق ، ص ٢١٦ ، ٢١٨ ، ١٣١ .

Hartner (W.) : The Pseudoplanetary Nods of the Moon's or bit in Hinduand Islamic Iconographies (Ars Islamica, vol V, pl. 2), Lig 13, 14 .

(٢) ترجم هذا الكتاب المؤلف الانجليزى : M. Wickens بعنوان : (The Nasirean Ethics) «وطبع فى لندن ١٩٦٤م» .

(٣) حقق الجزء الأول من كتاب الروضتين فى قسمين الدكتور محمد حلمى أحمد وطبع فى القاهرة ١٩٦٢م . وحقق كتاب « الذيل على الروضتين » عزت العطار وطبع فى القاهرة ١٩٤٧م .
يتناول كتاب الروضتين التاريخ السياسى والحربى بوجه خاص للدولتين الزنكية فى الشام ، والأيوبية فى مصر ، كما يتعرض فى سياق الأحداث لعلاقاتهما بالسلاجقة . وفيه نصائح لأمراء العصر من خلال تمجيده لصلاح الدين .
راجع :
محمد حلمى محمد أحمد : « الحياة العلمية فى مصر والشام بين ١١٢٧ ـ ١٢٥٠م» .
(المجلة التاريخية م١٧ لسنة ١٩٥٨) ، ص١٩ .

وتناول فيه بصفة خاصة سيرة صلاح الدين الذاتية(١) كما ألف الناصر داود الأيوبى كتابا منسوبًا إلى لقبه سماه « الفوائد الحلبية فى الفرائد الناصرية » وتحدث فى أحد فصوله عن الأسرة الأيوبية(٢)، كما ألف بن واصل كتاب « التاريخ الصلاحى » منسوبًا إلى لقب السلطان الصالح نجم الدين أيوب . وهو تاريخ عام مختصر أرخ فيه ابن واصل للعالم منذ عهد الرسول إلى السنة التى تولى فيها الصالح عرش مصر(٣).

وظهرت فى العصر الأيوبى كذلك مؤلفات معنونة بأسماء الدول التى كتبت لها على غرار ما عرف فى تاريخ السلاجقة ، فمثلما كتب العماد الأصفهانى (ت ٥٩٧هـ/ ١٢٠٠م) تاريخه بعنوان « تاريخ آل سلجوق »(٤)، وصلنا من العصر الأيوبى مصنفا « بعنوان » شفاء القلوب فى مناقب بنى أيوب » من تأليف أحمد بن إبراهيم بن نصر الله(٥).

كما كتب جمال الدين محمد بن سالم بن واصل تاريخًا للأيوبيين فى مصنف بعنوان « مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب »(٦) تناول فيه تاريخ الأيوبيين ممزوجا بالأشعار الأدبية

هذا بخلاف المؤلفات التى كانت تكتب وتهدى للسلاطين مثل كتاب «سياست نامه» الذى ألفه نظام الملك للسلطان ملكشاه(٧)، وألف الغزالى كتاب «نصيحة الملوك»

---

(١) « النوادر السلطانية » حققه د. جمال الدين الشيال فى القاهرة ١٩٦٤م عن المخطوط المحفوظ بالمتحف البريطانى برقم (3027) ومن الذين تناولوا سيرة صلاح الدين فى مصنفاتهم الأصفهانى فى مؤلفه « سنا البرق الشامى » والذى اختصره البغدادى وحققته د. فتحية النبراوى فى القاهرة / ١٩٧٩م .

(٢) محمد حلمى محمد أحمد : المرجع السابق ، ص ١٨ ـ ١٩ .

(٣) ابن واصل : المصدر نفسه ، جـ١ هامش ٣ ص٢٠٤ .

(٤) اشرنا إليه ضمن مصادر البحث .

(٥) أشرنا إليه ضمن مصادر البحث .

(٦) أشرنا إليه ضمن مصادر البحث .

(٧) أشرنا إليه ضمن مصادر البحث .

للسلطان السلجوقى محمد بن ملكشاه . وفى العصر الأيوبى ، ألف الإمام فخر الدين الرازى[1] كتاب « تأسيس التقديس » فى بلاد خراسان ، وأرسله للملك الكامل فى مصر سنة ٥٩٧هـ/ ١٢٠٠م).

٧ ـ مظاهر التأثيرات السلجوقية فى الحضارة الأيوبية اجتماعيا بمصر :

ـ ظهور دور المرأة سياسيا وإداريا :ـ

الحياة الاجتماعية فى تنوعها وغنى روابطها وتشابكها ، وعاء تتمثل فيه جوانب هامة من التراث الحضارى ، سواء كان هذا التراث محليا خالصًا ، أو متأثرًا بتيارات وافدة إليه من خارجه ، ولا شك أن سيطرة العناصر التركية من السلاجقة وأتابكتهم على مقاليد الحكم فى الشرق ، كانت سببا كافيا فى حد ذاته ، لاحداث تغييرات حضارية انعكست على الجوانب الاجتماعية ، وإن ظلت العناصر المحلية الثقافية والاجتماعية عاملة بأصلتها على الاحتفاظ بقدر ظاهر من خصائص الطابع المحلى .

وهكذا يمكننا القول ـ أنه بالنسبة للحياة الاجتماعية ـ فقد ظل تأثير العنصر التركى فى الشرق مقصوراً تقريباً على رأس الهرم الطبقى الاجتماعى ، أى على الطبقة التى غلب عليها العنصر التركى وأهم ما تميزت به طبقة الأتراك الحاكمة فى الشرق السلجوقى هو ظهور دور المرأة على مسرح الأحداث السياسية بصورة واضحة وبارزة عن

---

(١) الرازى : ولد بخراسان سنة ١١٤٨/٥٤٣م وتوفى سنة ٦٠٦هـ / ١٢٠٩م وكان شافعى المذهب وله عديد من المصنفات المشهورة فى علم الكلام والمنطق والتفسير ، وغيره ، سافر إلى خوارزم وما وراء النهر ، وجادل الكرامية وجعل أميرهم شافعيا ، وكان العلماء يقصدونه من شتى البلاد . ابن خلكان: المصدر السابق جـ٤ ص٢٤٨ ترجمة رقم ٦٠٠ .
راجع :
أبى الفدا : المصدر السابق ، جـ٣ ص١١٨ .
المقريزى : السلوك جـ١ ق١ ص١٩٤ .
ابن تغرى بردى : النجوم ، جـ٦ ص١٦٣ ، ١٩٨ .
الرازى : اعتقادات فرق المسلمين والمشركين ،نشره ومعه كتاب « المرشد الأمين » . طه عبد الرؤوف سعد ، مصطفى الهوارى . مكتبة الكليات الأزهرية ، ١٩٧٨ ، ص٣ : ١٢ .

باقى العصور الإسلامية السابقة[1]، وذلك بسبب كثرة المواقف السياسية التى ، ذكرت فى المصادر ، وكانت المرأة التركية هى المسيطرة عليها .

فقد تميزت المرأة التركية كما وصفها أحد الرحالة[2] العرب « بالكلمة النافذة ». هذا التمييز للمرأة التركية ساعد على إبرازه تعظيم سلاطين السلاجقة أنفسهم للمرأة، فعندما تزوج السلطان طغرلبك من ابنة الخليفة القائم بأمر الله العباسى سنة ٤٤٥هـ/ ١٠٦٣م قبل الأرض لها[3]، وهو الذى لا يقبل الأرض إلا للخليفة العباسى وشاع عن السلطان السلجوقى « ملكشاه » أنه كان مع عظمته يقف للمرأة[4]. أما المواقف السياسية التى برز فيها دور المرأة التركية ، فمن أمثلتها بل ومن أهمها أن الباعث على خروج « سلجوق من موطنه الأصلى فى وسط آسيا فيما يذكر الحسينى[5] : أن امرأة ملك الترك بيغو كانت تخوفه من الأمير سلجوق وتحرضه على قتله ، فدفعه خوفه من القتل إلى الرحيل إلى ديار الإسلام .

وساندت الخاتون الترنجان زوجها السلطان طغرلبك فى حروبه عندما حاصره أخوه ينال فى همدان ، فسارت إليه مع الوزير الكندرى لانجازه ، وتم له النصر بالفعل على أخيه[6]. ووصل تسلط « كوهر خاتون أخت السلطان ألب أرسلان ، أن الوزير

---

(١) توجد حوادث فردية خلال التاريخ تدل على تسلط النساء فى أمور السياسة مثل امرأة فرعون وتسلط سودابة على زوجها كيكاوس فى العصر الساسانى ، وفى العصر الإسلامى عرف تسلط أم الخليفة المعتصم بالله العباسى ، وأم مجد الدولة البويهى . وفى العصر الفاطمى فى مصر تسلطت ست الملك وساعدت الظاهر لدين الله أن يتولى الخلافة ، وتدخلت أم الخليفة المستنصر بالله فى تولية الوزراء وعزلهم .
نظام الملك : المصدر السابق ، ص ٢٢٣ ـ ٢٢٥ .
المقريزى : اتعاظ الحنفا ، جـ٢ ص١٨ .
جورجى زيدان : المرجع السابق جـ٤ ص١٨٦ .

(٢) ابن بطوطة :المصدر السابق ، جـ١ ص١٧١ .

(٣) ابن كثير : المصدر السابق ، جـ١٢ ص٨٨ .
العينى : السيف المهند ، ص ١٧٢ .

(٤) العينى : المصدر نفسه ، ص١٧٥ .

(٥) المصدر السابق ، ص٢٣ ، هامش ٣ ص٢٤ .

(٦) ابن القلانسى : المصدر السابق ص٨٨ .
ابن كثير : المصدر السابق جـ١٢ ص٧٧ .

السلجوقى على عظمته كان يخشى منها لدرجة أنه أشار على ملكشاه بقتلها ، وقتلها بالفعل وحزن عليها أهل بغداد[1] . فقد استطاعت بدهائها أن تستعيد السلطنة لأخيها مغيث الدين ابن ملكشاه[2] . وكان للمرأة السلجوقية الديوان والوزير والإقطاعات وبناء المدارس منعوتة على أسمائهن[3] . ويحتمل أن الذى ساعد على أن تلعب المرأة التركية دوراً على مسرح الأحداث ، الاهتمام بتعليم المرأة فى ذلك العصر ، فقد كان يسمح لهن بحضور مجالس الوعظ فى المدارس أسوة بالرجال دون ضرورة أن يذهب إليهن الواعد خلف الستار فقد ذكر ابن تغرى بردى[4] : أن درس الواعظ أرد شير بن منصور العبادى (٤٩٦هـ ـ ١١٠٢م) كان يحضره فى نظامية مرو أبو حامد الغزالى وحوالى ثلاثون من الرجال والنساء .

وقد سبقت الإشارة إلى أمثلة قليلة على دور المرأة طوال العصر الفاطمى ، والذى مكث قرابة قرنين من الزمان فى حكم مصر ٣٥٨ ـ ٥٦٧هـ/ ٩٦٩ ـ ١١٧١م) إلا أن سفور دور المرأة السلجوقية وخاصة على مسرح الأحداث السياسية قد انعكس أثره على المرأة فى العصر الأيوبى ، رغم قصر الفترة التى حكم فيها الأيوبيون مصر وكان السلطان صلاح الدين يجل المرأة ويحترمها ويقبل شفاعتها ، ولذلك اتخذ كثير من الملوك المرأة فى الوساطة السياسية بينهم وبين صلاح الدين ومثال ذلك عندما أرسل عماد الدين زنكى أخته لعمل الصلح بينه وبين صلاح الدين الذى أكرمها إكراماً عظيماً ، وقدم لها أشياء كثيرة وأطلق لها قلعة عزاز وجميع مالها من مال وسلاح وميره وغير ذلك ويقال أن صلاح الدين قام قائما لها وقبل الأرض لها ، وبناء على وساطتها ، اتفق صلاح الدين مع عماد الدين زنكى أن تكون للأول حماة وما منحه إلى مصر ، وتكون باقى البلاد الحلبية للصالح[5] .

---

(١) ابن تغرى بردى : النجوم جـ٥ ص١٠٠ .

(٢) الحنبلى : المصدر السابق ص١٣١ .

وسوف نعرض مواقف أخرى للمرأة السلجوقية من خلال عقد المقارنات .

(٣) تم توضيح بعض هذه المميزات فى أماكن أخرى من الرسالة لها نفس العناوين .

راجع : الاصفهانى : المصدر السابق ، ص ٩٧ .

(٤) النجوم ، جـ٥ ، ص١٨٦ .

(٥) أبو شامة : الروضتين ، جـ١ ص٢٦١ .

ابن تغرى بردى : النجوم ، جـ٦ ص٧٦ .

وذاع عن زوجة صلاح الدين وهى « عصمت الدين خاتون بنت معين الدين ابن انر » ـ أرملة نور الدين زنكى ـ توفيت ٥٨٠هـ/ ١١٨٤م) حدة الذكاء ونفاذ البصيرة ، فكانت لها المكانة عند زوجها حتى أنه كان يصدر عن رأيها وهى التى أنشأت العمائر منسوبة إلى لقبها[١] .

وعندما فتح صلاح الدين حصن ميافارقين سنة ٥٨١هـ/ ١١٨٥م، جعل مدبره البلد الخاتون بنت قرا أرسلان زوجة قطب الدين سقمان الثانى الارتقى كما أفرد لها ما كان من المواضع ، وخطب إحدى بناتها لابنه المعز فتح الدين إسحق[٢] .

واشتُهر عن ربيعة خاتون بنت أيوب ٦٤٣هـ/ ١٢٤٥م باحترام الملوك لها[٣] واستطاعت غازية خاتون بنت الكامل محمد بن العادل (ت ٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م) ، بدهائها أن تحفظ الملك لولدها الملك المنصور حتى كبر وسلمت إليه الحكم[٤] ، ومثلما فعلت تركان خاتون زوجة ملكشاه التى حفظت الملك لابنها محمود سنة ٤٨٥هـ/ ١٠٩٢م . وتملكت صفية خاتون ابنة العادل صاحب حلب ، بعد وفاة ابنها العزيز . وتصرفت فى الملك تصرف السلاطين ، وقامت على الملك أحسن قيام (ت ٦٤٠هـ/ ١٢٤٢م) . وكان لها مماليك نسبت إلى لقبها ، فعرفت « بالمماليك

= هناك مواقف أخرى عن دور المرأة فى الوساطة السياسية والتى كانت أكثر وضوحا فى بلاد الشام فى العصر الأيوبى .

راجع : الحنبلى المصدر السابق ، ص ٣١ .

(١) من العمائر التى انشئت منسوبة إلى « عصمت الدين » المدرسة العصمية بدمشق ، وخانقاه على نهر بانياس ورباط للصوفية وضريح بقاسيون بدمشق حيث دفنت فيها ، علاوة على ما وقفته على منشآتها ومعتقتها وعوارفها .

البندارى والأصفهانى : المصدر السابق ص٢٧٢ .

(٢) عمر بن شاهنشاه : المصدر السابق ٢١٩ ، ٢٢٠ .

زامباور : المرجع السابق ، جـ٢ ص٣٤٤ .

(٣) أبو شامة : الروضتين ، جـ٢ ص٦٧ .

(٤) أبى الفدا : المصدر السابق ، جـ٣ ص٢٠٥ .

ابن الوردى : المصدر السابق ، جـ٢ ، ص١٩٩ .

المقريزى : السلوك ، جـ١ ق١ ص٢٥١ .

الملك المنصور ابن غازية خاتون من الملك المظفر السلجوقى .

راجع : العينى عقد الجمان جـ١ ص٢٠٤ .

الخاتونية » ولها مواقف سياسية مع باقى ملوك البيت الأيوبى ، فقد وافقت الأشرف على خلاف الكامل حتى لا ينفرد بملك الشام ومصر واستطاعت بقوة شخصيتها فى فض حصار الملك المظفر فى حلب ، وانصرفت الجنود بناء على أوامرها[١].

وعندما توفيت أم الملك الكامل سنة ٦٠٨هـ/ ١٢١١م ودفنت عند قبر الإمام الشافعى ، بل من تعظيم ابنها لها ، أن رتب عند قبرها القراء والصدقات وأجرى الماء من بركة الحبش إلى قبة الشافعى ـ ولم يكن قبل ذلك ـ فنقل الناس أبنيتهم إلى هذه القرافة وعمروها حنيئذ كما يذكر المقريزى[٢].

ووصل حب واحترام السلاطين الأيوبيين لبعض محظياتهم أن صارت لهن منزلة رفيعة ، فقد كان لإحدى محظيات السلطان صلاح الدين رواتب ممضاه من الخزانة ، ووظايف مجراه ، ولها نفقات وميراث ورسوم وكسوات[٣].

علاوة على زيوع اسم المرأة فى مجال العلم وخاصة الدينى[٤] ، وهو مجال سبق أن طرقته المرأة منذ ظهور الإسلام ، كما كان لنساء عصر الأيوبيين عمائر منعوتة على ألقابهن[٥].

---

(١) أبى الفدا : المصدر السابق ، جـ٣ ص١٦٦ ، ١٧٠ ، ١٧٩ .
محمد كرد على : المصدر السابق ، جـ١ ص١٠٨ .
بعد وفاة ضيفة خاتون استقل بحكم حلب حفيدها السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن العزيز محمد .
راجع : العينى : عقد الجمان جـ١ ص٢٨٢ ـ ٢٨٣ .
(٢) السلوك ، جـ١ ق١ ص١٧٤ .
(٣) البندارى والأصفهانى : المصدر السابق ، ص ٢٠٠ .
(٤) مثل الخاتون مؤنسة بنت السلطان العادل أبى بكر المنعوتة بالقطبية كانت من الراويات للحديث .
ابن كثير : المصدر السابق ، جـ١٣ ص٣٣٧ .
المقريزى : الخطط ، جـ٢ ص٣٦٥ .
(٥) سوف نوضح هذه الظاهرة فى الفصل الثالث من هذا الجزء ، وأن كانت عمائر نساء العصر الأيوبى أكثر وضوحا فى بلاد الشام . راجع :
أبى الفدا : المصدر السابق ، جـ٣ ص١٨٢ .
النعيمى : « عبد القادر محمد ـ الدمشقى » (ت٩٢٧هـ/١٥٢٠م) .
ـ الدارس فى تاريخ المدارس . دمشق ١٩٤٨ (جزءان) ، جـ١ ص٥٠٢ : ٥٠٤ .

الفصل الثالث

طرق انتقال ومظاهر التأثيرات

السلجوقية فى الحضارة بمصر فى العصر المملوكى

(أ) طرق انتقال التأثيرات السلجوقية إلى مصر فى العصر المملوكى :

١ ـ العصر الأيوبى

٢ ـ سلاطين المماليك أنفسهم (العنصر التركى)

٣ ـ الروابط السياسية والحربية بين سلاجقة الروم والمماليك فى مصر .

٤ ـ الوافدين من السلاجقة والعمال والصناع إلى مصر فى عصر المماليك والمرتحلين منها .

٥ ـ طريق التجارة والتجار .

٦ ـ الهدايا والمقتنيات .

(ب) مظاهر التأثيرات السلجوقية فى الحضارة المملوكية بمصر :

١ ـ مظاهر التأثيرات السلجوقية فى نظم الحكم المملوكية بمصر :

(استخدام لقب السلطان ومضمونه ـ القوة مصدر السلطة ـ العلاقة بين سلاطين المماليك والخلفاء العباسيين ـ نائب السلطنة ـ الاتابك ـ الوظائف والألقاب) .

٢ ـ مظاهر التأثيرات السلجوقية فى العوايد السلطانية فى العصر المملوكى بمصر :

* العوايد الإيجابية : المواكب السلطانية « حفلات التتويج » ـ شعائر السلطنة .

* العوايد السلبية : كثرة المؤمرات والاغتيالات وما يتبعها من ثأر .

٣ ـ مظاهر التأثيرات السلجوقية فى الحضارة المملوكية عسكرياً بمصر :

(فرق الجيش ، عرض الجند والعناية بمظهرهم، العيون « الجواسيس ») .

٤ ـ مظاهر التأثيرات السلجوقية فى الحضارة المملوكية اقتصادياً بمصر :

(الاقطاع ـ المصادرات المالية)

٥ ـ مظاهر التأثيرات السلجوقية فى الحضارة المملوكية دينيا بمصر : (التصوف)

٦ ـ مظاهر التأثيرات السلجوقية فى الحضارة المملوكية علميا بمصر :

(ظهور طبقة علماء الدين ـ فتح باب الاجتهاد فى العلوم الدينية ، الأدب) .

٧ ـ مظاهر التأثيرات السلجوقية فى الحضارة المملوكية اجتماعيا بمصر :

(ظهور دور المرأة) .

(أ) طرق انتقال التأثيرات السلجوقية إلى مصر فى العصر المملوكى :

١ ـ العصر الأيوبى :

يعتبر حكم الأسرة الأيوبية فى مصر ـ رغم قصر فترته الزمنية ـ بمثابة الجسر الحضارى الذى عبرت من خلاله التأثيرات الحضارية السلجوقية إلى العصر المملوكى فى مصر ، أو هو بمعنى آخر بمثابة الوسيط الحضارى بين الحضارتين السلجوقية والمملوكية ، هذا بالإضافة إلى استمرار انتقال التأثيرات السلجوقية إلى مصر المملوكية من خلال المعابر الأخرى العديدة ، التى كانت بمثابة الغذاء الحضارى الذى نمّى التأثيرات السلجوقية الوافدة خلال العصر الأيوبى ، فأثمرت واستمرت ونضجت وتفاعلت مع البيئة المحلية ، بحيث أصبح للعصر المملوكى طرازه الحضارى المثمر المتأثر فى بعض جوانبه بالطرز السلجوقية وذلك على خلاف الظواهر الحضارية التى تأثرت فى العصر الأيوبى بالحضارة السلجوقية والتى كادت أن تكون محاكية للأصول الحضارية السلجوقية المأخوذة عنها ، فى حين أن العصر المملوكى هو عصر نضوج هذه التأثيرات بعد اختلاطها بالبيئة المحلية .

ومما يدل على أثر العصر الأيوبى فى نقل التراث السلجوقى إلى مصر فى عصر المماليك ، إن كثيراً ممن تولوا السلطنة المملوكية فى مصر ، كانوا من مماليك الصالح نجم الدين أيوب (٦١٧ـ ٦٤٧هـ/ ١٢٢٤ـ ١٢٤٩م) (انظر جدول ٢) ، الذى يعزى إليه الفضل فى الإكثار من الأرقاء من العنصر التركى [١] ، والذى أنشأهم فى

(١) من أهم الأسباب التى جعلت السلطان الصالح أيوب يعتمد على الأرقاء من الأتراك ويقصى العناصر الكردية ، أن العنصر الأخير انفض عنه فى صراعه مع أخيه العادل الثانى على السلطنة والذى حبسه فى الكرك ، فى حين أن المماليك التركية نجحت من خلال تآمرها فى خلع العادل الثانى وإحلال الصالح أيوب محله فى السلطنة فاستشعر الصالح أيوب فضل المماليك التركية فاستكثر منهم وأباح لهم الحرية دون غيرهم من الطوائف الأخرى حتى ضج الأهلون من عبثهم واعتداءاتهم ، لذا أنشأ لهم جزيرة الروضة قرب المقياس سنة ٦٣٨هـ/ ١٢٤١م وعرفوا لذلك باسم « المماليك البحرية » :
راجع : المقريزى : الخطط ، جـ٢ ص ٢٣٦ ، ٢٣٧ .
القلقشندى : المصدر السابق ، جـ٤ ص ٤٥٨ .
عبد العزيز عبد الدايم : الرق ، ص ٢٨ ./
أنور زقلمة : المماليك فى مصر ، مطبعة المجلة الجديدة ، القاهرة ١٩٣١ ، ص ٢٠ ، ٢١ .
السيد الباز العرينى : الفارس المملوكى (المجلة التاريخية ، م ٥ لسنة ١٩٥٦) ص ٤٨ . =

دولته، وكون منهم جيشه[1]، فأشربوا روح الأنظمة الأيوبية سواء ما يتعلق منها بالحرب أو بالإدارة[2]، بحيث قامت على أكتاف أرقاء الصالح أيوب دولة المماليك فى مصر ، بل ووصل عدد من هؤلاء الأرقاء إلى عرش السلطنة . فقد تمكنت واحدة من جوارى الصالح أيوب وهى شجرة الدر[3] أن تستقل بالسلطنة (٦٤٨هـ/ ١٢٥٠م)[4] وافتتحت بذلك عصر حكم سلاطين المماليك فى مصر ، وهى الدولة التى تفرعت بطريق غير مباشر عن الإمبراطورية السلجوقية كما أشارت إلى ذلك مصادر كثيرة[5] فى العبارة الموجزة التالية : « أنشأ بنو سلجوق ، بنو زنكى ، وأنشأ بنو زنكى بنى أيوب وسلاطين مصر وغيرهم » .

= محمد جمال الدين سرور : دولة الظاهر بيبرس : دار الفكر العربى ، القاهرة ، سنة ١٩٦٠ ص١٣٤ .
سعيد عاشور : العصر المماليكى ، ص ٤ ، ٥ .
أحمد مختار العبادى : المرجع السابق ص ٩٢ : ٩٤ .

(١) سجل شعراء عصر الصالح أيوب إقباله على شراء الترك وعتقهم وتأميرهم فقال بعض الشعراء :
« الصالح المرتضى أيوب أكثر من * ترك بدولته ياشر مجلوب »
السيوطى ، حسن المحاضرة ، جـ٢ ص ٣٤ .

(٢) حسن الباشا : الألقاب ، ص ٨٧ .

(٣) شجرة الدر : هى تركية الجنسية وقيل أرمنية اعتقها الملك الصالح أيوب وتزوجها ، وكانت على جانب وافر من الجمال والدهاء ، فيصفها ابن العبرى : أنها تركية داهية لا نظير لها فى النساء ، حسنا وفى الرجال حزما ، راجع : العماد الحنبلى : المصدر السابق جـ٥ ص ٢٦٨ .
ابن العبرى : المرجع السابق ، جـ٢ ص ٤٥٣ .
المقريزى : السلوك ، جـ١ ق ٢ ص ٣٥١ .
ابن تغرى بردى : النجوم ، جـ ٦ ص ٣٧١ .
ابن إياس : المصدر السابق ، جـ١ ص ٩١ .
سعيد عبد الفتاح عاشور : (د) نساء القاهرة فى عصر سلاطين المماليك (أبحاث ندوة القاهر الدولية لسنة ١٩٦٩) (٣ أجزاء) ، جـ٢ ص ٥٦٩ .

(٤) العينى : عقد الجمان ، جـ١ ص ١٦٥ : ١٦٦ .

(٥) راجع : ابن الأثير : الدولة الاتابكية ، ص ١٢٦ .
ابن فضل الله العمرى : « شهاب الدين أحمد بن يحى » « ت ٧٤٩ هـ/ ١٣٤٩م) .
ـ مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار : تحقيق د. أيمن فؤاد سيد ، المعهد العلمى الفرنسى للآث الشرقية ، القاهرة ١٩٨٥ ، ص ٣٣ .
ابن تغرى بردى : النجوم ، جـ٥ ص ٢٧٩ .

٢ ـ سلاطين المماليك[١] أنفسهم (العنصر التركى) :

يعتبر سلاطين المماليك أنفسهم وسيلة هامة من وسائل نقل التأثيرات الحضارية السلجوقية إلى مصر خلال الحقبة الزمنية التى تولوا الحكم فيها ، أو بمعنى آخر انتقلت التأثيرات السلجوقية من خلال العنصر التركى نفسه الذى تنتمى إليه الطبقة الحاكمة فى عصر المماليك .

فعلى الرغم من أن مصر شهدت خلال عصر المماليك تدفق أعداد كبيرة من الرقيق[٢] من مختلف بلاد العالم منها الأبيض والأسود[٣] ، إلا أن مبعوثى المماليك فضلوا فى كثير من الأحيان الرقيق المجلوب من منطقة وسط آسيا ، « وكان أكثرهم مجلوباً بصفة خاصة من قبيلة « القفجاق »[٤] . أو من بلاد التركستان وبلاد ما وراء

---

(١) المماليك : هم الرقيق الأبيض فى الأصل كانوا اتراكًا ، ثم اتسعت لفظة مملوك حتى شمل معناها جميع أنواع الرقيق المجلوب من آسيا أو أقاليم أوروبا .
محمد مصطفى : الدولة المملوكية (مجلد الحضارة م ٢) ، ص ٤٨٢ .

(٢) الرق : نظام اجتماعى عرف منذ أقدم العصور ، عبد العزيز عبد الدايم
الرق : ص ٧ .

(٣) كان منهم التركمان والأكراد والجركس والروم والمغول المجلوبين من أسواق النخاسة فى وسط آسيا .
راجع المقريزى : الخطط ، جـ٢ ص ٢١٥
السيوطى : حسن المحاضرة ، جـ٢ ص ١٢٩ .
عبد العزيز عبد الدايم (د.) تأثيرات المغول الحضارية على دولة سلاطين المماليك (المؤرخ المصرى ـ دورية سنوية يصدرها قسم التاريخ كلية الآداب ـ جامعة القاهرة جـ٣ / يناير سنة ١٩٨٩) ص ١١٦ ، الرق ، ص ٣٠ .
وقد جلبت العناصر المملوكية السابقة من بلاد الروم وبلاد خوارزم وحول حوض بحر البلطيق . عبد العزيز عبد الدايم : الرق ، ص ٣٦ .

(٤) القفجاق : (القبجاق) : فرع من الأتراك مساكنهم الأصلية تقع حول حوض نهر أونش ولكنهم انتقلوا واستقروا بحوض نهر اتل (القبجاق) فى جنوب الروسيا الحالية (شمال آسيا) فعرفت تلك الجهات باسم القبجاق . المقريزى : السلوك ، جـ١ ق ١ ص ٦٣٣ .
والقبجق : كلمة جركسية الأصل معربة من (كبجك) بمعنى النازح من سفح الجبل .
وتعرف أحد جبال المنطقة المشار إليها باسم (القبجق)
يوسف عزت باشا : المرجع السابق ، هامش ١ص ٦٥ : ٦٧ .

النهر ، ومملكة خوارزم[1] وكان منهم من يقع فى السبى أثناء الحروب مع المغول والسلاجقة الروم وخاصة فى عصر الظاهر بيبرس[2].

وعلى ذلك فإن غلبة العنصر التركى فى المماليك كان له صداه فى زرع التراث السلجوقى فى مصر والذى ينتمون إليه بحكم نشأتهم . وهكذا نلاحظ أن كثيراً من العادات والتقاليد السلجوقية قد برزت فى مصر المملوكية وعلى الأخص ما يتعلق منها بالفضيلة الحربية والمهارة الشديدة فى الفروسية والحرب .

وإذا كان نفوذ العنصر التركى قد أخذ يتصاعد خلال العصر الأيوبى إلا أنه قد بلغ مداه عند قيام دولة المماليك فى مصر بحيث احتل العنصر التركى منصب الحاكم الأعلى (السلطان) وكون معظم الطبقة الحاكمة والوظائف الهامة والكبرى ووظائف الجيش ، وظل العنصر التركى يكون الطبقة الحاكمة فى مصر حتى أوائل القرن العشرين ، وحقق السلاجقة بذلك أهم تأثير حضارى لهم وهو تتريك الشرق وعلى الأخص مصر ، ولذلك نعتت كثير من المصادر الدولة المملوكية صراحة بدولة الترك

---

(١) راجع : المقريزى : السلوك ، جـ١ ق ٢ ص ٦٣٣ .
ابن تغرى بردى : النجوم ، جـ٧ ، ص ٩٤ .
القلقشندى : المصدر السابق ، جـ٤ ، ص ٤٥١ .
أنور زقلمة : المرجع السابق ، ص ٤٤ .
على إبراهيم حسن : تاريخ المماليك البحرية ، ص ٢٤ ، ٢٧ .
سعيد عاشور : العصر المماليكى ، ص ٤ . محمد جمال الدين سرور : دولة الظاهر بيبرس ، ص٢١ .
محمود نديم أحمد فهيم (د.) : الفن الحربى للجيش المصرى فى العصر المملوكى . (٦٤٨-٧٨٣هـ/ ١٢٥٠ - ١٣٨٣م) - الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة ١٩٨٣ ، ص ٢٩ .
حاول القلقشندى تعليل شراء سلاطين المماليك أكثر رقيقهم من منطقة وسط آسيا ، أن أهل هذه الجهات يبيعون أولادهم لضيق العيش وهم خيار الترك أجناسا لوفائهم وشجاعتهم وتجنبهم الغدر مع تمام قاماتهم وحسن صورهم وظرافة شمائلهم وأول ملوك الترك من الديار المصرية كانوا منهم .
صبحى الأعشى ، جـ٤ ، ص ٤٥٨ .
وقد خضعت بلاد ما وراء النهر للحكم السلجوقى منذ سنة ٤٨٢هـ/ ١٠٨٩م فى عصر ملكشاه السلجوقى ، راجع القلقشندى : المصدر نفسه ، جـ ٤ ص ٤٤٧ .
(٢) عبد العزيز عبد الدايم : تأثيرات المغول ، ص ١١٦ .

مثل بيبرس المنصورى[1] المؤرخ المعاصر لفترة هامة من فترات حكم سلاطين المماليك البحرية إذ كتب مصنفا عنونه « التحفة المملوكية فى الدولة التركية »[2].

وكتب أبو بكر بن عبد الله ابن أيبك الدوادارى (ت بعد ٧٣٦هـ/ ١٢٣٥م) ، الجزء الثامن من مصنفه « كنز الدرر وجامع الغرر » بعنوان « الدرة الزكية فى أخبار الدولة التركية »[3].

ووضع ابن حبيب مخطوطه بعنوان « درة الإسلام فى دولة (ملك) الأتراك»[4].

وذكر العينى[5] : أن من الدول التسع العظام فى الإسلام « دولة الترك بالديار المصرية » .

وذكر المقريزى[6] : ان دولة المماليك البحرية هم الملوك الأتراك .

كما نعتتهم الأشعار الأدبية بدولة الترك ومنها هذا البيت الذى أنشده الشاعر شهاب الدين أبو الثناء محمود الحلبى بمناسبة فتح السلطان الأشرف خليل عكا فقال:

« الحمد لله زالت دولت الصلب * وعز بالترك دين المصطفى العربى »[7]

---

(١) تناول بيبرس المنصورى فترة حكم عصر المماليك فيما بين (٦٤٨ ـ ٧١١ هـ/ ١٢٥٠ـ ١٣١١م) وهو من الأمراء الذين احتلوا منصبا هاما فى الدولة ، فكان نائب السلطنة .
ابن حبيب : « الحسن بن عمر بن الحسن بن عمر » (ت ٧٧٩ هـ/ ١٣٧٧م)
ـ تذكرة النبيه فى أخبار المنصور وبنيه .
نشر وتحقيق : د. محمد محمد أمين (٣ أجزاء) ، دار الكتب ٧٦ : ١٩٨٧م ، جـ ٢ ص ١٥٨.

(٢) مشار إليه فى مصادر البحث .

(٣) حققه اولرخ هارمان فى القاهرة ١٩٧١ .

(٤) مخطوط مصور بدار الكتب المصرية برقم (٦١٧٠ حـ)
نشره A. Meursinge (H. F) فى امستردام ١٨٤٠ ـ ١٨٤٦م ١

(٥) السيف المهند . ص ١٢٨ .

(٦) الخطط جـ٢ ص ٢٣٦ .

(٧) ابن تغرى بردى : المنهل ، جـ٥ ص ٢٧٣ .

٣ ـ الروابط السياسية والحربية بين سلاجقة الروم وسلاطين المماليك في مصر :

يبين لنا من المصادر التاريخية وجود علاقات سياسية مباشرة بين الطرفين المشار إليهما ، وهى علاقات متنوعة ما بين ودية وعدائية ولكنها ساهمت فى وجود تأثيرات حضارية وفنية عديدة فمن هذه العلاقات السياسية تلك التى ظهرت بصفة خاصة بعد أن سيطر المغول على دولة سلاجقة الروم سنة ٦٤٣هـ/ ١٢٤٣م ، وتدخلوا فى إدارة الدولة والخلافات الأسرية[١] بين ملوك البيت السلجوقى مما اضطر بعض أفراد الأسر السلجوقية الحاكمة أن تلجأ إلى سلاطين المماليك فى مصر لأخذ المشورة والحماية [٢]. ومن أمثلة الأحداث الدالة على تلك العلاقات أن رسل[٣] السلطان السلجوقى عز الدين كيكاوس وفدت إلى مصر فى العصر المملوكى سنة ٦٦٠ـ ٦٦١هـ/ ١٢٦١ـ ١٢٦٢م ، تحمل رسالة للسلطان الظاهر بيبرس تتضمن الاستنجاد بسلطان مصر ضد التتار ، وفى مقابل ذلك ينزل السلطان السلجوقى عن نصف مملكته وسيَّر دروجاً عليها علائمه ليكتب فيها مناشير[٤] ـ أى السلطان بيبرس ـ بما يقطعه من بلاد الأناضول لمن يشاء فأكرم الظاهر بيبرس الرسل الوافدين وأنزلهم بأرض اللوق ، وجهز عسكراً

---

(١) زبيدة عطا : المرجع السابق ، ص ١٣٤ .

(٢) كان التنافس قائماً أصلاً بين بيبرس والتتار فى محاولة كل منهما الاستيلاء على بلاد الروم . ولذا أقام التتار لهم شحنة (أى حاجبا) ببلاد الروم .
ابن خلدون : المصدر السابق ، جـ٥ ص ٣٥٢ .
فايد حماد عاشور (د.) : العلاقات السياسية بين المماليك والمغول ، دار المعارف ، الإسكندرية ، ١٩٧٦م ، ص ١٠١ ، ١٠٥ .

(٣) كان رسل السلاجقة إلى مصر هم : الأمير ناصر الدين بن كوج رسلان (أمير حاجب) ، والصدر، صدر الدين الأخلاطى ، وشرف الدين الحاكى وعماد الدين الهاشمى .
المقريزى : السلوك ، جـ١ ق ٢ ص ٤٨ .
ابن خلدون : المصدر السابق ، جـ٥ ص ٣٩٢ .
العينى : عقد الجمان . جـ١ ص ٣٣٤ .

(٤) مناشير : جمع منشور ، والمنشور هو كل ما يصدر عن سلطان أو ملك من المكاتبات مما لا يحتاج إلى ختم كالمكتوب بالولاية ، والمكتوب بالحماية ، والمكتوب بالإقطاع . المقريزى : السلوك جـ١ ق ٢ ص ٤٧٠ هامش ٣، ٦ .
القلقشندى : المصدر السابق جـ١٣ ، ص ١٥٧ .

بقيادة الأمير ناصر الدين اعلمش السلاح دار الصالحى ليتوجه إلى بلاد الروم ، وأقطعه فيها لثمانمائة فارس منها مدينة آمد وبلادها[1] .

غير أن التتار ظلوا يسيئون معاملة السلاجقة وأمرائهم بوجه خاص ، الأمر الذى جعل عدداً منهم[2] يهربون سنة ٦٧٤هـ/ ١٢٧٥م من بلادهم مصطحبين أولادهم ونساءهم ويلتجئون إلى السلطان الظاهر بيبرس وهو فى عنيتاب ، فأجارهم السلطان وأرسلهم مع عدد آخر من أمراء الروم إلى القاهرة وأجرى عليهم الأرزاق[3] .

وفى سنة ٦٧٥هـ/ ١٢٧٦م[4] وصل إلى مصر جماعة من أمراء الروم ، هربا من التتار كان قد جهزهم البرواناه .

---

(١) المقريزى : السلوك ، جـ١ ق ٢ ص ٤٧٩ ، ٤٧٠ .
العينى : عقد الجمان ، جـ١ ص ٣٣٤ .
فايد حماد عاشور : المرجع السابق ، ص ٨٠ .

(٢) بعد أن تمكن التتار من السيطرة على بلاد سلاجقة الروم جعلوا البرواناه ، وهو سليمان بن مهذب الدين الديلمى الأصل ، ابن وزير السلطان علاء الدين كيقباد ، يتردد فى الأشغال بين التتار والسلاجقة . ورغم أن السلطان السلجوقى هو الذى اختار البرواناه لهذه المهمة ، إلا أن البرواناه صار الحاكم الفعلى على بلاد الروم ، قتله التتار سنة ٦٧٥هـ/ ١٢٧٧م لأنه لجأ للظاهر بيبرس ضدهم .
راجع :
العينى : عقد الجمان ، جـ١ ص ٢٧٩ : ٢٨٠ ، جـ٢ ص ١٦٤ : ١٦٧
زبيدة عطا : المرجع السابق ، هامش ٥ ص ١٣٦ .

(٣) راجع المقريزى : السلوك ، جـ١ ق ٢ ص ٦٢١ : ٦٢٥ .
العينى : عقد الجمان ، جـ٢ ص ١٤٢ ـ ١٤٣ .
من الأمراء الروم الذين لجأوا إلى السلطان بيبرس فى دمشق : الأمير ضياء الدين محمود بن الخطير ، والأمير سنان الدين موسى الرومى ابن الأمير سيف الدين طرنطاى ، ونظام الدين أخو مجد الدين الاتابك والحاج أخو جلال الدين المستوفى .
راجع : المقريزى ، السوك ، جـ١ ق ٢ ص ٦٢١ : ٦٢٥ .
العينى : عقد الجمان ، جـ٢ ص ١٤٢ .
ابن الوردى : المصدر السابق ، جـ٢ ص ٢٢٣ .

(٤) العينى : عقد الجمان ، جـ٢ ص ١٤٣ .

كما لجأ إلى الظاهر بيبرس أيضاً من أمراء سلاجقة الروم الأمير سيف الدين جندر بك صاحب الابلستين[1]، ومعه الأمير مبارز الدين سوار بن الجاشنكير ومعهما جماعة من أمراء الروم [2]، فاستقبلهم الظاهر بنفسه يستحثونه على غزو التتار ، وعند ذلك قوى عزمه على غزو بلاد الروم فقام سنة ٦٧٤ـ ٦٧٥هـ/ بأهم غزواته وآخرها ، عندما خرج بحملته من القاهرة قاصداً حرب التتار فى بلاد الروم ، وتمكن أن يلحق هزيمة فادحة بالتتار ومن كان قد انضم إليهم[3] من أمراء السلاجقة وقتل منهم أعداداً كبيرة[4]. وكان من أهم نتائج هذه المعركة ، أن بيبرس احتل مدينة قيسارية وأقام بها سبعة أيام أعلن فيها نفسه وريثًا لسلاجقة الروم فى حكم الأناضول وجلس على عرش آل سلجوق ، ولبس شعار السلطنة السلجوقية وخطب له على منابرها وحطم بذلك دولة سلاجقة الروم ، وأتاح الفرصة لقيام دويلات تركية أخرى فى أنحاء آسيا

---

(١) الابلستين ، أو ابلستان ، هى مدينة مشهورة ببلاد الروم ، تقع شرق مدينة قيصرية ، قريبة من أبسس مدينة أصحاب الكهف .
ياقوت : المصدر السابق ، جـ١ ص ٩٣ ـ ٩٤ .
وقد احتلها طغرل أرسلان بن قليج أرسلان ملك ملاطية سنة ٥١٣ هـ/ ١١١٩م ثم سيطر عليها سنة ٥١٨هـ/ ١١٢٤م . غازى بن دانشمند أمير ملاطية وما جاورها . تمارارايس : المرجع السابق ، هامش ١ ص ٥٥ ، ٥٦ واسمها حاليا : « البستان » . فايد حماد عاشور : المرجع السابق . هامش ١ ص ١٠٤ .

(٢) المقريزى : السلوك جـ١ ق ٢ ص ٦٢٦ .

(٣) وكان من أسباب معاضدة فريق من أمراء السلاجقة للتتار ضد بيبرس ، أن هيشوم ملك أرمنيا قام بتحريض التتار ومعاضدة السلاجقة بالحرب ضد بيبرس .
د. أنور زقلمة : المرجع السابق ، ص ٦٢ .

(٤) راجع عن هذه المعركة :
ابن تغرى بدرى : المنهل ، جـ٣ ص ٤٥٩ : ٤٦١ .
أنور زقلمة : المرجع نفسه ، ص ٤٣ .
محمد جمال الدين سرور : دولة بنى قلاوون فى مصر . دار الفكر العربى . القاهرة ١٩٤٧ ، ص ١٦١ ، ١٦٢ ، دولة الظاهر بيبرس ، ص ٩٨
سعيد عاشور : العصر المماليكى ، ص ٤٦ .
زبيدة عطا : المرجع السابق ، ص ١٤٢ : ١٤٣ .

الصغرى ـ والتى كان لها فيما بعد شأن كبير ـ وأبعد بذلك نفوذ التتار عن آسيا الصغرى[1].

ومن النتائج الهامة لهذه المعركة والتى أسهمت فى انتقال التأثيرات الحضارية السلجوقية إلى مصر ، أن كثيراً من أمراء السلاجقة وبعضهم من أكابرهم وقعوا أسرى فى يد بيبرس الذى أرسلهم إلى القاهرة حيث ظلوا بها[2]، ومنهم من أسندت إليه مناصب عليا سوف نشير إليها فيما بعد .

وفى سنة ٦٩٠هـ/ ١٢٩١م توجه السلطان الملك الأشرف خليل بن المنصور

---

(١) راجع :

ابن خلكان : المصدر السابق ، جـ٤ ص ١٥٥ ـ ١٥٦ .

ابن كثير : المصدر السابق ، جـ١٣ ص ٢٧٢ ، ٢٧٥ .

المقريزى : السلوك جـ١ ق ٢ ، ص ٦٢٩ .

ابن تغرى بردى : النجوم ، جـ٥ ص ٣٩٢ .

المنهل : جـ٣ ص ٤٦٢ .

ابن الوردى : المصدر السابق جـ٢ ص ٢٢٤ .

ابن إياس : المصدر السابق ، جـ١ ص ٣٣٧ ، ٣٣٨ .

السيوطى : حسن المحاضرة ، جـ٢ ص ٩٦ .

جمال الدين الشيال : العصران الأيوبى والمملوكى ، ص ١٨٧ ، ١٨٨ .

أحمد مختار العبادى : المرجع السابق ، ص ٢٣٨ ، ٢٣٩ .

عبد السلام عبد العزيز فهمى : تاريخ الدولة المغولية فى إيران : دار المعارف ١٩٨١ ، ص ١٦٠ عن أسباب عدم استكمال بيبرس انتصاراته على التتار وخاصة بعد أن دخل بلاد سلاجقة الأناضول . راجع :

محمد جمال الدين سرور : دولة الظاهر بيبرس ، ص ١٠١ ـ ١٠٢ .

(٢) من الروم الذين أسرهم الظاهر بيبرس أم البرواناه وابنه ، وابن ابنته والأمير سنقرجاه الزوباش والأمير نصرة الدين بهمن أخو صاحب سيواس وقاضى قضاة الروم حسام الدين الحنفى وأولاده رشيد الدين صاحب ملطية ، فقد أبقى عليهم ولم يقتلهم . راجع :

المقريزى : السلوك ، جـ ١ ق ٢ ص ٦٢٩ .

ابن تغرى بردى : النجوم جـ٧ ص ١٧٩ .

العينى : عقد الجمان جـ٢ ص ١٥٨ .

سيف الدين قلاوون ، إلى قلعة الروم بعساكره وحاصرها واقتحمها بالسيف عنوة وترك بها حامية لحمايتها[1] ، بحيث صار من ألقابه « سلطان الروم »[2] ، وقد سجل الشعراء هذا المعنى فى أشعارهم ومنها قصيدة من أربعين بيتا من نظم الشيخ شهاب الدين أبو الثناء محمود الحلبى [3] ، أولها :

« لك الراية الصفراء يُقدمها النصرُ * فمن كيقباذان رآها وكيجسرو »[4]

وهكذا أصبحت بلاد الروم من مضافات الديار المصرية نهائيًا فى عصر الناصر محمد بن قلاوون[5] ، حتى أنها اعتبرت الملاذ الأول لأمراء المماليك الذين يضطرون إلى الهرب من مصر بسبب الاضطهاد السياسى والإقامة بها حتى تتغير الأوضاع السياسية بما يرضى هؤلاء الهاربين فإذا تغيرت عادوا إليها مرة أخرى . ومن أمثلة ذلك أنه فى سنة ٦٥٢هـ/ ١٢٥٤م بعد مقتل الأمير فارس الدين أقطاى الجمدار تفرق أصحابه وهربوا من السلطان المعز عز الدين أيبك بعد أن أحرقوا باب القراطين الذى عرف من يومها بالباب المحروق[6] . فهرب بعضهم إلى بلاد الشام[7] والكرك وبلاد

---

(١) ابن كثير : المصدر السابق ، جـ١٣ ص ٣٢٦ ـ ٣٢٧ .

(٢) ورد هذا اللقب فى نسخة اليمين التى حلف عليها الملك الريدراغون « ملك برشلونة » للملك المنصور قلاوون .
ابن عبد الظاهر : المصدر السابق ، ص ١٦٣ .

(٣) ابن تغرى بردى : المنهل ، جـ٥ ص ٢٧٤ .
العينى : عقد الجمان ، جـ٣ ص ١١٨ .
ابن كثير : المصدر نفسه ، جـ١٣ ص ٣٢٨ .

(٤) والمقصود من سلاطين سلاجقة الروم فى الشعر المشار إليه هو السلطان غياث الدين كيخسرو بن كيقباذ بن كيخسرو بن قلج أرسلان .
ابن تغرى بردى : المنهل ، جـ ٥ هامش ٤ ص ٢٧٤ .

(٥) ابن تغرى بردى : النجوم ، جـ١٠ هامش ٢ ص ٢٨٩ .

(٦) الباب المحروق أو باب القراطين ـ قديما ـ هو أحد أبواب أسوار القاهرة الفاطمية الذى شيده بدر الجمالى سنة ٤٨٠هـ / ١٠٨٧م ، وكان يقع فى الجهة الشرقية من القاهرة ، وهى الجهة التى كانت تشتمل على ثلاث أبواب منها الباب المذكور والبابان الآخران هما بابا الفتوح والنصر .
راجع المقريزى : الخطط جـ١ ص ٣٨٠ .

(٧) المقريزى : الخطط جـ١ ص ٣٨٣ .

البلغار والغور والشوبك والقدس ، ولكن أكبر جماعة منهم هربوا إلى السلطان علاء الدين ملك الروم[1]، وعلى رأسهم الأمير علم الدين سنقر الجيبلى وهو أفرسهم وأشهرهم بالشطارة ، وكان عددهم مائة وثلاثين فارسًا ، وظلوا فى حماية سلاطين السلاجقة فى آسيا الصغرى حتى وفاة الأمير أيبك سنة ٦٥٥هـ/ ١٢٥٧م . ثم عادوا مرة أخرى إلى القاهرة ، حاملين معهم أمتعتهم وهداياهم[2]. ولا شك أن هذه الصورة من صور الهروب أو الارتحال السياسى تعد واحدة من المعايير الحضارية بين السلاجقة والمماليك فى مصر .

---

(١) عبر المقريزى عن السلطان علاء الدين السلجوقى أنه « ملك الروم » دون أن ينعته باسم «السلاجقة» فقد تبين أن كثيراً من مؤرخى العصور الوسطى يستخدمون لقب « رومى » فى الحديث عن سكان منطقة آسيا الصغرى حتى ولو كانوا على غير دين الإسلام . ومثال ذلك ما ذكره ابن حجر عن أن الأمير سنقر ولقبه « الرومى » جاء القاهرة زمن الناصر محمد ، رسولا ، فأسلم بالقاهرة وأعطى أمره عشرة (ت ٧٤٩هـ/ ١٣٤٨م) راجع المقريزى : السلوك جـ١ ق ٢ ص ٣٩١ ـ ٣٩٢ .
ابن تغرى بردى : النجوم ، جـ ١١ ص ٦٦ .
ابن حجر : « سهاب الدين أحمد بن على بن محمد (ت ٨٥٢هـ/ ١٤٤٨م) الدرر الكامنة فى أعيان المئة الثامنة .
تحقيق : محمد سيد جاد الحق ، ٥ أجزاء ، دار الحديث بالقاهرة ، الطبعة الثانية / ١٩٦٦ ،. جـ٢ ص ٢٧٣ .

(٢) المقريزى : السللوك جـ١ ق ٢ ص ٣٩٣ ، ٤٠٦ .

٤ ـ الوافدين من السلاجقة والعمال والصناع على مصر فى عصر المماليك والمرتحلين منها :

يعتبر الارتحال من بلد إلى آخر من الطرق الهامة فى نقل التأثيرات الحضارية ، وللارتحال أسباب عديدة ذكرنا منها الأسباب السياسية كالللجوء السياسى أو الأسر أو الحروب وقد يكون الارتحال من أجل طلب العلم أو الرزق أو التجارة . أو بسبب تشجيع سلاطين المماليك أنفسهم ، لاستقدام كل من يسمعون عن نبوغه فى علم من علوم الدين أو الدنيا ، وبسبب تعميرهم الملحوظ للعديد من المدارس[١] والخانقاوات والبذخ فى بنائها واستقدام خيرة العلماء والصوفية لها .

وازدادت حركة الارتحال فى عصر المماليك من البلاد الشرقية إلى مصر حيث الأمن والأمان وعلى الأخص ، فرارا من حروب التتار والصليبيين هذا بالإضافة إلى أن مصر أصبحت مقراً للخلافة العباسية وهذا وحده يعتبر سببا كافيًا لجعلها نقطة جذب تدعو الناس للرحيل إليها .

وترجع أهمية الوافدين فى نقل التراث ، إلى أن الوافد يظل غالبًا ممتهنا لنفس مهنته التى كان يحترفها فى بلده الأصلى : فالصانع تظل يده على ما تعودت عليه من حرفة . وعلى طرق الصنعة التى اعتاد ممارستها فى بلاده ، وعلى استخدام الزخارف التى ألف تطبيقها على مصنوعاته . والعالم ينقل بنفسه أفكاره وعلومه ومنهجه إلى المتلقين عنه وخاصة إذا تبوأ مكانة علمية كواعظ ، أو مدرس ، أو خطيب أو قاضى .

ومن أمثلة الأمراء الذين وفدوا إلى مصر ، وخاصة من بلاد الأناضول بعد كسب الابلستين ـ السابق الإشارة إليه ـ الأمير كمال الدين إسماعيل عارض الجيش ، والأمير حسام الدين كاوك ، والأمير سيف الدين بن الجاويش أو الجاليش ، والأمير شهاب الدين بن على شير التركمانى[٢] ، وثمانية عشر مملوكًا أخذهم بيبرس من مماليك السلطان غياث الدين ، عندما استولى على مدينة قيصرية الروم (سنة ٦٧٥هـ/ ١٢٧٦م ـ ١٢٧٧م) . ومنهم سيف الدين بكتمر بن عبد الله الحسامى (ت

---

(١) راجع : عبد الغنى محمود عبد العاطى : المرجع السابق ، ص ١١٨ : ١٢٤ .

(٢) ابن تغرى بردى : النجوم ، جـ ٧ ، ص ١٧٠

٧٢٩هـ/ ١٣٢٨م) ، وتقلد هذا الأمير عدة وظائف فى مصر حتى ولى الوزارة ثم الحجوبية بدمشق ، ثم نيابة غزة ، ثم نيابة صفد ، ثم حجوبية الحجاب بديار مصر حتى توفى بها ، وكان من عظماء الأمراء[١]. ومن أشهر الأمراء الذين ذاع صيتهم فى مصر وتركوا بصمات على وجه الحضارة المصرية فى عصر المماليك ، الأمير سيف الدين ال ملك الجوكندار[٢] (ت ٧٢٩هـ/ ١٣٢٨م) وأصله ممن أخذ فى كسب الابلستين وظل يترقى فى المناصب حتى وصل إلى نائب السلطنة زمن السلطان عماد الدين إسماعيل بن الناصر محمد ، سنة ٧٤٤هـ/ ١٣٤٣م واشتهر عنه تدينه الشديد ومحاربته لأهل الفساد وشاربى الخمر فحطم خزانة البنود بالقاهرة[٣] ، ونادى أهل الأسواق أن يصلوا أمام دكاكينهم بإمام إذا نودى للصلاة[٤] ، وأبطل ضرب خيام الناس على شاطئ النيل بالجزيرة للفساد الذى تفشى هناك[٥] ، وأبطل المال المتحصل من جميع الملعوب[٦] ، وغيرها من الأمور الكثيرة ، حتى وصفه ابن إياس[٧] ، بأنه :

---

(١) راجع : ابن تغرى بردى : النجوم ، جـ٩ ، ص ٤١ ، ٢٧٧ ، ٢٧٨ ، ٢٧٩ .

(٢) راجع : ابن تغرى بردى : النجوم جـ١٠ ص ٦٢ ، ٨٧ ، ١٧٥ ، ١٧٦ ، جـ٩ ص ١٣/ المنهل جـ٣ ص ٨٥ : ٨٨ .
المقريزى : السلوك ، جـ٢ ص ٧٢٣ .
الخطط جـ١ ص ٣٢٥ / جـ٢ ص ٣٦ ، ١٣٩ ، ١٨٨ ، ٣٠٨ ، ٣٩٢ ، ٣٩٣
ابن إياس : المصدر السابق ، جـ١ ص ١٤٨ ، ١٨١ : ١٨٤ ، ٢١٠ .

(٣) خزانة البنود : كانت ملاصقة للقصر الكبير الفاطمى لحفظ الرايات والأعلام ، ولما احترق ما فيها سنة ٤٦١ هـ تحولت إلى حبس للأمراء والوزراء ، ثم تحولت وخاصة فى عصر الناصر محمد بن قلاوون إلى منازل وجعلوها مكانا للمحرمات .
راجع : المقريزى : السلوك جـ٢ ق ٣ ص ٦٤٠ ـ ٦٤١ .
ابن تغرى بردى : المنهل ، جـ٣ هامش ٨ ص ٨٦ ، ٨٧ .

(٤) المقريزى : السلوك ، جـ٢ ق ٣ ص ٦٥١ ، هامش ١ ص ٦٥١ .

(٥) المقريزى : السلوك جـ٢ ق ٣ ص ٦٤٢ .

(٦) الملعوب : هى جهة سلطانية تأخذ ضريبة على أرباب الملعوب من المناطحين بالكباش ، والمناقرين بالديوك والمعالجين ، والمصارعين ، والملاكمين ، والمقامرين وعلى القرادة والدبابة من اللاعبين بالقرود والدبية وغيرها من أنواع اللعب .
راجع : المقريزى : السلوك جـ٢ ق ٣ ص ٦٤٢ .

(٧) ابن إياس : المصدر السابق ، جـ١ ص ٤٩٩ .

«أظهر العدل فى الرعية وكانت له بمصر حرمة وافرة وكلمة نافذة وعظمة زائدة وكتب الشعراء يمدحونه[1] . ومن الذين انحدوا من الأمراء السلاجقة ووفدوا إلى مصر فراراً من التتار كما أشرنا ، الأمير سيف الدين جندر ، وكان أبوه صاحب الابلستين قدم مصر ومعه ابنه « حسين » فخدما لاجين وقت أن كان رأس مدرج ونائب الشام ، وكان يؤثره ويقربه هو شاب لشهامته وشجاعته . فلما تسلطن لاجين طلبه إلى مصر وأمره عشرة ، ولما تسلطن الناصر محمد أحب حسين ابن جندر لدرجة أن أقطعه طبلخانات تكون فى تصرفه ، وينعم بها على من يشاء من أقاربه . كما أنعم عليه بتقدمه ألف وجعله أمير شكار ، وأسند إليه الإشراف على بناء عدد من العمائر سنة ٧١٠هـ/ ١٣١٠م فى أسيوط ومنفلوط[2] علاوة على أن الأمراء السابق ذكرهم شيدوا عمائر نعتت على ألقابهم سوف نشير إليها فى الحديث عن العمارة .

ومن أمراء السلاجقة الفارين إلى مصر أيضاً الأمير شمس الدين بهادر ابن صاحب سميساط قصد ٦٧٣هـ/ ١٢٧٤م الأبواب السلطانية فأحسن السلطان بيبرس إليه وأكرمه وأعطاه أمره بعشرين فارسا فى الديار المصرية[3] . ومن هؤلاء الأمراء الفارين الذين تولوا مناصب فى مصر ، الأمير مبارز الدين سوارى الرومى أمير شكار[4] . والأمير حسام الدين بشار الرومى (ت ٦٨١هـ/ ١٢٨٢م)[5] .

ومن العلماء الذين وفدوا من بلاد الشرق ، وتقلدوا فى مصر كثيراً من الوظائف العليا ، الشيخ شمس الدين الأصبهانى (محمد بن محمود بن محمد بن عبده (عباد) السلمانى العلامة (ت٦٨٨ـ ٦٨٩هـ/ ١٢٩٠م) ، وكان والده نائب

---

(١) مدح الشعراء الأمير المذكور منها الأبيات التالية :

« ال ملك الحاج غدا سعره * يملأ ظهر الأرض مما سلك »

« فالأمراء من دونه سوقه * والملك الصالح هو آل ملك »

راجع : ابن إياس : المصدر السابق ، جـ١ ص ٤٩٩ .

(٢) راجع : المقريزى : السلوك جـ٢ ق ١ ص ٢٨٢ ، ٣١٣ ، ٣١٤ .

ابن تغرى بردى : النجوم ، جـ٩ ص ٢٧٦ ، ٢٧٧ ، ٧١٠ .

ابن حجر : الدرر الكامنة : جـ٢ ص ١٣٧ ـ ١٣٨ .

(٣) بيبرس المنصورى : المصدر السابق ، ص ٧٨ .

(٤) العينى : عقد الجمان ، جـ١ ص ١٢٠ .

(٥) المقريزى : السلوك ، جـ١ ق ٣ ص ٧١١ .

السلطنة فى أصفهان ، فلما استولى العدو على أصفهان رحل إلى بغداد ثم إلى الروم حيث تلقى علومه على يد الشيخ أثير الدين الأبهرى فأخذ عنه الجدل والحكمة ، ثم دخل القاهرة واشتهر بفضائله فى علوم الدين ، وناظر الفقهاء وشرح المحصول للرازى ، وله معرفة فى المنطق والنحو ، وتقلد فى مصر وظيفة التدريس فى كل من مشهدى الحسين والشافعى ، كما تولى قضاء مدينة قوص فى خلافة القاضى تاج الدين بن بنت الأعز ، ويقال أن ابن دقيق العيد كان يحضر درسه بقوص ، ورحل إليه كثير من الطلبة[1] . ومن الأدباء الذين عملوا كترجمان للملوك ، الشيخ شرف الدين بن محمد بن شيرذاد بن على الرومى ، (ت ٧٠٧هـ/ ١٣٠٧م) ، وقد سبق أن تولى ديوان الإنشاء لسلاجقة الروم بالأناضول ثم وفد إلى القاهرة حيث عمل وتوفى فيها[2] أما وظيفة شيخ الشيوخ فكانت من الوظائف الدينية الجليلة القدر ، والتى أسندت فى معظم الأحيان للوافدين المشارقة ، مثل الشيخ حسن الرومى (ت ٦٤٨هـ/ ١٢٥٠م) الذى وفد إلى مصر وتقلد المنصب المشار إليه فى خانقاة سعيد السعداء بالقاهرة[3] .
ومن الوافدين أيضًا الذين تولوا مشيخة الخانقاة المذكورة فخر الدين العراقى صاحب «اللمعات» ت ٦٨٠هـ/ ١٢٨١م[4] كما تولاها الشيخ علاء الدين أبو الحسن على ابن إسماعيل بن يوسف القونوى الشافعى ، وأصله من بلاد سلاجقة الروم وعمل بدمشق ثم القاهرة وصنف « شرح الحاوى » وغيرة فى الفقه[5] . وتولى المشيخة أيضًا للخانقاة المذكورة الشيخ صاين الدهش البخارى[6] ، والبخارى لقب نسبة إلى مدينة بخارى ، فهو من الوافدين منها . وتولى نفس المنصب بعد وفاته الشيخ شمس الدين أبو المعالى محمد الفارسى الأيكى[7] (ت ٦٩٧هـ/ ١٢٦٨م) ، وهو ممن تولوا

---

(١) ابن العماد : المصدر السابق ، جـ٥ ص ٤٠٦ .
ابن كثير : المصدر السابق ، جـ١٣ ص ٣١٥ .
(٢) ابن حبيب : المصدر السابق ، جـ١ ص ٢٨٤ .
(٣) العينى : عقد الجمان ، جـ٢ ، ص ٣٤٤ .
(٤) شتا : المرجع السابق ، ص ٢٨٠ ، ٢٨٩ .
(٥) ابن كثير : المصدر السابق ، جـ١٣ ، ص ٣٠٦ .
المقريزى : السلوك ، جـ٢ ق ٢ ص ٣١٥ .
(٦) من نسخة تقليد الشيخ شمس الدين الأيكى ٦٨٤هـ/ ١٢٨٦م.
ابن عبد الظاهر : المصدر السابق ، ص ٢٣٢.
(٧) ابن حبيب : المصدر السابق ، جـ١ ص ٢٠٩ .
العينى : عقد الجمان ، جـ٢ ص ٣٤٤ .

التدريس فى نظامية بغداد ، وله مصنفات فى علوم أصول الدين ، وبلغت مكانة هذا الشيخ أنه تولى مشيخة الخانقاة الصلاحية وخانقاة الفيوم وخانقاة المشطوب بالقاهرة والنظارة على أوقافهم[١] وبذات خانقاة سعيد السعداء ، ذاع صيت كثير من الصوفية الوافدين مثل الشيخ صاين الدين عبد الله الخوارزمى (ت ٦٧٨هـ/ ١٢٧١م)[٢] .

وتولى صفة الخانقاة المذكورة أحد المشايخ الوافدين من بلخ وهو الشيخ جمال الدين محمد بن سليمان بن الحسين بن النقيب (ت ٦٩٨هـ/ ١٢٩٨م) ، كما تولى التدريس فى المدرسة العاشورية بالقاهرة[٣] .

وتولى مشيخة خانقاة بكتمر الساقى الشيخ شمس الدين محمد بن محمد الرومى (ت ٧٣٠هـ/ ١٣٢٩م) وبعد وفاته تولاها أحد العلماء الوافدين أيضًا هو الشيخ التوقاتى ، فقد وفد من توقات بالأناضول[٤] . كما أسند السلطان الناصر محمد مشيخة خانقاة سرياقوس لأحد الشيوخ الوافدين من اقصرا ببلاد الروم وهو الشيخ مجد الدين موسى بن أحمد بن محمود الاقصرائى[٥] (ت ٧٤٠هـ/ ١٣٣٩م) كما لقبه أيضًا بلقب شيخ الشيوخ[٦] . وأسندت مشيخة خانقاة قوصون (٧٣٦هـ/ ١٣٣٥م) أول ما أسندت لواحد من الشيوخ الوافدين وهو الشيخ الشمس محمود الأصفهانى الإمام المشهور صاحب التصانيف المشهورة[٧] ، ونفس الحال بالنسبة لخانقاة شيخو

---

(١) نسخة تقليد الشيخ شمس الدين ، بن عبد الظاهر : المصدر نفسه ، ص ٢٣٤ .
(٢) العينى : عقد الجمان ، جـ٢ ، ص ٢٣٩ .
(٣) المقريزى : السلوك ، جـ١ وق ٣ ص ٨٨١ .
(٤) ابن تغرى بردى : النجوم ، جـ٩ ص ٢٨٤ ، هامش ٣ ص ٢٨٤ .
(٥) انظر ترجمته : ابن حجر : الدرر الكامنة جـ٤ ص ٣٧٣ (ترجمة رقم ١٠١٤
المقريزى : الخطط ، جـ٢ ص ٤٢٢ .
(٦) ابن تغرى بردى : النجوم ، جـ٩ ص ٨٣ ، ٨٤ هامش ٢ ص ٨٤
ظل لقب شيخ الشيوخ يطلق على أكبر مشايخ الطرق الصوفية مقامة دينية وهو شيخ خانقاة سعيد السعداء ولكن عندما شيد الناصر محمد خانقاة سرياقوس منح أكبر شيوخها هذا اللقب إضافة لشيخ خانقاة سعيد السعداء . راجع باقى شيوخ خانقاة سرياقوس .
المقريزى : السلوك جـ٢ ق ٣ ص ٧٦٧ .
(٧) انظر ترجمته ابن حجر : الدرر الكامنة . جـ٤ ص ٣٢٧ ترجمة ٨٩١
السيوطى : حسن المحاضرة ، جـ٢ ص ٦٦ .

(٧٥٣هـ/ ١٣٥٢م) أسندت مشيختها لأول مرة لواحد من الوافدين المشارقة وهو الشيخ أكمل الدين بن محمود البابرتى (ت ٧٨٦هـ/ ١٣٨٤م) وأسندت الخطابة للشيخ جمال الدين عثمان الرومى الحنفى[١] .

وحتى منصب القضاء وهو من المناصب الدينية التى كان لها أهميتها بوجه خاص فى العصر المملوكى ـ وسوف نوضح ذلك فيما بعد ـ فقد تولاها فى كثير من الأحيان فقهاء وعلماء من المشارقة الوافدين مثل الشيخ حسام الدين أبو الفضائل الحسن ابن أنو شروان الرازى المولود فى اقسرا من بلاد الروم سنة ٦٣١هـ/ ١٢٣٣م ، وقد سبق أن تولى نفس المنصب فى ملطية بآسيا الصغرى ، وتولى قضاء دمشق ، ثم دخل فى عهد السلطان لاجين فأسند إليه القضاء ، وكان إمامًا علامة ، توفى (سنة ٦٩٩هـ/ ١٢٩٩م)[٢] .

وتولى قضاء المالكية فى مصر سنة ٦٨٥هـ/ ١٢٨٦م واحد من علماء تبريز الوافدين وهو الشيخ زين بن مخلوف التبريزى (ت ٧١٨هـ/ ١٣١٨م)[٣] ومن أشهر العلماء الوافدين الذين تولوا منصب القضاء بالإضافة إلى مناصب أخرى الشيخ شمس الدين بن خلكان البرمكى صاحب وفيات الأعيان (٦٠٨ ـ ٦٨١هـ/ ١٢١١ ـ ١٢٨٢م) وهو بلخى الأصل أربلى المولد دمشقى الدار والوفاة ، وتولى إلى جانب القضاء وظيفة التدريس ومكث بمصر سبع سنين صنف وأفتى فيها[٤] .

وقد أمر الناصر محمد بإحضار جلال الدين محمد القزوينى سنة ٧٢٧هـ/

---

(١) هو محمد بن محمود بن أحمد البابرتى : انظر ترجمته فى : ابن حجر : الدرر الكامنة جـ٤ ص ٢٥٠ ترجمة رقم ٦٨٦ .

(٢) ابن حجر : الدرر الكامنة ، جـ٢ ص ٩١ / ابن حبيب : المصدر السابق ، جـ١ ص ٢٢٧.

(٣) العينى عقد الجمان ، جـ٢ ص ٣٥٤ .

(٤) اربل : قلعة ومدينة كبيرة من أعمال الموصل ، راجع : ياقوت : المصدر السابق جـ١ ص ١٣٧ .
ابن حبيب : المصدر السابق ، هامش ٣ ص ٧٤ جـ١
ابن حجر : الدرر الكامنة .، جـ٢ ص ٢٩٤ .
ابن حبيب ، المصدر السابق ، جـ١ ص ٧٤ .
ابن تغرى بردى : المنهل ، جـ٢ ص ٨٩ : ٩٤ .
بلخ : مدينة مشهورة بخراسان ، راجع ياقوت : المصدر نفسه جـ١ ص ٤٧٩

١٣٢٦م قاضى دمشق ، ليستقل فى قضاء مصر ، وأضاف إليه التدريس فى المدرسة الصالحية ، والناصرية ، ودار الحديث الكاملية ، وخطابة جامع القلعة شركة مع ابن القسطلانى ، وامتلأت خانقاة سرياقوس بصوفية وافدين من الشرق(١) .

وذاع صيت علم الدين عبد الكريم بن عمر الأنصارى المعروف « بعلم العراقى » ، الفقيه الشافعى (ت ٧٠٤هـ/ ١٣٠٤م) الملقب « عالم مصر » والذى درس فى القبة المنصورية(٢) .

حتى أولاد الأمير بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل ، إسماعيل وأخوه إسحق صاحب جزيرة ابن عمرو المظفر صاحب سنجار ، وفدوا إلى مصر فى عصر السلطان الظاهر بيبرس سنة ٦٥٩هـ/ ١٢٦٠م ، بعد غزو المغول لبلادهم ، وأحسن إليهم السلطان ، بل وسعى لتزويج ابنة الملك الرحيم بدر الدين من الأمير بدر الدين بيلبك الخازندار نائب السلطنة المصرية ، فى ذلك الوقت ، وتم الزواج سنة ٦٦٠هـ(٣) ووفد عدد من مماليك الخليفة العباسى المستعصم سنة ٦٦٠هـ/ ١٢٦١م وأكرم بيبرس وفادتهم(٤) . كما اشترى سلاطين المماليك فى مصر بعضًا من مماليك أتابكه السلاجقة فى الشام(٥) .

وقد اشتهر عن بعض أمراء المماليك فى مصر تعظيمهم للعلماء من الأصل الإيرانى (الفارسى)(٦) كالأمير صرغتمش الذى كان يؤثرهم على غيرهم من

---

(١) المقريزى : السلوك ، جـ٢ ق ١ ص ٢٨٣/ جـ٢ ق ٢ ث ٤٨٩ .

(٢) انظر ترجمته : ابن حجر : الدرر الكامنة جـ٢ ص ٣٩٩ ترجمة رقم ٢٤٨٦
المقريزى : السلوك ، جـ٢ ق ١ ص ١٣ .

(٣) سحر السيد عبد العزيز سالم (د.) العراقيون فى مصر فى القرن السابع الهجرى ، مؤسسة شباب الجامعة للطباعة والنشر بالإسكندرية سنة ١٩٩١م ، ص ١٤ .

(٤) أبو الفدا : المصدر السابق ، جـ٣ ص ٢٢٣/ العينى عقد الجمان ، جـ١ ص ٣٢٩ .

(٥) فقد اشترى الأمير سيف الدين قلاوون الألفى اثنين من مماليك الطواشى مجاهد الدين قايمار خادم الملك بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل عندما حضر إلى القاهرة وكان أحدهم الأمير بيبرس المنصورى صاحب التاريخ المعروف . العينى : عقد الجمان جـ١ ص ٣١٨ .

(٦) من الملاحظ أن العنصر الإيرانى (الفارسى) يعد من المقومات المشتركة بين الحضارتين السلجوقية والمملوكية ، وإن اختلفت نسبة اعتماد الحضارتين المشار إليهما على العنصر المذكور . وفيما يبدو فإن السلاجقة اعتمدوا بصورة أكبر على الإيرانيين ، والراجح أن السبب يعود فى المقام الأول إلى =

العلماء، حتى أنه أنشأ مدرسته الصرغتمشية بالصليبة للمذهب الحنفى وأسند أمورها للعلماء الفرس ، مثل الفقيه قوام الدين أمير كاتب الاتقانى[1] (ت ٧٧٥هـ/ ١٣٧٣م) الذى عين مدرساً للفقه فيها ، وغيره كثيرون[2]. حتى خادم الفقهاء فى هذه المدرسة كان أعجمى الأصل هو جمال الدين محمود بن أحمد القيصرى[3].

والمصادر تمتلئ بالوافدين المشارقة الذين تولوا مختلف المناصب الهامة فى عصر المماليك[4]، حتى أن بعض العمائر كانت تشيد وتخصص لسكنى هذا العنصر ، مثل

= قرب الإيرانيين جغرافياً من الأتراك وخضوعهم رأسا لحكم السلاجقة .
ومما لا شك فيه أن وجود نسبة لا يستهان بها من العنصر الإيرانى فى مصر فى عصر المماليك قد ساهم فى وجود تأثيرات حضارية شرقية سواء أكانت مظاهرها إيجابية أو سلبية ، فمن السلبيات الحضارية التى انتشرت فى عصر السلاجقة وانعكست بدورها فى عصر المماليك كثرة الفتن ، ومنها الفتنة التى حدثت سنة ٧٥٩هـ/ ١٣٥٧م بين المماليك السلطانية ومماليك الأمير صرغتمش فقد مسك فى هذه الفتنة الأعجام من صوفية المدرسة الصرغتمشية لأنهم ساعدوا مماليك صرغتمش فيما حدث من اضطرابات . راجع :
ابن تغرى بردى : النجوم ، جـ١٠ ص ٣٠٨ ـ ٣٠٩ .

(١) قوام الدين الاتقانى : لقب بالاتقانى نسبة إلى مسقط رأسه فى بلدة « اتقان » وهى من نواحى بلاد فيما وراء نهر سيحون فى تخوم بلاد الترك ، وتفقه فى بغداد وغيرها ، ودرس فى مشهد الإمام أبى حنيفة ببغداد .
ابن تغرى بردى : المنهل ، جـ٣ ص ١٠١ ، ١٠٣ .

(٢) من العلماء الوافدين الذين تولوا التدريس بمدرسة صرغتمش محمد بن قطلو شاه أرشد (ت ٧٧٥هـ/ ١٣٧٠م) ومحمد بن أحمد التلمسانى (٧٨١هـ/ ١٣٧٩م) ومولانا زادة أحمد بن أبى يزيد (ت ٧٩١هـ/ ١٣٨٩م) .
راجع : حسن عبد الوهاب : تاريخ المساجد ، جـ١ ص ١٦٠ ـ ١٦١ .

(٣) جمال الدين أحمد القيصرى العجمى : الحنفى المذهب ، جاء إلى القاهرة فى شبابه فقيراً وتنقل بعد خدمته فى المدرسة الصرغتمشية فى الوظائف حتى تقلد قاضى قضاة الحنفية ، وناظر الجيوش المنصورة ، وشيخ الشيوخ خانقاة شيخو ، ثم تولى حسبة القاهرة .
راجع : ابن حجر : المصدر السابق ، جـ٢ ص ١٥٨ ـ ١٥٩ .

(٤) راجع : ابن حبيب تذكرة النبيه (٣ أجزاء) .
ابن تغرى بردى : المنهل .
السيوطى : حسن المحاضرة ، (جزءان) العينى : عقد الجمان .

زاوية قبة النصر[1]، فقد خصصت لسكنى فقراء العجم ، وزاوية إبراهيم الصائغ ، وغيرها من الزوايا[2] .

وإذا كنا قد أشرنا آنفا إلى انتقال الأمراء والعلماء، فإن انتقال الصناع يعتبر عظيم الأهمية فى نقل التأثيرات السجلوقية إلى مصر ، خصوصا بالنسبة للعمارة والفنون بصفة خاصة ولعل حروب التتار فى بلاد الشام وآسيا الوسطى كانت من الأسباب الهامة لارتحال الصناع فيذكر أبو شامة[3] : فى حوادث سنة ٦٦٠هـ/ ١٢٦٠م أنه لما وقع على دمشق أرجاف عظيمة من التتار ، تجهز الناس فيها للهرب إلى الديار المصرية، وباع الناس حواصل القلعة للهرب . وألزم ولاة الأمر كبراء دمشق بالرحيل بأهليهم إلى مصر وألزموا أرباب الدواوين المتصرفين لهم بإرسال نسائهم إلى مصر ، بل ألزم ولاة الأمر جمعا كبيراً من أهل الأسواق ـ ومنهم الصناع ـ اللذين بالقيسارية الفخرية والخواصين وغيرهما من جماعة القواسين وغيرهم وأخرجوهم إلى مصر كرهاً » .

وعندما خرج الناصر محمد سنة ٦٩٩هـ/ ١٢٩٩م لحرب التتار فى الشام ، وخرج أهل دمشق والبلاد الشامية ، وتوجه الكثير منهم إلى جهة مصر[4] ، حتى غصت القاهرة ومصر وما بينهما بكثير ممن ورد منهم حتى ضاقت بهم المساكن ونزلوا بالقرافة وحول جامع ابن طولون ، وطرف الحسينية ، وقد ذهب مال كثير مع هروب هؤلاء إلى مصر ، إلا أنهم لسعة أحوالهم ـ أى المصريين ـ لم يبالوا بذلك[5] .

ولا شك أن هذه الأعداد الهائلة التى وفدت إلى مصر شاركت أهل البلد فى صناعاتهم بحثاً عن مصادر الرزق لمعيشتهم .

ولم يقتصر الأمر على الصناع الذين وفدوا فراراً من التتار ، بل أن المماليك أنفسهم استجلبوا مهرة الصناع من وسط آسيا وبخاصة فى عصر السلطان الناصر محمد بن قلاوون الذى استدعى إلى مصر الأمير قطلو بك بن قراسنقر مهندس مدينة

---

(١) ابن تغرى بردى : المنهل ، جـ٥ هامش ١ ص ١٩٤ .

(٢) راجع : المقريزى : الخطط ، جـ٢ ص ٤٣٢ : ٤٣٤ .

(٣) أبو شامة : الذيل على الروضتين ، ص ٢١٩ .

(٤) المقريزى : السلوك ، جـ١ ، ق ٣ ، ص ٨٨٩ .

(٥) المقريزى : السلوك ، جـ ١ ق ٣ ، ص ٨٩٨ ، ٩٠٤ .

الرى ليعمر قناة بالقدس ، ثم استدعاه لمشروع عمل قناة بركة الحبش (لم تتم)[1].

وكما يذكر المقريزى[2] : أن الناصر محمد سنة ٧٣٨هـ/ ١٣٣٨م استدعى المهندسين[3] من دمشق وحلب والبلاد الفراتية ... لأخذ رأيهم والاشتراك فى تنفيذ الجسر بوسط النيل » ، كما استدعى من تبريز عمالاً لانجاز مسجده بالقلعة[4].

وكان من ضمن هؤلاء الوافدين من بلاد الشرق من تولى مناصب كبرى فى مصر ومنهم من كان من أصحاب الحرف ـ ولكن المصادر فى كثير من الأحيان لم تكن تهتم بحرف هؤلاء ـ مثل الأمير ناصر الدين ذبيان بن عبد الله الشيخى[5] الذى حضر من بلاد مارين مع شمس الدين محمد بن الشيتى[6] إلى دمشق حيث صنع فيها خياطه الاقباع ، ثم قدم مصر حيث عينه الأمير ركن الدين بيبرس الجاشنكير والياً على القاهرة ، ثم وزيراً (ت ٧٠٤هـ/ ١٣٠٤م) .

ونتيجة لهذه الحركة الدائبة من الوافدين إلى مصر من الشرق، ظهرت أسماء بعض هؤلاء الصناع الوافدين على فنون ومنتجات مصر والقاهرة بألقاب منعوتة على البلدان حيث مسقط رأسهم فصرنا نقرأ على التحف المعدنية والخزفية ـ بوجه خاص ـ ألقابا منها « الشامى ، العجمى ، الموصلى ، التبريزى ، أو التوريزى » ، وغيرهم[7] . الأمر

---

(١) حسن عبد الوهاب : الرسومات الهندسية للعمارة الإسلامية (من أبحاث كتاب « دراسات فى الآثار الإسلامية ـ الصادر عن المنطقة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، القاهرة ١٩٧٦») ، ص ٣٧ .

(٢) المقريزى : الخطط ، جـ٢ ص ١٦٧ .

(٣) من بين هؤلاء المهندسين من تلقى علومه فى مدرسة حلب للهندسة التى أنشأها نجم الدين اللبودى من أهل القرن السادس الهجرى (١٢م) .
حسن عبد الوهاب : المرجع نفسه ، ص ٤٠ .

(٤) سوف نوضح ذلك فى العمارة .

(٥) ابن تغرى بردى : المنهل ، جـ٥ ص ٣٣٤ ـ ٣٣٥ ، هامش ١ ، ٢ ص ٣٣٤ .

(٦) راجع ابن حبيب ، المصدر السابق ، جـ١ ص ٦٦ .

(٧) راجع : عن توقيعات هؤلاء الصناع على التحف المصنوعة فى القاهرة ومصر :
حسن الباشا : الفنون والوظائف ، جـ٢ ص ٩٧٥ .
حسين عليوة : (د.) دراسة لبعض الصناع والفنانين بمصر فى عصر المماليك . مجلة كلية الآداب جامعة المنصورة ، مايو ١٩٧٩ ص ٩٠ سعيد الديوة جى : الموصل فى عهد الأتابكى ، ص ٥٨ .

الذى سوف نشير إليه فى دراستنا للفنون ، وإن كان الأستاذ عبد الرؤوف على يوسف[1] قد تشكك فى بعض هذه الألقاب وذكر أنها ربما تكون غير حقيقية بغرض ترويج الصناع إنتاجهم وذلك لشهرة هذه البلاد فى صناعة الخزف .

غير أنه لا يمكن التسليم بالرأى السالف على إطلاقه خصوصاً بعدما ثبت بأدلة كافية انتقال الناس من جميع الطوائف والحرف إلى مصر ، وقد تركت الحرية للكثر منهم فى أن يمارسوا الأعمال التى يجيدونها ، ولازم هذا الوجود الحقيقى للصناع فى مصر ، أن تكون توقيعاتهم على التحف التى صنعوها هى توقيعات حقيقية .

وحتى بالنسبة للتحف التى تحمل ألقابا لصناع لم يقوموا بصناعتها فى الحرف الحقيقية ، فإن ذلك دليل على مدى التأثير السلجوقى الآتى من الشرق وعلى أن التحف المنعوتة على ألقاب الشرقيين كانت تقليداً لنماذج أصلية صحيحة ومن ثم متأثرة بها .

٥ ـ طريق التجارة والتجار الوافدين :

ازدهرت التجارة فى مصر فى عصر المماليك ازدهاراً لم يسبق له مثيل ، بحيث صارت القاهرة عاصمة العالم التجارية بسبب اضمحلال طرق التجارة الأسيوية القادمة من الشرق عن طريق الخليج الفارسى ، فقد أصبحت تنتهى عند عدن ، ثم تعود من حيث جاءت . ولم يكن يسمح لها بالمرور شمالا فى البحر الأحمر ، وبصفة خاصة فى القرن الثالث عشر الميلادى . واضمحل أيّاً طريق التجارة القادم عن طريق بلاد فارس من الشرق بسبب غزو التتار ، حيث اتخذها هولاكو مركزاً لدولته . لذلك احتكر المماليك تجارة الشرق والغرب عبر الطريق الوحيد الذى ظل بعيداً عن الأخطار ، وهو طريق البحر الأحمر وموانى مصر التى تشرف عليه[2] .

---

(١) عبد الرؤوف على يوسف : الخزف ، ص ٣١٩ .

(٢) أبى الفدا : المصدر السابق ، جـ٤ ص ١١٨ .

ابن تغرى بردى : النجوم جـ٧ ص ١٨٢ .

سعيد عاشور : العصر المماليكى ص ٢٩٦ : ٣٠٠ .

صور من مجتمع القاهرة (المجلة التاريخية م ٨ لسنة ١٩٧١م) ص ١٧٢ عبد العزيز عبد الدايم (د.) : الصراع بين القوى المسيحية ودولة المماليك الجراكسة فى مياه البحر المتوسط (كتاب مصر وعالم البحر المتوسط) دار الفكر ـ الطبعة الأولى ، القاهرة ١٩٨٦م ، ص ٢٠٦ .

وقد واكب ذلك أن سلاطين المماليك حاولوا توفير الأمن والحماية للتجار وجذبهم بمتاجرهم إلى مصر بشتى الطرق فقد أعفى الظاهر بيبرس المترددين من بلاد القفجاق من الصادر والوارد ، ويعمل بذلك حيث حلوا من مملكة بركة خان ومنكوتمر وبلاد فارس وكرمان[1] . كما كتب السلطان المنصور قلاوون (٧٩ ـ ١٢٩٠م) منشور أمان للتجار الوافدين إلى مصر ، ولكل شخص من التجار وأرباب التكسب ، أى عامة الحرفيين والمهنيين أو أهل التسبب من الصين والهند والسند وبلاد العجم والروم والعراق والحجاز واليمن ، وبحيث يضمن لهم المكان الرائع والاستقبال الحسن والرعاية الكاملة[2] ، فقد كان يتعهد الوصاة على التجار[3] .

واهتم سلاطين المماليك كذلك بالتجار الوافدين فى تهيئة الأماكن المخصصة لاستقبالهم وبضائعهم وتوفير سبل الراحة لهم من خلال كثرة المنشآت التجارية العديدة التى شيدوها فى عصرهم لراحة التجار ولتنشيط التجارة مثل الفنادق كفندق طرنطاى ومسرور[4] ، والخانات والقياسر والرباع وغيرها[5] . وقد تشبهوا فى ذلك بسلاطين السلاجقة من حيث اهتمامهم بكثرة المنشآت التجارية التى أقاموها على طرق التجارة مثل الخانات العديدة التى شيدت فى وسط آسيا[6] .

أيضًا شجع السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون تنشيط التجارة والتجار الوافدين إلى مصر سواء فى الداخل ، أو فى الخارج مع القسطنطينية وملوك أسبانيا وأمراء نابلى وجنوة ، وسلاجقة آسيا الصغرى ، فانتشرت التجارة بين مصر وبين تلك

---

(١) وصل عناية سلاطين المماليك بأمر التجارة والتجار ، أن السلطان الظاهر بيبرس عندما علم أن صاحب سيس منع بعض التجار القادمين من بلاد العجم العبور من بلاده ، أرسل له يخيفه ويحذره إذا تعرض أحد لهم بشىء يساوى درهما واحدا أخذت عوضه مرارا وبالفعل أخلى سبيلهم .
ابن تغرى بردى : النجوم ، جـ٧ ص ١٨٠ .

(٢) من مثال (صورة أمان) إلى أكابر بلاد السند والهند والصين واليمن . لمن اختار الحضور إلى الديار المصرية والبلاد الشامية وسير مع التجار . بن عبد الظاهر : المصدر السابق ص ٢٣٦ .

(٣) بيبرس المنصورى : المصدر السابق ، ص ٩٢ .

(٤) مجمد جمال الدين سرور : دولة بنى قلاوون ، ص ٣٢٥ .

(٥) راجع : نعيم زكى فهمى (د) : طرق التجارة الدولية ومحاطتها بين الشرق والغرب (أواخر العصور الوسطى) ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٧٥ ، ص ٢٨٠ : ٢٩٦ .

(٦) راجع : اصلاناپا : المرجع السابق ، ص ٤٧ : ٤٩ ، ١٢٠ : ص ١٣٦ .

الأقاليم[1] ، وخاصة أن التجار في ذلك الوقت كانوا من أهم مصادر زيادة عدد المماليك (الرقيق) المجلوبين من بلاد أزبك وتوريز والروم وبغداد وغيرها من البلاد لسلاطين وأمراء المماليك في مصر[2] ، وكانت التجارة منتعشة بوجه خاص أيضاً مع سلاجقة الروم في آسيا الصغرى لأنهم كانوا يستوردون من مصر القطن والتوابل والسكر والأسلحة ، فقد ظلت التجارة بينهما حتى الربع الثاني من القرن الثالث عشر الميلادي[3] . وكان بعض أمراء المماليك يقومون بالتجارة أيضاً لحسابهم الخاص مثل الأمير عز الدين أيدمر[4] . وأصبح لهؤلاء التجار تأثير على النواحي الحضارية في مصر سواء بالسلع التي يحملونها من الأقطار التي يجوبونها ، أو لنقل الأخبار والمعلومات السياسية والعلمية وغيرها إلى مصر أو من خلال الآثار المعمارية والفنية التي شاركوا في إقامتها في القاهرة .

ومن مشاهير التجار التاجر الكارمي شمس الدين محمد بن أبي الفتح ابن الكويك (ت ٧١٤هـ/ ١٣١٤م)[5] وعبد اللطيف بن أحمد بن محمود التكرور أحد رؤساء الكارمية[6] الذي بنى مدرسة في الإسكندرية لتدريس علم الحديث . وعبد اللطيف بن رشيد بن محمد الكارمي (ت ٧١٣هـ/ ١٣١٣م)[7] . ومهما كان مسقط رأس هؤلاء التجار ، فعن طريق ارتحالهم من أجل التجارة نقلوا معهم من هناك إلى هنا التأثيرات الحضارية . بل أن تجار الكارمية من كثرتهم وأهميتهم في عصر المماليك

---

(١) علي إبراهيم حسن : تاريخ المماليك البحرية ص ٤١٦ .
(٢) المقريزي : السلوك ، جـ٢ ق ٢ ، ص ٥٢٤ .
(٣) تماراريس : المرجع السابق ، ص ١٢٧ .
(٤) ابن تغرى بردى : النجوم جـ٧ ص ٢٢٧ .
(٥) سحر السيد عبد العزيز : المرجع السابق ، ص ٤٠ .
(٦) الكارمية : أو الكارم نسبة إلى مملكة الكانم وتعرف أحياناً باسم التكرور نسبة إلى مملكة التكرور .
وأطلق لفظ الكارمية على تجار منطقة السودان الغربي وأفريقية الوسطى ، وتركزت تجارتهم في التوابل والفلفل والبهارات والبخور ، والقرنفل ، بحيث أصبح اسم الكارمية يطلق على من يتاجر في البهار والفلفل حتى ولو كان مجلوبا من اليمن والهند والصين . وتركز نشاط الكارمية في مدينة قوص بالصعيد .
سعيد عبد الفتاح عاشور : العصر المماليكي ، ص ٣٠٢ ـ ٣٠٣ .
(٧) السيد عبد العزيز سالم (د.) تاريخ الإسكندرية وحضارتها ، ص ٥٣٨ .

كونوا لأنفسهم نقابة أطلق على رئيسها لقب « رئيس الكارمية » ، وكان الكثير من التجار هم فى نفس الوقت من العلماء .

فمن التجار والعلماء فى آن واحد ، التاجر العالم الشيخ المسند أبو الفرج عبد اللطيف ابن هبة الله النميرى الحرانى الحنبلى المنعوت « بالنحيب » ، مسقط رأسه فى هراة (٥٨٧هـ/ ١١٩١م) توفى بالقاهرة (٦٧٢هـ/ ١٢٧٣م)، وكان من الرواة للحديث تولى مشيخة دار الحديث الكاملية بالقاهرة(١) . ومن التجار الأدباء ، الأديب الشاعر شهاب الدين أبو العباس العزازى ، التاجر بقيسارية جهاركس بالقاهرة (٦٣٤ ـ ٧١٠هـ/ ١٢٢٦ ـ ١٣١٠م) ، له ديوان شعر وموشحات أدبية(٢) .

ومن التجار الذين أضافوا فى عمارة القاهرة ، التاجر برهان الدين إبراهيم الحلى (أو المحلى) (٧٤٥ـ ٨٠٦هـ/ ١٣٤٤ ـ ١٤٠٣م)، انتهت إليه رياسة التجار ، جدد جامع عمرو بن العاص بمصر القديمة ، وشيد عددا من العمائر تنسب إليه مثل المدرسة التى أنشأها بجوار داره بظاهر مصر(٣) .

ومن التجار والعلماء الذين تولوا مناصب عليا فى عصر المماليك بمصر ، الشيخ المحدث أبو المظفر منصور بن سليم بن فتوح الإسكندرانى (ت ٦٧٣هـ/ ١٢٧٤م) سافر إلى بغداد وأقام بها مدة وسمع بها الكثير ثم عاد إلى الإسكندرية ، وتولى الحسبة ودرس وحدث وجمع وصنف ، وألف تاريخًا لبلده الإسكندرية(٤) . ومثل شمس الدين

---

(١) العينى : عقد الجمان ، جـ٢ ص ١٢٥ .

(٢) ابن تغرى بردى : المنهل ، جـ١ ص ٣٦٢ .
ابن حبيب : المصدر السابق ، جـ١ ص ٣٤ .

(٣) ابن تغرى بردى : المنهل ، جـ١ ص ١٣٠ ـ ١٣١ .
أشار المقريزى إلى مدرسة الحلى أو المحلى أنها تجاه الصاغة بخط سوق المعاريج ، الخطط ، جـ٢ ص ٧٩ .
وذكر المقريزى : أنه أنشأ بجوار داره المدرسة وجعل بجوارها مكتب السبيل (كتاب) وفيما يبدو أنها كانت مدرسة عظيمة إذ استمر بناؤها نحو سبع سنين وتكلفت خمسين ألف دينار .
الخطط ، جـ٢ ص ٣٦٨ ـ ٣٦٩ .

(٤) العينى : عقد الجمان ، جـ٢ ص ١٣٦ : ١٣٧ .
تحظى مصادر العصر المملوكى بذكر أعداد كبيرة من التجار الذين كانوا علماء فى نفس الوقت .
راجع على سبيل المثال السيوطى : حسن المحاضرة جـ١ ،
ابن تغرى بردى : المنهل

محمد بن السلعوس الذى استوزره سنة ٦٨٩هـ/ ١٢٩٠م السلطان الأشرف خليل بن قلاوون وبسط يده ولسانه وأطلق فى ميدان الأمر والنهى ، وكان أصلا من تجار الشام الذين ارتحلوا إلى مصر[١] ، وغيرهم كثيرون[٢].

٦ ـ الهدايا والمقتنيات :

يعتبر انتقال التحف من بلد إلى آخر من أسرع وأسهل الطرق لانتقال التأثيرات الحضارية ، إذ يتمكن الصانع أو الفنان ـ المنقولة إليه التحفة ـ أن يتعرف مباشرة على شكل التحفة وطريقة صناعتها وزخرفتها فيتأثر بها ويحاول أن يحاكيها أو يستلهم أشكالا وزخارف جديدة منها ، وقد أشرنا إلى هذا المعنى فى المقدمة وقد انتقلت هذه المقتنيات ـ خاصة من بلاد الشرق ذات الحضارة السلجوقية ـ إلى العصر المملوكى فى مصر من خلال عدة طرق . فالوافدون من تلك البلاد سوف ينقلون لا شك معهم بعض ممتلكاتهم الشخصية ، أو حتى مجرد الزى الذى ارتحلوا فيه بما يحمله من مادة خام وطريقة الصناعة والزخارف ، علاوة على ما يدخل مصر من تلك البلاد بغرض التجارة، يضاف إلى ذلك ما كان يرد مصر كغنائم حرب من تلك البلاد ، فعلى سبيل المثال عندما انتصر الظاهر بيبرس على التتار والروم فى الابلستين « حمل له ما تركته كرجى خاتون امرأة البرواناه من الأموال التى لم تقدر على حملها معها ، وما خلفه سواها مما انتزح معها وظهر لها ولزوجها معين الدين البرواناه موجود نفيس فأخذ السلطان ذلك كله »[٣] بخلاف التحف الواردة إلى مصر كهدايا ومن أمثلة ذلك «٦٧٧هـ/ ١٢٧٨م » عندما أرسل الأمير سيف الدين طرنطاى وزوجته من اماسية ـ بالأناضول ـ رسولا وهدية إلى الديار المصرية »[٤]. علاوة على ما كان يجلبه أو يقتنيه أمراء الدولة المملوكية من البلاد الشرقية التى اشتهرت بمنتجاتها فى نوع معين من التحف ، فيذكر ابن تغرى بردى :[٥].

---

(١) بيبرس المنصورى : المصدر السابق ، ص ١٢٥ .

(٢) راجع : سحر السيد عبد العزيز سالم : المرجع السابق ، ص ٤١ : ٤٤ .

(٣) المقريزى : السلوك ، جـ١ ق ٢ ص ٦٣١ .

(٤) العينى : عقد الجمان ، جـ٢ ص ٢/٤ .

(٥) ابن تغرى بردى : النجوم ، جـ١٠ ص ٤٤ ، ٤٥ .

أن العامة عندما نهبت حواصل الأمير قوصون (٧٤٢هـ/ ١٣٤١م) « عثر فيها على مائة وثمانين زوج بسط منها ما طوله أربعون ذراعًا وثلاثون ذراعًا ، كلها من عمل الروم وآمد وشيراز » .

وفيما يبدو أن توسع سلاطين المماليك فى علاقاتهم الخارجية مع الدول الأخرى وتبادل السفارات بينهم ، جعل التقدمة أو الهدايا المتبادلة أمر ضرورى بينهم كدليل على حسن النوايا وكسب العلاقات الطيبة أو المبالغة فى إظهار الود والاحترام المتبادل ، بحيث أن المقريزى[1] : ذكر أن من اختصاصات ديوان المجلس « ما يرد من ملوك الدنيا من التحف والهدايا وما يرسل إليهم من الملاحظات ومقادير الصلات للمترسلين بالمكاتبات » .

(ب) مظاهر التأثيرات السلجوقية فى الحضارة المملوكية بمصر :

كثير من التأثيرات السلجوقية فى الظواهر الحضارية المملوكية التى سوف نتناول دراستها فى هذا الفصل سبق ظهورها فى عصر الأيوبيين ، غير أننا سوف نواصل إبراز مدى استمرارية هذه الظواهر الحضارية وتطورها وأثر تفاعلها مع البيئة الحضارية المحلية فى مصر حتى أفرزت عوايد جديدة لم تكن موجودة فى مصر الإسلامية من قبل .

١ ـ مظاهر التأثيرات السلجوقية فى نظم الحكم المملوكية بمصر :

استخدام لقب السلطان ومضمونه :

إذا كان الأيوبيون قد أخذوا عن السلاجقة جعل نظم القيادة العليا فى البلاد «للسلطان» فإن المماليك قد ورثوا عن سلاطين السلاجقة كل المعانى التى كانت تندرج للقب السلطان ، وخاصة بعد أن أحيا الظاهر بيبرس الخلافة العباسية فى القاهرة، وأخذ ، بمقتضى ذلك التفويض الشرعى من الخليفة على حكمه للبلاد كسلطان . وتشبّه المماليك بالسلاجقة فى أن دار السلطنة تقع على مقربة من مقر الخليفة العباسى فى نفس المدينة[2] وبناء على ذلك اقتصر لقب السلطان على سلطان

---

(١) المقريزى : الخطط ، جـ١ ص ٣٩٧ : ٣٩٨ .

(٢) كان للسلاطين السلاجقة دار للسلطنة فى بغداد عاصمة الخلافة العباسية ، وبمقتضى ذلك الوضع سحب السلاجقة من الخليفة العباسى معظم اختصاصاته ، وضعفت بذلك سلطة الخليفة ، =

مصر المقيم فى القاهرة المفوض من الخليفة العباسى ، أما من دونه فكانوا ملوكاً وأمراء وإذا كان جميع أفراد الأسرة الأيوبية قد استعملوا لقب السلطان حتى عم أمراءهم ، فإن سلطان مصر فى عصر المماليك اعتبر وحده صاحب الحق الشرعى فى الحكم[1]. وبذلك أصبح لقب سلطان مصر فى عصر المماليك له نفس المدلول الواسع الذى كان يعنيه عندما تلقب به السلاجقة ، وهو المعنى الذى أشار إليه السيوطى فى العبارة التالية:[2] « السلطان هو من يكون فى ولايته ملوك فيكون ملك الملوك فيملك مثل مصر والشام ، أو مثل أفريقية أو مثل الأندلس ، ويكون عسكره عشرة آلاف فارس أو نحوها ، فإذا زاد بلاد أو عددا فى الجيش كان أعظم فى السلطنة وجاز أن يطلق عليه السلطان الأعظم ، فإن خطب له فى مثل مصر والشام ، والجزيرة ومثل خراسان وعراق العجم وفارس ومثل إفريقية والمغرب الأوسط والأندلس كان سمته سلطان السلاطين كالسلجوقية »[3]. وقد تحقق هذا المعنى لسلاطين المماليك وبسطوا أيديهم على بلاد كثيرة[4] لم تكن تحت سيطرة سلاطين الأيوبيين ، بحيث امتدت سيطرتهم على عدد

= ولذلك بعد أن قضى الخوارزمية على السلاجقة العظام ، طلب خوارزم شاه من الخليفة العباسى الناصر لدين الله (ت ٦٢٢هـ/ ١٢٢٥م) السلطنة وإعادة دار السلطنة إلى ما كانت عليه وأن يجيء بغداد ويكون الخليفة تحت يده كما كانت الملوك السلجوقية فهدم الخليفة دار السلطنة ورد رسوله بلا جواب » راجع :

ابن كثير : المصدر السابق ، جـ١٣ ص ٧٦ (الطبعة السابعة ١٩٨٨)

المقريزى : السلوك ، جـ١ ق ١ ص ٢١٨ .

السيوطى : تاريخ الخلفاء ، ص ٤٥٤ ـ ٤٥٥ .

(١) فقد ذكر ابن شاهين : « ... لا يطلق لفظ سلطان إلا لصاحب مصر نصره الله فإنه الآن أعلا الملوك وأشرفهم لرتبة سيد الأولين والآخرين ، وتشرفه من أمير المؤمنين بتفويض السلطنة له على الوجه الشرعى لعقد الأئمة الأربعة » .

غرس الدين خليل الظاهرى : (ت ٦٨٣هـ/ ١٤٦٨م) .

زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك ـ اعتنى بتصحيحه بولس روايس ـ باريس ١٩٨٤ ، ص ٨٩ .

راجع : أحمد مختار العبادى : المرجع السابق ، ص ١٩٠ ، هامش ٢ ص ١٩٠ : ١٩١ .

(٢) حسن المحاضرة : جـ٢ ، ص ١٢٥ ـ ١٢٦ .

(٣) راجع : العينى : السيف المهند ، ص ١٧٥ .

(٤) فى عصر الملك المنصور قلاوون امتدت مملكة سلاطين المماليك على سائر الأقاليم الرومية والعراقية والمشرقية والشامية والحلبية والفراتية واليمنية والحجازية والديار المصرية والمغرب ، كما ورد فى نسخة الهدنة بين الريدراكون البرشنونى وأخوه صاحب صقلية ، مع مولانا السلطان المنصور .

ابن عبد الظاهر: المصدر السابق ، ص ١٥٨ .

من الدول ، تقارب تلك التى دخلت فى حكم السلاجقة ، ولذلك فقد أخذ سلاطين المماليك ألقاباً تحمل هذا المعنى عرفت قبلهم عند السلاجقة وتوحى بمدى نفوذهم ، مثل لقب « سلطان أرض الله الذى أطلق على ملكشاه[1] ، فقد تلقب الظاهر بيبرس بلقب له نفس مدلول اللقب السابق وخاصة بعد إحيائه للخلافة العباسية وهو « لقب سلطان الإسلام والمسلمين [2] . كما أخذ سلاطين المماليك عن السلاجقة لقب « قسيم أمير المؤمنين » ويذكر السيوطى :[3] أنه من أجل الألقاب التى لم تمنح حتى لسلاطين بنى أيوب ، فقد منحوا ألقاباً دون ذلك . بل أن لقب «سلطان العرب والعجم والترك »[4] الذى أطلق على السلطان قلاوون يكفى للدلالة على كثرة البلاد التى خضعت لحكمهم .

ولما أحيا بيبرس الخلافة العباسية فى القاهرة ، جُعل الخليفة العباسى تحت يد سلطان المماليك الذى استأثر دون الخليفة بالقوة والنفوذ على غرار ما فعل السلاجقة فى عاصمة الخلافة العباسية فى بغداد ، وهكذا أصبح لقب « سلطان » المخلوع على المماليك ملاء كله . وقد تحقق هذا المعنى فى لقب « وارث الملك »[5] الذى أطلق على السلطان الظاهر بيبرس ضمن النصوص التأسيسية المؤرخة سنة ٦٦٤هـ/ ١٢٦٥م فى مسجد كار .

وقد شُغف سلاطين المماليك مثل السلاجقة بالألقاب الكثيرة وخاصة الدالة على مدى اتساع ملكهم ، ومن أمثلة تعدد الألقاب عند السلاجقة ، ألقاب السلطان سنجر: « سلطان خراسان المعظم شاهنشاه مالك رقاب الأمم وسيد سلاطين العرب والعجم ، ناصر دين الله مالك عباد الله الحافظ بلاد الله سلطان أرض الله ، معين خليفة الله ،

---

(١) الباشا : الألقاب ، ص ٣٣١

(٢) السيوطى : حسن المحاضرة ، جـ٢ ص ٥٣ .
يحتمل أن اللقب أطلق فى عصر الأيوبيين على السلطان صلاح الدين .
راجع :
الباشا : الألقاب : ، ص ٣٣٢ ـ ٣٣٣

(٣) السيوطى : حسن المحاضرة ، جـ٢ ص ٩٥ .

(٤) من وثيقة وقف السلطان قلاوون مؤرخة سنة ٦٨٥هـ/ ١٠١٠أوقاف .
بن حبيب : المصدر السابق ، جـ١ ، ص ٣٣٤

(٥) حسن الباشا : الألقاب ، ص ٥٣٨

معز الدنيا والدين ، كهف الإسلام والمسلمين ، عضد الدولة القاهرة ، تاج الملة الظاهر، غياث الأمم الباهرة ، أبو الحرث سنجر بن ملك شاه برهان أمير المؤمنين »[١] .

وهذه الألقاب يمكن مقارنتها بتعدد الألقاب لأحد سلاطين المماليك فى مصر وهو السلطان قلاوون والتى نشير إليها فيما يلى :

« مولانا السلطان الملك المنصور سيف الدنيا والدين سلطان الإسلام والمسلمين سيد الملوك والسلاطين سلطان الديار المصرية والبلاد الشامية والحلبية والفراتية وقلاع الروم وبلادها وبلاد الشرق ملك البسيطة أبى الفتح قلاوون الصالحى قسيم أمير المومنين »[٢] .

القوة مصدر السلطة :

وضحنا فى الفصل السابق كيف تأثر الأيوبيون فى مصر بنظم الحكم عند السلاجقة الخاصة بمبدأ أن ولاية عرش السلطنة يكون للأقوى[٣] . وقد استمر هذا التأثير الحضارى للسلاجقة فى عصر سلاطين المماليك وكانوا أكثر عملا به من بنى أيوب ، فلم يكن كل سلاطين العصر المملوكى سلالة أسرة واحدة ، رغم حدوث توريث العرش فى أبناء بعض الأسر الحاكمة من المماليك كأسرة قلاوون .

ولعل من الأسباب التى أدت إلى استمرار هذه الظاهرة الحضارية المأخوذة عن نظم الحكم السلجوقى ، فى العصر المملوكى ، أنها كانت متبعة فى القبائل التى جلب منها المماليك حيث مسقط رأسهم ، ثم جعلت من المبادئ التى تدرس لهم عند

---

(١) وردت الألقاب فى الكتابات التأسيسية فى ضريح الرضا بمشهد للسلطان سنجر ، الذى ولد بسنجار فى رجب سنة ٤٧٩هـ / ١٠٨٦م ، وتوفى ٥١٢ هـ/ ١١١٨م .
راجع عن الألقاب الواردة فى النص :
الباشا : الألقاب : ص ٣٤٩ ، ٥٢٩ ، ٣٣١ ، ٤٧٨ ، ٤٧٦ ، ٤٧٧ .

(٢) وردت الألقاب فى نسخة الهدنة التى تم بمقتضاها الصلح بين السلطان المنصور قلاوون وتكفور صاحب سيس عاصمة بلاد الأرمن .
بن عبد الظاهر : المصدر السابق ، ص ٩٤

(٣) أساس السلطة فى الإسلام الشورى لا القوة ، إذ الأخيرة هى ، على التحقيق ، من مبادئ الحياة القبلية التركية التى أعلت قيمة القوة والشجاعة والفضيلة الحربية .

تنشيئتهم فى الطباق وفحواها « أن الملك يجب أن يكون لأقوى الأمراء شجاعة ومهارة فى الحروب وأكثرهم وأقواهم اتباعا من المماليك وأضخمهم ثروة ، وبحيث يختارونه من بينهم لأنه امتاز عنهم بما وهب الله له من قوة وبسالة ودهاء وسعة حيلة فتمكن من قيادتهم[1] .

وقد سبق وأشرنا أن السلاجقة افتتحوا السلطنة بهذا المبدأ المتمثل فى ولاية طغرلبك للعرش ، رغم أنه كان أصغر من أخيه جغرى وقد أطلق هذا المبدأ فى بداية حكم المماليك عندما تمكن الأمير سيف الدين قطز (٦٥٧ـ ٦٥٨هـ/ ١٢٥٩م) بفضل قوته وقوة مماليكه وباقتناع المماليك ، أن يعزلوا عن السلطنة الملك المنصور نور الدين على ابن المعز أيبك (٦٥٥ـ ٦٥٧هـ/ ١٢٥٧ـ ١٢٥٨م) ، ففى رأيهم أنه صبى صغير لا يعرف تدبير المملكة ولا غنى للمسلمين عن ملك قوى يقوم بالحوزة عن المسلمين والدين ، وقد توفر فى الأمير قطز الشجاعة والفروسية وزعامة الجيش لذلك اختاروه سلطانًا عليهم[2] .

وهكذا جاء استيلاء قطز على السلطنة كما لو كان نوعا من الامتداد للنظم الحضارية السلجوقية فى مصر لأن الأمير قطز يعتبر من سلالة السلاجقة ، إذ يذكر العينى[3] عنه: « أنه محمود بن مودود بن أخت جلال الدين خوارزم شاه السلجوقى ـ وهو القائل : لابد أن أملك مصر وأكسر التتار » .

وقع بلغ من إيمان أمراء المماليك بمبدأ عرش السلطنة للأقوى ، أنهم كانوا يسألو

---

(١) على إبراهيم حسن : تاريخ المماليك ، ص ١٩٦ .
سعيد عاشور : العصر المماليكى ، ص ١٥ .
يعتبر مبدأ الوراثة على منصب السلطان فى العصرين السلجوقى والمملوكى هو الاستثناء من القاعدة ، فقليلا ، ما كان يرث الابن عن أبيه السلطنة ، راجع أمثلة الوراثة على عرش السلطنة عند السلاجقة والمماليك . / الحسينى : المصدر السابق ، ص ١٥٥ .
على إبراهيم حسن : المرجع نفسه ، ص ٥٨ .

(٢) العينى : عقد الجمان ، جـ١ ص ٢٢٠ .
على إبراهيم حسن : المرجع السابق ، ص ٤٤ .

(٣) عقد الجمان ، جـ١ ص ٢٥٥ / ويقال أن سر انتصار الأمير قطز على التتار فى عين جالوت ـ مع بيبرس ـ لأنه قد عقد العزم على الأخذ بثأر خاله خوارزم شاه الذى قتله التتار . راجع : العينى : المصدر نفسه ، جـ١ ص ٢٥٨ .

من ضرب أول ضربه فى مقتل السلطان الحالى ، ليكون هو السلطان بدلا منه ، وهو ما حدث للأمير ركن الدين بيبرس البندقدارى[1] (٦٥٨ـ ٦٧٦هـ/ ١٢٥٩ـ ١٢٧٧م) ، فقد كان أول من ضرب بسيفه قطز ، ولما علم الأمراء بذلك قبلوا سلطنته عليهم وأجلسوه فى مرتبة السلطان .

وفيما يبدو أن مبدأ عرش السلطنة للأقوى ترتب عليه ظهور نظم حضارية أخرى ، كتولى السلطان الواحد للسلطنة على عدة فترات[2] ، فيقال « سلطنته الأولى ، وسلطنته الثانية ، ثم الثالثة ، وهكذا » وأطلقت عليها بعض المصادر تعبير « الولاية الأولى ، وبعد العودة مرة ثانية للعرش تعرف بالولاية الثانية وهكذا[3] فعزل السلطان أو هروبه من السلطنة فى المرة الأولى ، هو دليل على أنه كان من الضعف أمام قوة ومؤمرات مماليك أخرى أقوى منه ، ولذلك لم يتمكن من الاحتفاظ بالسلطنة ، إلا أن فطنته وذكاءه وإيمانه بالمبدأ تجعله يترك السلطنة فى الوقت المناسب لغيره من الأقوياء حتى يتمكن من استعادة قوته وقوة وعدد مماليكه وبذلك يتمكن من العودة إلى عرش السلطنة مرة أخرى .

وهذا الأسلوب فى تولى السلطنة على عدة مرات ظهر على ما يبدو لأول مرة عند سلاطين سلاجقة الروم ، فقد تولى السلطان غياث الدين كيخسرو السلطنة للمرة الأولى سنة ٥٨٨هـ/ ١١٩٢م ثم عزل ، وتولاها للمرة الثانية سنة ٦٠١هـ/ ١٢٠٤م. وتولى أيضًا السلطان غياث الدين مسعود الثانى السلطنة للمرة الأولى سنة ٦٨١هـ/ ١٢٨٢م . وتولاها للمرة الثانية سنة ٦٨٣هـ/ ١٢٨٣م وللمرة الثالثة سنة ٦٩٣هـ/ ١٢٦٤م وللمرة الرابعة سنة ٧٠٢هـ/ ١٣٠٣م وتولى كذلك السلطان علاء الدين كيقباد الثالث السلطنة للمرة الأولى سنة ٦٨٣هـ/ ١٢٨٤م ، وللمرة الثانية سنة ٦٩٢هـ/ ١٢٩٣م ، وللمرة الثالثة سنة ٧٠٠هـ/ ١٣٠١م ، وللمرة الرابعة سنة

---

(١) العينى : عقد الجمان ، جـ١ ص ٢٦١ : ٢٦٤ .
على إبراهيم حسن : آراء فى دولة المماليك ، ص ٤٦ .

(٢) على إبراهيم حسن : تاريخ المماليك البحرية : ، ص ٧٠ : ١٠٣ .
الرافعى ، عاشور : المرجع السابق ، ص ٤٨١ : ٤٨٤ راجع : العينى : عقد الجمان جـ٣ ص ٢٢٢ ، ص ٤٤٩

(٣) بن حبيب : المصدر السابق ، جـ١ ص ١٦٩ ، ص ٢١٣

٧٠٤هـ/ ١٣٠٥م[١].

وقد سبقوا بذلك ـ زمنيا ـ سلاطين المماليك فى اتباع هذا النظام ، فأول من عُرف أنه تولى السلطنة على ثلاث مرات كان السلطان الناصر محمد بن قلاوون الذى تولى السلطنة للمرة الأولى سنة ٦٩٣هـ/ ١٢٩٣م وعزل بعد سنة واحدة ، ثم تولاها للمرة الثانية سنة ٦٩٨هـ/ ١٣٠٨م لأنه سافر إلى الكرك وخلع نفسه من السلطنة سنة ٧٠٨هـ/ ١٣٠٩م ثم عاد الناصر للسلطنة المرة الثالثة سنة ٧٠٩هـ/ ١٣٠٨ـ ١٣٠٩م ثم عاد الناصر للسلطنة المرة الثالثة سنة ٧٠٩هـ/ ١٣٠٨م واستمر سلطانا حتى توفى سنة ٧٤١هـ/ ١٣٤٠م[٢]. وأيضًا تولى السلطان الناصر حسن بن الناصر محمد بن قلاوون السلطنة للمرة الأولى سنة ٧٤٨ـ ٧٥٢هـ/ ١٣٤٧ـ ١٣٥١م ثم عزل وعاد للسلطنة المرة الثانية سنة ٧٥٥هـ/ ١٣٥٤ـ ١٣٦٠م[٣].

العلاقة بين سلاطين المماليك والخلفاء العباسيين :

لكى يتبين لنا مدى تشابه موقف السلاجقة من الخلافة العباسية وموقف سلاطين المماليك فى مصر منها نورد فيما يلى المقارنة التى عقدها المقريزى[٤] فى النص التالى :

« أول من قام بدولة الترك السلجوقية ركن الدين طغرلبك ، والملك الظاهر بيبرس هو القائم فى الحقيقة بدولة الترك من يوم وقعة المنصورة وركن الدين طغرلبك هو الذى رد الخلافة على بنى العباس فى نوبة البساسيرى وركن الدين بيبرس هو الذى رد الخلافة على بنى العباس فى نوبة هولاكو » .

---

(١) راجع ، زامباور . المرجع السابق ، جـ١ ص ٢٥ .
اصلانابا : المرجع السابق ص ٣٢٦ ـ ٣٢٧

(٢) أبو اليمن القاضى مجير الدين الحنبلى : الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل المطبعة الوهابية بمصر ط ١٢٨٣ هـ (جزءان) جـ٢ ص ٤٣٦ ـ ٤٣٧ محمد عبد العزيز مرزوق (د.) : الناصر محمد ابن قلاوون (سلسلة أعلام العرب رقم ٢٨) ص ١٠٥ ١٩٩ .

(٣) راجع : ابن إياس : المصدر السابق ، جـ١ ص ١٨٦ / سعيد عاشور : العصر المماليكى ص ١٣١ ، على إبراهيم حسن (د.) : تاريخ المماليك البحرية ص ١٣٠ .

(٤) المقريزى السلوك جـ١ ق ٢ ص ٦٣٩

والواقع أن حرص كل من السلطانين « طغرلبك السلجوقى - وبيبرس المملوكى » على إحياء الخلافة العباسية والإبقاء عليها كان وراءه معنى واحد هو إضفاء الشرعية على حكم كل منهما ، وضمان اعتراف باقى الأمصار الأخرى بالتبعية لسلطانهما

فقد تمكن طغرلبك من إعادة الخطبة لبنى العباس التى كان قد أسقطها البساسيرى لمدة حوالى أربعين جمعة(١) وإعادة الخليفة العباسى القائم بأمر الله من الأسر ، ورد ما قد درس من هيبة الخلافة العباسية وبناء على ذلك اتسعت سلطات طغرلبك وفوض إليه الخليفة جميع ما ولاه الله من بلاده وأصبحت مفوضة للسلطان دون الخليفة ، وفتح بذلك السلطان طغرلبك الباب على مصراعيه لسيادة العنصر التركى فى حكم البلاد الإسلامية .

وبعد إحياء بيبرس(٢) للخلافة العباسية فى القاهرة(٣) - وكانت قد سقطت لمدة ثلاث سنين ونصفا - نجح فى إضفاء الشرعية على تقلد الارقاء من الأتراك السلطنة وحكم البلاد الإسلامية ، وضمان ولاء الحكام التابعين لسلطنتهم .

---

(١) راجع ابن ميسر : المصدر السابق ، ص ٢٠ - ٢١ .
ابن الأثير : الكامل جـ٩ ص ٢٦٤ - ٢٦٥ .
ابن الجوزى : المنتظم ، جـ٨ ص ١٨١ - ١٨٣ .
المقريزى : اتعاظ الحنفا ، ص ٢٥٧ .
السيوطى : تاريخ الخلفاء ص ٤١٨ .

(٢) حاول ابن طولون أن ينقل الخلافة العباسية إلى مصر ليصبح مقرها مصر ، ولكن هناك فرق واضح بين نقل الخلافة إلى مصر وهى موجودة بالفعل وبين محاولة الظاهر بيبرس إعادة احياء الخلافة فى القاهرة بعد سقوطها ، وهو ربط غير دقيق اشارت إليه بعض الآراء .
على إبراهيم حسن : تاريخ المماليك ، ص ٢٤٣ .

(٣) وخاصة أن سيطرة وحروب التتار على بغداد وبلاد الشام ووسط آسيا لم تتيح الأمان والاستمرار لإحياء الخلافة فى غير مصر . فبعد أن اعترف الظاهر بيبرس وكبار رجال الدولة بخلافة المستنصر بالله الإمام أبو العباس أحمد سنة ٦٥٩هـ/ ١٢٦١م ، جهزه وأرسله لمقر الخلافة فى الفرات بالبر الغربى ولكنه استشهد فيها على أيدى التتار فى ٣ محرم سنة ٦٦٠هـ/ ١٢٦٢.
راجع : العينى : عقد الجمان جـ١ ص ٢٩٣ / ٣١٠، ٣٢٨ .
ومن ثم فقد قرر احيائها فى القاهرة بعد حضور أحد سلالة الأسرة العباسية وهو أبو العباس أحمد بن الامير أبى على . وبايعوه بالخلافة فى سنة ٦٦١ هـ / ١٢٦٣م .
العينى : المصدر نفسه ، جـ١ ص ٣٢٩ .

فعندما أعلن بيبرس نفسه سلطاناً فى مصر امتنع الأمير علم الدين سنجر الحلبى والى دمشق من الاعتراف به ، بل أعلن نفسه سلطاناً[1] . ولكى يحرص بيبرس على ضمان الشرعية لسلطنته فقد أقر أربعة قضاة من المذاهب السنية الأربعة وبذلك يكون كما يذكر شاهين الظاهرى[2] : « اكتسب السلطنة على الوجه الشرعى بتفويض الخليفة العباسى وعقد الأئمة الأربعة » .

وكان من أسباب حرص السلاجقة الحفاظ على وجود الخلافة العباسية برغم شدة ضعفها أمامهم ورغم قدرتهم على إسقاطها نهائياً رغبتهم فى أن يشاركوا الخلفاء فى نفوذهم الدينى والولاية على المسلمين وكأنهم شركاء معهم فى الحكم فقد صاهر السلاجقة الخلفاء العباسيين ، فتزوج الخليفة العباسى المقتدى بأمر الله من ابنه السلطان ألب أرسلان ، وحاول ألب أرسلان أن يجعل الخليفة يسند ولاية العهد لابنه جعفراً من ابنته ، ولكن الخليفة فطن لأغراض ونوايا السلطان السلجوقى فأسند ولاية العهد لابنه الأكبر المستظهر بالله[3] .

وظهرت مدى مشاركة السلاجقة فى نفوذ الخلفاء العباسين من خلال الألقاب التى منحت لهم ، وتأثر بهم سلاطين المماليك فى مصر ، فتلقبوا بها لأنها توضح مدى قوة سلطانهم أمام الخليفة العباسى ، فرغم أن مصر عرفت حكم السلاطين فى عهد بنى إيوب إلا أنهم لم يمحوا هذه الألقاب الجليلة القدر ومنها على السلاطين السلاجقة كالسلطان أبى الفتح كيكاوس بن كيخسرو سنة ٦١٢هـ/ ١٢١٥م ، ثم أطلق على سلاطين المماليك فى مصر[4] .

---

(١) العينى : المصدر نفسه ، جـ١ ص ٢٦٥ ، ٢٩٠ .

(٢) ابن شاهين الظاهرى : المصدر السابق ، ص ٨٩ .

(٣) بدأت صلات المصاهرة بين سلاطين السلاجقة والخلفاء العباسيين منذ تزوج السلطان طغرلبك من ابنه الخليفة العباسى القائم بأمر الله سنة ٤٥٤هـ/ ١٠٦٢م
ابن الأثير . الكامل جـ ١٠ ص ٢٢
ابن خلكان : المصدر السابق م ٢ ص ١٦٤
الأصفهانى . المصدر السابق ، ص ٢٦ ـ ٢٧ .
فاضل الخالدى : المرجع السابق ، ص ١٨٥ ـ ١٨٦
راجع محمد جمال الدين سرور دولة بنى قلاوون فى مصر ، ص ٦٩

(٤) راجع الباشا الألقاب . ص ١٩٨

ولقب : « قسيم أمير المؤمنين » الذى أطلق سنة ٥٠٣هـ/ ١١٠٩م على السلطان السلجوقى محمد بن ملكشاه واعتبر من الألقاب العامة لسلاطين السلاجقة ، ولم يلقب به سلاطين المماليك إلا بعد إحيائهم الخلافة العباسية فى القاهرة ، فجاء من النقوش التأسيسية على مدرسة الظاهر بالقاهرة سنة ٦٦٠هـ/ ١٢٦٠، وصار اللقب بعد الظاهر بيبرس من الألقاب العامة لسلاطين المماليك فى مصر(١).

وقد وصل ضعف الخلفاء العباسيين أمام سلاطين السلاجقة إلى حد نفيهم فقد عزم السلطان ملكشاه على إخراج الخليفة المقتدى بأمر الله من بغداد إلى البصرة ، لولا وفاته سنة ٤٨٧هـ/ ١٠٩٤م(٢). وهو نفس حال الخلفاء العباسيين مع سلاطين المماليك فى القاهرة ، فقد حجب الظاهر بيبرس الخليفة الحاكم بأمر الله أبو العباس أحمد سنة ٦٣٣هـ/ ١٢٦٤م ومنعه الناس ، لأن اتباعه يتكلمون فى أمر الدولة واغفل السلطان الناصر محمد بن قلاوون الخليفة المستكفى بالله أبو الربيع بالبرج ، ونفاه إلى قوص سنة ٧٣٧هـ/ ١٣٣٦م ، وظل بها حتى توفى ودفن فيها (سنة ٧٤٠هـ/ ١٣٣٩م)(٣).

---

(٣) راجع : حسن إبراهيم حسن : تاريخ المماليك ، ص ٢٠١ / ٢٠٤ .
الباشا : الألقاب ، ص ٢٠٤ : ٢٠٦ .

(١) الدميرى : « الشيخ كمال الدين محمد بن موسى » (ت ٨٠٨هـ/ ١٤٠٥م) ـ حياة الحيوان (جزاءن) ، القاهرة ١٩٦٣، جـ١ ص ١٠٨
السيوطى : تاريخ الخلفاء ص ٤٢٥ .
راجع مدى تحكم سلاطين السلاجقة فى الخلفاء العباسيين من التحريض على قتلهم إلى تحديد ممتلكاتهم ، وعدم خوضهم المعارك .
ابن الأثير : الدولة الاتابكية ، ص ٣٠ ،. ٥٣ .
ابى الفدا : المصدر السابق جـ٣ ص ١١٠ .
ابن واصل : المصدر السابق ، جـ١ ص ١٣١
السيوطى : تاريخ الخلفاء ص ٤٣٧ .

(٢) السيوطى : المصدر نفسه ، ص ٤٨٦ ـ ٤٨٧ .
ابن إياس : المصدر السابق جـ١ ص ٤٧٤

نائب السلطنة :

رغم أن هذا المنصب عرف فى العصر الأيوبى ، فقد أصبحت له أهمية قصوى فى عصر سلاطين المماليك وخاصة منذ سلطنة الظاهر بيبرس ، بسبب كثرة تغيبه عن مصر ورغبة منه فى أن يحل نائب السلطنة محله داخلياً ، وبالتالى يتفرغ بيبرس لقيادة الحروب خارج مصر[1] . وقد وصل منصب نائب السلطنة فى أهميته أنه صار كما يذكر القلقشندى[2] : « سلطاناً مختصراً ، بل هو السلطان الثانى وصار من حقه أن يرأس مجلس المشورة فى حالة إذا ما كان السلطان طفلا قاصراً[3] .

وتوسع[4] المماليك فى المهام الممنوحة لنائب السلطنة ، فكان يقوم بمعظم اختصاصات السلطان أثناء غيبته ، من توزيع الإقطاعات وتعيين الموظفين وتوقيع المراسيم والمنشورات وتنفيذ القوانين والركوب على رأس فرق الجيش فى المواكب[5] ، فالأمور جميعها معروفة به ويعلم على القصص عوضًا عن السلطان وله ابهة عظيمة[6] .

وقد فاقت قوة نائب السلطنة فى بعض الأحيان قوة السلطان نفسه ، فالأمير بيدرا المنصورى نائب السلطان الأشرف خليل (٦٨٩ـ ٦٩٣هـ/ ١٢٦٠ ـ ١٢٩٣م) بلغت أهميته وقوته وأحواله الكثيرة ، ان اثار غيرة باقى القائمين فى الحكم مثل الصاحب بن السلعوس الذى وشى به عند السلطان قائلا : « هذا بيدرا قد أكل البلاد

---

(١) الباشا : الفنون والوظائف ، ح ٣ ص ١٢٣٠ .

(٢) صبحى الأعشى ، ح ٤ ص ١٦ـ ١٧ .
راجع ابن فضل الله العمرى : المصدر السابق ، ص ٥٤ .

(٣) أهمية مجلس المشورة أنه كان يعقد قبل الإقدام على الأمور الهامة .
راجع : بن شاهين الظاهرى : المصدر السابق ، ص ١٠٦ .

(٤) كان للسلطان المملوكى نوابا عنه فى الجهات النائية كالإسكندرية والوجه البحرى والوجه القبلى ، ونائب فى الشام السبكى : المصدر السابق ص ٢٤ ، هامش ١ ص ٢٤ .

(٥) الباشا : الفنون والوظائف ، ح ٣ ص ١٢٣٠/ على إبراهيم حسن : تاريخ المماليك البحرية ، ص ٢٧٥ .

(٦) بن شاهين الظاهرى : المصدر السابق ، ص ١١٢ .

راستولى عليها وما ترك للسلطان شيئًا »[١] ، ورغم علم السلطان بذلك إلا أنه لم يتمكن من الحد من نفوذه ، بل استطاع بيدرا أن يقتل السلطان نفسه أملا فى الحصول على السلطنة نفسها .

وهذا الواقع بعيد إلى ذاكرتنا أهمية منصب نائب السلطنة فى العصر السلجوقى والذى وصلت لدرجة أن المؤمرات والأموال والرشاوى كانت تبذل من أجل الإطاحة بمن يتولاه من أجل آخر[٢] . بل كثيراً ما كان نائب السلطنة بفضل قوته التى فاقت قوة السلطان أن يستقل بالسلطنة مثل الأمير سنجر الذى كان نائبًا عن أخيه بركياروق ثم استقل بالسلطنة[٣] .

وفى عصر المماليك البحرية ، تمكن بعض نواب السلطنة من الاستقلال بها مثل كتبغا المنصورى الذى كان نائبًا عن السلطان محمد بن قلاوون (فى سلطنته الأولى) سنة ٦٩٣هـ/ ١٢٩٣م ، ثم استقل بالسلطنة ، وهو نفس ما فعله حسام الدين لاجين نائب السلطنة حيث اغتصب السلطنة من الناصر محمد سنة ٦٩٤هـ/ ١٢٩٤م[٤] .

ووصلت خطورة وأهمية منصب نائب السلطنة ، أن بعض سلاطين المماليك كانوا يلغونها فى بعض الأحيان ، ولذلك فقد ألغاها الناصر محمد فى سلطنته الثالثة[٥] .

ـ الأتابك :[٦]

أشرنا فى الباب السابق أن وظيفة الاتابك من الوظائف التى استخدمت فى الدولة الإسلامية عن طريق السلاجقة وانتقلت منهم لأول مرة إلى مصر فى العصر الأيوبى . وقد أخذت أهمية هذه الوظيفة تزداد طوال العصر الأيوبى ، حتى وصلت فى العصر

---

(١) مفضل بن أبى الفضائل : « ٦٧٢هـ/ ١٢٧٣» النهج السديد والدر الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد (باريس ١٩١١ـ ١٩٢٠ـ ١٩٣٢) ، ح ١ ص ٥٦٢/ على إبراهيم حسن : المرجع نفسه ، ص ٢٨٠ .

(٢) راجع : الأصفهانى : المصدر السابق ، ص ١١٤ ، ١١٥.

(٣) العماد الحنبلى : المصدر السابق ، ح ٤ ص ١٦٢ .

(٤) على إبراهيم حسن : المرجع السابق ، ص ٢٨٠ .

(٥) ابن تغرى بردى : المصدر السابق ح ٩ ص ١٧٤ .

(٦) ركزنا فى بحث هذه الوظيفة على تتبع التأثيرات السلجوقية .

المملوكى إلى ذات الأهمية والمكانة التى كانت لها فى عصر سلاطين السلاجقة . ذلك أن نفوذ اتابكة السلاجقة كان قد وصل إلى حد عزل السلطان القائم والاستيلاء على السلطنة وتكوين الدويلات « الاتابكة » مثل آق سنقر والد عماد الدين الذى كان من اتابكه السلاجقة ثم أسس الدولة الاتابكية فى الموصل ، ومثل طغتكين الذى عينه السلطان تتش السلجوقى وصيا على ابنه ووريثه دقاق ، فلما توفى تتش ، استولى طغتكين على كل السلطات فى دمشق ، وقِس على ذلك أتابكة اذربيجان وغيرهم[1] ، وهو ما أشرنا إليه آنفا .

وقد استفحل نفوذ الأتابكة فى عصر سلاطين المماليك فى مصر ، واستطاعوا فى كثير من الأحيان أن يستولوا على السلطنة بدلا من السلطان الموصى عليه ، فقد تمكن قطز من عزل السلطان على بن أيبك واعتلى عرش السلطنة بدلا منه ، ووصل نفوذ الاتابك سيف الدين قلاوون فى عهد السلطان الملك السعيد سلامش بن بيبرس أن صار يخطب باسمهما على المنابر ، وتضرب السكة باسمهما على الدنانير والدراهم، وفى الحقيقة كان قلاوون هو السلطان الفعلى ، ولم يكن لسلامش سوى الاسم من السلطنة ، وبحيث تمكن قلاوون فعلا من الاستيلاء على السلطنة[2] فى النهاية .

وكان الأشرف كجك بن الناصر محمد مع اتابكه قوصون السيفى ونائب السلطنة فى نفس الوقت : « كالعصفور فى يدى النسور » لأنه تولى السلطنة سنة ٧٤٢هـ/ ١٣٤١م وهو صغير السن ، وكان لقوصون كل شىء فى المملكة ، فاضطربت أحوال البلاد[3] .

---

(١) الحسينى : المصدر السابق ، هامش ٢ ص ١٤٩/ دائرة المعارف الإسلامية م ٢ ص ٤٥ :٤٨ .
طه ندا : المرجع السابق ص ١٢٩ .

(٢) ابن تغرى بردى : النجوم ، ح ٧ ص ٢٨٦ /
ابن إياس : المصدر السابق ح ١ ص ٣٤٦ ـ ٣٤٧ .

(٣) فى عصر أولاد وأحفاد السلطان الناصر محمد بن قلاوون لم يذكر أحد من الأتابكة فى اعتلاء العرش فقد كانوا يكتفون بخلع السلطان أو الحجر عليه لصغر سنه ، أو تدبير أمر مقتله أو توليه أحد أخوته ، لأن معظم أولاد الناصر تولوا السلطنة ولم يبلغوا سن الرشد .
راجع :
على إبراهيم حسن (د.) : آراء فى دولة المماليك البحرية (بحث مستخرج من مجلة كلية الآداب جامعة القاهرة ، م ٧ لسنة ١٩٤٤) ص ١٣ .

وفى عصر الناصر حسن (فى سلطنته الثانية سنة ٧٥٥هـ/ ١٣٥٤م) أطلق على تابك العساكر الأمير شيخو العمرى لقب « الأمير الكبير » فكان أول من أطلق عليه هذا اللقب وصارت الاتابكية من بعده ـ فيما يقول بن تغرى بردى[١] وظيفة إلى يومنا هذا وهى من أجلّ وظائف الأمراء .

الوظائف والألقاب :

أثرت الحضارة السلجوقية بعناصرها الثلاثة[٢] المشار إليها فى الفصل الأول فى ظهور وانتشار ألقاب ووظائف جديدة ، عرف بعضهات فى دول إسلامية خارج مصر ولم تعرفها مصر خلال العصر الفاطمى . والراجح أنها عرفت فى عصرى الأيوبيين والمماليك من خلال السلاجقة ، وقد نحتت اسماؤها اصطلاحيا من جذور عربية أو فارسية أو تركية ، وأصبحت لها دلالات مخصوصة ، منها على سبيل المثال ما يلى : اتابك[٣] ، اسباسلار[٤] ، امير علم[٥] ، أمير كبير[٦] ، أمير مائة[٧] ، جاندار[٨] أمير

---

(١) النجوم ، ح ١٠ ص ٣٠٣ .

(٢) بعض الألقاب والوظائف جاءت ألقابا مركبة من أصل عربى أو فارسى أو تركى

(٣) راجع : القلقشندى : المصدر السابق ، ح ٤ ص ١٨ / السيوطى : الوسائل إلى معرفة الأوائل ، ص ٨٥ .

الباشا : الألقاب ، ص ١٢٢ : ١٢٥/ الفنون والوظائف ح ١ ص ٣ .

(٤) راجع : القلقشندى : المصدر السابق ، ح ٤ ص ١٣ .

الباشا : الفنون والوظائف ح ١ ص ٣٧ ، ٧٣ .

(٥) راجع : القلقشندى : المصدر السابق ، ح ٤ ص ١٣ ، ٢٢ ، ح ٥ ص ٤٥٦/ السبكى مبيد النعم ، ص ٣٥ .

الباشا : الفنون والوظائف ح ١ ص ٢٤٢

(٦) راجع : السيوطى : حسن المحاضرة ، ح ٢ ص ١٣٣ / الباشا : المرجع السابق ح ١ ص ٢٤٤ .

(٧) راجع : القلقشندى : المصدر السابق ح ٤ ص ١٤.

الباشا : المرجع السابق ، ح ١ ص ٢٤٩ .

(٨) راجع : القلقشندى : المصدر السابق ح ٤ ، ص ٢٠ ، ح ٥ ص ٤٦١/ الباشا : المرجع السابق ، ح ١ ص ٣٤٨ . أدى شير : المرجع السابق ، ص ٤٦ .

طبلخاناه[1]، اوجاقى[2]، بازدار[3]، بندقدار[4].

الجاشنكير[5]أوذواق، جمقدار[6]، خازندار[7]، سالارى[8]، سلاحدار[9]، الصاحب[10]، ساق[11]، صانع (أو صنعه أو صناعة[12]، صوفى[13] طشتدار[14]، علمدار[15]، قاضى العسكر[16]، كاتب الخزانة الشريف[17]

---

(١) راجع : القلقشندى : المصدر السابق ح ٤ ص ١٥/ الباشا : المرجع نفسه ح ١ ص ٢٣١ .

(٢) راجع : القلقشندى : المصدر نفسه ح ٥ ص ٤٥٤ .

العينى : عقد الجمان ، ح ١ هامش ١ ص ٢٥٩/ الباشا : المرجع نفسه ح ١ ص ٢٨٩ .

(٣) راجع الباشا : المرجع نفسه ح ١ ص ٢٩٢.

على إبراهيم حسن : تاريخ المماليك ، ص ٢٣٨ ـ ٢٣٩

(٤) راجع : القلقشندى : المصدر نفسه جـ٥ ص٤٥٨

على إبراهيم حسن المرجع نفسه ، ص ٢٣٩ .

الباشا : المرجع نفسه ، ح ١ ص ٣١٨ .

(٥) راجع : القلقشندى : المصدر السابق جـ ٤ ص ٢١ / جـ ٥ ص ٤٦٠ / الباشا : المرجع السابق ، جـ١ ص ٣٤٤ / على إبراهيم حسن : المرجع السابق ، ص ٢٢٣.

(٦) راجع : السبكى : معيد النعم ، ص ٣٤/ الباشا : المرجع نفسه ، جـ١ ص ٣٦٠ .

(٧) راجع : القلقشندى : المصدر نفسه جـ٤ ص ٤١ ، جـ٥ ص ٤٦٢/ السبكى : المصدر نفسه ص٢٧ .

الباشا : المرجع نفسه جـ١ ص ٤٥٣/ على إبراهيم حسن : المرجع نفسه ، ص ٢٢٠ ـ ٢٢٢.

(٨) راجع : الباشا : المرجع نفسه جـ٢ ص ٥٨٧ .

(٩) راجع : السبكى : المصدر السابق ، ص ٣٤ .

الباشا : المرجع نفسه جـ٢ ص ٥٩٦/ على إبراهيم حسن : المرجع نفسه ص ٢٥٩ ـ ٣٦٠ .

(١٠) راجع : الباشا الألقاب ، ص ٣٦٧ ٣٧٠ / الفنون والوظائف جـ٢ ص ٦٥١ .

(١١) راجع السبكى المصدر السابق ، ص ٣٦/ الباشا : الفنون والوظائف جـ٢ ص ٥٥٧ .

(١٢) راجع : الباشا : اللفنون والوظائف جـ٢ ص ٦٨٩ : ٦٩٤

(١٣) راجع : السبكى : المصدر نفسه ص ٩٣

الباشا : الفنون والوظائف جـ٢ ص ٧١٠

(١٤) راجع القلقشندى المصدر السابق جـ٤ ص ١٠ ، ١١ .

على إبراهيم حسن : المرجع نفسه ص ٢٢٦

الباشا الفنون والوظائف جـ٢ ص ٧٤١ .

(١٥) راجع القلقشندى المصدر نفسه . جـ٥ ص ٤٦٣/ الباشا المرجع نفسه جـ٢ ص ٧٨٩ .

(١٦) راجع القلقشندى المصدر نفسه جـ٤ ص ٣٦/ الباشا المرجع نفسه جـ٢ ص ٨٦٦ .

(١٧) راجع القلقشندى المصدر نفسه جـ٤ ص ٣١/ الباشا المرجع السابو جـ٢ ص ٩٢٠

كاشف[1] ، درويش[2] لالا[3] ، مقطع[4] ، مهتار[5] ، متول، مجرد ، محدث ، منشىء، نقيب ، واعظ .

ومن النتائج التى ترتبت على تتريك السلاجقة للشرق ، سيطرة العنصر التركى على الحكم فى مصر فى عصر المماليك ، وبالتالى فقد حافظ عدد منهم على لغته التركية ، وظل عدد آخر لا يحسن الحديث بالعربية[6] لذا فقد انتشرت الألفاظ والمصطلحات التركية فى الحضارة المصرية واللغة العربية فى مصر ، منها ألقاب ومصطلحات وظيفية تركية الأصل ، أو مركبة من التركية والعربية مثل : اتابك ، آخورسلار ، سلاحدار ، جمدار[7] ، بشمقدار[8] ، جاويشيه ، خاتون[9] خوند[10] ، بك[11] .

---

(١) راجع : الباشا : المرجع نفسه جـ٢ ص ٩٢٧: ٩٣٢.

(٢) درويش : فقير ، لفظ من أصل تركى :
فؤاد حسنين على (د.) الدخيل فى اللغة العربية (مجلة كلية الآداب جامعة القاهرة ـ المجلد العاشر، الجزء الثانى ديسمبر ١٩٤٨) ص ١٠٧.

(٣) راجع : الباشا : الفنون والوظائف ، جـ٢ ص ٩٧٨: ٩٧٩.

(٤) الباشا : المرجع نفسه ، جـ٣ ص ١١٤٣: ١١٤٥.

(٥) راجع : القلقشندى : المصدر السابق ، جـ٤ ص ١٠، ١١ .
ادى شير : المرجع السابق ، ص ١٤٧/
على إبراهيم حسن : المرجع السابق ص ٢٢٥ : ٢٢٧ .
الباشا : المرجع السابق ، جـ٣ ص ١١٤٥/ ١١٥٢.
وقد اكتفيت بحصر الوظائف والألقاب التى عرفت فى مصر عن طريق السلاجقة أما تحليلها وشرحها فقد تناولته مصادر ومراجع كثيرة منها ما أشارت إليه .

(٦) الملك عز الدين كان لا يعرف إلا اللسان التركى .
المقريزى : الخطط جـ٢ ص ٩٠ .
السلطان المنصور قلاوون كان معجم اللسان لا يكاد يفصح بالعربية لأنه اتى من بلاد الترك وهو كبير.
ابن تغرى بردى : النجوم ، جـ٧ ص ٣٢٥ .
ابن إياس : المصدر نفسه جـ١ ، ص٣٦١ .

(٧) القلقشندى : المصدر السابق جـ٥ ص ٤٥٩، ٤٦٢.

(٨) راجع : السبكى : المصدر السابق ، ص ٣٥/ الباشا : الفنون والوظائف جـ١ ص ٣٠٤ .

(٩) راجع : السيد ادى شير : المرجع السابق ، ص٥١ / الباشا : الألقاب ص ٢٦٢: ٢٦٦ .

(١٠) راجع : ادى شير : المرجع نفسه ص ٥٨ / الباشا : الألقاب ص ٢٨٠ ـ ٢٨١ .

(١١) راجع الباشا : الألقاب ص ٢٢٥ ـ ٢٢٦ ـ فؤاد حسنين على : المرجع السابق ص ٩٥ .

كما انتشرت أسماء الأشخاص باللغة التركية مثل أيبك ، بيبرس[1]، سنجر قلاوون ، اق سنقر ، بيغا .

وفى مجالات الحياة الأخرى انتشرت ألفاظ تركية الأصل فعلى سبيل المثال فى الفنون عرف لقب كفتى[2] ، والكلفته أو الكلوته (غطاء الرأس) ، جاليش أو شاليش مع انتشار ألفاظ تركية ذات أصل فارسي مثل : تخت وتختروان (٣)، جامكية و الجومك[4] ، خركاه[5] ، خورنق[6] ، خنجر[7] ، ساذج ، سدلى[8]، شربوش ، شاذروان، شرشف[9] ، طست أو تشت[10] ، الطغراء [11] ، دهليز[12] .

٢ ـ مظاهر التأثيرات السلجوقية فى العوايد السلطانية فى العصر المملوكى بمصر:

بدخول حكم السلاطين إلى مصر فى عصر المماليك بتأثير من السلاجقة عبر العصر الأيوبى فقد ظهرت عوائد حضارية لم تشهدها مصر خلال العصر الفاطمى ، وبعض هذه العوايد مظاهرها إيجابية والأخرى سلبية .

أـ العوايد الإيجابية :ـ

- المواكب السلطانية « حفلات التتويج » .
- شعائر السلطنة (الغاشية ، السنجق ، الجاليش) .

ب ـ العوايد السلبية :ـ

- كثرة المؤمرات والاغتيالات السياسية وما يتبعها من الأخذ بالثأر .

---

(١) ايبك التركية تعنى بالعربية « أمير قمر » ـ بيبرس التركية تعنى بالعربية الأسد الضارى .
(٢) راجع : الباشا : الفنون والوظائف جـ٢ ص ٩٧٤ : ٩٧٥ .
(٣) ادى شير : المرجع السابق ، ص ٣٤/ فؤاد حسنين : المرجع السابق ص ٩٦ .
المعجم الوسيط جـ١ ص ٨٢ .
(٤) ادى شير : المرجع السابق ص٤٥ .
(٥) ادى شير : المرجع نفسه ، ص ٥٣ .
(٦) ادى شير : المرجع نفسه ص ٥٤ / المعجم الوسيط جـ١ ص ٢٣١ .
(٧) ادى شير : المرجع نفسه ، ص ٥٧ / المعجم الوسيط ، حـ١ ص ٢٥٨
(٨) ادى شير : المرجع نفسه ، ص ٨٨ .
(٩) ادى شير : المرجع نفسه ص ٩٩
(١٠) ادى شير : المرجع نفسه ، ص ١١٢/ المعجم الوسيط ، جـ٢ ص ٥٥٧
(١١) ادى شير . المرجع نفسه ص ١١٣/ المعجم الوسيط . جـ٢ ص ٥٥٨ .
(١٢) فؤاد حسنين : المرجع السابق ، ص ١٠٩
وسوف نوضح بعض الألقاب والوظائف وألفاظ أخرى فى مواضع أخرى من البحث .

أ ـ العوايد الإيجابية :

المواكب السلطانية « حفلات التتويج » :

حافظ سلاطين المماليك على سنة أسلافهم من السلاجقة والأيوبيين فى استمرار التقاليد الحضارية التى صاحبت ظهور حكم السلاطين وهى « حفلات التتويج » أو المواكب التى كانت تصاحب إقامة السلطان الجديد فى السلطنة بحيث أصبحت هذه المواكب من أهم عوائد القاهرة كما يذكر على مبارك(١) . وإن كانت هذه المواكب فى العصر المملوكى زادت أهمية وعظمة وأبهة لمشاركة الخليفة العباسى بنفسه فى هذه المواكب ، فلم تعد الخلع وتقليد السلطنة ترسل مع رسول إلى القاهرة من بغداد كما كان الحال فى العصر الأيوبى ، بل غدت القاهرة بعد إحياء الخلافة العباسية فيها، المركز لاتمام مراسيم التتويج بالكامل كما كانت بغداد فى العصر السلجوقى المركز لاتمام حفلات تتويج سلاطين السلاجقة .

ويعتبر الظاهر بيبرس هو أول من عُمل له موكب تتويج فى القاهرة فى العصر المملوكى ، فبعد الاعتراف بالخليفة العباسَ أبو العباس أحمد فى رجب سنة ٦٥٩هـ/ ١٢٦٠م، وبعد أن صلى بالمسلمين فى جامع القلعة أمر بعمل خلعه خليفية للسلطان وكتابة التقليد ، وفى يوم موكب السلطنة ركب(٢) الخليفة والسلطان إلى خيمة ضربت بالبستان الكبير من ظاهر القاهرة ، حيث ألبس فيها الخليفة بيده الخلع(٣) للظاهر بيبرس وقدم له فرسا أشهبا فى عنقه مشده سوداء وعليه كنبوش أسود كما خلع على الأمراء وجلس مجلسا عاما حضره الوزير والقضاة والأمراء والشهور ، وصعد القاضى فخر الدين إبراهيم بن لقمان ـ كاتب السر ـ المنبر ، وقرأ تقليد السلطان ثم ركب(٤)

---

(١) على مبارك : المرجع السابق جـ٢ ، ص ٧٧ : ٧٩ / ماجد : نظم دولة سلاطين المماليك جـ٢ ص١٠٣ .

(٢) فى هذا الموكب يظهر الخليفة لابسا البردة وعلى رأسه عمامة وحاملا القضيب .. راجع : على إبراهيم حسن : تاريخ المماليك البحرية ، ص ٢٥٢ هامش ٣ .

(٣) الخلع هى : الجبة السوداء والعمامة البنفسجية والطوق من ذهب حول عنق بيبرس وسيف بداوى .

(٤) لم تركب شجرة الدر بخلع السلطنة الخليفتى على العادة ، غير أنهم بايعوها بالسلطنة .
راجع : ابن تغرى بردى : النجوم ، جـ٦ ص ٣٧٣ .
سعاد ماهر : مساجد مصر جـ٢ ص ٢٢٦ .

الظاهر بالخلعة ودخل من باب النصر وشق القاهرة التى زينت له ، وحمل الوزير الصاحب بهاء الدين محمد بن على حنا التقليد على رأسه فى كيس حرير أسود قدام السلطان والأمراء من دونهم مشاه بين يديه حتى خرج من باب زويلة إلى قلعة الجبل فكان يومًا مشهودًا [١] . وقد تميز موكب السلطنة هذا بكثرة عدد المماليك الذين أحاط بهم بيبرس نفسه ، إذ يقال أن مقام الأمراء بعدد مماليكهم [٢] ، وفيما يبدو أن بيبرس فى حفلة تتويجه إراد أن يظهر مدى مقام سلطانه ، وبعد أن كانت حفلات التتويج فى العصر الأيوبى تتم عند الصالحية ، أصبحت فى العصر المملوكى تتم فى القصر الأبلق بقلعة الجبل [٣] .

وحافظ سلاطين المماليك فى القاهرة على ضرورة وجود أدوات حفل التتويج ومنها ما كان مأخوذًا عن السلاجقة فى العصر الأيوبى ، كحمل العصائب السلطانية من السناجق والغاشية ، والتى حملها المعز أيبك عندما ركب فى السلطنة سنة ٦٤٨هـ/ ١٢٥٠م [٤] .

ويقال أن آخر من ركب بشعار السلطنة فى عصر المماليك البحرية كان السلطان الناصر محمد بن قلاوون عندما دخل القاهرة (٦٩٨هـ/ ١٢٩٨م) من البلاد

---

(١) المقريزى : السلوك ، جـ١ ق ٢ ص ٤٥٢، ٤٥٣، ٥٤٧ .
الخطط ، جـ٢ ص ١٠٨ .
ابن تغرى بردى : النجوم جـ٨ ص ١١١ .
ابن إياس : المصدر السابق ، جـ١ ص ٣١٦ .
السيوطى : تاريخ الخلفاء ، ص ٤٧٨ / العينى : عقد الجمان جـ١ ص ٢٩٦ ، ٢٩٨/ ٣٠٨
محمد جمال الدين سرور : دولة بنى قلاوون فى مصر ، ص ٦٨ .
(٢) عبد المنعم ماجد : نظم المماليك ورسومهم فى مصر ، جـ٢ ص ٢٧ .
(٣) ابن شاهين : المصدرالسابق ، جـ١ ص٣١٦ .
(٤) أبى الفدا : المصدر السابق جـ٣ ص ١٩١ـ ١٩٢/ ابن تغرى بردى : النجوم جـ١١ ص ٢٩ راجع مظاهر حفلات التتويج للسلطانين بيبرس الجاشنكير سنة ٧٠٩هـ/ ١٣٠٩م والأفضل الحموى كتبغا بالقاهرة سنة ٧٣٢هـ/ ١٣٣١م.
أبى الفدا : المصدر نفسه جـ٤ ص ١٠٨/ ابن تغرى بردى : النجوم ، جـ٨ ، ص ٢٣٤ .
المقريزى : السلوك جـ٢ ق١ ص ٥٥٨ / جـ١ ق ٣ ص ٨٠٨/ جـ٢ ق٢ ص ٣٣٤ ص ٣٤٥ .

الشامية بعد مقتل لاجين ، واستيلائه على حكم مصر ، فركب بالخلع السلطانية من المنصورية فى بين القصرين وشق القاهرة وأوقدت الحوانيت كلها حتى الرميلة ، وصفت المغانى وأرباب الملاهى فى عدة أماكن ونثرت عليهم الدراهم فكان يوما مشهوداً[1].

وقد توسع سلاطين المماليك فى عمل مواكب السلطنة ، فصارت تعمل مواكب مشابهة لها عند منح ولاية العهد من السلطان لأحد ابنائه . فعندما سلطن الظاهر بيبرس ابنه الملك السعيد بركة خان سنة ٦٦٢هـ/ ١٢٦٣م أركبه بشعار السلطنة ومشى قدامة وشق القاهرة[2]، وعندما فوض السلطان قلاوون ولاية العهد لابنه الأشرف خليل سنة ٦٨٧هـ/ ١٢٨٨م ركب بشعار السلطنة ولكن من قلعة الجبل ، وخرج من باب زويلة ، ثم صعد القلعة وسائر الأمراء فى خدمته ودقت البشائر وحلف له القضاة وجميع العسكر وخلع على سائر أهل الدولة ، وخطب له بولاية العهد وكتب له بذلك فى سائر البلاد[3].

أيضًا احتفل سلاطين المماليك بمن يختارونه من أصحاب الأطلاب ، فيركبوه بشعار السلطنة فى موكب شبيه بموكب السلطنة فعندما أنعم الناصر محمد فى القاهرة على الملك الأفضل ناصر الدين محمد بن الملك المؤيد عماد الدين إسماعيل صاحب حماة ، بعد وفاة أبيه ، فقد منحه الناصر ما كان لأبيه سنة ٧٣٢هـ/ ١٣٣١م وركب الأفضل من المدرسة المنصورية فى بين القصرين بشعار السلطنة وبين يديه الغاشية ، وقد نشرت الأعلام الثلاثة منها واحد خليفتى أسود ، واثنان سلطانيان أصفران ، وعليه خلعة أطلس بطرز ذهب وعلى رأسه شربوش[4]، وفى وسطه

---

(١) المقريزى : الخطط جـ٢ ص ١٠٨/ ابن تغرى بردى : النجوم جـ٨ ص ١١٦ ـ ١١٧
ابن إياس : المصدر السابق جـ١ ص ٣٩٤ .

(٢) المقريزى : الخطط جـ٢ ص ١٠٨ .

(٣) المقريزى : السلوك ، جـ١ ق٢ ص ٧٤٥ .

(٤) الشربوش : " Sharbush : هو لباس للرأس ، كان له المكانة الأول إذ يعتبر بصفة خاصة الطابع المميز لطبقة الأمراء ـ وقد وصف المقريزى الشربوش بأنه مثل شيء يشبه « التاج » ويبدو كما لو كان مثلث الشكل يوضع على الرأس بغير عمامة (لايلف حوله منديل) وعندما يمنح المملوك رتبة «فارس» يعطيه السلطان خلعة تتناسب ومرتبة الفروسية ثم يضع على رأسه شربوشا . ماير : المرجع السابق ، ص ٥١ .

حياصة[1] ذهب بثلاث بيكارات[2].

شعائر السلطنة : (الغاشية ـ السنجق ، الجاليش) :

من شعائر السلطنة التى تأثر بها المماليك من السلاجقة عبر الأيوبيون هى حمل الغاشية بين يدى السلطان ، وخاصة عندما كان يركب فى الميدان تكون غاشية السرج يحملها الركابداريه أمام السلطان وهو ماشى فى وسط الموكب[3].

أما رفع السناجق والتى كانت ترسل إلى الأيوبيين فى مصر من الخلافة العباسية فى بغداد ، فقد أصبحت تعمل فى مصر حيث مقر الخلافة بعد إحيائها وقد ذكرت بعض الأراء :[4] أن السناجق كانت ترفع أمام السناجق كانت ترفع أمام السلطان أثناء السلم فقط ، فى حين كانت ترفع السناجق[5] مع الأعلام الأخرى زمن الحرب .

ويطلق السنجق على الأعلام التى يحملها السنجقدار[6] وكان المماليك يزهون بمن اسروهم من أعدائهم فيصحبونهم داخل القاهرة وقد نكسوا[7] سناجقهم.

---

(١) الحاصية : هى الأحزمة المملوءة بالذهب .

بيبرس المنصورى : المصدر السابق هامش ٣ ص ١٤٥/ Dozy :op. cit., p. I, p. 336 .

(٢) ابن تغرى بردى : النجوم ، جـ٩ ص ٦١ ـ ٦٢ .

بيكارات : كلمة فارسية مفردها « بركار » وهى آله ذات ساقين ترسم بها الدوائر .

أدى شير : المرجع السابق ص ٢٠ .

والبركار هو البرجل بالعربية . المعجم الوسيط ، جـ١ ص ٥٢ ، ٤٧

فقد كان أهم جزء من الحزام هو إطار الابزيم المستطيل ، أى هما الرقيقتان البيكارية .

وتختلف أحوال المنطقة (الحزام) بحسب مقادير الأمراء ، فأعلاها ما عمل بين عمدها بواكر وسطى ومجنتبان بالبلخش والزمرد واللؤلؤ ، ثم ما كان بيبكارية واحدة مرصعة ثم ما كان بيكارية واحدة غير مرصعة .

ماير : المرجع نفسه ، ص ٥٠ ، ١٠٥ .

(٣) راجع : ابن تغرى بردى : المنهل ، جـ١ ص ٢١/ المقريزى : الخطط ، جـ٢ ص ٢٠١ .

(٤) على إبراهيم حسن : تاريخ المماليك ، ص ٣٥٥ .

(٥) بيبرس المنصورى : المصدر السابق ، ص ٥٣ ، ١٠٠ ، ١٢٠ ، ١٢٧ .

العينى : عقد الجمان ، جـ١ ص ٤٠ ، ٤٢ ، ٤٣ ، ١٥٤ ، ٤٢١ .

(٦) ابن تغردى بردى : المنهل ، جـ٤ هامش ١ ص ١٦٩ .

(٧) بيبرس المنصورى : المصدر نفسه ، ص ١٠٣ .

كما أخذ المماليك عن السلاجقة عبر الأيوبيين رفع الجاليش وخاض فى الحرب. وبمصطلح وظائف العصر المملوكى صار يطلق على حامل راية الجاليش «العلم دار»، أو جاليش[1].

ب : ومن عوايد القاهرة السلبية :

كثرة المؤامرات والاغتيالات وما يتبعها من الأخذ بالثأر :

وهى الظاهرة التى انتشرت فى العصر السلجوقى أولا بغرض الوصول إلى منصب الوزارة ثم تركز هذا الصراع للوصول إلى منصب السلطنة وللأسف فإن الذى امتهن هذه الظاهرة القبيحة هو الوزير السلجوقى العظيم نظام الملك عندما علم الأتراك قتل الوزراء وأصحاب الديوان كما يذكر الحسينى[2]، وكما ذكر ابن النظام الحسينى[3] رغم تشككه فى هذه القصة، والتى تحكى أن نظام الملك دبر مؤامرة[4] حرض فيها السلطان السلجوقى إلب أرسلان (ت ٤٦٥هـ/ ١٠٧٢م) على قتل الوزير عميد الملك[5] الكندرى (ت ٤٥٦هـ/١٠٦٣م) ليتمكن من الاستيلاء على كرسى الوزارة وعلم الكندرى قبل مقتله بذلك فأرسل إلى الوزير نظام الملك قائلاً له : « لقد سننت فى أسرة السلاجقة سنة قبيحة وبدعة مرذوله وسوف يقع لاعقابك وأسلافك بسرعة كل ما دبرته لى »[6]. وبالفعل كان مصير نظام الملك مؤامرة انتهت بقتله

---

(١) العلم دار او جاليش : هو مصطلح وظيفى أطلق على الأمير سيف الدين جاليش اميردار ، الذى عينه الظاهر بيبرس بعد أن هزم التتار والروم فى غزوة البستان وقيسارية ، فجعل الأمير المذكور نائبا عنه فى حكمها

بيبرس المنصورى : المصدر نفسه ، ص ٨٤ .

(٢) الحسينى : المصدر السابق ، ص ٧٠ .

(٣) ابن النظام الحسينى : المصدر السابق ، ص ٥٠ .

(٤) راجع : الحسينى : المصدر نفسه ، ص ٦٨ ، ٦٩ ، هامش ١ ص ٦٩ .

(٥) عميد الملك الكندرى : ولد بناحية كندر من قرى نيسابر سنة ٤١٥هـ/ ١٠٤٢م من بنى شيبان ، وزر للسلطان طغرلبك ثم للسلطان ألب أرسلان . كان يجيد اللغتين العربية والفارسية .

الأصفهانى : المصدر السابق ، ص ٣١/ المقريزى : اتعاظ الحنفا جـ٢ هامش ٢ ص ٢٥٦ .

(٦) ابن خلكان : المصدر السابق ، ص ٥ ص ١٤٢ .

ابن النظام الحسينى : المصدر نفسه ، ص ٥٠ حربى أمين : المرجع السابق ص ٢٤٤ ـ ٢٤٥ .

بتحريض من الوزير السلجوقى تاج الملك الشيرازى[1] وفى أعقاب ذلك انتشرت ظاهرة الثأر لان اتباع نظام الملك اصروا على قتل قاتله أخذا بثأر أستاذهم فقتلوا الباطنى ، والوزير تاج الملك الشيرازى (٤٨٦هـ/ ١٠٩٣م)[2].

وبالنسبة لمصر ، فقد بدأت تشهد هذه الظاهرة السياسية الاجتماعية بعد ظهورها فى العصر السلجوقى بصورة مكثفة ، فى الفترة التى أشرنا فى الفصل الأول إلى وجود تأثيرات متبادلة بين السلاجقة والفاطميين ، وهى النصف الثانى من العصر الفاطمى فيعتقد أن الإكثار من العنصر التركى مع الاعتماد على الوزارة الأقوياء ، من الأسباب التى أدت إلى ظهور المؤمرات والاغتيالات السياسية ، والتى ظهرت من خلال نجاح على بن السلار ـ التركى الأصل ـ فى قتل الوزير الفاطمى نجم الدين بن مصال سنة ٥٤٤هـ/ ١١٤٩م[3].

وبذلك آل كرسى الوزارة لابن السلار ثم ما لبث أن قتل ابن السلار هو الآخر بتحريض من الخليفة الفاطمى الظافر لدين الله ، على يد عباس بن باديس الصنهاجى، وتولى الوزارة بدلا منه فى سنة ٥٤٨هـ/ ١١٥٣م[4].

وقد حاول اتباع ابن السلار الأخذ بثأره فتوحشوا فى القاهرة[5].

وعلى الرغم من أن ظاهرة المؤمرات والاغتيالات السياسية لها أمثلة عديدة متفرقة فى التاريخ الإسلامى قبل عصر السلاجقة ، غير أن اعتماد السلاجقة ـ فيما يبدو ـ

---

(١) حرضت تركان خاتون زوجة السلطان ملكشاه على قتل الوزير نظام الملك لأنه كان يقف عقبة فى تحقيق مآربها فحرضت وزيرها تاج الملك وكيل الديوان فسلط عليه الملاحدة وقتل سنة ٤٨٥هـ/ ١٠٩٢م.
ابن النظام الحسينى : المصدر نفسه ، ص ٦٦ .

(٢) الحسينى : المصدر السابق ، ص ١٤٠ .
الاصفهانى : المصدر السابق ، ص ٨١ .

(٣) أسامة :
المصدر السابق ، ص ٧ ، ٨ .
محمد حمدى المناوى : المرجع السابق ، ص ٣٠٣، ٣١٢

(٤) أسامة : المصدر نفسه ، ص ٩ .
محمد حمدى المناوى : المرجع نفسه ، ص ٣٠٣، ٣١٢ ، ٣١٣ .

(٥) ابن ميسر : المصدر السابق ، ص ١٤٧/ المقريزى : اتعاظ الحنفا جـ٢ ص ٢٠٥ .

وخاصة فى النواحى الإدارية ، على العنصر الإيرانى[1] ، كان من أسباب انتشار هذه الظاهرة السلبية وأمثلها كالفتن والاضطرابات .

ورغم أن العصر السلجوقى شهد صراعًا ومؤامرات على عرش السلطنة ، لكن لم يصل إلى حد « تحكيم السيف »[2] ، إلا بعد أن تفشت هذه الظاهرة القبيحة فى الصراع على كرسى الوزارة .

ومما لا يدع مجالا للشك أن اشتراك السلاجقة وسلاطين المماليك فى « العنصر التركى » باعتباره من أهم مقومات الحضارة المشتركة بينهما جعلت المماليك يرثون عن السلاجقة كثيراً من الظواهر الحضارية إيجابا أو سلبا ، فانتشرت ظاهرة المؤمرات والاغتيالات السياسية وما يتبعها من أخذ بالثأر للوصول إلى عرش السلطنة ، بحيث صار من عوايد القاهرة كما يذكر على مبارك[3] : « أن يصعد الأمراء والعسكر إلى باب السلسلة وتصير المشورة فيمن يسلطنوه » .

ومن الأمثلة التى تضرب فى هذا الخصوص أن شجرة الدر بعد أن خلعت نفسها من السلطنة لزوجها المعز أيبك حرضت على قتله[4] وقتل (سنة ٦٥٥هـ/١٢٥٧م) فبدأت مماليكه تثأر لمقتله[5] وحاولت أن تقتل شجرة الدر فاتفقوا على سلطنة ابنه

---

(١) كان نظام الملك فارس الأصل (إيرانى) راجع الفصل الأول ص ٤٤ ـ ٤٥ .

(٢) راجع : عبد النعيم محمد حسنين : المرجع السابق ، ص ١٥٧ .
محمد محمود إدريس : رسوم السلاجقة ، ص ٢٤ .
راجع أمثلة المؤمرات للوصول إلى منصب السلطان فى العصر السلجوقى
ابن تغرى بردى : النجوم ، جـ٥ ص ٣٣٠ .
ابن العبرى : المصدر السابق ، ص ٣٤٣ / السيوطى : تاريخ الخلفاء ، ص ٤٢٨، ٤٣٢
العينى : عقد الجمان ، جـ١ ص ١٤٥ .

(٣) الخطط التوفيقية ، جـ٢ ص ٧٩ .

(٤) العينى : عقد الجمان ، جـ١ ص ١٤٠ : ١٤٢/ السيوطى : حسن المحاصرة ، جـ٢ ص ٣٨ وسبق أن حرضت شجرة الدر على مقتل تورانشاه ابن زوجها لأنه أساء لمماليك أبيه ولها . راجع العينى : عقد الجمان ، جـ١ ص ٢٤ : ٢٨ .

(٥) من أشكال الثأر التى سلكها مماليك السلطان المقتول المعز أيبك أنهم نقلوا شجرة الدر من دار السلطنة إلى البرج الأحمر ، وصلبوا الخدام الذين اتفقوا معها على قتل المعز وصلبوا سنجر الجوهرى ـ الذى كان مع المماليك فى الحمام الذى قتل فيه أيبك ـ واحتاطوا على الصاحب بهاء الدين بن حنا لكونه وزير شجرة الدر .
العينى : عقد الجمان ، جـ١ ص ١٤٣ .

المنصور نور الدين على (٦٥٥_٦٥٧هـ/ ١٢٥٧_ ١٢٥٨م) الذى قبض على شجرة الدر وقتلتها أمه ، وكما يذكر على مبارك[1] : « الدهر قد جازاها من جنس العمل ».

وتفشت ظاهرة الاغتيالات السياسية بصورة أكبر فى عصر سلاطين المماليك تأثرا بالسلاجقة كما سلف القول .

ومن أمثلتها : اغتيال الأمير بيبرس البندقدارى للأمير قطز[2] . وقد سبقت الإشارة إليه ، وقتل الأمير بيدرا السلطان الأشرف خليل (٦٨٩_ ٦٩٣هـ/ ١٢٩٠_ ١٢٦٣م) ليصبح سلطانًا ولكن أمراء الأشرف خليل أضمرت النية على الأخذ بثأر أستاذهم ، وبالفعل تمكنوا من قتل بيدرا[3] .

وانعكست هذه الظاهرة القبيحة فى أشعار عصر المماليك ومنها قول الشاعر :

تباً لأقوام بمالك رقهم ∴ فتكوا ومارقُوا لحالة مترِف

وافوه غدراً ثم صالوا جملة ∴ بالمشرفى على المليك الأشرف

وافى شهيداً نحو روْضات الرضى ∴ يَخْتالُ من مُزهَّر ومُزَخْرَف

ومضى يقول لقاتليْه تربصوا ∴ بينى وبينكُم عِرَاضُ الموقِف[4]

وعندما شعر السلطان كتبغا بخطر الاغتيال ، وخاصة بعد أن قتل الأمير حسام الدين لاجين أكبر أمرائه ، فر هاربًا سنة ٦٩٦هـ/ ١٢٩٦م ، تاركًا السلطنة للأقوى منه ، بل وطالباً منه الأمان فآمنه لاجين ومنع قتله[5] .

فر أيضاً السلطان الناصر محمد إلى الشام بعد سلطنته الثانية خوفا من القتل ، ثم لما عاد للسلطنة المرة الثالثة سنة ٧٠٩هـ/ ١٣٠٩م بدأ يأخذ بثأره ممن استضعفوه وعزوله وحاولوا قتله ، فأمر بقتل بيبرس الجاشنكير وعنفه بما فعل وعدد له ذنوبه[6] .

---

(١) الخطط التوفيقية ، جـ٥ ، ص ٨٠ (الطبعة الخامسة سنة ١٩٨٦) .
(٢) المقريزى : الخطط جـ٢ ص ٢٣٨/ وصل خوف الظاهر بيبرس على نفسه من الأمير جمال الدين أقوش المحمدى أن تركه محبوسا حتى وافة بيبرس سنة ٦٧٦هـ/ ١٢٧٧م
ابن تغرى بردى : النجوم ، جـ٧ ص ٢٧٤ .
(٣) أبى الفدا : المصدر السابق ، جـ٤ ص ٣١ _ ٣٣ / العينى : عقد الجمان ، جـ٣ ص ٢٢٠ .
ابن إياس : المصدر السابق ، جـ١ ص ٣٩٨ _ ٤٠٠ .
(٤) ابن تغرى بردى : المنهل ، جـ٥ ص ٢٧٩ .
(٥) ابى الفدا : المصدر نفسه ، جـ٤ ص ٣٥ / على إبراهيم حسن : أراء فى دولة المماليك ، ص ١٢ .
(٦) المقريزى : السلوك ، جـ٢ ق ١ ، ص ٨٠ _ ٨١ .

٣ ـ مظاهر التأثيرات السلجوقية فى الحضارة المملوكية عسكريًا ـ بمصر :ـ

فرق الجيش :

على الرغم من أن الفاطميين قد عرفوا عددا من أنواع فرق الجيش[1] التى كانت تنسب إلى الخلفاء أو الوزراء أو القواد ، غير أنها كانت تتبع فى قيادتها قائداً واحداً هو الخليفة الفاطمى أو من ينوب عنه متمثلا فى شخص الوزير أو قائد القواد .

وكانت هذه الفرق الفاطمية خاضعة خضوعًا تاما لقيادتها العليا . فى حين أن نظام الإقطاع الحربى الذى طبقه وعممه السلاجقة على كل الولايات والدول التى خضعت لحكمهم ، الزم امراء الإقطاعات بتوفير عدد من الجيوش كاملة العدة والعدد تكون جاهزة فى خدمة اوامر السلطان عند نشوب أى حرب ، الأمر الذى أدى منذ وفاة السلطان ملكشاه السلجوقى تقريبًا إلى تضخيم قوة أمراء الإقطاعات فأخذت تزداد قوة وعدداً وأهمية واستقلالا حتى عن الجيش السلطانى . ذلك لأن العمليات العسكرية الكبرى كانت تتطلب تجميع جيوش مركبة من جيوش الأمراء أصحاب الإقطاعات الإدارية ، ولم تكن هذه الجيوش تخضع لقيادة السلطان نفسه مما جعلها فى كثير من الأحوال مجرد تحالف بين كبار الأمراء[2]. وفى أحوال كثيرة نجحت جيوش الأمراء فى فرض إرادتها على جيوش السلطان ، فعلى سبيل المثال تمكنت القوات النظامية أى التابعة للوزير نظام الملك السلجوقى بعد وفاته من مساندة بركياروق ابن السلطان ملكشاه فى الاستيلاء على عرش السلطنة فى حوالى سنة ٤٨٧هـ/ ١٠٦٥م[3]، رغم أن عسكر السلطان ملكشاه المتوفى قد آلت إلى ابنه الطفل محمود وامه تركان خاتون

---

(١) من الطوائف التى نسبت إلى الخلفاء الفاطميين « الآمرية والحافظية والعاضدية » ومما نسب إلى الوزراء « الوزيرية » وتنسب إلى الوزير يعقوب بن كلس . المقريزى : الخطط جـ٢ ص ٨ ـ من طوائف القواد الطائفة الريحانية نسبة إلى القائد عزيز الدولة ريحان ـ المقريزى : اتعاظ الحنفا ، جـ٣ ص ١٤٩ / والطائفة الجيوشية نسبة إلى لقب قائدها أمير الجيوش بدر الجمالى ، وهو الذى اشترط على الخليفة الفاطمى أن يحضر عساكره ولا يبقى أحد من عسكر مصر . المقريزى : الخطط راجع : المقريزى : اتعاظ الحنفا جـ٣ ص ٢٥٧ .

الرافعى ، عاشور : المرجع السابق ، ص ٢٦٦.

محمد جمال الدين سرور : الدولة الفاطمية فى مصر ، ص ١٤٧ .

(٢) قاسم عبده قاسم : ماهية الحروب الصليبية ، ص ١٩٤ .

(٣) الحسينى : المصدر السابق ، ص ١٥٦ ـ ١٥٧ .

وكانوا قبل سلطنة بركياروق قد بايعوا محمود على السلطنة ولم يتمكنوا من إحباط القوات النظامية[١] .

ونتيجة تزايد قوة أمراء الإقطاعات العسكرية ، فقد كان باستطاعتهم تكوين الإمارات المستقلة دون أن يكون بمقدور جيش السلطان السلجوقى تدميرهم ومثال ذلك استقلال عماد الدين زنكى بالموصل .

ونتيجة لتأثر دولة المماليك بالنظم المالية والعسكرية المتمثلة فى « الإقطاع » ظهرت فرق فى الجيش المملوكى عرفها السلاجقة ولم تعرف فى الخلافة الفاطمية ، كما ارتبط ظهور بعضها بحكم السلاطين وطبقه الأمراء ، وهى : فئة المماليك السلطانية : وهى تقابل عند السلاجقة ، فئة مماليك السلطان غير أنها انقسمت - عند دولة المماليك فى مصر - إلى طوائف كثيرة ، وأطلقت عليها اسماء خاصة ، لم تكن شائعة عند السلاجقة ، وإن كانت منحدرة - على الراجح - من روح نظام الإقطاع الذى استخدمه السلاجقة . ومن هذه الطوائف « القرانصة »[٢] وهم مماليك السلاطين السابقين ، والمشتريات أو المشتروات أو الجلبان ، أو الاجلاب[٣] ، الذين هم فى دست الحكم « والسيفية » [٤]، وهم المماليك الذين ينتقلون إلى الخدمة السلطانية بسبب وفاة أو عزل أو مصادره تلحق بسادتهم .

---

(١) الحسينى : المصدر نفسه ، ص ١٥٥ .

(٢) ومن الملاحظ أنه منذ سلطنة الصالح أيوب كان السلاطين يحرصون على جعل الأمراء من مشترواتهم ليضمنوا ولاءهم والمحافظة على ملكهم . راجع : السيد الباز العرينى : الفارس المملوكى ص ٥٨ .

(٣) تعتبر فئة المماليك السلطانية من أهم أجزاء الجيش المملوكى وتحصل على أعلى الإقطاعات . راجع : القلقشندى : المصدر السابق ، جـ٤ ص ١٥ ، ١٦/ محمود نديم فهيم : المرجع السابق ٩٩ - ١٠١ السيد الباز العرينى : الفارس المملوكى ص ٤٧ ، ٥٠ ، ٥١ .

(٤) السيد الباز العرينى : الفارس المملوكى ، ص ٤٧ ، ٥٠ ، ٥١ .

Ayalon (D.) : Studies on the structure of the Mamluk Army . (Studies on the Mamluks of Egypt (1250 - 1517), London - 1977, pp. 204 : 207 .

Paliak (A. N.) : Fedualism in Egypt, Syria, Palestin and the lebanan (1250 - 1900) , London 1939, p. 1 : 2 .

وقد اعتبرتهم بعض المراجع[١] فئة واحدة مختلفة النوع على أساس أن السلطان الجديد لم يعتبر مماليك أبيه وهو السلطان المتقدم غرباء عليه ، كما أن مماليك أبيه لم يعتبروه أجنبيا عندهم .

أما الفئة الثانية : فهى فئة مماليك أمراء الإقطاعات وأرباب الدولة والوظائف ، وتعرف باسم : « اجناد الأمراء » وهم المماليك التابعين للأمراء وأرباب الدولة والوظائف العليا وتتكون منهم الوحدات الحربية التى يذهب بها الأمراء مع السلطان فى حروبه[٢]، وهذه الفئة كانت معروفة عند السلاجقة أما الفئة الثالثة : وقد أشار إليها القلقشندى[٣] : وعرفها باسم « جند الحلقة » وأنها مكونة من عدد كبير[٤]، ولم يذكر تصنيفهم ، ولكنه ذكر أنه ربما دخل فيهم من ليس بصفة الجند من المتعمميين وغيرهم . وقد أشارت بعض المراجع إلى أن هذه الفئة مكونة من محترفى الجندية من أولاد المماليك أو أولاد الناس من الأحرار[٥] ومن أصحاب الحرف وهم أشبه بجنود الاحتياط وقت الحرب ولا نستطيع على ضوء التعريف السابق أن نجد لهذه الفئة نظيرا عند السلاجقة ، فقد عرف مصطلح[٦] الحلقة كوحدة عسكرية لأول مرة (٥٧١ ـ ٥٧٢هـ / ١١٧٤ ـ ١١٧٥م) عندما خرج تورانشاه على رأس حملة إلى اليمن من قبل أخيه صلاح الدين ، ثم ثم استعمل بعد ذلك عدة مرات منها عند ذكر حصار عكا سنة ٥٨٧هـ/ ١٩٩١م .

---

(١) السيد الباز العرينى : الاقطاع الحربى زمن سلاطين المماليك ، القاهرة ١٩٥٦، ص ٤ ، ٥ .
إحمد مختار العبادى : المرجع السابق ص ٢٢٠ .

(٢) السيد الباز العرينى : الفارس المملوكى ، ص ٤٧ .
Ayalon : op. cit., p. 204 .

(٣) صبحى الأعشى : جـ٤ ص ١٦ .

(٤) المقريزى : الخطط جـ١ ص ٩٥ ، جـ٢ ص ٢١٦ .

(٥) اعتبرت بعض المراجع أن ابناء السلاطين والأمراء والمماليك فئة رابعة .
راجع :
السيد الباز العرينى : الاقطاع الحربى ، ص ٨ / الفارس المملوكى ، ص ٤٧

(٦) محمد نديم فهيم : المرجع السابق ص ١٠٦ .
محمد جمال الدين سرور : الظاهر بيبرس ص ١٣٥ .

أما عن التأثير السلجوقى فى هذه الفئة فيمكن تلمس أثره فى وجود عدد من المتعممين ومنهم أرباب للوظائف الدينية ضمن أفراد هذه الفئة وهذا تقليد سلجوقى . فقد عرف عن السلطان سنجر السلجوقى اصطحاب عدد كبير من الصوفية فى حروبه(١) . وشاع عن نور الدين زنكى اهتمامه باصطحاب هذه الفئة فى حروبه(٢) ، واقتدى بها السلطان صلاح الدين عندما كون من الفقهاء والصوفية وأصحاب العمائم « فرقة المتطوعة »(٣) واندرج أيضاً فى هذه الفئة أبناء القبائل والقرويين وأهل المدن من الفقراء والأغنياء(٤) .

عرض الجند والعناية بمظرهم :

تبين لنا فى الباب السابق أن الأيوبيين قد تأثروا بالنواحى العسكرية السلجوقية ومنها العناية باستعراض الجند وتجملهم . وقد انتقلت هذه الظاهرة الحضارية من السلاجقة عبر الأيوبيون إلى المماليك فى مصر ، بحيث استفحل أمرها فى العصر المملوكى ، وازدادت عما كانت عليه فى عصر السلاجقة فقد كان سلاجقة الروم يهتمون بأمر الاستعراضات العسكرية وخصصوا لها فيما يبدو ميدان قيصرية ، حيث تتحول عروض الجيش فى هذا الميدان إلى مهرجان شعبى يقام فيه عرض رائع للفروسية وبعض ألعاب التسلية والطرب(٥) .

كما اهتم أتابكة السلاجقة بنفس الظاهرة العسكرية ، واشتهر عن عماد الدين وابنه غازى اهتمامهم بشأن الجيوش الموصلية وخيولهم بحيث كان الميدان فى الموصل أمام دور المملكة والقلعة المكان الذى يتدرب فيه العساكر وفيه كشك يشرف الملك فيه على عرض الجيوش والألعاب ويشارك فى الألعاب القادة والفرسان ورجال العلم والدين

---

(١) ابن تغرى بردى : النجوم ، جـ٥ ص ٢٦٨ .
(٢) نظير حسان سعداوى : جيش مصر أيام صلاح الدين ، ص ١٧ ، ١٨ .
(٣) نظير حسان سعداوى : المرجع نفسه ص ١٥ .
(٤) محسن محمد حسين (د.) الجيش الأيوبى فى عهد صلاح الدين . مؤسسة الرسالة ، بيروت ، الطبعة الأولى ١٩٨٦ ، ص ١٥٧ .
(٥) تماراريس : المرجع السابق ، ص ٩٩ .

وربما شارك الملك بنفسه ، وكان السلطان نور الدين يعتبر اللعب بالكرة هو وسيلة من وسائل تدريب الجيوش والخيل[1].

ولم يحدث قبل حكم سلاطين المماليك فى مصر أن خُصِّصَ ميدانا بعينه لعروض وتدريبات الجيوش حتى سلطنة الظاهر بيبرس فرغم كثرة الميادين[2] التى حفلت بها القاهرة وخارجها ، حرص الظاهر بيبرس على الاهتمام بتدريب الجيوش واستعراضهم ، فشيد سنة ٦٦٠هـ/ ١٢٦١م ميداناً فى الصحراء خارج باب البرقية من شرق القاهرة ، بحيث خصصه للعروض والتدريبات العسكرية ، وأطلق عليه اسم « ميدان القبق »[3] وقد اختار له هذا الاسم بوجه خاص لأنه جاء على اسم جبل يقع فى منطقة وسط أسيا[4] ، وهى المنطقة التى جلب منها كثير من عساكره ، وهو أول ملوك مصر تقريبًا الذى لم يقصر هذه التدريبات على جنوده وحاشيته ، بل كان يحث الناس جميعًا على رمى النشاب ولعب الرمح ، وكان ينزل كل يوم من الظهر إلى العشاء إلى هذا الميدان وهو واقف فى الشمس يحرض الناس على الرمى والرهان وبخاصة جنوده وكان يتم فى هذا الميدان العروض العسكرية التى كانت تقوم بغرض التأكد من ارتفاع

---

(٢) سعيد الديوه جى : تاريخ الموصل ، ص ٤٣٥ ـ ٤٣٦ .

(٣) راجع : المقريزى : الخطط ، جـ٢ ص ١٩٧ : ١٩٨ .

(٤) القبق : لفظ تركى معناه نبات القرعة العسلية ، وأطلق فى العربية على الهدف الذى كان مستعملا فى ملعب الرماية المعروف باسم القبق أيضًا ، والقبق من الألعاب التى أحبها المماليك ـ وقد عرف السلاجقة من قبل اللعب بالكرة .

راجع : العينى : عقد الجمان ، جـ٢ ص ١٥٥ هامش ١ . ميدان القبق يقع إلى الخارج من شرق القاهرة الفاطمية ، وعرف باسماء متعددة منها الميدان الأسود وميدان العيد وميدان السباق والميدان الأخضر وهو ميدان الظاهر بيبرس أنشأه الظاهر بيبرس (سنة ٦٦٠هـ/ ١٢٦١م) لأمور الحرب ورمى النشاب وحث الناس على لعب الرمح ورمى النشاب ونحو ذلك وبنى به مصطبة ليرى منها الرمى والنضال والرهان

راجع : المقريزى : الخطط ، جـ٢ ص ١١١ . وقد اندثر هذا الميدان ومكانه حاليا القرافة خارج باب النصر .

(٤) القبق : اسم جبل شهير بالقوقاز لى لسترنج : المرجع السابق ص ٢١٦ .
حسن قاسم : المرجع السابق جـ٥ ص ٣٤١ .

الكفاءة القتالية للجند والتعرف على أحوالهم التى لخصها ابن منكلى قائلاً[1]:

« أن يعرف السلطان مماليكه فى الحرب رجلا رجلا بخاصته مما يختار منهم من ساير أحواله ليضع كل واحد منهم مكانه ، فيعرف الشجاع من العاقل من المثالى من الفرار (الكرار) ، من المقاتل فى حمية من أصحابه ، من الثابت أو الطايش ، من المقاتل من أجل الطمع أو من أجل الشهرة أو الوفاء أو للتدين أو للتعصب أو للغيرة ويعرف منهم الجبان الذى يشجع غيره ، ويعرف الفارس من الراجل ، من اللبق من الجيد الرمى أو الطعن ، والجيد الصفق بالعمود أو الضرب بالطبر أو الحافظ للسرة » .

ويضيف ابن منكلى[2]: أن من أسباب استعراض الجند أيضًا التحرى لئلا يكون هناك من هو من جنس العدو[3].

ومن الأغراض التى استهدفتها بعض عروض الجند فى عصر المماليك حصول المملوك على أجازة بانتهاء تعليمه يطلق عليه عتاقة إشارة إلى أنه غدا جنديًا مدربًا[4].

ولم يكن استعراض الجند فى عصر المماليك يتم للأسباب العسكرية السابقة فحسب ، بل تعددت المناسبات التى كانوا يستعرضون فيها الجند ـ ومنها ما كان يتم بوجه خاص فى ميدان القبق ـ كالمناسبات السياسية أو الاجتماعية التى لم يسبق أن عرفتها مصر طوال عصورها الإسلامية قبل عصر المماليك حتى خلال العصر الفاطمى الذى اشتهر بكثرة الاحتفالات والأعياد ، والتى لم يكن من ضمنها هذه الاحتفالات أو المهرجانات ذات الطابع العسكرى .

فمن المناسبات السياسية ـ والتى سبق أن نقلها الأيوبيين عن السلاجقة ـ ما كان

---

(١) محمد بن منكلى الناصرى : الأحكام المملوكية والضوابط الناموسية فى فن القتال فى البحر ـ تحقيق: د. عبد العزيز عبد الدائم (رسالة دكتوراه ـ غير منشورة قدمت لكلية الآداب جامعة القاهرة ١٩٧٤) (جزءان) (الباب ٤٨) ، جـ٢ ، ص ١٤٤ .

(٢) محمد بن منكلى التدابير السلطانية فى سياسة الصنائع الحربية (مخطوط مصور محفوظ فى المكتبة العامة لجامعة القاهرة (برقم ١٢٦٣٣٧) ص ٩ ، ١٠ .

(٣) ذكر الماوردى بعض هذه الأسباب عند استعراض أمير الجيش للجند . راجع : الماوردى : المصدر السابق ، ص ٣٥ ٣٧

(٤) السيد الباز العرينى الفارس المملوكى ، ص ٥٥

يقوم به سلاطين المماليك من استعراض لجنودهم أمام رسل الدول الأخرى المبعوثين إلى مصر وكان غرضهم من هذا العرض العسكرى أن يرى الرسل مدى ما وصلت إليه قوتهم وقوة جيوشهم ومدى عظمة تكوين هذه الجيوش من السلاح والخيل والجنود ، فقد استعرض الظاهر بيبرس جنوده أمام رسل الملك بركة خان سنة ٦٦٢هـ/ ١٢٦٣م فى ميدان القبق[١].

وتعددت المناسبات الاجتماعية فى عصر سلاطين المماليك التى جعلت من الفرص السانحة لإقامة أمثال هذه المهرجانات والعروض العسكرية ومنها حفلات العرس (الزواج) من ذلك ما حدث سنة ٦٥٨هـ/ ١٢٥٩م عندما أقام السلطان الظاهر بيبرس حفل عرس ابنه الملك السعيد ناصر الدين بركة خان (تولى السلطنة ٦٧٦ـ ٦٧٨هـ/ ١٢٧٧ـ ١٢٧٩م) فقد أمر السلطان ـ فى هذا اليوم ـ عساكره أن تركب إلى الميدان الأسود تحت القلعة (أو ميدان القبق) فى أحسن زى ، وأقاموا يركبون كل يوم ويتراكضون فى الميدان والناس تزدحم للفرجة عليهم خمسة أيام[٢].

ومن المناسبات الاجتماعية والتى كانت فرصة لاستعراض الملوك لعساكرهم حفلات الانجاب ، ومنها مناسبة قرب وضع زوجة الملك الأشرف خليل حملها ، فرسم للعساكر بالتأهب للعرض والقيام من العدد والتجمل بالناقلة والغرض ، فاهتموا بالعدد الجميلة من الجواشن[٣]، والقرقلات[٤] والخوذ[٥]، والبركستوانات[٦]

---

(١) المقريزى : السلوك ، جـ١ ق ٢ ص ٥١٩ .

(٢) ابن تغرى بردى : النجوم : جـ٧ ص ١٦٥/ العينى : عقد الجمان ، جـ٢ ص ١٥٤ ـ ١٥٥ .

(٣) الجواشن : الدروع . سعيد عاشور : العصر المماليكى ، ص ٤٠٦ وتكون من حلقات يفصلها بعضها عن بعض قطع صغيرة من الصفائح . السيد الباز العيرينى : الفارس المملوكى ، ص ٦٢ .

(٤) القرقلات : سلاح يشبه الدروع يتخذ من صفائح ويغشى بالديباج الأحمر والأصفر وهى رزديه بدون أكمام ومبطنة بالحرير ـ سعيد عاشور : المرجع نفسه ص ٤٤٠/ السيد الباز العرينى : المرجع نفسه ، ص ٦٣ .

(٥) الخوذ : هى بيضة الحديد التى تغطى الرأس ، ويسمى مقدمها القانس ومؤخرها الدائرة وكانت تحشى بالأسفنج الضيق .

عبد العزيز عبد الدائم : الأحكام الملوكية ، ص ٥٧ حاشية ٣ .

(٦) البركستوانات : ما يوضع حول بدن الفرس كالدرع .

سعيد عاشور : المرجع نفسه ، ص ٣٩٦ .

والتراكش[1]، والكوسات[2]، وغير ذلك من العدد الفاخرة . فقد كان السلطان يأمل أن تنجب زوجته ذكراً يرث الملك بعده . وتجملت لذلك العساكر تجملا لم ير مثله وغالوا فى أثمان العدد[3] .

ومن المناسبات الاجتماعية التى كان يتم فيها عرض الجند حفلات الختان عندما ختن السلطان الأشرف خليل أخيه محمد وابن أخيه مظفر الدين موسى بن الملك الصالح : « رسم لنقيب الجيوش والحجاب باعلام الأمراء والعسكر أن يلبسوا كلهم آله الحرب من السلاح الكامل هم وخيولهم ويصيروا بأجمعهم إلى الميدان الأسود » ـ القبق[4]، وكان ذلك بغرض الاستعراضات التى كان يصاحبها فى كثير من الأحيان الملاهى والأغانى وأصحاب الملعوب ، فكانت أشبه بمهرجان يستمر عدة أيام[5] .

وفيما يبدو أن نظام الإقطاع الذى أخذه المماليك من السلاجقة ، قد ساهم فى ابراز ظاهرة عرض الجند ، فلم يعد عرض الجند يتم بمعرفة ديوان الجيش فحسب ، كما كان الحال قبل السلاجقة والأيوبيين ، بل شارك السلطان نفسه فى هذا العرض.

وتطور عرض الجند فى العصر المملوكى حتى أصبح من مهام أمراء الدولة وهكذا رأينا نوعا ثالثًا من العرض ، فيذكر السبكى[6] : أن عليهم أن يتفقدوا حال الأجناد وخيولهم .

وقد ذكرنا فى الحديث عن عرض الجند فى العصر الأيوبى ، أن التأثير السلجوقى امتد إلى الاهتمام بزى الجند لدرجة التجمل الذى يبهر الناظرين وبالمثل اهتم السلطان بيبرس بزى الجند إلى جانب اهتمامه بالتدريب العسكرى فقد وصف المقريزى[7]

(١) التراكش : الكنانة أو الجعبة التى توضع فيها السهام .
سعيد عاشور : المرجع نفسه ، ص ٤٠١ .
(٢) الكوسات : صنوجات من نحاس تشبه الترس الصغير يدق بأحدها على الآخر .
سعيد عاشور : المرجع نفسه ، ص ٤٤٥ .
(٣) العينى : عقد الجمان ، جـ٣ ص ١٦٦ .
(٤) المقريزى : الخطط ، جـ٢ ص ١١٢.
(٥) المقريزى : المصدر نفسه ، جـ٢ ص ١١٣ .
(٦) السبكى : معيد النعم ، ص ٤٣ .
(٧) الخطط جـ٢ ص ١١١

عساكر السلطان بيبرس « بأنهم فى أحسن زى وأجمل لباس وأكمل شكل وأبهى منظر » ووصف[1] عساكر الأشرف خليل « أنهم من الجمال البارع بحيث يذهل الناظر ويدهش جمالهم الخاطر ، فقد بالغوا فى التأنق وتنافسوا فى إظهار التجمل ، فتعاظمت مسرة السلطان برؤيتهم »[2] واشتهر عن السلطان الملك المنصور ابن حاجى (٧٦٢ـ ٧٦٤هـ ١٣٦٠ ـ ١٣٦٢م) أنه وعساكره كانوا فى غاية التجمل[3].

وإذا كان سلاطين المماليك قد أخذوا عن السلاجقة شدة العناية بتجمل مماليكهم إلا أنهم بالغوا فى ذلك إلى حد لا يتفق مع تعاليم الدين الإسلامى ، الأمر الذى جعل علماء الدين[4] فى ذلك العصر يستقبحون هذه المبالغة فى التجمل ، فيذكر السبكى[5] : أن من قبائحهم ما يذهبونه من الذهب فى الأطرزه العريضة والمناطق وغيرها من أنواع الزركش التى حرمها الله عز وجل ، وأضاف[6] أن من منكراتهم ركوبهم والجنائب تقاد بين أيديهم مسرجة غير مركوبة ، وهم مع ذلك يجدون المحتاج ماشيا ولا يركبونه وإنما يمشون بالجنائب للتزين لا لحاجة ، الأمر الذى سبق ونهاه الرسول ﷺ [7].

ومن هذا المنطلق وقف علماء الدين فى وجه سلاطين المماليك فاعترض قاضى

---

(١) المقريزى : الخطط ، جـ٢ ص ١١٣ كانت عساكر الملك الأشرف خليل تلبس تترهات حرير أطلس بطرازات زركش وكلوتات زركش وحوائص ذهب .
المقريزى : الخطط ، جـ٢ ص ١١٣ .

(٢) راجع : المقريزى : الخطط ، جـ٢ ص ١١٣/ العينى : عقد الجمان ، جـ٣ ص ١٦٦ .

(٣) ابن تغرى بردى : النجوم ، جـ١١ ص ٣٩٣ راجع : عن وصف زى العساكر والخيول فى عصر سلاطين المماليك : المقريزى : الخطط ، جـ٢ ص ١١١ : ١١٣، ٢١٦ : ٢١٧
العينى : عقد الجمان ، جـ٣ ص ١٧ : ١٩ : السيوطى : حسن المحاضرة ، جـ٢ ص ١١٠ : ١١١ .
ماير : المرجع السابق ، ص ٣٩ : ٨٩ / ماجد : نظم المماليك ، جـ١ ص ١٦١ : ١٨١ .

(٤) السبكى : المصدر السابق ، ص ٤٤ .

(٥) معيد النعم ، ص ٤٤ .

(٦) السبكى : المصدر نفسه ، ص ٤٦ .

(٧) راجع حديثا للرسول عليه الصلاة والسلام ينهى عن وجود مثل هذه الجنائب
السبكى : المصدر نفسه ص ٤٦ .

القضاة المصرية بدر الدين البخارى والشيخ عز الدين بن عبد السلام (ت ٦٦٠هـ/ ١٢٦١م) على السلطان الملك المنصور نور الدين على بن أيبك ، لأنه طلب أن يأخذ من أموال الناس لمساعدة الجند فى حروبه ضد التتار سنة ٦٥٧هـ/ ١٢٥٨م فرفض الشيخان حتى يفرغ بيت المال تماما ، ثم ينفق السلطان الحوائص والأحزمة والذهب وغيرها من الزينة ، حتى يتساوى وعساكره وأمراؤه بالعامة فى الملابس سوى آلات الحرب ، بحيث لا يبقى للجند سوى فرسه[١] .

ومن الظواهر الحضارية المملوكية فى مصر التى ترتبت على المبالغة بأمر العناية بعرض الجند والاهتمام بمظهرهم وتجملهم ، ظهور أسواق فى القاهرة لم تكن موجودة فى العصر الفاطمى مخصصة لإنتاج ما يحتاجه الجند وخيولهم مثل : سوق السلاح : الخاص ببيع القس والنشاب والزرديات وغير ذلك من آلات السلاح[٢] .

وسوق المهامزيين[٣] لبيع المهاميز وهى أنواع ، منها ما هو مصنوع من الذهب الخالص أو من الفضة الخالصة أو من الحديد المطلى من الذهب أو الفضة ويباع فيه أيضاً بدلات برسم لجم الخيل والسلاسل والمخاطم ويباع فيه أيضاً الدوى والطرف .

سوق اللجميين[٤] : تباع فيه آلات اللجم ونحوها مما يتخذ من الجلد .

سوق الشرابشيين[٥] : تباع فيه الخلع التى يلبسها السلطان للأمراء والوزراء

---

(١) المقريزى : السلوك جـ١ ق ٢ ص ٤١٦، ٤١٧ ، ابن تغرى بردى : النجوم جـ٧ ص ٧٣ السيوطى : تاريخ الخلفاء ص ٤٧٥/ ابن إياس : المصدر السابق جـ١ ص ٣١٤ ٣١٨ ، ٣٢٢ . العينى : عقد الجمان جـ١ ص ٢١٨ ، ٢١٩ .

(٢) يقع سوق السلاح فيما بين المدرسة الظاهرية بيبرس وبين باب قصر بشتاك فى خط بين القصرين . المقريزى : الخطط جـ٢ ص ٩٧ .

(٣) كان يقع بأول سوق المهامزيين حبس المعونة ويقابله مارستان قلاوون والوكالة ودار الضرب فى الموضع الذى يعرف اليوم بدرب الشمس وما بحذائه من الحوانيت إلى حمام الخراطين وما تجاه ذلك ، الخطط ، جـ٢ ص ٩٧

(٤) سوق اللجميين يتصل بسوق المهامزيين المقريزى : المصدر نفسه ، جـ٢ ص ٩٨

(٥) يلى سوق الشرابشيين سوق الخوخيين الذى يلى سوق اللجميين المقريزى المصدر نفسه ، جـ٢ ص ٩٨

والقضاة وغيرهم .

سوق الحوائصيين[1] لبيع المنطقة أو حوائص الاجناد والتى كانت تعمل من الذهب والفضة .

العيون (الجواسيس) :[2]

عرف هذا النظام منذ عهد الرسول ﷺ وكان الهدف منه حربيا أو رقابيا فمن خلال الأخبار التى يأتى بها الجواسيس عن العدو ، يتمكن القائد من معرفة نيات عدوه وعدد جنوده وعتاده وتحركاته ، وهذه المعلومات تمكنه من وضع خططه الحربية[3]. كما ساعدت عيون المحتسب على فرض الرقابة على عمال الخراج[4].

---

(١) سوق الحوائصيين يتصل بسوق الشرابشيين : المقريزى : المصدر نفسه ، جـ٢ ص ٩٩ .
راجع : على مبارك : المرجع السابق ، جـ١ ص ١٣٧ .

(٢) الجاسوس : من الألفاظ التى وردت فى آيات القرآن الكريم ، مثل قوله تعالى : « لا تجسسوا » سورة الحجرات (آية ١٢) .
والجاسوس : هو من يتجسس الأخبار ليأتى بها (ج : جواسيس)
المعجم الوسيط : جـ١ ص ١٢٢ .
وعن أهمية العيون والجواسيس راجع : عبد العزيز عبد الدائم : الأحكام المملوكية ، ص ٣٤ .

(٣) قبل غزوة بدر بعث الرسول ﷺ بن عبيد الله وسعيد بن زيد إلى طريق الشام يتجسسان الأخبار . وكانت له جواسيس بمكة يأتونه بأخبارها ومنهم عمه العباس . فقد كان عليه السلام يكثر من العيون فى غزواته واقتدى به الخليفة عمر بن الخطاب فكانت له طائفة تتكلم الرومية وتتزى بزيهم كى يتمكنوا من الالتحام بالروم ويعودوا بأخبارهم حتى أوشك القرن الثانى الهجرى على نهايته ، وكان التجسس من أجل الأمور خطرا عند المسلمين ولذا كان على أمير الجيوش أن يقف على أخبار عدوه ويتصفح أحوالهم فيأمن غدرهم . راجع : أبى يعلى : المصدر السابق ص ٢٨ .
عبد الرؤوف عون (د.) : الفن الحربى فى صدر الإسلام ، ص ٢١٣ ، ٢١٥ واتبع ملوك الديلم والغزنويين هذا النظام : نظام الملك : المصدر السابق ص ١٠٢ ، ١٠٦ ، ١١٨ واتبعته الدولة الفاطمية فى أهدافه المعروفة ، فوالد المأمون البطائحى كان جاسوسا للفاطميين .
ابن ميسر : المصدر السابق ص ٩٨ هامش ٣٤٥ .
المقريزى : اتعاظ الحنفا ، جـ٢ ص ٣٢١ / العماد الحنبلى : المصدر السابق ، جـ٤ ص ٦٠ .

(٤) فقد كان للمحتسب عيون فى الأسواق يوصلون إليه الأخبار وأحوال السوق والتجار والصناع .
أبو يوسف الأنصارى : « يعقوب بن إبراهيم بن خيس » (ت ١٨٢هـ/ ٧٩٨م) : الخراج طبعة بولاق ١٣٠٢هـ/ ص ٧٣ .
سهام مصطفى أبو زيد : الحسبة فى مصر الإسلامية من الفتح العربى إلى نهاية العصر المملوكى (الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٨٦) ، ص ١٢٥.

وقد توسع السلاجقة فى استخدام هذا الأسلوب ـ وحادوا به عن هدفه الأساسى بناءاً على نصيحة من نصائح الوزير السلجوقى نظام الملك ، فقد شمل التجسس أخبار الولاه ، والمستقطعين والعمال والأمراء وأخبار الرعية خيرها وشرها(١) .

لدرجة أنهم أهملوا ديوان البريد . وطالب السلطان ألب أرسلان بإلغاء هذا الديوان(٢) ، فى مقابل تشديد الرقابة على الطرق ، عن طريق العيون ورجال الاستخبارات السريين ، وهم بالمصطلح الحديث « الجواسيس » أو « المخبرون » .

وقد اختفى العيون فى هيئة التجار ، أو السياح أو المتصوفة وبائعى أدوية أو الدراويش(٣) ، وما نحو ذلك وكان عليهم إرسال ما يسمعونه من أخبار حتى يمكن تدارك الأمور فى الوقت المناسب كما كان عليهم نقل كل حادث يجد على بعد خمسين فرسخًا من الطريق ، وإذا استشعر أحدهم خطراً ، أبلغ صاحب الشرطة ليمكن تداركه(٤) ، وحتى لا يظل ثمة شىء خافياً .

وقد اتبع صلاح الدين ذات النظام وطوره إذ استعان فيه بالمستأمنين من الصابيين والأسرى منهم . كما أرسل جواسيسًا من الفلاحين إلى المعسكر الصليبى فى صورة الباعة المتجولين بأنواع الطعام ، وعند عودتهم يدلون بالأخبار عن العدو(٥) .

والملاحظ أن الأيوبيون استخدموا نظام الجاسوسية بكثرة فى الأغراض الحربية فعن طريقهم تمكن أسد الدين شيركوه من معرفة عدد الفرنجة والمصريين ومدى قوتهما فى حملته على مصر سنة ٥٦٢هـ/ ١١٦٦م(٦) .

---

(١) سياست نامة : (ترجمة : حسين بكار) ، ص ١١١.

(٢) عبد النعيم حسنين : المرجع السابق ، ص ١٦٥ .
فاضل الخالدى : المرجع السابق ، ص ٢٦٤ .
كارل بروكلمان : المرجع السابق ، ص ٢٨٠ .

(٣) نظام الملك : المصدر نفسه ، ترجمة حسين بكار ، ص ١١١ .

(٤) نظام الملك : المصدر السابق ، ص ١٠٧ .
مواهب عبد الفتاح : المرجع السابق ، ص ٨٨ .

(٥) نظير سعداوى : نظام البريد فى الدولة الإسلامية ، ص ١٠١ ـ ١٠٢ .
عرفت هذه الظاهرة فى حدود ضيقة فى العصر الفاطمى فى مصر .

(٦) ابن واصل : المصدر السابق ، جـ١ ص ١٥٠ .
راجع : جمال الدين الشيال : الجاسوسية « بحث فى كتاب : دراسات فى التاريخ الإسلامى « الإسكندرية / ١٩٦٤ ، ص ٧٤ .
راجع : قصص أخرى عن الجاسوسية : المقريزى : السلوك ، جـ١ ق ٢ ص ٢٨٥ .

وكان أشهر من ذاع صيتهم فى نقل الأخبار الحربية سراً ، الأمير علم الدين شمايل (ت ٦٢٣هـ/ ١٢٢٦م) كان من جملة[١] الجندارية فى عساكر الملك الكامل وكان يسبح ليلا ويأتى بأخبار الفرنجة ، وبعد انتصار الأيوبيين على الفرنجة صار هذا الأمير واليا على القاهرة وإليه نسبت « خزانة شمايل »[٢]. وطور الملك المعظم عيسى بن الملك العادل أبى بكر فى أشكال من يتجسسون فجعل بعضهم من النساء وخاصة من نساء الفرنجة[٣] ويذكر كرد على أن المعظم عيسى « كان يعطى النساء والجواسيس فى كل فتح جملة كثيرة[٤]».

وقليلا من خرج التجسس فى العصر الأيوبى عن غرضه الحربى ، واستخدمه بعض وزراء سلاطين الأيوبيين لأحكام سيطرتهم على شئون السلطنة فقد استولى وزير السلطان الملك العادل ، وهو الصاحب صفى الدين عبد الله بن شكر ، « على السلطان ظاهرا وباطنًا ولا يمكن أحداً من الوصول إليه ، حتى الطبيب والحاجب والفراش ، فقد كان عليهم عيون ـ جواسيس ـ من قبل بن شكر فلا يستطيع أن يتكلم منهم أحد فضل كلمة خوفًا منه »[٥].

لم يقتصر التجسس فى عصر السلاجقة والزنكيين على المجهود الحربى فقط بل تطرق إلى مجالات أوسع وأبعد مما ينبغى . فاستخدم فى خصوصيات الخليفة والسلطان وضد الأمراء وعلية القوم . وقد اشتهر عن السلطان نور الدين زنكى أنه كان « شديد العناية بأخبار الأطراف وما يجرى لأصحابها حتى فى خلواتهم لا سيما دركات

---

(١) الجندارية : جمع جاندار ، وهى كلمة من مقطعين ، هما : جان ومعناها فى الفارسية والتركية الروح ، والثانية دار : ومعناها ممسك ، وتعنى جاندار ممسك الروح ـ راجع : بن شاهين الظاهرى : المصدر السابق ، ص ١١٦
الباشا : الفنون والوظائف ، جـ١ ص ٣٤٨ .
(٢) كانت تقع خزانة شمايل على يسار الداخل من باب زويلة ، وقد كانت سجنا لأصحاب الجرائم .
المقريزى : الخطط ، جـ١ ص ٢٦١ .
ابن إياس : المصدر السابق ، جـ١ ص ٢٦١ .
(٣) الشيال : المرجع نفسه ، ص ٧٦ .
(٤) خطط الشام ، جـ٢ ص ٩٢ .
(٥) المقريزى : الخطط ، جـ٢ ص ٣٧٢ .

السلطان وكان يغرم على ذلك المال الجزيل ، فكان يطالع ويكتب إليه بكل ما يفعله السلطان فى ليله ونهاره من حرب وسلم وهزل وجد وغير ذلك فكان يصل إليه كل يوم من عيونه عدة قاصدين »[1]. واشتهر عن الخليفة الناصر لدين الله العباسى (ت ٦٢٢هـ/ ١٢٢٥م) « أن أصحاب أخبارة فى أقطار البلاد يوصلون إليه أحوال الملوك الظاهرة والباطنة حتى ظن عنه أنه كان يعلم الغيب »[2].

وقد تأثر سلاطين المماليك فى مصر بظاهرة التجسس بمعناها الواسع المشار إليه . حتى صار للأمراء والوزراء عيون يمكن لهم من خلالها إحباط المؤمرات المحاكة ضدهم ، أو رصد تحركات من لا يرغبون فيهم لقتلهم .. ومن أمثلة ذلك أن كلا من الأميرين بيبرس وسلار كتبت لهما النجاة من المؤامرة التى دبرها لهم السلطان الناصر محمد بالقلعة مع بكتمر الجوكندار سنة ٧٠٧هـ/ ١٣٠٧م عن طريق أعين لهم عند السلطان فبلغوهما بمؤامرة السلطان ضدهما فاحترسا وافلتا منه[3].

وكان « للنشو » وزير الملك السلطان الناصر محمد عجائز يتجسسن له فى بيوت الكبار[4].

واستطاع الوزير مغلطاى أن يقتل الأمير كريم الدين أكرم الصغير سنة ٧٢٦ هـ/ ١٣٢٥م فى خفية ، من خلال الأعين التى وضعها له[5].

واستخدم بعض سلاطين المماليك التجسس مع أعدائهم حتى بعد صفاء الأمور ومثال ذلك أن قصاد بن قلاوون ظلت فى بلاد بو سعيد حتى بعد مهادنته مع السلطان الناصر محمد بن قلاوون[3].

---

(١) أبو شامة : الروضتين ، جـ١ ص ٤٣/ ابن الأثير : الدولة الاتابكية ، ص ٧٨ .

(٢) السيوطى : تاريخ الخلفاء ، ص ٤٤٨ ـ ٤٤٩ ومن أمثلة ذلك عندما دخل رسول صاحب مازندران بغداد ، وكانت أخباره تذهب للخليفة العباس كل صباح بما عمل فى الليل حتى تحير وخرج من بغداد ، وهو لا يشك أن الخليفة يعلم الغيب .
السيوطى : المصدر نفسه ، ص ٤٤٨ ـ ٤٤٩ .

(٣) المقريزى : السلوك ، جـ٢ ق ١ ، ص ٣٣ / ابن تغرى بردى : النجوم ،٨ ص ١٧١ .

(٤) المقريزى : السلوك ، جـ٢ ق ٢ ص٣٨٢ .

(٥) المقريزى : السلوك ، جـ٢ ق ١ ص ٢٧١ .

(٦) محمد بن منكلى : الأحكام المملوكية والضوابط الناموسية ، (باب ٨٥) جـ٢ ص ١٨٣ .

على أن توسع سلاطين المماليك فى استخدام ظاهرة التجسس لم يقعد بهم عن استخدامها فى غرضها الأساسى وهو الحربى والأمنى ، بحيث أصبح للجاسوس شروط يجب أن تتحقق فيه قبل اختياره أشار إليها ابن منكلى[1] : ومنها : « أن يكون ذو حيلة ممن له جلد على الجوع والعطش باستعمال سفوف تكون معه أو كلاما يقوله بالخاصية فينفعه فى الجوع والعطش ، ويضيف الدكتور عبد العزيز عبد الدايم[2] : أن يكون كثير الدهاء والحيل والخديعة ليصل إلى غرضه بأى وسيلة ، ويكون ذا دراية بالأسفار ومعرفة البلاد التى يتوجه إليها ، ولسان أهلها وإن عرف لغات فيكون ذلك شيئًا عظيمًا ويضيف عميد د. محمود نديم[3] : أن يكون ـ الجاسوس ـ من أهل النصيحة والخبرة والتجربة فى الحرب ليتمكن من استعمال آلات الحرب فى الدفاع عن نفسه » وقد بلغت الجاسوسية فى عصر سلاطين المماليك أعلى درجات المهارة بحيث كثر عدد الجواسيس للمهمة الواحدة ، وهم غير معروفين لبعضهم البعض ، أو للمعسكر حتى لا يفتضح أمرهم ، وحتى لا يتفقوا على أمر فيما بينهم ، لأن من الفضل أن يأتى كل منهم بخبر على حدته ليظهر الصحيح منهم والسقيم[4] .

ومن أشهر من قاموا بمهمة التجسس فى عصر المماليك ، الأمير سنقر بن عبد الله النجمى الفارقانى (ت ٦٧٧ هـ/ ١٢٧٨م) بحيث وصل إلى أعلى الدرجات فى عصر السلطان بيبرس بسبب نجاحه فى عمليات تجسس الأخبار[5] .

٤ ـ مظاهر التأثيرات السلجوقية فى الحضارة المملوكية اقتصاديا بمصر :ـ

الإقطاع :

يعتبر الإقطاع من أهم الظواهر الحضارية الاقتصادية والمالية التى وضحنا فى الباب السابق كيف تأثر الأيوبيون بالسلاجقة فى الأخذ بهذا النظام المالى والذى انتقل من

(١) الأحكام المملوكية والضوابط الناموسية (باب ٨٥) جـ٢ ص ١٨٢ .
(٢) محمد بن منكلى : المصدر نفسه ، جـ١ ص ٣٤ .
(٣) محمود نديم : المرجع السابق ، ص ١٧٠ .
(٤) ابن منكلى : المصدر السابق ، جـ١ ص ٣٤ .
(٥) ابن تغرى بردى : المنهل ، جـ٢ ص ٤٩٤ ـ ٤٩٥ .

الأيوبيين إلى عصر المماليك الذين توسعوا فى استخدامه توسعاً كبيراً بحيث اعتبرت دولة سلاطين المماليك من الدول الإقطاعية الكبرى[1] . كما تميز الإقطاع فى عصرهم بتأثره بمؤثرات أخرى[2] ، وإن ظلت قواعده الأساسية مأخوذة عن نظم الإقطاع السلجوقى التى وضعها وطبقها الوزير نظام الملك . ومن أسباب إقبال سلاطين المماليك على التوسع فى استخدام هذا النظام المالى أنه يتفق ونشأتهم القبلية وسط القبائل التركية - فيما وراء النهر - حيث تنظر تلك القبائل إلى الأرض كملك مشترك ، أو شائع من حق الجميع أن ينتجعوا فيه ويرعوا ويتجولوا ومن شيمة التعصب القبلى عندهم « الولاء » الذى ظهر فى نظام الإقطاع فى صورة تبنى الأغنياء منهم للرعاة الفقراء ، بحيث يصبحون موالين لهم ، ويخدمونهم فى الأعمال الحربية بشكل خاص[3] فقد ترجم الوزير نظام الملك السلجوقى هذا المعنى فى العبارة التالية « أرض المملكة وسكانها ملك السلطان »[4] .

ومن أسباب العمل بنظام الإقطاع فى مصر ، ما حدث لأراضيها الزراعية التى تحول الكثير منها بسبب كثرة المجاعات الناتجة عن انخفاض فيضان النيل والأوبئة التى كانت تفتك بالالاف فى أيام قلائل وهو الأمر الذى أدى إلى خلو قرى بأكملها من

---

(١) راجع : السيد الباز العرينى : الإقطاع الحربى بمصر زمن سلاطين المماليك القاهرة ١٩٥٦ ، ص١١ .

(٢) فقد أشارت بعض الأراء إلى وجود التأثيرات المغولية على حضارة المماليك بسبب كثرة مهاجرى المغول الوافدين ، وهؤلاء حظوا برعاية سلاطين المماليك فى مصر وخاصة الأحرار منهم ، إذ منحوا إقطاعات فى سبيل خدماتهم الحربية وفيما يبدو أن هؤلاء الوافدين المغل جلبوا إلى مصر بوجه خاص نظام التقنين المغولى (الياسة العظيمة للجنكيز خان) بحث أصبح نظام القانون مكونا من جزئ : الشريعة ، والسياسية ... راجع :

Rabie : op. cit., p. 30 - 31.

عبد العزيز عبد الدائم : التأثيرات المغولية ، ص ١٣٣ : ١٣٦ .

راجع عن تعريف السياسة ، المقريزى . الخطط جـ٢ ص ٢٢٠ .

على مبارك : المرجع السابق جـ١ ، ص ١٣٧

(٣) دائرة المعارف الإسلامية (نقلها إلى العربية د عبد الحميد يونس وآخرين) جـ٤ ص ١٢٥ - ١٢٦ - أحمد صادق المرجع السابق ، ص ٣٤٤

(٤) إبراهيم على طرخان المرجع السابق ، ص ٦٣

أصحابها، وتحولوا على مر الأيام إلى البوار .

وهذا الأمر بالذات سبق وأن لاحظه فى العصر السلجوقى نظام الملك الطوس عندما تولى الوزارة فقد وجد : أن الأحوال قد تبدلت فى أواخر الديلم وأوائل دولة الترك ، وقد ضربت الممالك بين إقبال هذا وأدبار تلك واقفرت البلاد ، واستولت الأيدى العادية عليها »[1] لذلك وجد الحل فى الإقطاع بشقيه الإدارى والحربى بحيث كان الإقطاع العسكرى بوجه خاص فى المرتبة الأولى فقد بلغ فى العراق وحدها حوالى أربعين أميراً إقطاعياً[2] .

وقد ازداد عدد أمراء الإقطاعات فى عصر المماليك ، وتبعًا لتفاوت رتبهم وعدد وظائفهم وعدد مماليكهم ، تفاوتت أيضًا القيم النقدية للإقطاعات التى منحت لهم ، إذ كان من المفروض أن يخَصص كل أمير إقطاعى ثلثى إقطاعاته للمماليكه مقابل اشتراكهم فى الخدمة الحربية عندما يستدعيهم السلطان ، مع تقديم مبلغ مالى سنوى للسلطان[3] .

ومن أهم وصايا نظام الملك بشأن نظام الإقطاع ، أنه شرط ضرورة تبديل الأرض كل فترة للحيلولة دون وضع أيدى المقطعين عليها بصورة فعلية ولمنعهم من أن يستولوا بشكل مستقل ، وحتى لا يهمل المقطع إقطاعه من الناحية الإنتاجية[4] فكان يحل الإقطاع ويعاد توزيعه فى نظام يعرف بمصطلح « الروك » فإذا كان « الروك » كمصطلح ، وكنظام مالى عرف منذ فجر الإسلام ، وطبق فى مصر خمس مرات قبل العصر المملوكى[5] . فإن تفرق آراء المقطعين والشكاوى من الفريقين فى كل وقت وحين ، جعلت سلاطين المماليك البحرية[6] يتوسعون فى استعماله بحيث طبق فى

---

(١) الأصفهانى : المصدر السابق ، ص ٦٠ .
(٢) فاضل الخالدى : المرجع السابق ، ص ٢٧٦ .
(٣) قاسم عبده قاسم : دراسات فى تاريخ مصر الاجتماعى عصر سلاطين المماليك . دار المعارف بالقاهرة ١٩٨٣م ، الطبعة الثانية ، ص ١٩ .
(٤) أبو شامة الروضتين جـ٢ ص ٥٢/ أحمد صادق : المرجع السابق ص ٣٤٧ .
(٥) الروك : من راك وهى كلمة قبطية الأصل ، تعنى مسح الأراضى الزراعية فى بلد من البلاد لتقدير الخراج المستحق عليها لبيت المال وتعنى بالمصطلح الحديث « فك الزمام وتعديه » راجع : المقريزى : السلوك ، جـ٢ ق ١ هامش ١ ص ١٤٦/ حـ١ق ٣ هامش ٣ ص ٨٤١، ٨٤٢.
(٦) راجع : إبراهيم على طرخان : المرجع السابق ، ص ٩٥ : ٩٦ .

عصر المماليك البحرية وحدها مرتين هما الروك الحسامى سنة ٦٩٧هـ/ ١٢٩٧م[١] وبعده بثمانى عشرة سنة كان الروك الناصرى سنة ٧١٥هـ[٢]/ ١٣١٥م ـ وإذا كان السبب فى ذلك راجعًا لتأثر نظم الإقطاع المملوكى بالإقطاع السلجوقى من حيث : «إقطاع شخصى موقوت» لا دخل لحقوق الملكية[٣] أو لأحكام الوراثة فيه ، فإن هذا المبدأ فى نظام الإقطاع كان أشد ملاءمة لظروف الدولة المملوكية من حيث أن اعتلاء عرش السلطنة لم يكن وقفا على أسرة بعينها . علاوة على أن السلطان الجديد كان لابد أن يشترى مجموعة جديدة من المماليك وهؤلاء لابد أن يوفر لهم الإقطاعات ، الأمر الذى جعل سلاطين المماليك يضطرون إلى حل وتبديل الإقطاع من آن لآخر والذى يعرف بمصطلح الروك ، ليدخل الأمراء الجدد فى الإقطاع .

فالسلطان الجديد يستطيع أن ينقل من يشاء من المقطعين إلى أماكن أخرى ، أو

---

(١) الروك الحسامى : نسبة للسلطان حسام الدين لاجين الذى أمر بعمله وقسم فيه أرض مصر إلى أربع وعشرين قيراطًا . وتميز بقلة عبرة الاقطاعات فى زرق الأجناد حيث صار من كان متحصله عشرين ألفا أصبح يأخذ عشرة الاف ، وصارت أكثر الاقطاعات عشرين ألفا إلى ما دونها . راجع :
المقريزى : السلوك جـ١ ق ٣ ص ٨٤١/ ابن تغرى بردى : النجوم ، جـ٨ ص ٩٢ : ٩٥
العينى : عقد الجمان جـ٣ ص ٣٩٤ : ٣٩٧ .
ابن إياس : المصدر السابق ، جـ١ ص ٣٩٧ / بيبرس المنصورى : المصدر السابق ، ص ١٥٢ .
السيد الباز العرينى : الاقطاع الحربى ، ص ١٤ : ٢٠ .
Rabie : op. cit., p. 52 .

(٢) الروك الناصرى : ينسب للسلطان الناصر محمد بن قلاوون الذى أمر بعمله وفيه جعل لخاصته عدة نواح بلغت عشرة قراريط ، واقطاعات الأمراء والاجناد وغيرهم اربعة عشرة قيراطًا .
راجع : المقريزى : السلوك جـ٢ ق ١ ص ١٩ ، ١٤٦ ، ١٥٥ جـ١ ق ٣ هامش ٣ ص ٨٤٤
ابن تغرى بردى : النجوم ، جـ٩ ص ٤٢ : ٤٤ ، جـ١٠ ص ٣٠٥ هامش ٣ ص ٢٥٦/ ابن إياس: المصدر السابق جـ١ ص ٥٦٢ ، ٤٤٦/ ابن فضل الله العمرى : المصدر السابق ، ص ٢٢٩ ، ٤٧ .
على مبارك : المرجع السابق ، جـ١ ص ١٣٦ .
Rabie : op. cit., p. 53 : 55 .

(٣) الاقطاع نوعين : اقطاع تمليك ، واقطاع استغلال ـ النوع الأول يستفيد منه المقطع طوال حياته وعادة ما يكون أراضى بور . أما النوع الثانى فهو اقطاع محدد بمدة زمنية معينة تبلغ أقصى تقدير حوالى ثلاثين عاما
راجع : أبى يعلى : المصدر السابق ، ص ٢١١ .
على إبراهيم حسن تاريخ المماليك البحرية ص ٤٣٢/ دائرة المعارف الإسلامية ، م ٤ ص ١٢٦ .

ينزع إقطاع من يشاء ويأخذ لنفسه ولخواصه أجود الأراضى وتدخل الخاص السلطانى فى أنحاء المملكة[١].

وقد كانت حقوق المقطع فى العصر المملوكى مشابهة لتلك التى عرفها السلاجقة ، فللمقطع أن يتمتع بغلات الإقطاع وإيرادته فحسب ، بمجرد انتهاء المدة الزمنية المتفق عليها يؤول الإقطاع إلى السلطان ، كما يؤول الإقطاع أيضًا للسلطان بسبب وفاة المقطع[٢]ـ وخاصة إذا كان الإقطاع قد منح لصاحبه مدى الحياة[٣] ـ وبسبب إخلال المقطع بشروط العقد القائم .

أما بخصوص الاستثناءات التى ظهرت فى الدولة السلجوقية حيث منح الإقطاع تمليكا ، فالراجح أنها ظهرت عندما بدأت الأتابكيات تنسلخ من الدولة فقد جعل أتابك نور الدين زنكى الإقطاعات الحربية فى بعض الأحيان وراثية فى حوالى النصف من القرن السادس الهجرى (١٢م)[٤] وقد تأثر المماليك بالسلاجقة حتى فى هذا الاستثناء الذى يقوم على توريث الإقطاعات ، فمن هذه الاستثناءات على سبيل المثال، ما حدث سنة ٦٦٣هـ/ ١٢٦٤م عندما منح السلطان الظاهر بيبرس بلاد قيسارية ـ بعد أن استولى عليها ـ إقطاع تمليك للأمراء الذين حاربوا معه وساعدوه فى فتحها[٥] وعرف عن الناصر محمد أنه كان إذا مات أحد من أجناده وخلف صبيا لا يخرج إقطاع أبيه عنه فإن كان صغيراً جداً أعطاه صدقة[٦].

ولم يقتصر الإقطاع السلجوقى على العناصر التركية والعسكرية فحسب بل منح

---

(١) راجع أمثلتها : إبراهيم على طرخان : المرجع السابق ص ٦٦ : ٦٧ / قاسم عبده قاسم : ماهية الحروب الصليبية ، ص ١٩٧ .

(٢) بعد وفاة الأمير تنكربغا سنة ٧٦٠هـ/ ١٣٥٨م ، منح السلطان اقطاعه على مملوكه يلبغا العمرى . ابن إياس : المصدر السابق ، جـ١ ص ٥٦٨ .

(٣) سعيد عاشور : العصر المماليكى ، ص ٣٦٠ .

(٤) نظير حسان سعداوى : المرجع السابق ، ص ٣ ، ١٤ . محمد رجائى ريان : المرجع السابق ، ص ١٧ .

(٥) العينى : عقد الجمان ، جـ١ ص ٣٩٨ : ٤٠٦ .

(٦) طرخان : المرجع السابق ، ص ٢٨٠ .

أيضاً للعناصر من الأصل العربى ، فقد منح السلطان السلجوقى ملكشاه سنة ٤٦٩هـ/ ١٠٧١م مسلم بن قريش العقيلى إقطاعاً بالموصل وحران والرحبة وأعمالها وسروج والرقة والخابور ـ وأقطع سالم بن مالك العقيلى قلعة جعبر بعد أن أخذ منه دمشق وحلب ، وأقر مقلد بن نصر بن منقد الكنانى العربى على شيراز[١].

وكذلك الحال فقد شمل الإقطاع المملوكى العناصر العربية ، إذ منح الظاهر بيبرس أمراء العربان سنة ٦٦٠هـ/ ١٢٦١م ـ من قبائل العابد وجرم وثعلبة ـ الإقطاعات مقابل خدمتهم على البريد وإحضار ما يرغبه من خيول[٢] وكتب منشوراً على جميع العربان للأمير شرف الدين عيسى بن مهنا وأحضر أمراء العرب وأجرى إقطاعاتهم وسلم إليهم خفر البلاد وألزمهم بحفظها حتى حدود العراق سنة ٦٥٩هـ/ ١٢٦٠م[٣] وأقطع السلطان قلاوون الإقطاعات فى مصر العليا لعربان مصر[٤].

واستعمل السلاجقة « الإقطاع » كمكافأة تمنح للأشخاص المكلفين بمهمة ما أو بمؤامرة ما ، أو لمن يقوم بدور هام يؤدى إلى تعضيد الحاكم ومثال ذلك أن الخليفة الناصر ـ متأسياً فى ذلك بالسلاجقة ـ قد منح مملوكه طغرل الخاصى الرومى سنة ٥٨٧هـ/ ١١٩١م إقطاعاً بالبصرة وجعل فى خدمته خمسمائة مملوك ، لأنه كان يستحلف الأمراء سراً للخليفة وألبس جماعة منهم ثياب نساء وأدخلهم لمبايعة الخليفة قبل ولايته وهو أمير[٥].

كما وعد ركن الدين قلج أرسلان السلجوقى (سنة ٦٥٩هـ/ ١٢٦٠م) أنه متى استولى على مملكة أخيه عز الدين كيكاوس فسوف يعطى أمراءه ـ متى نجحوا ـ تلك الضياع أملاكاً لهم[٦].

---

(١) إبراهيم على طرخان : المرجع السابق ص ٢٧/ أحمد رمضان أحمد (دكتور) : المجتمع الإسلامى فى بلاد الشام فى عصر الحروب الصليبية ، الجهاز المركزى للكتب الجامعية ، القاهرة ١٩٧٧ ، ص٢٢١ .

(٢) المقريزى : السلوك جـ١ ق ٢ ص ٤٨١ .

(٣) العينى : عقد الجمان ١٠ ص ٢٩٠

(٤) Rabie : op. cit., p. 35

(٥) عمر بن شاهنشاه : المصدر السابق ص ١١٨

(٦) العينى : عقد الجمان ، جـ١ ص ٣٢٠

وبالمثل فإن سلاطين المماليك قد اتبعوا هذا الأسلوب فى منح الإقطاعات فقد وعد الأمير قطز ، الأمير بيبرس البندقدارى أنه إذا انتصر على التتار فى حلب فستكون حلب وأعمالها إقطاعاً له[1].

فإذا كان الإقطاع المملوكى قد أخذ أصوله الأساسية عن الإقطاع السلجوقى فإن الإقطاع المملوكى تطور تطوراً كبيراً ووصل إلى أكمل صوره ، وتوسع وتشعب وتطور إلى مجالات أخرى .

فقد شمل الإقطاع المملوكى موارد مالية أخرى غير الأراضى ، فيجوز أن يكون الإقطاع حصيلة ضريبة أو مكسا من المكوس أو مقرراً من المقررات التى تشرف الدولة على تنظيمها[2].

ومع التطورات التى صاحبت عصر المماليك وخاصة من كثرة الوافدين ، فقد أصبح الإقطاع يمنح للوافدين أيضًا ، مثل الأمراء البغاددة ، وأمراء سلاجقة الروم ، الذين وفدوا مصر سنة ٦٦٠هـ/ ١٢٦١م فقد عين لهم بيبرس إقطاعات بالديار المصرية ، كما منح كبراء التتار اللاجئين إلى مصر سنة ٦٦٤هـ/ ١٢٦٥م إقطاعات بالديار المصرية وأنزلهم اللوق[3].

وكان من نتيجة شدة المؤامرات بين الأمراء المماليك فى الصراع على السلطة

---

(١) بعد أن انتصر قطز على التتار ، منح حلب وأعمالها إقطاعا لعلاء الدين بن بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل . فكانت من الأسباب التى أوغرت صدر بيبرس ضد قطز وحرّض على قتله .
ابن تغرى بردى النجوم ، جـ٢ ص ٨٢ .

(٢) من أمثلة الموارد المالية التى تدخل اقطاعا : « طرح الفراريج والمكوس كحاصل الغلة وكالسمسرة ورسوم الدلاة والأفراح وحمايات المراكب والجزية وزكاة المواشى والمعادن والعشرة والمكوس على اختلاف أصنافها والمراعى
راجع : المقريزى : الخطط ، جـ١ ص ٨٨ : ٨٩ ، ٩٧/ ابن تغرى بردى : النجوم ، جـ٩ ص ٤٥ ، ٤٦ ، ٤٨ .
القلقشندى : المصدر السابق ، جـ١٣ ص ١١٧/ طرخان : المرجع السابق ، ص ٧٦ : ٨١
Rabie : op. cit., p. 73 : 133 .

(٣) العينى : عقد الجمان ، جـ١ ص ٣٣٣ ، ٣٦٥/ عبد العزيز عبد الدائم : تأثيرات المغول الحضارية ، ص ١١٨ .

والوظائف ، إن استعمل سلاطين المماليك الإقطاع كوسيلة للتخلص من نفوذ الأمراء الذين يخشون بأسهم . فقد تخلص بيبرس من الأمير سنجر بن عبد الله الصيرفى سنة ٦٥٩هـ/ ١٢٦٠م فاقطعه خبزاً فى دمشق ليأمن من غائلته فأقام فيها حتى وفاته سنة ٦٦٩هـ/ ١٢٧٠م[١].

غير أن هذا التطور الكبير لنظام الإقطاع فى العصر المملوكى قد أفرز نظاماً آخر هو نظام المقايضة ، والذى بمقتضاه انتقلت بعض الأراضى إلى أيدى العامة من الشعب المصرى ، كما أدى إلى دخول أعداد كثيرة من الدخلاء فى الأجناد ، بحيث صار معظم أجناد الحلقة من أصحاب حرف وصناعات[٢].

وظل ديوان الجيش هو المسئول عن الإقطاعات التى كانت تسجل فى الجريدة الجيشية[٣].

المصادرات المالية :

تفشت ظاهرة المصادرات المالية فى عصر سلاطين المماليك ، وهو نظام سلجوقى سبق أن وضحنا مدى تأثيره فى مصر الأيوبية ، وقد تطور فى مصر المملوكية بحيث كاد أن يصبح مصدراً من مصادر الدولة المالية ، ولعل نظام الاقطاع كان من الأسباب الهامة وراء توسع المماليك فى الأخذ بنظام المصادرات المالية .

فلم تكن السلطنة حكراً على أسرة بعينها طوال العصر المملوكى ، كما كان الحال فى عصرى السلاجقة والأيوبيين ، إنما كانت السلطنة تنتقل بسرعة من سلطان إلى آخر حسب ما تسفر عنه مؤمرات المماليك . لذلك كان السلطان القائم فى الحكم

---

(١) إبراهيم طرخان : المرجع نفسه ، ص ٦٧ .

(٢) حدث نظام المقايضة فى عصر الملك الكامل شعبان سنة ٧٤٦هـ/ ١٣٤٥م
راجع : المقريزى : الخطط جـ٢ ص ٢١٩/ السلوك جـ٢ ق ٣ هامش ١ ص ٦٤٣
جمال الدين سرور : دولة بنى قلاوون ، ص ٢٩١ ـ ٢٩٢ .
للمزيد من التفاصيل عن نظام الاقطاع والمقايضات الاقطاعية انظر :
انطوان خليل : المرجع السابق ، ص ١٤٠ .

(٣) النويرى « شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب » « ت ٧٣٣هـ/ ١٣٣٣م » ـ نهاية الأرب فى فنون الأدب (السفر الثامن) مطبعة دار الكتب ١٩٣١ ، ص ٢٠٠ ـ ٢٠١

ومعاونوه يعملون على جمع أكبر قدر ممكن من الثروة وبسرعة قبل الإطاحة بهم ، حتى اقتنى الكثير منهم ثروات ضخمة ، كانت سببا فى الحوطة عليها مع أول تغيير سياسى أو تحريض أو وشاية من السلطان على مخالفيه ، مع نفى أو حبس أو قتل أغلب من تمت مصادرتهم [(١)] . لذلك لجأ كثير من السلاطين والأمراء وكبار الأغنياء على وقف معظم ممتلكاتهم الضخمة على وجوه البر وخدمة العلم وعلى المنشآت المعمارية صيانة لها من المصادرة ، فتدر على الأقل دخلا ما للواقف وذريته[(٢)] .

ومن أمثلة المصادرات المالية فى العصر المملوكى : أن مماليك الأمير فارس الدين أقطاى كانوا يأخذون أموال الناس وحريمهم وأولادهم أخذاً باليد ولا يقدر أحد على منعهم[(٣)] ، حتى تمكن الأمير المعز أيبك من مصادرة هؤلاء المماليك وعامة متعلقاتهم وسائر أسبابهم[(٤)] .

واشتهر عصر السلطان الظاهر بيبرس ـ كما جاء فى وصف النويرى[(٥)] : « أنه كثير المصادرات للرعية والدواوين خصوصًا لأهل دمشق » ، لأن حتى القضاة وقع عليهم الحوطة كالقاضى بدر الدين يوسف بن حسن على النجارى فقد صودر واتباعه سنة ٦٦٤هـ/ ١٢٦٥م[(٦)] ، وصادر السلطان بيبرس الجاشنكير الأمير ناصر الدين الشيخى والى القاهرة (٧٠٤هـ/ ١٣٠٤م)[(٧)] .

وفى عصر المنصور قلاوون عزل سنة ٦٨٠هـ/ ١٢٨١م برهان الدين النجارى المعروف بالشجاعى عن الوزارة وصودر وأهين ، لأنه ملأ السجون من المصادرين[(٨)] وصادر الأشرف خليل سنة ٦٨٩هـ ١٢٩٠م الأمير حسام الدين طرنطاى ومن معه من

---

(١) راجع : على مبارك : المرجع السابق ، جـ٢ ص ٧٦ .
(٢) كارل بروكلمان : المرجع السابق ص ٣٧١ .
(٣) العينى : عقد الجمان جـ١ ص ٧٦ .
(٤) المقريزى : الخطط جـ١ ص ٣٨٣/ العينى : عقد الجمان جـ١ ص ٨٧ .
(٥) العينى : عقد الجمان ، جـ٢ ص ١٧٦ .
(٦) العينى : عقد الجمان ، جـ١ ص ٤١١ .
(٧) ابن تغرى بردى : المنهل ، جـ٥ ص ٣٢٥ .
(٨) بيبرس المنصورى : المصدر السابق ، جـ١١٩/١/ العينى : عقد الجمان جـ٢ ص ٢٦٩ ، ٣٦٩ نفس الحادثة ذكرت فى أحداث سنة ٦٨٠هـ/ وسنة ٦٨٧هـ ـ راجع : العينى المصدر نفسه ، جـ٢ ص ٢٦٩ ، ٣٦٩ .

الأمراء وأخذ من حواصله ستمائة ألف دينار وسبعين قنطاراً بالمصرى فضة ، ومن الجواهر شيئًا كثيراً سوى الخيل والبغال والجمال والأمتعة والبسط والجياد والأسلحة المثمنة ، وغير ذلك من الحواصل والأملاك بمصر والشام(1) .

وكانت المصادرات فى عصر المماليك تتم من جانب السلاطين لمجرد أن بعض أمرائهم رفضوا تنفيذ الأوامر ، وهو ما فعله الملك الأشرف خليل (سنة ٦٩٢هـ/ ١٢٩٢م) عندما صادر الأمير عز الدين أيبك الأفرم الصالحى أمير جاندار بالشام ومصر لأنه رفض أمر السلطان بتخريب قلعة الشوبك(2) ، وصادر فى نفس العام الأمير عز الدين ازدمر العلائى(3) . كما صادر الأمير بيدراً ونوابه(4) واشتهر عن ابن السلعوس وزير الملك الأشرف خليل كثرة مصادراته للناس(5) والتى وصلت إلى حد مصادرة الوظائف ، فقد صادر القاضى تقى الدين بن بنت الأعز ولم يترك له من مناصبه شيئًا وكان بيده سبعة عشر منصبا ، وأخذ منه نحو أربعين ألفا غير المراكب والأشياء الكثيرة(6) .

بل لقد شملت المصادرات بعض الأماكن لرغبة بعض الأمراء بناء منشآتهم فعندما أراد الأمير الطنبغا الماردانى بناء جامعه بخط التبانة خارج باب زويلة سنة ٧٣٨هـ/ ١٣٣٧م أخذت الأماكن من أربابها وتولى شراءها النشو فلم ينصف فى أثمانها وهدمت وبنى مكانها هذا الجامع(7) .

وعندما قبض الناصر محمد بن قلاوون سنة ٧٤٠هـ/ ١٣٣٩م على وزيره النشو

---

(1) بيبرس المنصورى : المصدر السابق ، ص ١٢٥ .
العينى : المصدر السابق ، جـ٣ ص ٢٧ : ٢٩ .
(2) العينى : المصدر نفسه جـ٣ ص ١٦٥/ ابن تغرى بردى : المنهل جـ٥ ص ٢٧٤ .
(3) العينى : المصدر السابق ، جـ٣ ص ١٦٥ .
(4) العينى : المصدر نفسه جـ٣ ص ٢٠٣ .
(5) راجع : العينى : المصدر نفسه ، جـ ٣ ص ٢٠٣ .
(6) العينى : عقد الجمان ، جـ١ ص ٨٥ (أحداث سنة ٦٩٠ هـ) .
(7) المقريزى : الخطط ، جـ٢ ص ٣٠٨ .
حياة ناصر الحجى (د.) : أحوال العامة فى حكم المماليك (٦٧٨ ـ ٧٨٤هـ/ ١٢٧٩ ـ ١٣٨٢م) ـ دراسة فى الجوانب السياسية والاقتصادية والاجتماعية .
الكويت ١٩٨٤ ، ص ٣٧٢ ـ ٣٧٣ .

شرف الدين صادر أمواله وكانت لا توصف[١]، بسبب مظالمه[٢]. كما صادر الناصر محمد من أمرائه الأمير سلار سنة ٧١٠هـ/ ١٣١٠م[٣] والأمير آق سنقر[٤].

وصادر السلطان الملك المنصور أبى بكر بن الناصر محمد سنة ٧٤٢هـ/ ١٣٤١م موجود الأمير أقبغا عبد الواحد[٥]. وأحيانًا كانت المصادرات التى يلحقها السلاطين بأمرائهم لا يلزمها العزل من الوظيفة فقد صادر السلطان الملك المنصور علاء الدين على بن الأشرف شعبان سنة ٧٧٨هـ/ ١٣٧٦م الأمير صلاح الدين خليل بن عرام بالإسكندرية، ومع ذلك أقره فى نيابة الإسكندرية على عادته[٦].

وحتى التجار لم يسلموا من المصادرات، مثلما صادر الناصر محمد أعيان تجار الإسكندرية كأولاد الكويك وسواهم وأخذ منهم أموالا طائلة[٧].

ومما يدل على توسع سلاطين السلاجقة وأمرائهم فى جباية الأموال للدولة عن طريق أسلوب المصادرات المالية، أنهم صادروا حتى نساء عصرهم، فعقب وفاة السلطان ملكشاه صادر الوزير نظام الملك السلجوقى سنة ٤٦٧هـ/ ١٠٧٤م الأموال العظيمة التى كانت لعمة السلطان المتوفى وهى «كوهر خاتون» أخت الب أرسلان[٨].

وبالمثل تأثر سلاطين المماليك بهذا الأسلوب السلجوقى، فصادروا بعض نساء عصرهم مثلما صادر الصالح صالح بن التنكزيه، الست حدق القهرمانية مدبرة شئون النساء فى دار السلطان الناصر محمد، ثم أفرج لها عن موجودها وكان شيئًا عظيما[٩].

---

(١) أبى الفدا : المصدر السابق جـ٤ ص ١٣٥/ ابن تغرى بردى : النجوم جـ١١ ص ١١٠ ـ ١١١ .

(٢) راجع عن مظالم النشو : ابن تغرى بردى : المصدر نفسه جـ٩ ص ١١٠ ـ ١١٣ ـ ١١٧ .

(٣) ابن تغرى بردى : النجوم جـ٩ ص ١٨ .

(٤) المقريزى : الخطط جـ٢ ص ٣٠٩ .

(٥) ابن تغرى بردى : المصدر نفسه جـ١٠ ص ١٠ .

(٦) الأمير صلاح الدين خليل بن عرام : له مصنفات مفيدة فى التاريخ والأدب ـ راجع : ابن تغرى بردى : النجوم جـ١١ ص ١٨٦ : ١٨٧ ص ١٥١ .

(٧) ابن بطوطة : المصدر السابق، جـ١ ص ١٥ .

(٨) ابن تغرى بردى : النجوم، جـ٥ ص ١٠٠ .

(٩) ابن حجر : الدرر، جـ٢ ص ٧ (طبعة حيدر آباد ١٣٤٩).

ومن النتائج الحضارية التى ترتبت على توسع المماليك فى استعمال نظام المصادرات المالية ، أن المصادرة لم تكن تشمل أموال وممتلكات الشخص المصادر فحسب ، بل كانت تشمل فى بعض الأحيان أمواله المصروفة على المنشآت العامة مما يؤدى إلى تعطيل شعائر المبنى ، فعلى سبيل المثال عندما صادر الملك الكامل شعبان سنة ٧٤٦هـ/ ١٣٤٥م الخوان سلار على بن الطباخ ، وأخذ منه أموالا كثيرة وعشرين داراً تشرف على النيل ، فقد شملت المصادرة الأموال التى كان يصرفها على مصالح جامع الطباخ مما أدى إلى تعطيل الجامع ولم تقم فيه الصلاة لمدة(١) .

٥ ـ مظاهر التأثيرات السلجوقية فى الحضارة المملوكية دينيا بمصر :ـ

التصوف :

تبين لنا فى الفصل الثانى ، أن حركة التصوف السنى التى ازدهرت فى الشرق السلجوقى ـ ومن خلال عدة معابر ـ أثرت فى الحياة الدينية فى العصر الأيوبى وبدأ التصوف يزدهر فى ذلك العصر ويكثر عدد المتصوفة والطرق الصوفية .

وقد ساعدت ظروف أخرى عديدة فى العصر المملوكى سياسيًا واقتصادياً واجتماعياً(٢) على استمرار تقبل هذا التيار الصوفى الوافد ، والذى عمل على تشجيعه

---

(٤) المقريزى : الخطط ، جـ٢ ص ٣١٥ .
جامع الطباخ : شيده الأمير جمال الدين أقوش ، وجدده على بن الطباخ لذلك فقد نسب إلى لقبه « الطباخ » ويقع هذا الجامع خارج القاهرة بخط باب اللوق
المقريزى : الخطط ، جـ٢ ص ٣١٥

(١) الظروف التى ساعدت على استمرار انتشار تيار التصوف السنى فى العصر المملوكى : إحساس الظلم الذى انتاب العنصر ذا الأصل العربى فى مصر والمتمثل فى شعورهم بأنهم أصحاب الحق فى الحكم وخاصة بعد أن اعتلى عرش مصر المماليك الأرقاء وظهر سخطهم من خلال عدة ثورات منها سنة ٦٥١هـ/ ١٢٥٣م / ٦٥٣هـ/ ١٢٥٥م ، سنة ٦٥٨هـ/ ١٢٥٩م / ٧٠١هـ/ ١٣٠٧م / ٧٥٤هـ/ ١٣٥٣م . وتفشى الأمراض الاجتماعية كانتشار الخمر الذى أمر باراقته سنة ٦٥٨هـ/ ١٢٥٩م الظاهر بيبرس ، وكانت من أسباب مقتل الأشرف خليل لأنه كان يشرب الخمر فى نهار رمضان ، وتعاطى الحشيشة والفجور ، وظهور الخلفاء العباسيين أمام الشعب المصرى بصورة مهانة وخاصة عندما نفى الناصر محمد الخليفة المستكفى ..ى قوص وما أسفر عنه نظام الاقطاع =

سلاطين المماليك فى مصر سواء عن طريق التقرب إلى مشايخ الصوفية[1] أو عن طريق بناء العمائر المخصصة لإيواء الصوفية[2] المقيمين أو الوافدين كالأربطة والخوانق ؛ فقد اتخذوا الصوفية وسيلتهم للترويج لهم عند العامة . وإذا كان التيار الصوفى قد ازدهر فى العصر الأيوبى عن طريق احتضان هذه الظاهرة الحضارية الدينية الوافدة من الشرق ، إلا أن التصوف قد انتشر انتشاراً كبيراً جداً فى العصر المملوكى[3] ويكفى

= من احتكار المماليك للأراضى دون الفلاحين ، فساد الفقر عامة الشعب .

ومع كثرة الأوبئة والمجاعات وقحط النيل منها سنة ٦٦١هـ/ ١٢٦٢م ، ٦٧١هـ/ ١٢٧٢م ، ٦٧٧هـ/ ١٢٧٨م ، ٧٠٢هـ/ ١٣٠٢م ، ٧٣٦هـ/ ١٣٣٥م ، ٧٤٩هـ/ ١٣٤٨م ، ٧٦٤هـ/ ١٣٦٢ ، ٧٧٦هـ/ ١٣٧٤م ، وكان أعظمهم طاعون سنة ٧٤٩هـ/ ١٣٤٨م الذى أطلق عليه « الفناء الكبير » (Blackdeath) ، حيث تعطلت أكثر الصنائع وساد معظم بلاد الشرق ، والفساد الذى تفشى بسبب كثرة الرشاوى والحمايات من السلطان ومماليكه على الناس فأمام هذه الأهوال كان الناس يخرجون إلى الخلاء للصلاة والدعاء والتضرع إلى الله ، وكان التصوف وسيلة الناس إلى التقرب إلى الله أو كهروب من ضيق الحياة .. راجع : ابن كثير : المصدر السابق ج١ ١٣ ص٢٥٤/ أبى الفداء : المصدر السابق جـ٣ ص ٢٠٦ جـ٤ ، ص ٥٢ ، ١٥٥/١٣٦ بيبرس المنصورى: المصدر السابق ص ٣٧ ، ٥٦ / بن حبيب : المصدر السابق جـ١ ص ٢٥٣ المقريزى : إغاثة الأمة ص ٣٢ : ٤٣/ السلوك جـ١ ق ٢ ص ٥٩٧/ ٦١٢ جـ١ ق ٣ ص ٩٢٠، ٩٢١ ، ٧٩٢جـ٢ ق ١ ص ٥٥ ، ٢٠٨/ جـ٢ ق ٣ ص ٧٨٧ ، ٥٠٦ ، ٥٠٧ .

ابن تغرى بردى : النجوم ، جـ٨ ص ٥٧ / السيوطى : تاريخ الخلفاء ص ٤٨٦ ، ٥٠٨ ، ٤٩٩ ابن إياس : المصدر السابق جـ١ ص٤٠٨ ، ٤٠٩ / ٤٨٦، ٣٢٦، ٣٧٥، ٣٣٣، ٣٩٧ ، ٣٢١، ٤٧١ ، ٤٧٤ ، ٤١٦ ، ٥٦٥/ على صافى حسين : الأدب الصوفى ص ٢٠ : ٣٧ .

قاسم عبده قاسم : المرجع السابق ص١٩٨ : ٢٢٠ .

(١) اشتهر عن الظاهر بيبرس اهتمامه بأن يرافقه دائماً بعض مشايخ الصوفية وكثيراً ما كان يقوم بالإنفاق عليهم وبذل الأعطيات لهم وبناء العمائر لهم

محمد مؤنس : المرجع السابق ، ص ١٥٠ .

(٢) كانت بعض الخانقاوات فى القاهرة تنص ضمن كتاباتها التأسيسية أنها وقف على الصوفية مثل الخانقاه البيبرسية سنة ٧٠٩هـ/ ١٣٠٩م فمن ضمن نصوصها التأسيسية المدونة عليها حاليا النص التالى « أمر بإنشاء هذه الخانقاة وقفا مؤبداً على جماعة الصوفية ...... » .

راجع : المقريزى : الخطط جـ٢ ص ٤١٦ / الباشا : الفنون والوظائف جـ٢ ص ، ٧١٨ .

(٣) انتشر التصوف فى العصر المملوكى انتشاراً كبيراً بحيث شاع التصوف وسلكه الكثيرون ومنهم من لم يكن تصوفه خالصاً لوجه الله تعالى ، فقد كان البعض يندرج فى الطرق الصوفية بقصد التنعم بسكنى الخوانق والاستمتاع بالمال الطائل الموقوف عليهم وأكل الحشيشة .

الباشا : الفنون والوظائف ، جـ٢ ص ٧١٥ .

للتدليل على ذلك انتشار بناء الخوانق انتشاراً كبيراً لا يقارن بالخانقاة الواحدة التى خلفها العصر الأيوبى وهى خانقاة سعيد السعداء فى حين خلف عصر المماليك البحرية[١] حوالى عشرين خانقاة فيما يذكر المقريزى فى خططه[٢].

ومن النتائج التى أسفر عنها نضوج وازدهار التصوف السنى فى العصر المملوكى أن استمرت وظيفة « شيخ الشيوخ » من الوظائف الدينية الهامة فى العصر المملوكى والتى يعين صاحبها بأمر من السلطان ، كما حدد ديوان الإنشاء ألقابهم[٣]. وتطور التنظيم داخل الطريقة الصوفية نفسها منذ إنشاء خانقاة سرياقوس سنة ٧٢٣هـ/ ١٣٢٣م[٤]، ومن حيث كيفية تقدم المريد للجماعة واندماجه بينهم وحياته معهم وتدرجه فى رتب الطريقة ثم وصوله إلى درجة النقابة والخلافة[٥].

ولم يخرج التصوف الذى ازدهر فى العصر المملوكى عن تيار التصوف السنى الذى ازدهر فى الشرق السلجوقى على يد أبى حامد الغزالى ، وهو التصوف السنى البعيد عن تيار الفلسفة الغربية والأفكار والمعتقدات الأجنبية والفارسية والهندية ، والذى يهتم بالجانب العملى أكثر من الخوض فى المسائل النظرية الفلسفية .

ولذلك لم تجد الطرق الصوفية الممزوجة بالأفكار الفلسفية قبولا فى البيئة المصرية، مثل تصوف الشيخ صدر الدين القونوى ، ومحيى الدين بن عربى وعفيف الدين التلمسانى وابن سبعين وغيرهم[٦] وصار أكثر أصناف الصوفية انتشاراً فى العصر المملوكى هم صوفية الأرزاق[٧].

---

(١) خانقاة ابن غراب يرجع بناؤها إلى عصر المماليك الجراكسة - راجع :
المقريزى : الخطط ٢ ص ٤١٩ .

(٢) المقريزى : الخطط ، جـ٢ ص ٤١٦ : ٤٢٧ .
عدد كبير من هذه الخانقاوات اندثر حالياً .

(٣) الباشا : الفنون والوظائف جـ٢ ص ٧١٦ - ٧١٧ .

(٤) راجع المقريزى : الخطط ، جـ٢ ص ٤٢٢ ، ٤٢٥ .

(٥) راجع : أبو الوفا التفتازانى : الطرق الصوفية ، ص ٦٤ ، ٦٥ .
فاروق أحمد مصطفى : المرجع السابق ، ص ٧٧ .

(٦) أبو الوفا التفتازانى : الطرق الصوفية ص ٦٣ .

(٧) الصوفية ثلاث أصناف هم : صوفية الحقائق ، صوفية الرسم وصوفية الأرزاق
راجع : ابن تيمية « أبو العباس تقى الدين أحمد بن عبد الحليم » ٦٦١ - ٧٢٨هـ/ ١٢٦٢ - =

وكان ازدهار التصوف فى العصر المملوكى عامل جذب لمتصوفة الشرق السلجوقى فظل يفد منهم على مصر أصحاب طرق صوفية أسسها أصحابها فى الشرق ووفدوا إلى مصر من أجل نشرها .

وقد وافقت بعض هذه الطرق المناخ الصوفى المحلى فأقبل على الاندراج فيها متصوفة مصريون بينما جاء آخرون بطرق صوفية شاذة ودخيلة على تعاليم الدين الإسلامى فلم يكتب لها الاستمرار إذ لفظتها البيئة المحلية ، كالطريقة الحيدرية[1] :

التى تنسب إلى اسم مؤسسها وهو الشيخ حيدر ، وتعرف بأسماء أخرى وهى «القلندرية ، أو الملامتية » وفيما يبدو أن الذى أدخلها مصر هو الشيخ حسن[2] العجمى الجواليقى القلندرى الذى سكن القاهرة وعمر بها زاوية خارج باب النصر تعرف بالقلندرية[3] ولم يقبل المتصوفة من المصريين على هذه الطريقة ، لأن أصحابها أهل باطن لا ظاهر لا يبالون برأى غيرهم ، ولذا عمدوا إلى تشويه صورهم بحلق لحاهم وشواربهم وحواجبهم مبالغة فى إظهار رأيهم وتهكمهم على مسلكهم وظهر ذلك فى شعرهم الصوفى[4] .

= ١٣٢٧م) ـ الصوفية والفقراء تقديم : د. محمد جميل غازى دار المدنى بجدة ، بدون تاريخ ، ص٣٤ ، ٣٥ الطبلاوى محمود سعد : التصوف فى تراث ابن تيمية ـ الهيئة العامة للكتاب ١٩٨٤ ، ص ٤٩ .

(١) راجع : ابن كثير : المصدر السابق ، جـ١٣ ص ١٩٦ (الطبعة السابعة سنة ١٩٨٨م) وقد ظهرت هذه الطريقة على ما يبدو فى دمشق فى حوالى بضع عشرة وستمائة من الهجرة .
المقريزى : الخطط ، جـ٢ ص ٤٣٣ .

(٢) كان سلطان العجم سنة ٦١٦ هـ هو علاء الدين محمد بن تكش من مماليك السلطان ألب أرسلان وتولى خوارزم من جهة السلاطين السلاجقة / ابن واصل المصدر السابق ، جـ٤ ص ٣٤ ، ٣٥ .

(٣) تقع الزاوية القلندرية خارج باب النصر ، المقريزى : الخطط جـ٢ ص ٤٣٣ .
وتوجد لطائفة القلندرية زاوية أخرى فى دمياط هى زاوية الشيخ جمال الدين الساوى زارها ابن بطوطة. راجع : الرحلة ، جـ١ ص ٢٠ كما يوجد لهم زاوية أخرى خارج دمشق ـ المقريزى : السلوك ، جـ١ ق ٢ ص ٤٠٧ .
كما عمر الأمير أيبك بن عبد الله التركى (ت ٦٩٥هـ/ ١٢٩٦م) مجموعة معمارية بقوص تضم مدرسة للشافعية ومسجد يجتمع فيه الفقراء من الأعاجم والقرندلية
ابن عبد الظاهر : المصدر السابق ، ص ٢٥٨ .

(٤) راجع : المقريزى : السلوك ، جـ١ ق ٢ ص ٤٠٧ / جـ٢ ق ٢ ص ٤٩٤/ هامش ١ ص ٥١٦ الخطط جـ٢ ص ٤٣٢ ، ص ٤٣٣/ ابن تغرى بردى : النجوم ، جـ٩ ص ٢٥٩ .

ورغم أن هذه الطريقة لم تلق قبولا لدى المصريين ، إلا أنها خلفت تأثيرها السلبى الخطير على مصر بإدخال تعاطى الحشيشة فيها .. وهناك طرق أخرى وافدة من الشرق لم يكتب لها التفاعل مع البيئة المحلية[1] ، مما يؤكد أن التصوف السنى الذى ازدهر على يد أبى حامد الغزالى ـ أشهر صوفية عصر السلاجقة ـ ظل المصدر الرئيسى المؤثر فى حركة التصوف المصرى وفى ظهور أقطاب من الصوفية والطرق الصوفية التى تقتدى فى تصوفها بتعاليمه .

من ذلك أن أبا العباس المرسى (ت ٦٨٦هـ/ ١٢٨٧م)[2] تلميذ أبى الحسن الشاذلى ورأس أصحابه[3] كان يدرس لتلاميذه كتبا فى مختلف العلوم الدينية ، الكثير منها كان من وضع علماء عصر السلاجقة مثل كتاب الاحياء للغزالى ، وختم «الأولياء» للحكيم الترمذى ، وقوت القلوب لأبى طالب المكى ، والرسالة البيانية للقشيرى[4] ، كما اقتدى به كذلك تلميذه ابن عطاء الله السكندرى[5] الذى كان يذكر لمريديه أن كتاب « الاحياء للغزالى يورثك العلم[6] ويكفى الإطلاع على

---

(١) مثل الطريقة الاقباعية : راجع : المقريزى : السلوك ، جـ٢ ق ٢ هامش ١ ص ٤٩٤ .

(٢) أبو العباس المرسى هو شهاب الدين أحمد بن عمر الأنصارى ، من أصل عربى ولد بالأندلس سنة ٦١٦هـ/ ١٢١٩م .

راجع : ابن تغرى بردى : النجوم ، جـ٧ ص ٣٧١/ السيوطى : حسن المحاضرة ، ج ١ ص ٥٢٣ ابن إياس : المصدر السابق ، جـ١ ص ٣٥٦/ الشيال : اعلام الإسكندرية ، ص ١٩٢ : ٢١١ على صافى حسين : المرجع السابق ، ص ٧٨ : ٩١ .

(٣) السيوطى : المصدر نفسه جـ١ ص ٥٢٣ .

(٤) راجع : الشيال : أعلام الإسكندرية ، ص ٢٠٠ .

(٥) ابن عطاء الله السكندرى هو « تاج الدين أبو الفضل أحمد بن عبد الحكم » (٦٥٨ ـ ٧٠٩هـ/ ١٢٦٠ ـ ١٣١٠م) وهو مصرى المولد والوفاة ولد ونشأ بالإسكندرية ودفن بالقرافة وله نظم حسن وله عدة مصنفات منها كتاب « التنوير فى إسقاط التدبير فى الحكمة » وكتاب « لطائف المنن» و « الحكم العطائية »

راجع : ابن تغرى بردى : النجوم ، جـ٨ ص ٢٩٠ ، هامش ١ ص ٢٨٠/ السيوطى حسن المحاضرة، جـ١ ص ٤٢٤ .

ابن إياس : المصدر السابق ، جـ١ ص ٤٢٤/ الشيال : المرجع نفسه ، ص ٢١٤ : ٢٢٢ .

(٦) أبو الوفا التفتازانى : المدخل ، ص ٢٩١ ـ ٢٩٢ .

مـصنف « لطائف المنن »[1] لابن عطاء الله السكندرى لتظهـر منزلة الغـزالى فى نفوسهم جميعاً .

ومن أهم التأثيرات الحضارية السلجوقية فى مجال التصوف بالإضافة إلى ما سبق ذكره ، أن الطرق الصوفية التى تأسست فى مصر أصبحت تنتشر خارج مصر وتجذب الاتباع من الصوفية لها[2] . كما ظهرت طرق أسسها صوفية مصريون أصلا ومقاما ووفاة ، مثل « الطريقة البرهامية » التى أسسها الشيخ إبراهيم الدسوقى (ت ٦٧٦هـ/ ١٢٧٧م)[3] كما ظهر متصوفة من المصريين ذاع صيتهم مثل ابن دقيق العيد[4] تلميذ الشيخ العز بن عبد السلام ، وقد عهد إليه السلطان قلاوون سنة ٦٨٠هـ/ ١٢٨١م بالتدريس فى المدرسة بجوار قبة الشافعى . كما تولى منصب القضاء .

ولم ينتشر التصوف فى العصر المملوكى فى القاهرة والإسكندرية[5] فحسب بل عم ربوع القطر المصرى تقريبًا وذاع صيت كثير من المتصوفة المصريين ويذكر

---

(١) راجع : ابن عطاء الله السكندرى : لطائف المنن ، طبعة القاهرة ١٣٥٠هـ

أبو الوفا التفتازنى : ابن عطاء الله السكندرى وتصوفه مكتبة الأنجلو المصرية ، الطبعة الثانية ١٩٦٩ ، ص ٥٧ ، ٥٨ ، ١٥٢ ، ١٨٥ ، ٢٧٢ .

حاجى خليفة : المصدر السابق ، جـ١ ص ٦٧٥ (الطبعة التركية) .

(٢) راجع : أبو الوفا التفتازانى : المدخل إلى التصوف ، ص ٢٩٢ ـ ٢٩٣ .

(٣) إبراهيم الدسوقى : هو إبراهيم بن قريش بن الحسين بن على بن أبى طالب القرش الهاشمى ، رضى الله عنهم أجمعين ولد بمصر سنة ٦٣٣هـ/ شافعى المذهب . راجع : أبو الوفا التفتازانى : المدخل، ص ٢٩٥ : ٢٩٦ .

على صافى حسين : المرجع السابق ، ص ١٣٣ ـ ١٤٣ .

(٤) ابن دقيق العيد : هو تقى الدين أبو الفتح محمد بن مجد الدين بن وهب وهو من الصوفية الحقيقين فقد امتنع عن لبس خلع القضاة الحريرية وذكر أنها لا تكون إلا من صوف ، وكان السلطان لاجين والسلطان كتبغا يقبلان يده وهو لا يلتفت لهما . وله مصنفات كثيرة وديوان أشعار وأدبيات . راجع : المقريزى : السلوك ، جـ١ ق ٣ ص ٨١٣/ ابن تغرى بردى : النجوم ، جـ٨ ص ٢٠٧

بن حبيب : المصدر السابق ، جـ١ ص ٢٥٤/ ابن إياس : المصدر السابق جـ١ ص ٣٩٣ / ٤١١ ـ ٤١٢ .

(٥) ذاع صيت كثير من الصوفية فى القاهرة والإسكندرية كالشيخ القبارى ت ٦٦٢هـ/ ١٢٦٣ م ولكن المجال لا يتسع لذكرهم .

راجع : السيوطى : حسن المحاضرة ، جـ١ ص ٥١٦ .

السيوطى فى الجزء الأول من حسن المحاضرة عدداً منهم ، ففى قنا ظهر من أصحاب الصوفى أبا الحسن بن الصباغ[1] ، الصوفى إبراهيم بن على بن محمد بن أبى الدنيا القنائى (ت بقنا ٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م)[2] ، وفى سمنود عرف الصوفى الجنيد بن مقلد (ت ٦٧٢هـ/ ١٢٧٣م)[3] ، وفى قوص أبو العباس الملثم أحمد بن محمد (ت ٦٧٢هـ/ ١٢٧٣م) وفيها أيضا كمال الدين بن عبد الظاهر القوصى (ت ٧٠١هـ/ ١٣٠١م) استوطن أخميم وتوفى فيها[4] وفى منية السيرج كان الشيخ صالح بن نجم المصرى (ت ٧٠٨هـ/ ١٣٠٨م)[5] ، ومن مواليد الأقصر الذين ذاع تصوفهم فى قوص الشيخ عبد الغفار (ت ٧٠٨هـ/ ١٣٠٨م) وله أشعار صوفية[6] .

وفى منية مرشد بالوجه البحرى ذاع صيت الصوفى أبو عبد الله محمد بن إبراهيم المرشدى (ت ٧٣٧هـ/ ١٣٣٦م)[7] . وفى دميرة ذاع صيت الشيخ عبد العزيز بن سعيد بن عبد الله الدميرى الذى توفى فى أواخر القرن السابع الهجرى (١٣م) وكان من اتباع الطريقة الرفاعية[8] .

وقد كان لانتشار التيار الصوفى الآتى من الشرق السلجوقى مظاهر أخرى انعكست

---

(١) السيوطى : حسن المحاضرة جـ١ ص٥١٦ .

(٢) الأدفوى : الطالع السعيد الجامع لسماء نجباء الصعيد .
القاهرة ١٩١٤ ، ص ٥٩ / السيوطى : المصدر السابق جـ١ ص ٥٠٩ .

(٣) السيوطى : المصدر نفسه جـ١ ص ٥٢١ / الادفوى : المرجع السابق ، ص ١٨٦ .

(٤) الأدفوى : المرجع نفسه ، ص ١٣١ .
السيوطى : المصدر السابق جـ١ ص ٥٢٣ .

(٥) السيوطى : المصدر نفسه جـ١ ص ٤٢٦ .

(٦) السيوطى : المصدر نفسه . جـ١ ص ٤٢٤/ على صافى حسين : الأدب الصوفى ص ١٦٢ : ١٦٦ .
الأدفوى : المرجع السابق ، ص ٣٢٣ .

(٧) السيوطى : حسن المحاضرة ، جـ١ ص ٤٢٥ .

(٨) الدرينى : لقب نسبة إلى درين ، وهى ربما ديرين من قرى الصعيد ، لأنه توجد قرية ديرين أيضاً فى أعمال الغربية ـ راجع : العماد الحنبلى : المصدر السابق جـ٥ ص ٤٥٠ .
السيوطى : حسن المحاضرة جـ١ ص ٤٢١ .

على التراث الاجتماعى المصرى فى عصر المماليك ، كانتشار ليالى الذكر والتى كان بعضها من تقاليد صوفية المشرق ، فقد كان يجتمع عند سيدى أحمد الرفاعى كل سنة فى المواسم ، خلق عظيم ، وبالذات فى ليلة النصف من شعبان حتى بلغ عددهم فى أحد المواسم حوالى « مائة ألف إنسان » وفى هذه الموالد كان الصوفية يرتدون ملابسهم المميزة بألوانها المتفق عليها[1] حيث يكثرون من الذكر ، وختم القرآن الكريم والرقص الصوفى والسماع[2] وكان يشارك فى الاحتفال بهذه الموالد السلاطين والخلفاء والأمراء ، كانت تعد هذه الليالى من ليالى البهجة ، ويظل الصوفية يتراقصون فيها طوال الليل ، مثل « ليلة الدعوة » التى كان يعقدها الخليفة العباسى المستنجد بالله فى شهر رجب للصوفية[3] وقد حفلت القاهرة بالكثير من ليالى الذكر وبخاصة فى الخانقاوات والتى كان يشارك فيها أحياناً السلاطين ولقد امتد تأثير التصوف إلى الأدب وبخاصة فى الشعر الصوفى الذى ازدهر[4]. كما امتد إلى الأغرا ض المعمارية الجديدة كإنشاء الخنقاوات لخدمة الطرق الصوفية ، وزاد الإقبال على الربط والزوايا التى كانت معروفة من قبل ، كما انتشرت الألقاب الصوفية مثل صوفى ، وشيخ الشيوخ ومجرد ، وشيخ الفقراء[5].

---

(١) راجع عن الألوان المميزة لكل طريقة من الطرق الصوفية . على مبارك : المرجع السابق جـ٣ ص ٤٣٧ .

(٢) ابن تغرى بردى : النجوم . جـ٦ ص ٩٢ .
محمد مؤنس : المرجع السابق ، ص ١٥٠ .

(٣) ابن تغرى بردى : النجوم جـ٥ ص ٣٧٣ .

(٤) راجع : عبد اللطيف حمزة : الأدب المصرى ، ص ٩٧ : ١١٢ .
على صافى حسين : الأدب الصوفى ، ص ١٦٧ ـ ٢٧١ .

(٥) شيخ الفقراء : من الألقاب التى تعنى شيخ الصوفية .. وأطلق على الشيخ مسلم البرقى البدوى (٦٧٣هـ/ ١٢٧٤م) ودفن بالقرافة الصغرى .
العينى : عقد الجمان ، جـ١ ص ١٣٦ .

٦ ـ مظاهر التأثيرات السلجوقية فى الحضارة المملوكية علميا بمصر :ـ

ظهور طبقة علماء الدين :

وضحنا فى الفصل الثانى أن التأثير السلجوقى ظهر فى العصر الأيوبى علميا من خلال التوسع فى بناء المدارس ، وقد اثمر هذا الاتجاه فى العصر المملوكى بأن ازداد بناء المدارس فى داخل القاهرة وخارجها وفى الأقاليم واجتمعت هذه الظاهرة العلمية مع نضوج حركة التصوف السنى التى وفدت من منطقة الحكم السلجوقى فى الشرق إلى مصر ، فتميزت الحياة الدينية والعلمية بظهور طبقة رجال الدين .

وإذا كان العصر الأيوبى قد أفرز ظهور طبقة رجال الدين فإن هذه الطبقة قد أصبح لها شأن كبير وملموس فى عصر المماليك ، لأنهم أحسوا بأنهم غرباء عن البلاد وأهلها فى حاجة إلى دعامة يستندون إليها فى حكمهم ويستعينون بها على إرضاء الشعب فلم يجدوا أمامهم[١] سوى فئة العلماء بحكم ما للدين ورجاله من قوة وأثر فى اكتساب الرأى العام فى البلاد . ومن جهة أخرى فقد عمد رجال الدين إلى معارضة السلاطين فى الحق ، وقد ساعد على ذلك انتشار الفساد والمخالفات لأوامر الدين ، فضلا عن انتشار المظالم التى وقع معظمها على عاتق أفراد الشعب . ومن ثم فقد حاول رجال الدين رد المظالم عن الشعب ونصرة الأحكام الشرعية الصحيحة وخاصة بسبب غياب دور الخلفاء .

ولقد بلغ العلماء فى عصر المماليك شأن عظيمًا ، فلم يكن الواحد منهم يتردد فى أن يقف مع حقه أو حق غيره فى وجه السلطان . من ذلك موقف الشيخ محيى الدين بن شرف النووى (ت ٦٧٦هـ/ ١٢٧٧م) الذى وقف ضد مغالطات السلطان الظاهر بيبرس فى أمور الشرع[٢]، فقد سمع أن الظاهر بيبرس رسم أن الفقيه لا يكون منزلا فى أكثر من مدرسة واحدة ، بعد أن كان يتقلد عدة وظائف فى عدة مدارس فى آن واحد فاستحلف الظاهر بيبرس خيراً بفئة العلماء والفقهاء مستشهداً فى طلبه ـ كما يذكر السيوطى[٣] ـ بما سبق وسلكه الوزير نظام الملك السلجوقى عندما أنكر

---

(١) سعيد عاشور : العصر المماليكى ، ص ٣٢٣ .

(٢) راجع : السيوطى : حسن المحاضرة ، جـ٢ ص ٩٧ : ١٠٥ ، العينى : عقد الجمان ، جـ١ ص ١٩١ .

(٣) حسن المحاضرة : جـ٢ ص ١٠٣ ـ ١٠٤ .

عليه السلطان السلجوقى ملكشاه صرفه الأموال الكثيرة فى جهة طلب العلم ، فقال له الوزير : « اقمت لك جنداً لا ترد سهامها بالاسحار » فاستصوب فعله وساعده عليه[1]. واستشهد الشيخ النووى بقول رسول الله ﷺ ، وقال : « هل تنصرون وترزقون الا بضعفائكم » وبذلك استمر العالم الواحد يملك فى يده أكثر من وظيفة ومن أوضح الأمثلة على ذلك أن القاضى تاج الدين بن بنت الأعز ت ٦٩٥هـ/ ١٢٩٥م) أصبح فى يده سبعة عشر منصبا منها القضاء والخطابة ونظر الاحباس ومشيخة الشيوخ، ونظر الخزانة ومدارس كبار ونظر تركه الظاهر بيبرس وأولاده وأوقافه وأملاكه . ووصل نفوذه أنه كان يولى عن المذاهب الأربعة ويعزل ويولى من يختار من غير مراجعة السلطان فى ذلك[2]. وجمع مجد الدين عيسى بن الخشاب (ت ٧١١هـ/ ١٣١١م) أكثر من وظيفة فعظمت مهابته[3] وجمع الشيخ تاج الدين عبد الوهاب فى عصر السلطان صلاح الدين بن حاجى عدة وظائف دينية[4].

كما وقف الشيخ محيى الدين النووى أمام الظاهر بيبرس فى كثرة مصادراته لأهل دمشق[5] وغيرها من المواقف[6].

واشتهر عن الشيخ ابن تيمية الحنبلى (٧٢٨هـ/ ١٢٢٧م)[7] أنه قام كثيراً من

---

(١) راجع : الحسينى المصدر السابق ، ص ١٤١ .
السيوطى : حسن المحاضرة جـ٢ ص ١٠٣ ـ ١٠٤ .

(٢) راجع : المقريزى : السلوك ، جـ ١ ق ٣ ص ٧٧٣/ العينى : عقد الجمان ، جـ٣ (أحداث سنة ٦٩٠هـ/ ص ٨٥) بن حبيب : المصدر السابق ، جـ١ ص ١٠٧ / ١٠٩ / ١٨٦ ابن إياس : المصدر السابق ، جـ١ ص ٢٧٦ ـ ٢٧٧ .

(٣) من الوظائف التى تولاها الشيخ بن الخشاب وكيل بيت المال ، الحسبة فى أيام المنصور قلاوون ، ووكالة بيت مال السلطان وعدة مباشرات .
راجع : المقريزى : السلوك ، جـ٢ ق ١ ص ١١٣ .

(٤) تولى الشيخ تاج الدين تدريس المدرسة المنصورية ، ومشيخة الخانقاة الشيخونية والمدرسة الناصرية بجوار الإمام الشافعى ، وافتاء دار العدل ـ راجع : ابن إياس : المصدر السابق ، جـ١ ص ٥٨٨ .

(٥) السيوطى : حسن المحاضرة ، جـ٢ ص ١٠١ ـ ١٠٣ .

(٦) السيوطى : حسن المحاضرة ، جـ٢ ص ١٠٤ ـ ١٠٥ .

(٧) ابن تيمية : هو شيخ الإسلام تقى الدين أبو العباس أحمد بن محمد الحرانى الدمشقى توفى فى دمشق فى سجن القلعة ـ له عدة مصنفات مفيدة تزيد على مائتى مصنف ، ومن مصنفاته ما جاء منها فى طبقات الحنابلة .
المقريزى : السلوك ، جـ٢ ق ١ ص ١٢ .
ابن تغرى بردى : النجوم ، جـ٩ ص ٢٧١ ـ ٢٧٢ / المنهل جـ١ ص ٣٥٨ : ٣٦٢ .

سلوك وآراء سلاطين المماليك المخالف للشرع واستطاع أن يؤثر على الظاهر بيبرس فى جعله يعترف بالمذهب الحنبلى[١] فعين منهم قاضيًا بالقاهرة وبناء على ذلك أقر بيبرس قضاة أربعة للمذاهب السنية الأربعة[٢] بعد ما كان القضاء مقصوراً على الشافعية فى العصر الأيوبى فى مصر[٣] وإن كان ابن كثير [٤]: يرجع السبب فى ذلك إلى كثرة توقف القاضى ابن بنت الأعز فى أمور تخالف مذهب الشافعى وتوافق غيره من المذاهب .

وبلغت أهمية الشيخ خضر عند الظاهر بيبرس ، أنه كان ينزل عند السلطان فى الجمعة المرة والمرتين ، وكان السلطان يباسطه ويمازحه ويقبل شفاعته ويستصحبه فى سائر سفرياته ، ومتى فتح مكاناً أفرض له منه أوفر نصيب كما أنشأ له زاوية بالحسينية ظاهر القاهرة ، ووقف عليها وحبس عليها أرضًا تجاورها تحتكر للبناء وإنشأ لأجله

---

(١) ظهر مذهب الإمام أحمد بن حنبل فى القرن الثالث الهجرى فى العراق ولم ينتشر خارجها إلا فى القرن الرابع الهجرى ، وهو نفس القرن الذى ملك فيه الشيعة مصر لذلك لم ينتشر مذهبه فى مصر وأول ما يذكر - تقريبًا - عن أئمة المذهب الحنبلى الذين دخلوا مصر كان الحافظ عبد الغنى المقدسى صاحب « العمدة » .

ابن إياس : المصدر السابق ، جـ١ ص ٣٢٢ .

كتاب الفقه على المذاهب الأربعة (الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٧٣م ١٠٠ اجزاء) ، جـ ١ ص ٤٢ ، ٤٣ .

(٢) لا يعتبر الظاهر بيبرس أول من عين أربعة قضاة فى مصر ولكنه أول من عين أربعة قضاة من المذاهب السنية الأربعة فى مصر سنة ٦٦٣ هـ/ ١٢٦٤م ، يحكم كل قاضى بمذهبه ، فيما عدا قاضى الشافعية له النظر فى أموال الأيتام وأمور بيت المال ، ثم فعل ذلك فى الشام ، واستمر هذا الوضع حتى مجيء العثمانيين مصر ، فقصروا القضاء على المذهب الحنفى . راجع :

ابن تغرى بردى : النجوم ، جـ٧ ص ١٢١ / ابن كثير : المصدر السابق ، جـ ١٣ ، ص ٢٤٥

السيوطى : تاريخ الخلفاء ، ص ٤٨٠ .

عين الفاطميون قضاة أربعة سنة ٥٢٥هـ/ ١١٣٠م اثنان للمذهب الشيعى أحدهما أمامى ، والآخر إسماعيلى واثنان من المذهب السنى أحدهما شافعى والآخر مالكى فحكم كل منهم بمذهبه ، ولم يسمع بهذا قط فى ما سلف من الملة الإسلامية - راجع : ابن ميسر : المصدر السابق ، ص ١١٤ - ١١٥

المقريزى : الخطط ، جـ٢ ص ٣٤٣ / اتعاظ الحنفاء ، جـ٣ ص ١٤٢

(٣) كتاب الفقه جـ١ ص ٣١

(٤) البداية والنهاية جـ١٣ ص ٢٤٥ (الطبعة السابعة ١٩٨٨م)

جامع الحسينية[1] فامتدت يد الشيخ خضر بذلك فى سائر المملكة يفعل ما يختار لا يمنعه أحد من النواب ، حتى أنه دخل كنيسة الإسكندرية ونهب أموالها وحولها مسجداً وسماها « المدرسة الخضراء » أو مسجد الخضر وأنفق فى تعميرها مالا كبيراً ولم يحاسبه الظاهر فى ذلك[2] .

وكان من عادة سلاطين المماليك أن يقبل الأرض لهم من دخل عليهم ، فمنع السلطان لاجين القاضى شهاب الدين محمود عندما دخل عليه من تقبيل الأرض له وقال له « أهل العلم منزهون عن هذا »[3] .

ووقف الشيخ ابن دقيق العيد نفس موقف العز بن عبد السلام ، بل أمر بالعمل بفتوى العز عندما أراد السلطان الناصر محمد بن قلاوون أن يأخذ من مال الرعية لاعداد الجيوش لملاقاة التتار فى بلاد الشام سنة ٦٩٩هـ/ ١٢٩٩م واضطر السلطان أمام موقف ابن دقيق العيد أن يترك مال الرعية ، وينظر فى أموال التجار ومياسير الناس وأخذ ما يقدر عليه كل منهم حسب حاله[4] . وتحمل قاضى الإسكندرية عماد الدين بن إسحاق البلبيسى شيخ خانقاة بهاء الدين أرسلان سوء معاملة الوزير النشو له سنة ٧٣٨هـ/ ١٣٣٧م لأنه عارضه فى أخذ أموال الأيتام بل واتهم النشو أنه أخذ أموال الأيتام لشراء جوارى له[5] ، واشتهر عن الشيخ المعمر أبو العباس أحمد بن موسى الزرعى الحنبلى (ت ٧٦٢هـ/ ١٣٦٠م) بأنه كان قويا فى ذات الله جريئًا على الملوك والسلاطين أبطل عدة مكوس ومظالم كثيرة وعندما قدم القاهرة أيام الناصر محمد بن قلاوون كانت له معه أمور يطول شرحها وكان يخاطب الملوك كما يخاطب بعض الحرافيش وله على ذلك قوة وشدة بأس[6] .

---

(١) ابن تغرى بردى : النجوم جـ٧ ص ٦٣ (حوادث سنة ٦٥٨هـ) .

(٢) مسجد الخضر : كائن تحت رقم ١٠ بشارع التين بالإسكندرية ، ويعرف بزاوية الخضر / ابن تغرى بردى : النجوم جـ٧ هامش ٣ ص ١٦٢ .

(٣) المقريزى : السلوك جـ١ ق ٣ ص ٨٥٩/ ابن تغرى بردى : النجوم جـ٨ ص ١٠٨ .

(٤) المقريزى : السلوك ، جـ١ ق ٣ ص ٨٩٨ .

(٥) المقريزى: السلوك ، جـ٢ ق ٢ ص ٤٣٢ .

(٦) ابن تغرى بردى : النجوم ، جـ١١ ، ص ١٢ .

تقدم العلوم الدينية والفقهية :

رغم التطور الحضارى الملموس فى عصر الخلافة الفاطمية فى مصر ، فإن العلوم الفقهية والدينية لم تحظ بتطور ملحوظ ، وبصفة خاصة منذ ظهور المذاهب السنية الفقهية الأربعة ، لأن المذهب الشيعى الفاطمى قام على عقائد خاصة تغلغلت فى كل أمور حياتهم . وليس هناك خلاف بين التشريع السنىّ والشيعى إلا فى بعض أمور الفقه وفى تفسير الأصول ، ولأنهم جعلوا الأخير وقفا على الإمام(١) وحده لأنه الوارث للعلم الإلهى عن أجداده ، فبناء على ذلك يعتبر هو المجتهد المطلق ، وحتى إذا سمح لغيره بالاجتهاد فهو مقيد (٢) . ولعل هذا يفسر إسراع الفاطميين إلى الغاء دار الحكمة ـ كما سبقت الإشارة ـ بعد قيام الحوار الفكرى فيها من خلال المناظرات التى اعتبرت من قديم الزمان أداة الأثراء الفكرى ، ولقد انعكس كل ذلك على الفقه الشيعى الذى قام على تفسيرات لنصوص القرآن الكريم والحديث توافق مذهب الشيعة من إيثار العلويين وتقديمهم والعمل بأقوال ائمتهم (٣) .

أما فى العصر السلجوقى : فقد اعتنق سلاطينهم مذهب أهل السنة والجماعة وأباحوا اتباع أى من المذاهب الفقهية الأربعة حتى وإن ساروا فى بعض عصورهم على

---

(١) الف يعقوب بن كلس وزير العزيز بالله الفاطمى كتابا يتضمن الفقه على ما سمعه من المعز لدين الله وابنه العزيز بالله وبوبه على أبواب الفقه فبلغ حجمه نصف حجم صحيح البخارى .
على حسنى الخربوطلى : المرجع السابق ، ص ١١٨ .

(٢) كان الخليفة الفاطمى المرجع الأول والأخير فى علوم الدين باعتباره الشخص الذى ورث العلم الإلهى عن أبائه وأجداده من لدن على بن أبى طالب .
عبد اللطيف حمزة : الحركة الفكرية ، ص ٧٥ .
« فالإمامة عند الشيعة ليست قضية مصلحية تناط باختيار العامة وينتصب الأمام بنصبهم ، بل هى قضية أصولية وهى ركن الدين فلا يجوز للرسل عليهم السلام إغفاله وإهماله ، ولا تفويضه إلى العامة وإرساله » . الشهرستانى : المصدر السابق ، جـ١ ص ١٤٦

(٣) راجع : الفروق فى التشريع الشيعى مثل نظام المواريث وفى الاذان على خير العمل بدلا من حى على الفلاح عند السنة ، وإلغاء صلاة التراويح
ماجد : ظهور خلافة الفاطميين ، ص ٣٢٧ ـ ٣٢٩
حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام ، جـ١ ص ٤٥١

المذهب الشافعى أو الحنفى ، بالإضافة إلى إقبالهم على نشر العلم من خلال كثرة المدارس وتعيين خيرة العلماء والفقهاء للتدريس فيها ، مع تشجيع الحوار الفكرى من خلال المناظرات اللعلمية . ولقد كانت هذه الوسائل من الأسباب الهامة التى دفعت باللعلوم الفقهية إلى التطور فى عصورهم والذى ظهر بوجه خاص منذ أن وضع أبو حامد الغزالى مصنفه « إحياء علوم الدين »[1] مع مؤلفاته الأخرى[2] . الأمر الذى فتح الباب للفقهاء أن يجدِّدوا ويبتكروا فى علوم الدين .

وقد استطاع الشيخ ابن تيمية ـ فى العصر المملوكى ـ أن يواصل هذا الطريق ، وهو من اجتمعت فيه شروط الاجتهاد[3] فاجتهد الرأى فى مسائل عديدة منها مسألة الطلاق الثلاث ، ومنع شد الرحال إلى قبور الأنبياء والصالحين كما أنكر على الفقراء الأحمدية ما يفعلونه من بدع فى تصوفهم ، فاستقر الأمر على العمل بحكم الشرع ونزعهم هذه الهيئات[4] .

وسلك طريق أبى حامد الغزالى فى جعل المنهج العقلى والفكرى وسيلة من وسائل

---

(١) راجع : الغزالى : إحياء علوم الدين ، مكتبة عيسى البابى الحلبى ، القاهرة سنة ١٣٤٨هـ.

(٢) اعتبرت مصنفات الغزالى من المعالم العلمية الهامة التى وضع عليها العلماء فى العالم الإسلامى بعض مصنفاتهم . ففى مصر فى العصر الأيوبى شرح محيى الدين محمد بن يحيى النيسابورى الخبوشانى كتاب الغزالى « وسائل فى الفروع » فى مصنف سماه « المحيط » يقع فى ١٦ مجلداً ، أوقفه على المدرسة الصلاحية بجوار الشافعى .

العماد الحنبلى : المصدر السابق جـ٤ ص ٢٨٨/ راجع مصنفات أخرى للغزالى .

حاجى خليفة : المصدر السابق جـ٢ ص ٦٠ ، ٩١ ، ٢٠٠ ، ٤٣٥ (الطبعة ١٢٧٤) وصنف الشيخ جمال الدين بن نجم الدين بن ساس بن نزار المالكى (ت ٦١٦هـ/ ١٢١٩م) كتابه « الجواهر الثمينة على مذهب عالم المدينة » فى الفروع ، وضعه على ترتيب الوجيز للغزالى ، والمالكية عاكفة عليه لكثرة فوائده .

ابن كثير : المصدر السابق ، جـ١٣ ص ٨٦ .

(٣) رغم اجتهاد ابن تيمية فقد عانى محنا كثيرة وحبس مرات بالقاهرة ودمشق وإن كان معظما من الملك الناصر محمد بن قلاوون ، له مخالفات فى الدين مثل تارك الصلاة عمدا لا يجب عليه القضاء والماء لا ينجس بوقوع النجاسة فيه إلا أن يتغير .

المقريزى : السلوك ، جـ٢ ق ١ ص ١٨ .

ابن تغرى بردى : النجوم ، جـ٩ ص ٢٧٢ هامش ١ ، ٢ / المنهل ، جـ١ ص ٣٦٠ .

ابن حجر : الدرر ، جـ٢ رقم الترجمة ٢١٥٦ ، رقم ٢٣٠٠ .

(٤) المقريزى : السلوك ، جـ٢ ق ١ ص ١٦ ، ٤٠٠ .

التقدم الحضارى للرد على مخالفيهم فى الرأى . وقد سبق أن أشرنا إلى المصنفات التى وضعها أبو حامد للرد على عقائد الشيعة ، وبالمثل وضع ابن تيمية مصنفا للرد عليهم بعنوان : « منهاج السنة النبوية فى نقض كلام الشيعة والقدرية »[١] .

الأدب :

يتميز الأدب بصفة عامة بتعدد فروعه وأغراضه التى يصعب على غير المتخصص الوقوف بشكل قاطع ودقيق على مجالات التأثير فيها . ولذلك فسوف نتناول دراسة التأثير فى هذا المجال من وجهة نظر حضارية .

وبصفة عامة فإن الأدب وخاصة الشعر كان من المظاهر الحضارية المتطورة فى العصر الفاطمى فى مصر وكانت له سوق رائجة ، لأن الدولة الفاطمية قامت على أساس الدعوى والدعاية . وهى أمور لا يمكن أن تنجح إلا على أساس من البلاغة والأدب[٢] ، غير أن الأدب ، والشعر خاصة عند الفواطم كان يتقدم التقدم الطبيعى وله نفس حال الأدب العربى منذ ظهور الإسلام .

أما فى عصرى الأيوبيين والمماليك فإن كثيراً من الظواهر الحضارية التى وضحنا سابقًا أنها انتشرت فى مصر لأول مرة بتأثير سلجوقى ، قد انعكس تأثيرها على الأدب وبخاصة فى الشعر ، والذى هو مرآة صادقة لما يدور فى المجتمع ، فعلى سبيل المثال أدى انتشار التصوف والطرق الصوفية بوجه خاص إلى انتشار الشعر الصوفى الذى يسجل تجربة الصوفى الذاتية ، مستخدما فى التعبير عنها اللغة الرمزية ومن أمثلة ذلك أشعار القطب عمر بن الفارض وابن الصباغ القوصى[٣] .

---

(١) راجع : حاجى خليفة : المصدر السابق ، جـ٢ ص ١٨٧٢ .
محمد كامل الفقى : المرجع السابق ، ص ٧٢ .
(٢) سعيد عاشور ، الرافض : المرجع السابق ص ٢٧٠ .
(٣) راجع عبد الخالق محمود (د) : شعر ابن الفارض فى ضوء النقد الأدبى الحديث دار المعارف بمصر، الطبعة الثالثة ١٩٨٤ ، ص ٣٠ : ٥٧ .
على صافى حسين : (د) الأدب الصوفى فى مصر « ابن الصباغ القوصى » دار المعارف بمصر ١٩٧١ ، ص ١١٢ : ١١٤ .

وكان من أهم الأغراض التى ظهرت بتأثير سيطرة العنصر التركى على الحكم فى مصر ، هى أشعار تشيد بذلك العنصر ، ونشير على سبيل المثال إلى بعض أبيات من بائية القاضى شهاب الدين محمود مثل :

« جيش من الترك تَرْكُ الحرب عندهمُ .·. عاروا راحتهم ضرب من الضرب »[1].

كما قال الشرف البوصيرى (ت ٦٩٥هـ/ ١٢٦٥م)[2] فى بعض أشعاره نفس المعنى كالبيت التالى :

« واقسم الترك منذ سارت .·. لن يتركوا للفرنج ملكا »[3].

كما قال الشاعر عن انتصارات الناصر محمد بن قلاوون على النصارى سنة ٧١١هـ/ ١٣١١م) .

أبقيت للترك ذكراً قد انبت به .·. للناس كيف غذا الإسلام ينتصر»[4].

ويقول الشيخ شهاب الدين أبو شامة فى بعض أبيات من نظمه :

« غلب التتار على البلاد فجاءهم .·. من مصر تركى يجود بنفسه »[5].

ويتغزل فى الأتراك الشاعر عبد الله بن عبد الواحد المعروف « بابن اللوز » ويقول :

« بى من بنى الترك ظبى ساحر الحدق .·. شقيق خديه يحكى حمرة الشفق

يريك من خده الزاهى وطرته .·. ضوءاً منيراً تبدى فى دجى الغسق

إذا تبدى فبدر فى السعود بدا .·. وإن تثنى فغض البانة الورق[6]

---

(١) ابن شاكر الكتبى : المصدر السابق ، جـ١ ص ٤١١ .
أحمد صادق الجمال : الأدب العامى فى مصر فى العصر المملوكى . الدار القومية للطباعة والنشر القاهرة ١٩٦٦ ، ص ٤٢ .

(٢) راجع : السيوطى : حسن المحاضرة ، جـ١ ص ٥٧٠ .

(٣) ابن إياس : المصدر السابق ، جـ١ ص ١٢٤ .

(٤) بيبرس المنصورى : المصدر السابق ، ص ٢٤١ .

(٥) ابن تغرى بردى : النجوم ، جـ٧ ص ٨٢ / السيوطى : حسن المحاضرة جـ٢ ص ٣٩ .
أحمد صادق : المرجع نفسه ، ص ٤٢ .

(٦) أحمد صادق : المرجع نفسه ، ص ٤٧ .

ويقول ابن نباتة[1] المصرى : (ت ٧٦٨هـ/ ١٣٦٦م) فى وصف جارية تركية ما يلى :

« بُهِت العزول وقد رأى الحاظها ∴ تركيـة تـدع الحليـم سفيهـا

فَثَنَى الملامَ وقال دونك والاسـى ∴ هذى مضايق لست ادخل فيها »[2]

ويدل هذا الشعر على أنه حتى فى الغزل ذكرت التركيات تخصيصاً .

ومنها أشعار تنتقد أحوال سلاطين مصر من المماليك سواء من حيث صغر سنهم على تولى السلطنة أو من حيث لهوهم بالجوارى والنساء[3]، ففى حالة سلطنة الطفل علاء الدين كجك (تولى سنة ٧٤٢هـ/ ١٣٤١م) ، قال الشاعر :

« سلطاننُا اليومَ طفلٌ والأكابر فى ∴ خُلْفٍ وبينهمُ الشيطانُ قـد نزغـا

فكيف يطمع من مسته مظلمـة ∴ أن يَبْلغِ السؤلَ والسلطانُ ما بلغا »[4]

كـمـا قـيلت أشـعـار تنتـقـد السلطان حاجى بن الناصر محـمـد (ت ٧٤٨هـ/ ١٣٤٧م) فى لهوه بالحمام[5].

وكثرت الأشعار التى تصف أشكال بعض السلاطين الجسمية[6].

وسجل الشعراء إحياء الخلافة العباسية فى القاهرة من خلال قصيدة لابن فضل الله سماها « حسن الوفا بمشاهير الخلفاء »[7]، حتى الظاهرة الحضارية المتمثلة فى

---

(١) ابن نباته المصرى ، راجع : ابن حبيب : المصدر السابق ، جـ٢ ص ١٥٨ هامش ١ ص ٢٠٣ .
السيوطى : حسن المحاضرة جـ١ ص ٥٧١ / أحمد صادق الجمال : المرجع السابق ص ٤٦ .

(٢) أحمد صادق : المرجع نفسه ، ص ٤٦ .

(٣) راجع : ابن تغرى بردى : المنهل ، جـ٥ ص ١٣١ .

(٤) السيوطى : حسن المحاضرة ، جـ٢ ص ١١٦ .
أحمد صادق : المرجع نفسه ، ص ٤٥ .

(٥) راجع : ابن تغرى بردى المنهل ، جـ٥ ص ٥٤/ وفى نفس المعنى المشار إليه راجع أشعار أخرى .
السيوطى : حسن المحاضرة ، جـ٢ ص ١١٤ .

(٦) راجع : السيوطى : حسن المحاضرة ، جـ٢ ص ٢١ ، ص ٣٠٠ .

(٧) راجع : السيوطى : حسن المحاضرة ، جـ٢ ص ٧٩ : ٨٠ .

عودة السلاطين إلى تولى الحكم بعد خلعهم ، مثل السلطان الناصر محمد بن قلاوون ظهرت من خلال أبيات من الشعر قالها العلاء الوداعى[١] :

« الملك الناصر قد أقبلت .·. دولته مشرقة الشمس »

« عاد إلى كرسيه مثل ما .·. عاد سليمان إلى الكرسى »

وتميز العصر المملوكى بكثرة المؤمرات السياسية التى تنتهى فى بعض الأحيان بالاعتقالات أو القتل المترتب عليه الثأر ، أو هو فى معنى إجمالى « طابع الغدر » وهو معنى أيدته وبرهنت عليه أشعار ذلك العصر[٢].

فقال ابن حبيب عن مقتل السلطان الأشرف خليل ، أبياتا أشرنا إليها[٣] وهذا الغرض الجديد فى الشعر ، سبق أن ظهر فى عصر السلاجقة مثل أشعار أبو القاسم هبة الله بن الفضل البغدادى[٤] ، القائل :

« فى العسكر المنصور نحن عصابة .·. مرذولة أخس بنا من معشر

خذ عقلنا من فعلنا فى ما ترى .·. من خسة ورقاعة وتهور

تكريت تعجزنا ونحن بجهلنا .·. نمضى لنأخذ ترمذا من سنجر »[٥]

ولعل الوزير عميد الملك الكندرى وزير السلطان السلجوقى ألب أرسلان ، الذى اعتقل وقتل بتحريض غادر من الوزير نظام الملك ـ كما أشرنا من قبل ـ ذكر بعض أبيات[٦] من الشعر قبل مقتله فى معنى الغدر منها :

---

(١) راجع : ابن تغرى بردى : المنهل ، جـ ٣ ص ٤٧٣ .
السيوطى : حسن المحاضرة ، جـ ٢ ص ١١٤ .
أشعار أخرى فى نفس المعنى المشار إليه ، راجع : بيبرس المنصورى : المصدر السابق ، ص ٢٠٣ ، ٢٠٦ .
العينى : عقد الجمان ، جـ٢ ص ٤٥٥ ـ ٤٥٦ .
ترجمة الوادعى : راجع : بن حبيب : المصدر نفسه ، جـ٢ ص ٧٧ .

(٢) راجع : ابن حبيب : المصدر السابق ، جـ٢ ص ٥٦ / السيوطى حسن المحاضرة ، جـ٢ ص ٨٣ .

(٣) راجع : ص ٣٤٨ من البحث .

(٤) الحسينى : المصدر السابق ، ص ٢٢٦ ، ٢٢٧ .

(٥) الحسينى : المصدر نفسه ، ص ٢٢٧ .

(٦) الحسينى : المصدر نفسه ، ص ٦٩ .

« إن كان بالناس ضيق من منافستي ∴ فالموت قد وسَّع الدنيا على الناس

مضيت والشامت المقبور يتبعني ∴ كُلٌّ لكأس المنايا شارب حاسى »

وهو نفس المعنى الذى قاله بيبرس المنصورى[1] فى أسفاره عن مقتل السلطان حسام الدين لاجين ونائبه .

« ومن يحتفر فى الشر بئرا لغيره ∴ يَبِتْ وهو فيها لا محالةَ واقعُ »

وعن المصادرات المالية ، منها ما قيل فى القبض على الأمير سيف الدين سلار المنصورى نائب السلطنة والذى توفى بعد المصادرة (سنة ٧١٠هـ/ ١٣١٠هـ) إذ قال الشاعر[2] .

« إنَّ سلار نائب المُلْكِ أمسى ∴ عبرة تمنع العيون هجوعا

عاش فى نعمة وحاز كنوزاً ∴ ليس تحصى ومات فى الحبس جوعا[3]

وحتى الرنوك التى لم تظهر فى عصر الفواطم ، وظهرت فى فنون المماليك بتأثير من الفنون السلجوقية ـ فيما نعتقد ـ وردت فى الشعر المملوكى حين قال بيبرس المنصورى[4] فى بعض أشعاره عن السلطان الظاهر بيبرس ما يلى :

« وافاهم جيش النبى يقوده ∴ ملك الزمان الظاهر الآلاء »

بعصائب سود عليها رنكه ∴ أُسْدٌ فَرَسْنَ فوارسَ الهيجاء »

---

(١) التحفة الملوكية ، ص ١٥٤ وأشعار أخرى فى نفس المعنى : راجع بيبرس المنصورى : المصدر نفسه ص ١٥٣ .

(٢) تنسب هذه الأبيات إلى ابن حبيب ـ راجع : تذكرة البنية ، جـ٢ ص ٣٠ .

(٣) سجلت الأشعار التى قيلت فى العصر السلجوقى أيضاً المصادرات المالية منها ما قاله موفق الدولة أبو طاهر الخاتونى من أكابر الدولة السلجوقية ما يلى :

« نهبوا ما ملكت فى بغدادى ∴ واستباحوا ذخائرى وعتادى »

« فانا اليوم غير ذقنى وسنى ∴ مثلما كنت ساعة الميلاد »

« وهما الآن رهن قلع ونتف ∴ تحت هذا الابراق والارعاد »

الأصفهانى : المصدر السابق ، ص ١٠٢ ـ ١٠٣ .

(٤) التحفة الملوكية ، ص ٧٧.

كما ظهرت أغراض جديدة فى شعر العصر المملوكى ، تناولت التغيرات السلبية التى طرأت على المجتمع المصرى ربما بفعل تأثير سلجوقى « كشرب الحشيشة »[1] وهو نبات مخدر لم يعرف الناس تعاطيه قبل العصر الأيوبى فى مصر[2]. وهناك آراء كثيرة[3] تناولت البحث فى من اكتشف تعاطى هذا النبات كما تناولت البحث فى من أدخله إلى مصر ، والراجح من مجموع هذه الآراء أن هذا النبات المخدر عرف تعاطيه فى مصر عن طريق بعض الصوفية الواردين من الشرق ، وأكثر الآراء تنسبها إلى الشيخ حيدره (ت ٦١٨هـ/ ١٢٢١م) وفى هذا المعنى يقول الشاعر محمد بن على ابن الأعمى : [4].

« دع الخمر واشرب من مُدَامَةِ حيدر .·. معنبرةٍ خضراءَ مثل الزبرجد »

ويقول ابن الصاحب علم الدين الفقير المجرد ـ فهو من الصوفية (ت ٦٨٨هـ/ ١٢٨٩م)[5].

« فى خِمَارِ الحشيش معنى مرامى .·. يا أهـل العقـول والإفهـام
حرّموها مـن غيـر عقـلٍ ونقـلٍ .·. وحرامٌ تحريم غير الحرام »[6]

وهناك أشعار أخرى عن الحشيشة حفلت بها المصادر[7]

ويمكننا أن نلمح فى بعض أشعار العصر المملوكى ما يفيد أن النموذج الذى كان ماثلا فى ذهن من مبنى مدرسة ، هو العمارة السجلوقية متمثلة فى المدارس النظامية ومنها ما قيل فى حفلة افتتاح المدرسة الظاهرية بالقاهرة (٦٦٢هـ) فقد انشد السراج الوراق[8] قائلا :

---

(١) على صافى حسين : ابن الصباغ ، ص ٤١ ، ٤٢ .

(٢) يحتمل أن يكون هذا النبات معروف زراعته فى مصر قبل العصر الأيوبى ولكنه لم يعرف للتعاطى .

(٣) راجع : المقريزى : الخطط جـ٢ ص ٢٦ .

على صافى حسين : الأدب الصوفى مصر ، ص ١٧١ : ١٧٥ / ابن الصباغ ، ص ٤٢ .

(٤) على صافى حسين : ابن الصباغ ، ص ٤٢

(٥) ابن تغرى بردى : المنهل ، جـ٢ ص ٢٧٤ .

(٦) ابن تغرى بردى : المصدر نفسه ، جـ٢ ص ٢٧٨ .

(٧) بيبرس المنصورى : المصدر السابق ، ص ٥٦ .

(٨) المقريزى : الخطط ، جـ٢ ص ٣٧٩ / السيوطى : حسن المحاضرة ، جـ٢ ص ٢٦٣ .

« فشيدها للعلم مدرسة غـدا .'. عِرَاقٌ إليها شيـــق وشـــآم »

« ولا تَذْكُرَنْ يوما نظامية لها .'. فليس يضاهى ذا النظامَ نظامُ »

والتطور المعمارى المتأثر عن العمارة السلجوقية من حيث تعدد الأغراض الوظيفية للمنشأة الواحدة ، والذى انتشر فى العصر المملوكى ، انعكس بدوره على مجالات الشعر فى ذلك الوقت ومنهـا مـا قيل عن مجـموعة قـلاوون المعـمـارية بالنحـاسين كالأبيات التالية[1] :

« وقبةُ مارستان ليس لعلـه .'. عليه وإن طال الزمـان مـــرور »

« ومدرسة ود الخورنق أنـه .'. لديها حضير والسدير غدير »[2]

من الأغراض المعمارية التى أشارت إليها أبيات الشعر السابقة فى مجموعة قلاوون المعمارية القبة وتعنى الضريح ، والمارستان أى المستشفى ، والمدرسة المذهبية . كما توجد أشعار أخرى قيلت فى العمائر المملوكية[3] .

ومن أهم أنواع الأدب الجـديدة التى ظهـرت فى مـصـر فى العـصـر المملوكى ووصلت إلينا لأول مرة مدونة بتأثير من الوافدين المشارقة هى « تمثيليات خيال الظل » أو طيف الخيال »[4] .

---

(١) بيبرس المنصورى : المصدر السابق ، ص ١١١ ، ١١٢ .

(٢) وردت ألفاظ فارسية فى الأبيات السابقة : كخورنق أى المجلس الذى يأكل فيه الملك ، والسدير : اسم قصر . راجع :
السيد ادى شير : المرجع السابق ، ص ٥٤ ، ص ٨٦ .

(٣) فعلى سبيل المثال توجد أشعار أخرى عن مجموعة قلاوون من نظم الشاعر الشرف البوصيرى ، وأشعار عن خانقاه شيخو ، وعن العمائر التى شيدها الأمير شمس الدين سنقر الأعسر (ت ٧٠٩هـ) فى الميدان . راجع : السيوطى : حسن المحاضرة جـ١ ص ٢٦٤ ، ٢٦٦ ابن حبيب : المصدر السابق ، جـ٢ ص ٢٤ .

(٤) طيف الخيال : هى نوع من وسائل التسلية ، أو مسرح الدمى حيث تصنع فيها الشخوص من جلود وتحرك بعصى من وراء ثوب أبيض مشدود فيظهر خيالها فيه ـ ويشيع فيها المقامات ـ أى اللعب بالألفاظ والمعانى والأوزان الخفيفة الراقصة وهى من أقدر الأشكال على تصوير البيئة العربية واحداث العصر . وتصور الأشخاص بأسلوب هزلى لاذع . ويكثر أهل خيال الظل فى المتنزهات والمجتمعات فى أيام الأعـيـاد =

واللعب بالخيال معروف على ما يبدو منذ أقدم العصور[1]، وعرف في العصر الفاطمى فى مصر ولكن لم تصلنا منه مؤلفات[2]. فطيف الخيال تمثيليات هزلية تطورت في الغالب، عن المقامات الأدبية[3] التى يذكر السيوطى[4] صراحة، أن أول من أنشأها بديع الزمان الهمذانى فى أواخر القرن الرابع الهجرى وقد نقلها إلى مصر فى العصر المملوكى أحد الأدباء الوافدين من الشرق هو الأديب والشاعر والكحال ابن دنيال بن يوسف الخزاعى الموصلى[5] الذى كتب مخطوط « طيف

= شاخت وبوزورث : المرجع السابق جـ٢ (الطبعة الأولى) ص ١٦٤ .
سعيد الديوجى : تاريخ الموصل ، جـ١ ص ٤٤٦ .
أحمد صادق الجمال : المرجع السابق ص ٢٠١ .
أحمد عبد الرازق : (د.) : وسائل التسلية عند المسلمين (مجلد الحضارة الإسلامية بمناسبة القرن الخامس عشر الهجرى) الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٥ ص ٩٣
عبد المعطى شعراوى (د.) المسرح المصرى المعاصر أصله وبداياته . الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة ١٩٨٦ ، ص ٤٢ ، ٤٣ .

(١) آدم ميتز : المرجع السابق جـ٢ ص ٢٥٩ ـ ٢٦٠ .
(٢) راجع : المقريزى : الخطط جـ١ ص ٢٠٧ / ادم ميتز : المرجع نفسه جـ٢ ص ٢٥٩ ـ ٢٦٠ .
(٣) المقامة : ظهرت أول ما ظهرت فى شكل الندوة التى يلتقى فيها الناس ويتصدرها الأديب محدثا بالعبارات الموجزة البليغة الصياغة معقبا على حادث أو عارضًا لحادثة ، ولا شك هو الأصل الذى اشتق منه اسمها فالمقامة فى اللغة هى المجلس يقوم فيه الأديب محدثا الجمع المنصت إليه ، وهذا هو الفرق بينها وبين المجلس الذى تدور فيه أحاديث علمية أخرى لا تدخل فى مجال الأدب .
ثروت عكاشة (د.) « فن الواسطى من خلال مقامات الحريرى » دار المعارف بمصر سنة ١٩٧٤ ، ص ٥ ، ٦ . راجع : محمد رشدى حسن (د.) أثر المقامة فى نشأة القصة المصرية الحديثة . الهيئة المصرية العامة للكتاب (القاهرة ١٩٧٤) ، ص ١١ : ١٣ .
(٤) الوسائل إلى معرفة الأوائل ص ١٢٤ .
(٥) ابن دنيال « شمس الدين محمد » ولد بأم الربيعين فى الموصل ٦٤٦هـ/ ١٢٣٨م وتلقى فيها علومه الأولى ثم استقر فى القاهرة وهو فى التاسعة عشرة من عمره ، ودرس الطب فى أحد بيمارستانات القاهرة ودرس الأدب على يد الشيخ معين الدولة الفهرى المصرى ، توفى ابن دنيال فى مصر (٧١٠ـ ٧١١هـ/ ١٣١٠ـ ١٣١١م) ووضع طيف الخيال فابدع طريقة وكان هو المطرب والمرقص على الحقيقة .
بن شاكر الكتبى : المصدر السابق م ٣ ص ٣٣٠ (رقم الترجمة ٤٤٣) .
العماد الحنبلى : المصدر السابق جـ٦ ص ٢٧ / ابن حبيب : المصدر السابق جـ١ ، ص ٢٤١ .
ابن تغرى بردى : النجوم جـ٩ ص ٢١٥ .
أحمد صادق الجمال : المرجع السابق ص ٢٠٠ .
على إبراهيم أبو زيد (د) : « تمثيليات خيال الظل » دار المعارف بمصر الطبعة الثانية سنة ١٩٨٣ ، ص ١١٥ عبد المعطى شعراوى : المرجع السابق ص ٤٣ .

الخيال »[1] متأثراً فيه بمقامات الحريرى[2] التى كان السبب فى كتابتها فى العصر السلجوقى الوزير انو شروان بن أحمد القاشانى وزير الخليفة المسترشد بالله العباسى والسلطان مسعود السلجوقى (ت ٥٣٢هـ/ ١١٣٧م)[3] وكلا العملين ـ مخطوط ابن دنيال ومقامات الحريرى يتناولات وصف مشاهد من الحياة اليومية ومشكلاتها بأسلوب مسرحى .

٧ ـ مظاهر التأثيرات السلجوقية فى الحضارة المملوكية اجتماعياً بمصر :ـ

ظهور دور المرأة :

تميزت بعض جوانب الحياة الاجتماعية فى العصر السلجوقى عما سبقه من عصور إسلامية بظهور دور المرأة وبخاصة على مسرح الأحداث السياسية فلعبت المرأة دوراً بارزاً فى توجيه الكثير من الأمور السياسية وخاصة لصالح زوجها وأولادها أو لنفسها هى شخصيا . والراجح أن الطبيعة الجغرافية للبلاد التى انحدر منها الجنس التركى والتى تتميز فى ظاهرها العام بطابع الخشونة والقسوة قد أثرت بدرجة كبيرة فى هذه الظاهرة الحضارية إذ اضطرت المرأة إلى المساهمة فى الحياة الاقتصادية للقبيلة . وظهور در المرأة السلجوقية انعكس على دور المرأة فى العصر الأيوبى ، وبخاصة المرأة الأيوبية فى الشام ، الذى تذبذب الحكم فى بعض بلاده بين ملوك الأيوبيين وملوك

---

(١) طيف الخيال : مخطوط بدار الكتب المصرية برقم « ٥٣٥٦» أدب
راجع : إبراهيم حمادة (د.) : خيال الظل وتمثيليات ابن دنيال دراسة وتحقيق وزارة الثقافة مطبعة مصر سنة ١٩٦٣ ، ص ١٤٠ .

(٢) راجع سعيد الديوجى : الموصل فى العهد الاتابكى ص ٨٧ ـ ٨٨ .
د. محمد كامل حسين : د. على الراعى ، د. فؤاد حسنين . راجع : عبد المعطى شعراوى : المرجع السابق ص ٤٤ ، إبراهيم حمادة : المرجع نفسه ص ١٢٠ : ١٢٤ .
مقامات الحريرى : ألفها أبى القاسم بن على عثمان الحريرى البصرى الحرامى . ولد فى ربيعة فارس ٤٤٦هـ/ ١٠٥٤م توفى بالبصرة ٥١٥ ـ ٥١٦هـ/ ١١٢٢م ، لذا لقب بالحرامى نسبة إلى سكة الحرامى . وبنو حرام من القبائل العربية التى سكنت هذه المنطقة فنسب إليها أما لقب الحريرى فهو نسبة إلى عمل الحرير وسار الحريرى فى مقاماته على طريقة الهمذانى .
ابن خلكان : المصدر السابق م ٤ ص ٦٣ ـ ٦٤

(٣) ابن تغرى بردى : النجوم ، جـ٥ ص ٢٦١ .

السلاجقة ، مما ساعد على انتقال التأثير ، علاوة على علاقة النسب التى ربطت بين السلاجقة والأيوبيين .

ومن الجدير بالملاحظة أن أول سيدة تتولى الملك فى الشام كانت ضيفة خاتون صاحبة حلب التى يفصل بينها وبين تولى شجرة الدر للملك فى مصر (٦٤٨هـ/ ١٢٥٠م) حوالى سبع سنين وهما أول من ملك فى الشام ومصر من النساء »[١].

وهذا التقارب الزمنى بين حكم كلتا المرأتين يوحى بالأثر السلجوقى الذى خلفته ولاية صفية خاتون فى قبول فكرة حكم المرأة فى مصر ، خصوصا وهو أمر غير مسبوق منذ الفتح الإسلامى لها .

ولكى يتبين لنا أن الدور الذى قامت به شجرة الدر فى مصر كان امتداداً لما قامت به نساء الترك فى العصر السلجوقى ، نحاول أن نقارنه بالدور الذى قامت به واحدة من زوجات السلاطين السلاجقة وكانت أشهر من ذاع صيتها فى التاريخ وهى « خاتون الجلالية »[٢] زوجة السلطان ملكشاه سنة ٤٨١هـ/ ١٠٧٧م وكان لها دورها البارز سواء فى حياته أو بعد مماته ففى حياته نجحت فى الدس لدى السلطان ضد وزيره نظام الملك ـ رغم عظمة هذا الوزير ـ لمجرد أنه كان يحث السلطان على جعل ولاية العهد لابنه بركياروق ، وهى ترى أن الولاية يجب أن تكون لابنها محمود . ورغم نجاحها فى أن توغر صدر السلطان ضد الوزير ، فقد حرضت وزيرها تاج الملك الشيرازى ، والمتنافس مع نظام الملك على منصب الوزارة ، على قتله ، فقتله بالفعل ، وأخذ الوزارة بدلا منه[٣] كما أشرنا من قبل . أما بعد وفاة زوجها ملكشاه سنة ٤٨٥هـ/ ١٠٨١م

---

(١) محمد كرد على : المرجع السابق ، جـ٢ ص ١٠٨ .

(٢) خاتون الجلالية : هى إحدى بنات الايل خانيه سادة ما وراء النهر ، فهى من أولاد الملوك الترك ، وقيل أنها من نسل افراسيات ، وأخت حاكم بخارى وسمرقند وما وراء النهر . توفيت فى رمضان سنة ٤٨٧هـ/ ١٠٩٤ .
نظام الملك : المصدر السابق ، هامش ١ ص ٢٢٣ .
الأصفهانى : المصدر السابق ، ص ٨١ / الحسينى : المصدر السابق ، ص ١٧٥ هامش ٢ ص ١٥٥ .

(٣) ابن النظام الحسينى : المصدر السابق ، ص ٦٥ ، ٧٢ ، ٧٣ ، ٧٤ .
حربى أمين : المرجع السابق ، ص ٢٥٦ ـ ٢٥٧ .

فقد تمكنت من كتم نبأ موته ، وضبطت الأمور والعسكر حتى تتمكن من الاحتفاظ بالسلطنة السلجوقية المتنازع عليها لابنها محمود . فيذكر ابن الأثير[1] : « أنها ضبطت العسكر فلم يلطم أحد وجها ولم يشق عليه ثوبا ، ولم يسمع بسلطان مثله توفى فلم يصل أحد عليه ، ولم يجلس أصحابه للعزاء سواه « وفى نفس الوقت » أرسلت إلى الأمراء سرا فاستحلفتهم لولده محمود وهو ابن خمس سنين »[2] ، وبذلت لهم الأموال فبايعوه بالسلطنة[3] لأن الأمراء فيما يذكر الأصفهانى[4] : « كانوا من صنائعها فاختاروا ولدها » ، رغم أنه أحد أربعة أولاد للسلطان ملكشاه هم بركيا روق ، ومحمد وسنجر ومحمود الذى كان أصغرهم » وحرصا منها على تأكيد شرعية ابنها فى السلطنة أرسلت إلى الخليفة العباسى المقتدى بالله تسأله الخطبة لولدها محمود ، فأجابها الخليفة ولقبه : « ناصر الدنيا والدين » ، وخطب له فى يوم الجمعة ٢٢ شوال سنة ٤٨٥هـ/ ١٠٩٢م وخطب له فى الحرمين الشريفين .

كما استوزرت تاج الملك أبالغنائم المزربان بن خسرو ، ثم قامت بتدبير المملكة وهو طفل صغير[5] . وإذا قارنا ما مثلته ضيفة خاتون بما مثلته شجرة الدر لاحظنا أن الأخيرة لعبت دوراً سياسيًا مماثلا إلى حد كبير كان له أكبر الأثر فى تغيير مجرى

---

(١) ابن الأثير فى الدولة الاتابكية ، ص ١١ .
(٢) العماد الحنبلى : المصدر السابق ، جـ ٣ ص ٣٧٧ .
(٣) الحسينى : المصدر السابق ، ص ١٥٥ .
(٤) الأصفهانى : المصدر السابق ، ص ٨١ .
(٥) ابن الأثير : الكامل ، جـ١ ص ٢١٤ .
الحسينى : المصدر السابق ، ص ١٥٥ ، هامش ٢ ص ١٥٥ .
ابى الفدا : المصدر السابق جـ٣ ص ٩٤ / ابن كثير : المصدر السابق ، جـ١٢ ص ١٣٩ .
السيوطى : تاريخ الخلفاء ، ص ٤٢٥ .
وفى الدولة الفاطمية فى مصر قامت ست الملك بدور مشابهة لما قامت به كل من تركان خاتون السلجوقية وشجرة الدر المملوكية ، ولكن دور ست الملك كان يتلخص فى أنها مجرد منفذة للوصية فى أن تحفظ الخلافة لأخيها الحاكم ولم يكن أمامها خيار آخر كما لم تطمع فى الحكم لنفسها .
راجع : عبد الرؤوف على يوسف : سيدة الملك ، (بحث فى كتاب القاهرة) ، ص ١٨٤ ، ١٨٨ .

الأمور السياسية فى مصر ، والذى يتمثل فى انتقال السلطنة[1] من أيدى الأسرة الأيوبية الكرد الأحرار ، إلى أيدى المماليك الأرقاء . وقد تمكنت شجرة الدر من الوصول إلى هذه النتيجة السياسية بعد أن سلكت أسلوباً مماثلا لمسلك خاتون الجلالية المشار إليها .

فبعد وفاة السلطان الملك الصال أيوب ، كتمت شجرة الدر نبأ وفاته عن الجميع حتى لا يعلم الفرنج فيطمعون فى البلاد ، وحتى لا يعلم الجنود فيتزعزعون فى أمر الجهاد ، وحتى لا يضطرب المصريون فيطمع الطامعون فى ملك مصر فجعلت السماط السلطانى يمد فى مواعيده وتخرج الأوامر من القصر السلطانى موقعة بالعلامة السلطنية للصالح ، التى كانت تقوم بتقليدها شجرة الدر وأحد غلمانه[2] . ولم تجعل أحداً يطمع فى الملك كما يذكر المقريزى[3] لعظمتها فى النفوس وكانت تدبر أمر العسكر فى حروبها مع الفرنج فى دمياط . وفى نفس الوقت استدعت تورانشاه ابن زوجها من حصن كيفا ، وإحضرت أكابر رجال الدولة سرا وهم فخر الدين ابن الشيخ، والطواش جمال الدين ، وطلبت منهم أن يحلفوا لتورانشاه بالسلطنة على أن يكون اتابك العساكر هو الأمير فخر الدين بن الشيخ ، ودعى له على منابر البلاد سنة ٦٤٧هـ/ ١٢٤٩م[4] وتسلم تورانشاه مقاليد الحكم فى البلاد ، وبذلك نجحت شجرة الدر ، كما نجحت قبلها خاتون الجلالية فى تولية السلطنة لمن اختارته كل منهما .، غير أن شجرة الدر عادت وحرضت على قتل من اختارته .

---

(١) رغم أن شجرة الدر قد جلست على كرسى السلطنة أى احتلت منصب الحاكم الأعلى لكنها لم تمنح لقب « سلطان أو سلطانة » فلم تصلنا تحف أو آثار عليها كتابات أثرية تحمل اللقب المشار إليه، وإنما بعض المصادر هى التى أطلقت عليها لقب « سلطانة » .
مثل : المقريزى : الخطط ، جـ٢ ص ٢٣٧ .
العينى : عقد الجمان ، جـ١ ص ٢٩ .

(٢) راجع : أبى الفدا : المصدر السابق ، جـ٣ ص ١٨٨ / ابن تغرى بردى : النجوم جـ٦ ص ٣٣٢ ـ ٣٣٣.
عبد الرحمن فهمى (د.) : شجرة الدر (من أبحاث كتاب القاهرة) ص ١٩٠ .

(٣) السلوك : جـ١ ق ٢ ص ٣٤٦ ـ ٣٥١ .

(٤) أبى الفدا : المصدر نفسه ، جـ ٣ ص ١٨٨ .

ولما كانت شجرة الدر لها الكلمة النافذة فقد اتفق المماليك على أن يقيموها[1] في المملكة ، وأن يكون عز الدين أيبك الصالحى التركمانى أتابك العساكر وبايعها الأمراء والشيخ تاج الدين بن بنت الأعز رغم كراهيته لتملكها البلاد .

ولبست شجرة الدر خلع السلطنة يوم الخميس شهر صفر سنة ٦٤٨هـ/ ١٢٥٠م، وقبل الأمراء الأرض من وراء الحجاب[2] . ويعلق ابن تغرى بردى والسيوطى[3] على سلطنتها بالعبارة التالية : « الذى وقع لها من تملكها الديار المصرية لم يقع لامرأة قبلها ولا بعدها فى الإسلام » . وهذا الرأى صحيح أن قصد به ولاية السلطنة ، غير أنه لا يحول دون القول بأن من نساء الأتراك تميزن بقوة الشكيمة ونفاذ الكلمة ، وشاع تسلطهن ، بل وحاولن انتزاع السلطنة فى العصر الإسلامى قبل شجرة الدر .

فجاتون الجلالية بعد أن تمكنت من انتزاع السلطنة لابنها الطفل محمود بدأت اتصالاتها مع الأمير إسماعيل محيى الدنيا والدين أمير اذربيجان لتتزوجه تريد بذلك أن تتولى الملك عن ابنها السلطان محمود ، وبعد أن تسقط اسم بركيا روق وحقه فى السلطنة .

ولكن الأمراء فطنوا لمحاولتها واحبطوا تدبيرها وقتلوا الأمير إسماعيل بعد فراره إلى أصفهان[4] .

---

(١) راجع أسباب اختيار المماليك شجرة الدر لتتولى الحكم .
المقريزى : الخطط : جـ٢ ص ٢٣٧ / العينى : عقد الجمان ، جـ١ ص ٢٩ .
ابن إياس : المصدر السابق جـ١ ص ٢٨٦ / الرافعى وعاشور : المرجع السابق ص ٤٣١ .
محمد مصطفى : مجلد الحضارة ،. جـ٢ ص ٤٣١ .
أحمد عبد الرازق (د.) : المرآة فى العصر المملوكى . مكتبة الشريف وسعيد رأفت القاهرة ١٩٧٥ ، ص ٤٩ .

(٢) عادة تقبيل الأرض للنساء يكاد يكون أول من اتبعها من السلاطين السلطان طغرلبك عندما قبل الأرض لابنه الخليفة العباسى عند زواجه منها . فتقبيل الأرض من العادات التى يتبعها الأمراء والملوك وغيرهم من قبل السلطان أو الخليفة فحسب .
راجع : ابن إياس : المصدر السابق ، جـ١ ص ٢٨٦ .

(٣) ابن تغرى بردى : النجوم ، جـ٦ ص ٣٧٩ / السيوطى : حسن المحاضرة ، جـ٢ ص ٣٦ .

(٤) راجع : نظام الملك المصدر السابق هامش ٤ ص ١٩٧ / الحسينى : المصدر السابق ، هامش ٢ ص ١٥٦
ابن النظام الحسينى : المصدر السابق ، ص ٧٤ ، ٧٥

وحتى هذا المسلك الأخير اقتدت به شجرة الدر عندما لم يأتيها التقليد من الخليفة العباسى لعدم موافقته على ولايتها ، كما رفض أهل الشام تملكها[1] فتزوجت من عز الدين أيبك بعد أن عزلت نفسها من السلطنة سنة ٦٤٨هـ/ وأقامته بدلا منها .

ويمكننا أيضًا مقارنة تركان خاتون التى كانت مستولية على أصفهان وجميع الأموال ومنعت بركيا روق من التصرف فى تلك الأعمال والنقود فيها[2] ، بشجرة الدر التى استبدت هى بالأمور بعد زواجها من عز الدين أيبك ولم تعد تطلعه عليها ثم حرضت على قتله[3] .

وكما خرجت تركان خاتون الجلالية للقتال عندما علمت أن الجنود النظامية أى التابعين للوزير المقتول نظام الملك ، خرجوا للقتال أخذا بثأر أستاذهم عن طريق الانضمام إلى زبيدة خاتون والدة بركيا روق ، فقد خرجت لقتالهم بجنودها فى الرى حتى اشتد القتال بينهما ، وانهزم عسكرها وقتل وزيرها سنة ٤٨٦هـ/ ١٠٩٣م [4] كذلك كانت شجرة الدر توجه الجنود والعسكر فى حروبهم ضد الصليبيين فى المنصورة ، ونجحوا فى الحصول على دمياط منهم ، وكان ذلك بعد وفاة الصالح نجم الدين وإخفائها عنهم أمر وفاته ، واستمرت على ذلك حتى نصر الله سبحانه وتعالى المسلمين[5] .

ولم تكن تركان خاتون الجلالية ، هى الوحيدة من نساء الترك التى لعبت دوراً

---

(١) أبى الفدا : المصدر السابق ، جـ٣ ص ١٩٠ ـ ١٩١ / المقريزى : الخطط ، جـ ٢ ص ٢٣٧ . ابن تغرى بردى : النجوم ، جـ٦ ص ٣٧٣ .

(٢) ابن القلانسى : المصدر السابق ، ص ١٢٧ (ص ٢٠٩ طبعة ٨٣ م) .

(٣) المقريزى : السلوك ، جـ١ ق ٢ ص ٤٠٣ .

(يذكر ابن كثير أن من أسباب تخلص شجرة الدر من زوجها أيبك أنها علمت بنيته للزواج من بنت صاحب الموصل بدر الدين لؤلؤ) .

راجع : البداية والنهاية جـ١٣ ص ١٩٩ (الطبعة السابعة ١٩٨٨م) .

(٤) الحسينى : المصدر السابق ص ١٥٦ ـ ١٥٧ .

حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام جـ٤ ، ص ٣٧ ـ ٣٨ .

(٥) السخاوى : « أبى الحسن نور الدين على بن محمود المؤرخ » (ت ٩٠٢هـ/ ١٤٩٧م) تحفة الأحباب وبغية الطلاب فى الخطط والمزارات والتراجم والبقاع المباركات مكتبة الكليات الأزهرية بالقاهرة ـ الطبعة الثانية ١٩٨٦م ، ص ٩٦ .

المقريزى : الخطط جـ٢ ص ٢٣٧ .

سياسياً ـ فى الإسلام ـ مهد لظهور شجرة الدر فى مصر ، فمن الأسر الاتابكية التركية المنسلخة من الدولة السلجوقية ، سلاطين آل سلغر ، الذين حكموا ولاية فارس فيما بين (٥٤٣ ـ ٦٨٦هـ/ ١١٤٨ ـ ١٢٨٧م) وتقلد حكم هذه الولاية أحد عشر سلطانا كان الحاكم الأخير الحادى عشر فى الترتيب هى : الاتابك آبشن خاتون بنت سعد الثانى ، وحكمت من (٦٦٣ ـ ٦٨٦ هـ / ١٢٦٤ ـ ١٢٨٧م)[١] .

كما تمكنت من الحكم « كوخان خاتون » ابنة سلطان الترك والخطا بعد وفاة والدها سنة ٥٣٧هـ/ ١١٤٢م ولم تظل مدتها فتملكت أمها بعدها ، وحكمت على الخطا وما وراء النهر من بلاد الترك[٢] ، وتزوج عماد الدين زنكى من زمرد خاتون بنت جاولى طمعا فى الاستيلاء على دمشق لما رأى تحكمها ، فلما خاب ظنه ولم يحصل على شىء أعرض عنها[٣] . كما حاولت اينانج خاتون أن تستأثر بأكثر البلاد لولديها من زوجها اتابك بهلوان ، وتحالفت مع العسكر من أجل ذلك[٤] كما يحفظ التاريخ أيضًا دور زاهدة خاتون صاحبة الأمر فى قلعة النجا بالقرب من نخجوان ، وبأمرها سلمت أمر القلعة لأبى بكر الابن الأكبر لاتابك بهلوان من زوجته الجارية[٥] . وغيرها من الأمثلة[٦] .

---

(١) آل سلغر : هم أتابكة فارس وينتسبون إلى « سلغر » الذى كان يتولى منصب الحجابة عند سلاطين السلاجقة وخدم ابنه « سنقر بن مودود السلغرى » عند السلطان ملكشاه بن محمود بن مسعود بن محمد بن ملكشاه السلجوقى فاستولى على ولاية فارس . راجع :
حربى أمين : المرجع السابق ، ص ١٣ .
زامباور : المرجع السابق ، جـ٢ ص ٣٦٨ ، هامش ١٤ ص ٣٥٠ .
حسن إبراهيم حسن (د.) تاريخ الإسلام السياسى والدينى .
(٤ أجزاء) مصر ١٩٦٧ م ، جـ٤ ص ٩٣ .
(٢) العماد الحنبلى : المصدر السابق جـ٤ ص ١١٥ .
(٣) أبى الفدا : المصدر السابق جـ٣ ص ١٢ .
(٤) أتابك بهلوان : هو الأمير نصرة الدين محمد البهلوان بن الدكز ، عين اتابكا للسلطان ركن الدين طغرل أرسلان شاه (ت ٥٨٢هـ/ ١١٨٦م) وقد انجب أربعة أبناء اثنين من اينانج خاتون ، واثنين من جارية تركية .
راجع : الحسينى : المصدر السابق ، ص ٢٨٤ ، ٢٨٩ .
(٥) الحسينى : المصدر نفسه ، ص ٣٠٠ .
(٦) راجع : أسامة بن منقذ : « مؤيد الدولة أبو مظفر أسامة بن مرشد الكنانى الشيرازى (ت ٥٨٤هـ/ ١١٨٨ م) . =

وفى العصر المملوكى فى مصر ، لم تكن شجرة الدر هى السيدة الوحيدة التى ذكر لها التاريخ دورها السياسى وإلا لكان حادثة فردية لا ترقى إلى مستوى الظواهر الحضارية .

وعلى سبيل المثال : عندما أقام الأمراء الملك المنصور نور الدين على بن أيبك[١] سلطانا بقلعة الجبل سنة ٦٥٥هـ/ ١٢٥٧م وكان عمره خمسة عشرة عاما ، فقد اعترض الوزير الصاحب شرف الدين الفائزى بن حنا وزير شجرة الدر على سلطنته قائلا : « ان المملكة ما تمشى بالصبيان والرأى أن يكون الملك الناصر » ، فتنبهت أم الملك المنصور وخشيت عليه ، وقبضت على الوزير بن حنا وادخلته الدور وأخذت خطه بمائة ألف دينار ـ موافقته على سلطنة ابنها ـ وأحيط بأمواله[٢] .

وازداد نفوذ النساء فى عصر السلطان الظاهر بيبرس إلى حد انهن صرن يلبسن زيا أشبه بزى الرجال ، مما اضطر السلطان سنة ٦٦٢هـ/ ١٢٦٣م أن يصدر مناديا ينادى فى مصر والقاهرة ، أن امرأة لا تتعمم بعمامة ، ولا تتزيا بزى الرجال ، ومن فعلت ذلك بعد ثلاثة أيام سلبت ما عليها من الكسوة[٣] .

وكانت أم الملك السعيد بركة خان بن بيبرس (٦٧٦ ـ ٦٧٨ هـ/ ١٢٧٧ ـ ١٢٧٩م) لها سيطرة عليه ، فتمكنت من التشفع عنده لخاله الأمير بد الدين محمد ابن بركة خان ، وبعض الأمراء منهم شمس الدين سنقر الاشقر والأمير بد الدين يسرى، لأنه سجنهم فى القلعة ، فعنفته أمه حتى أطلقهم وخلع عليهم وأعادهم إلى ما كانوا عليه[٤] . كما قامت بدور الوساطة السياسية فى محاولة لاتمام الصلح بين ابنها الملك السعيد ، وبين أمراء الشام خرجوا عليه سنة ٦٧٧هـ/ ١٢٧٨م ، فركبت

= ـ كتاب الاعتبار . حرره : فيليب حتى وبرنستون (عن النسخة الفريدة المحفوظة فى مكتبة الاسكوريال) مطبعة جامعة برنستون بالولايات المتحدة الأمريكية .

الناشر : مكتبة المتنبى ببغداد ، ١٩٣٠ ، ص ٨٩ .

(١) العينى : عقد الجمان ، جـ١ ص ١٤٣ : ١٤٤ .

(٢) المقريزى : السلوك ، جـ١ ق ١ ص ٤٠٥ .

(٣) المقريزى : السلوك ، جـ١ ق ٢ ، ص ٥٠٣ .

(٤) المقريزى : السلوك ، جـ١ ق ٢ ص ٦٤٦ ـ ٦٤٥ .

فرسا وتوجهت معه إلى الأمراء فى المرج الأصفر واجتمعت بالأمراء ومشت بينهم وبين ابنها بالصلح[1]، والتزمت بالشروط الكثيرة التى أملوها عليه .

واستطاعت (خوند اشلون) أم السلطان الناصر محمد بن قلاوون أن تقف فى مؤامرة المماليك ضد ابنها الناصر سنة ٦٩٣هـ/ ١٢٩٤م فنزلت إليهم عند باب السلسلة وأرسلت خلف كتبغا وتحدثت معهم من أعلا السور وقالت : « ايش آخر هذه الفتنة ؟ إن كان قصدك خلع ابنى من السلطنة فافعل ، وأرسله فى مكان تقصده » ، فرد عليها كتبغا : « أعوذ بالله السميع العليم ، والله لو بقى من أولاد أستاذنا بنت عمياء ، ما خرجنا الملك عنها ، وإنما قصدنا مسك الشجاعى الذى يرمى بيننا الفتنة » .حتى قتل الشجاعى وفكوا الحصار عنها وعن ابنها ، وخمدت الفتنة [2]، وحفظت على الناصر سلطنته الأولى .

وهذه الحادثة تذكرنا بموقف مماثل فى الشرق السلجوقى للخاتون زمردة صفوة الملك أو الملوك « زوجة الملك نور الدين زنكى والدة شمس الملوك دقاق بن تتش بن ألب أرسلان ، فقد ساعدت ولدها شمس الملوك أبو الفتح إسماعيل إلى أن استقام له الأمر واستقرت فى المملكة والدولة الحال وتسهلت له المطالب برأيها وهيبتها وسياستها، ولما كانت « هى الكل فى الكل » ، كما يصفها العماد الحنبلى[3]، فقد عادت على قتل ولدها شمس الملوك ، لما كثر فساده وسفكه للدماء ومواطأته الفرنج على بلاد المسلمين سنة ٥٢٩هـ/ ١١٣٤م ورتبت بعده فى الملك أخاه محمود (ت ٥٣٣ هـ / ١١٣٨م) وعلاوة على مقدرتها فى التحكم فى الأمور السياسية اشتهر عنها حفظها للقرآن الكريم وسماع الحديث واستنسخت الكتب وشيدت العمائر[4] .

---

(١) ابن كثير : المصدر السابق ، جـ١٣ ، ص ٢٨٨ .
المقريزى : السلوك ، جـ٢ ق ١ ، ص ١٦٥ .
سعيد عاشور : نساء القاهرة فى عصر سلاطين المماليك ، ص ٥٦٩ .
المجتمع المصرى عصر سلاطين المماليك ، دار النهضة العربية ، الطبعة الأولى سنة ١٩٦٢ ، ص١٣٦
أحمد عبد الرازق : المرأة ، ص ٥٠ .

(٢) ابن تغرى بردى : المصدر السابق ، جـ٨ ص ٤٥ / ابن إياس المصدر السابق ، جـ١ ص ٣٨١ ـ ٣٨٢ ـ أحمد عبد الرازق : المرأة ، ص ٥٠ .

(٣) العماد الحنبلى : المصدر السابق ، جـ٤ ص ١٨٧ .

(٤) العماد الحنبلى : المصدر نفسه ، جـ٤ ص ١٠٣ حـ ٥ ص ١٧٨ .
ابن القلانسى : المصدر السابق ، ص ٢٠١ .

كما حظيت المرأة بنفوذ واسع فى سلطنة الناصر محمد بن قلاوون فكان إذا ركبت النساء يخلين لهن الشوارع ، فعندما نزلت خوند طغاى ـ زوجة الناصر وأم ولده أنوك ـ من القلعة إلى النيل ، طرد سائر الناس من الطرقات وغلقت الحوانيت ، وكان الأمير ايدغمش أمير اخورماش يقود فرسها بيده ، وحولها سائر الخدام مشاه سنة ٧٢٣هـ/ ١٣٢٣م[١].

كما ظهر البذخ الشديد فى ملابس نساء عصر الناصر ، فيذكر المقريزى[٢] أن قيمة المرأة من آحاد النساء وصلت ألف درهم منها نحو الخمسين ديناراً مصرية ـ يقصد الثياب التى ترتديها .

كما تمكنت شفاعة الست حدق عند السلطان الناصر محمد بن قلاوون سنة ٧٣٧هـ/ ١٣٣٦م من رفع الظلم عن مصادرة التجار ،. رغم فشل وساطة الأمراء قبل أن تقوم بوساطتها[٣].

كما ساهمت بعض نساء سلاطين المماليك فى إبطال بعض المكوس التى عانى منها الناس ، مثل خوند طغاى والتى استطاعت أن تجعل الملك الناصر محمد بن قلاوون يبطل عن مكة المكس الذى كان يؤخذ على القمح[٤] .

وكانت أم الصالح عماد الدين بن الناصر محمد إذا ركبت تركب فى مائتى امرأة وبين أيديهن الخدام الطواشية من القلعة إلى سرحة سرياقوس أو سرحة الهرم ، حيث تتسابق النساء بالخيول العربية ويلعبن بالكرة ، وكانت لهم فى المواسم والأعياد وأوقات

---

(١) المقريزى : السلوك ، جـ٢ ق ١ ، ص ٢٤٠ ، حـ ٢ ق ٣ ص ٧٩٤ .
ابن تغرى بردى : النجوم ـ ١٠٠ ص ٢٣٨ .

(٢) ففى عصر الناصر محمد استجد النساء من الثياب المقنعة والطرحة بنحو عشرة آلاف دينار أو دون ذلك إلى خمسة آلاف ، والفرجيات بمثل ذلك واستجدوا أيضًا الخلاخيل الذهب ، والأطواق المرصعة بالجواهر الثمينة ، والقباقيب الذهب المرصعة بالجواهر والأوطية المرصعة والازر الحرير . راجع: المقريزى : السلوك جـ٢ ق ٢ ، ص ٥٣٦ .
راجع : د. حسن الباشا : اثر المرأة فى فنون القاهرة « كتاب القاهرة » ص ١٧٢ .

(٣) سعيد عاشور : نساء القاهرة فى عصر سلاطين المماليك ص ٥٧٠ .
المجتمع المصرى ، ص ١٣٦ .

(٤) سعيد عاشور : المجتمع المصرى ، ص ١٣٧ .

التنزه والفرح أعمال لا يمكن حكايتها[1] فقد وصل نفوذ المرأة فى عصر السلطان الصالح عماد الدين أن نائب السلطنة الأمير الحاج آل ملك إذا اتاه أحد يطلب منه خبزاً أو ورقة ـ أى اقطاعًا ـ يقول له : « النائب ماله حكم رح إلى الستاره »[2] ، ويعنى أن الأمر والنهى فى أيدى أم السلطان .

ووصلت حظوة النساء عند السلاطين السلاجقة أن أصبح لهن نصيب فى الاقطاعات فيذكر ابن الوردى : [3] أن تركان خاتون زوجة ملكشاه عندما توفيت لم يتبقى معها غير قصبة أصبهان . ومن أمثلتها أيضًا ، الاقطاع الذى منحه السلطان ملكشاه لعمته « صفية خاتون » ، زوجة إبراهيم بن قريش بن بدران فى مدينة بكترا[4] . الأمر الذى تأثر به سلاطين المماليك فى مصر ومنحوا النساء الاقطاعات لدرجة أن الأمير يلبغا كان ينكر على السلطان حسن بن قلاوون سنة ٧٦٢هـ/ ١٣٦٠م كونه يعطى للنساء الاقطاعات الهائلة[5] .

وانتهزت المرأة فى العصر المملوكى الفرصة التى منحت لها فى ذلك العصر ، فأخذ نفوذها يظهر ويزداد ، ووصل إلى الحد الذى أخذ فيه على السلطان الملك الكامل شعبان تمكينه الخدام والنساء من التصرف فى المملكة[6] وخاصة أن الملك الأشرف عندما تولى السلطنة كان لأمه « خوند بركه » عظيم شأن[7] .

وظهور دور المرأة المملوكية فى مجال السياسة والإدارة لم يمنع استمرار وتصاعد ظهور دورها فى باقى المجالات الحضارية الأخرى ، التى كانت قد طرقتها من قبل .

ففى التصوف ـ فى عصر السلاجقة ـ ذاع صيت علم بنت عبد الله بن المبارك (ت ٥٧٥هـ/ ١١٧٩م) وكانت تضاهى رابعة العدوية[8] . وفى العصر المملوكى

---

(١) المقريزى : السلوك جـ٢ ق ٣ ص ٦٧٨ ـ ٦٧٩/ ابن تغرى بردى : النجوم ، جـ١٠ ص ٩٧ .
(٢) المقريزى : السلوك ، جـ٢ ق ٣ ص ٦٧٩.
(٣) ابن الوردى : المصدر السابق ، جـ٢ ص ٧ .
(٤) ابن الأثير : الكامل ، جـ١٠ ص ٢٢٠/ ابن واصل : المصدر السابق ، جـ١ ص ٢٣ ، ٢٤ .
(٥) راجع : ابن تغرى بردى : النجوم : جـ١٠ ص ٣١١ : ٣١٥ .
(٦) المقريزى : السلوك ، جـ٢ ق ٣ ص ٧١٣ .
(٧) راجع : محمد مصطفى نجيب (د.) : خوند بركة (من أبحاث كتاب القاهرة) ، ص ١٩٦ .
(٨) ابن تغرى بردى : النجوم ، جـ ٦ ص ٨٥ .

ذات صيت الشيخة حجاب شيخة رباط البغدادية (ت ٧٢٦ هـ/ ١٣٢٥م)[١]، وغيرها كثيرات[٢].

وفى رواية الحديث وقراءة القرآن الكريم والفقه وغيره ظهرت نساء كثيرات فى عصرى السلاجقة[٣] والمماليك[٤] فى مصر .

أما مجال الخط العربى السلجوقى فقد ذاع صيت فاطمة بنت الحسن بن الأقرع أم الفضل البغدادية ، الكاتبة المؤدبة (ت ٤٨٠هـ/ ١٠٨٧م) لأنها كانت تكتب الخط المنسوب على طريقة ابن البواب ، وكان يكتب الناس عليها وبخطها ووصل نبوغها فى كتابة الخط أن السلطان السلجوقى طغرلبك عندما أراد أن يكتب الهدنة من الديوان إلى ملك الروم « ارمانوس » عهد إليها بكتابه الهدنة دون سواها . وتدل هذه الواقعة فى نفس الوقت على مدى تقدير سلاطين السلاجقة للنساء ، فلم يكن عصر طغرلبك قد عدم من مجودى الخط البارعين من الرجال . ونفس السيدة المذكورة الخطاطة ، قد كتبت مرقعة إلى الوزير السجوقى نظام الملك فاعجب بخطها وأعطاها مكافأة ألف دينار ، واشتهر عنها أيضًا روايتها للحديث[٥]. وفى نفس مجال الخط ، اشتهر فى عصر المماليك فى مصر أم الحسن فاطمة بنت الشيخ علم الدين البرازلى (ت ٧٣١هـ/ ١٣٣٠م) وغيرها كثيرات[٦] .

---

(٤) رباط البغدادية : تخلف منه حاليا بقايا قبتين تدخل أحداهما فى الأخرى يطلق عليهما اسم زاوية الشيخ عثمان السطوحى بحارة الدرب الأصفر بقسم الجمالية .
راجع : المقريزى : السلوك ، جـ٢ ق ٢ ص ٣٨٩ .
ابن تغرى بردى : النجوم ، جـ٩ هامش ٣ ص ٢٦٦ .

(٥) راجع : سعيد عاشور : المجتمع المصرى ص ١٣٩ .

(١) راجع : ابن خلكان : المصدر السابق ، م ١ ص ٣١٢ .
ابن تغرى بردى : النجوم جـ٥ ص ٩٧ / العماد الحنبلى : المصدر السابق ، جـ٣ ص ٣٦٥ / جـ ٤ ص ٢٤٨ .
سعيد عاشور : المجتمع المصرى ، ص ١٣٧ ، ١٣٨ .

(٢) راجع : المقريزى : السلوك ، جـ٢ ق ١ ص ١٦٩ ، ١٧٠ / جـ٢ ق ٢ ص ٢٢ .
ابن تغرى بردى : النجوم ، جـ٩ ص ٢٦٦ .

(٣) ابن كثير : المصدر السابق : جـ١٢ ص ١٣٤/ العماد الجنبلى : المصدر نفسه ، جـ٣ ص ٣٦٥ .

(٤) أبى الفدا : المصدر السابق ، جـ ٤ ص ١٠٥ ، ١١٤ .

ومما يؤيد الرأى الذى ذهبنا إليه من أن ظهور دور المرأة السلجوقية انعكس تأثيره على المرأة فى العصر المملوكى ، أن بعض الألقاب التى أطلقت لأول مرة فى مصر ولم تعرف فى العصر الفاطمى ، سبق أن أطلقها السلاجقة على نسائهم ، مثل لقب «الملكة» قد أطلق لأول مرة على احدة من نساء عصر السلاجقة الأتراك ، لأن أقدم تحفة وصلتنا تحمل هذا اللقب هى صينية فضية مؤرخة سنة ٤٥٩هـ/ ١٠٦٦م[١] من إيران ، مقدمة من ملكة إلى السلطان إلب أرسلان السلجوقى ، وأطلق اللقب أيضاً على سيدة أخرى من العصر السلجوقى هى توران ملك بنت السعيد فخر الدين بهرامشاه فى مسجد أحمد شاه فى ديوريجى المؤرخ سنة ٦٢٦هـ/ ١٢٢٨م فى آسيا الصغرى . وقد انتقل هذا اللقب لأول مرة فى مصر حيث أطلق على شجرة الدر عندما تولت حكم البلاد[٢] .

أيضًا لقب « خاتون » وهو من الألفاظ التركية الذى يعنى السيدة ، وقد دخل العالم الإسلامى عن طريق الأتراك[٣] ، وشاع إطلاقه على نساء السلاجقة مثل تركان خاتون المشار إليها ، وارسلان خاتون ابنة أخى السلطان طغرلبك[٤] .

وانتقل من السلاجقة إلى الأيوبيين[٥] فقد أطلق على نسائهم فى عمائرهم ببلاد الشام . ثم شاع فى عصر المماليك وأطلق على شجرة الدر ، وفيما يبدو أنه أطلق على كل ما يمت بصلة لشجرة الدر كناية عنها شخصيا ، فيذكر ابن إياس[٦] : أن قاعة

---

(١) Pope : Masterpices of Persian Art. pl. 65, p. 101 .

(٢) بعد أن بايع الأمراء شجرة الدر بالسلطنة دعى لها على المنابر ونقش اسمها على السكة ولقبت بالمستعصمية الصالحية ملكة المسلمين ووالدة الملك المنصور خليل » . راجع :
أبى الفدا : المصدر السابق ، جـ٣ ص ١٩٠ ـ ١٩١ .
المقريزى : الخطط ، جـ٢ ص ٢٣٧ .
راجع : الباشا : الألقاب ص ٥٠٦ : ٥٠٧ .

(٣) الباشا : الألقاب ، ص ٢٦٤ ـ ٢٦٥ .

(٤) ابن تغرى بردى : المنهل ، جـ٥ ص ٣٣٨ هامش ٢ .

(٥) أمثلة استعمالات اللقب فى العصر الأيوبى راجع : بن حبيب ، المصدر السابق جـ ٢ هامش ٤ ص١٧٧ .
ابن تغرى بردى : المنهل ، جـ٥ هامش ٤ ص ٣٤١ .

(٦) بدائع الزهور : جـ١ ص ٢٨٦ .

الأعمدة بالقلعة أطلق عليها « مرتبة خاتون » نسبة إلى شجرة الدر ، كما أطلق على دق الطلبخاناه (الطبول) بعد العشاء فى القلعة لشجرة الدر « نوبة خاتون » .

أيضًا من الألقاب التى أطلقت على نساء السلاجقة لقب « خوند » وهو من الألفاظ التى عرفت فى التركية والفارسية ، وأصله خداوند ومعناه السيد أو الأمير ويخاطب به الذكور والإناث على السواء[1] .

وقد أطلق لقب خوند على خاتون الجلالية المشار إليها وعلى غيرها من نساء العصر السلجوقى . ونقل اللقب إلى نساء العصر المملوكى ، وأشهر من أطلق عليها اللقب هى خوند بركة أم الملك الأشرف شعبان . كما انتشرت فى العصر المملوكى ألقاب أخرى مأخوذة عن مثيلتها من الألقاب التى أطلقها السلاجقة على نسائهم مثلل ألقاب : الست والستر والستيره[2] .

وظهر تأثير ظهور المرأة السلجوقية على نواحى أخرى حضارية وبخاصة فى مجال العمارة والفنون ، ففى العمارة انتشر بناء العمائر المنسوبة إلى من أمرت بتشييدها أو انفقت على تشييدها ، وهى أيضًا من الظاهر الحضارية التى انعكس تأثيرها بشكل واضح فى العصر المملوكى ، الأمر الذى سوف نعود إلى توضيحه فى دراسة التأثيرات السلجوقية فى العمارة . كما انتشرت العمائر التى شيدت خصيصًا للنساء كالحمامات والأضرحة والأربطة ، ويذكر د. حسن الباشا[3] أن مثال هذه المنشآت كان يراعى فى تأسيسها وأثاثها وأدواتها أن تناسب طبيعة المرأة وذوقها .

بل أن بعض المصادر والقطع الأثرية التى وصلتنا تشير إلى أن المرأة فى ذلك العصر

---

(١) الباشا : الألقاب ، ص ٢٨٠ ، والخوند فى اصطلاح عشائر لبنان من كان فى الرتبة دون الأمير وفوق الشيخ أو المقدم.

راجع : المقريزى : السلوك ، جـ١ ق ١ هامش ٢ ص ٢٢٤ .

(٢) راجع : الباشا : الألقاب ، ص ٣١٧ / ٣١٨ ، ٣١٩ .

ومن الألقاب التى منحت للمرأة السلجوقية والتى تعبر فى نفس الوقت عن الفكرة التى نشير إليها لقب : « السفرية » الذى منح لبنت السلطان إلب أرسلان .

الأصفهانى : المصدر السابق ، ص ٤٥ .

(٣) الباشا : أثر المرأة فى فنون القاهرة ـ ص ١٧٦ .

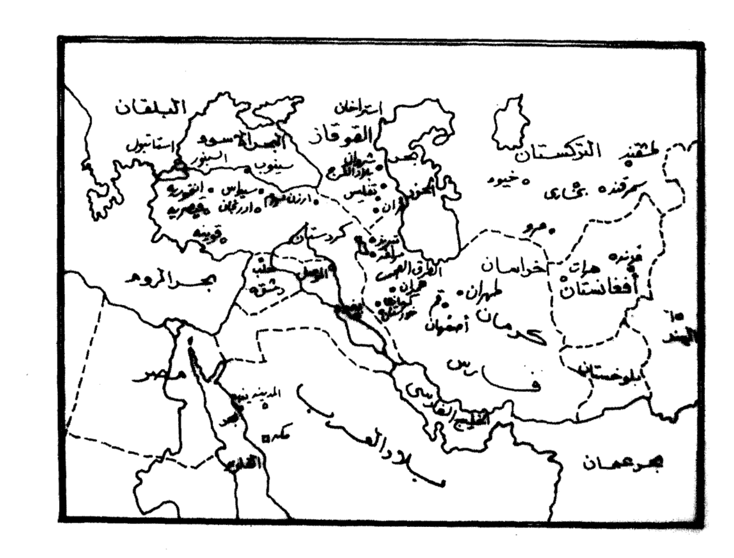
ـ المملوكى ـ قد شاركت فى أعمال البناء كما يذكر العينى[1] وفى مجال الفنون عثرنا على قطعة من الخزف فى حفائر الفسطاط بمصر القديمة وهى قاع إناء ينسب إلى عصر المماليك عليه من الخارج توقيع نصه : « عمل خديجة »[2]، وهو أمر غير مسبوق أن توقع النساء على مصنوعاتهن . الأمر الذى يدل على اقتحام النساء فى ذلك العصر مجالات العمل . كما انتشرت صناعة التحف المدون عليها أسماء النساء التى صنعت لهن أو بأمرهن الأمر الذى سوف نعود لتوضيحه عند دراسة الفنون .

---

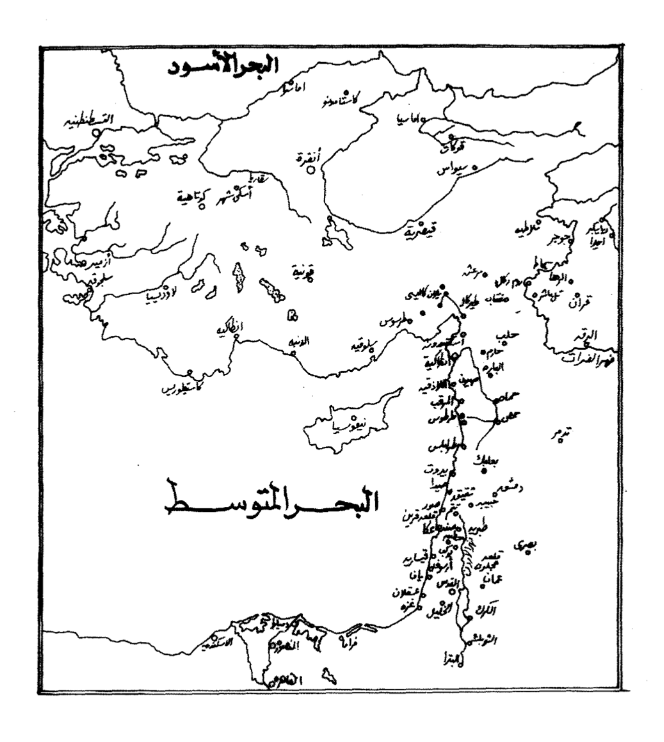
(١) عقد الجمان جـ١ ص ٢٦٥ ، فقد ذكر أن النساء قد شاركن فى بناء قلعة دمشق بناء على أوامر وليها الأمير علم الدين سنجر الحلبى التركى الأصل من قبل السلطان المظفر قطز .
العينى : المصدر نفسه ، جـ١ ص ٢٦٥ .

(٢) الباشا : المرجع نفسه : ص ١٧١ .

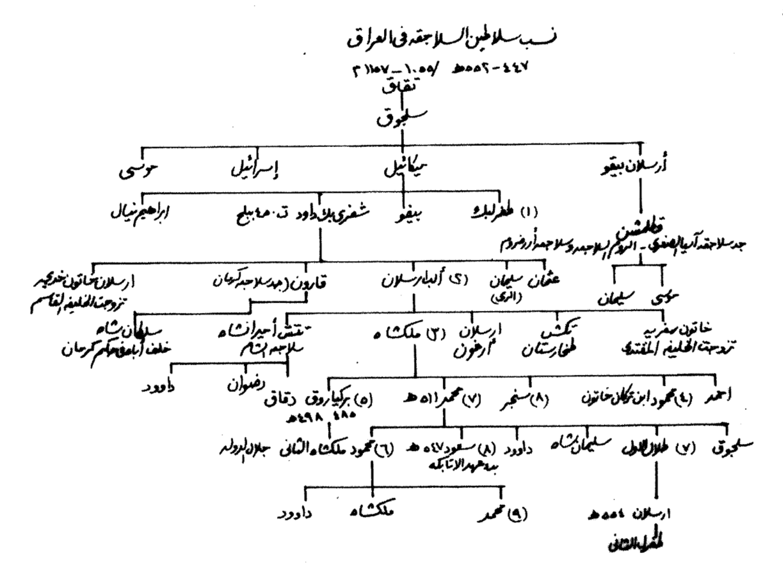
خرائط وجداول



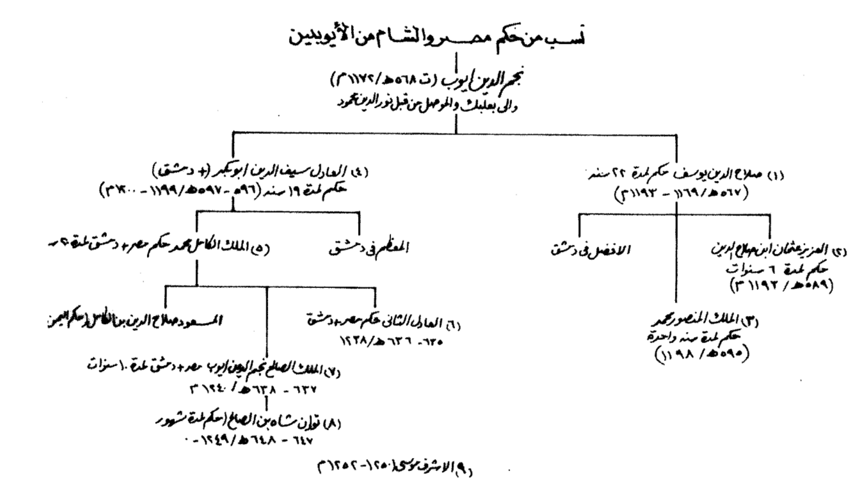
خريطة رقم (١) توضح المناطق التى خضعت لحكم السلاجقة فى الشرق .



خريطة رقم (٢) : توضح بلاد سلاجقة الاناضول وبلاد الشام ٠

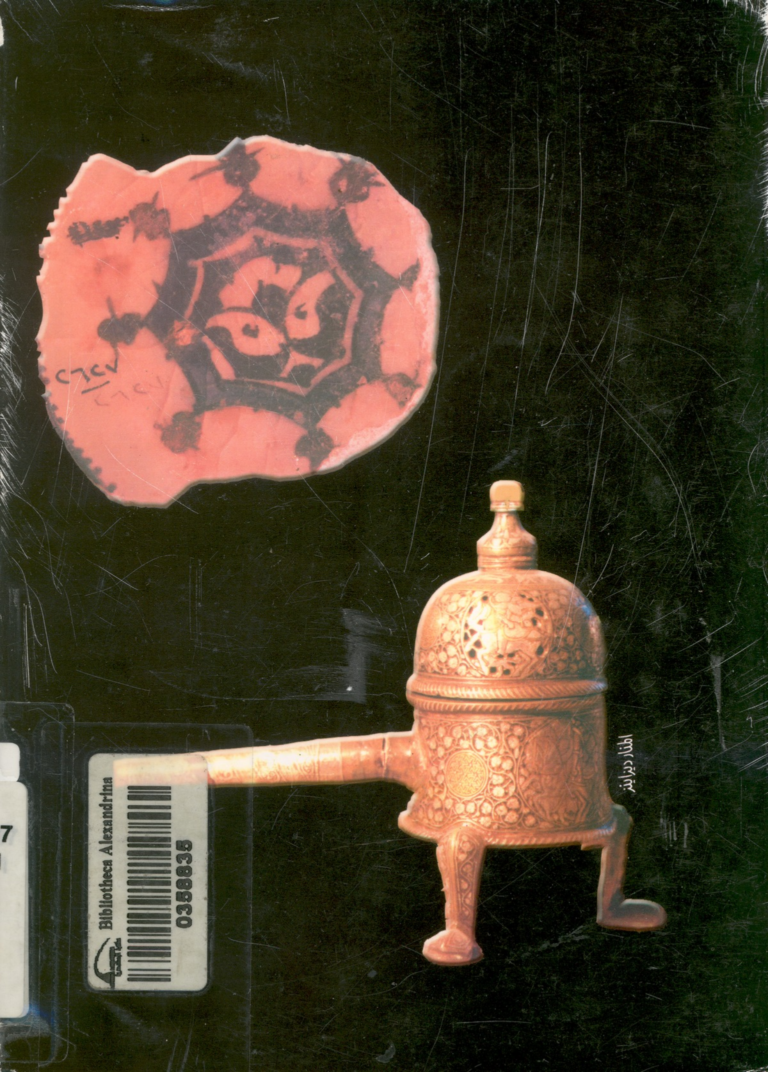


جدول رقم (١) : يوضح نسب سلاطين السلاجقة .



جدول رقم (٢) : يوضح نسب حكام الايوبيين فى مصر والشام .





امتداد ديزاينز